

مركز
ابن خلدون
للدراسات الإنمائية

د. عمرو عبد السميع

اليمين واليسار

حوارات حول المستقبل

(الجزء الثانى)

اليمين واليسار

حوارات حول المستقبل

(الجزء الثانى)

رقم الإيداع : ١٩٩٣/٩٨٥٦
I.S.B.N. 977—00—8901—X

الطبعـــــة الأولى ١٩٩٣

دار سـعـاد الصبـــاح
ص.ب : ٢٧٢٨٠
الصفاة ١٣١٣٣ - الكويت

القاهرة - ص.ب : ٢٦٧ دقى
٣٤٩١٧٢٧
تليفون : ٣٤٩٧٧٧٩
٧٠٩٥٨٣٠
فاكس : ٧٠٩٥٦٣

الاشراف الفنى : حلمى التونى

اهداءات ١٩٩٩

دار الجميل

القاهرة



دراســـــة

اليمين واليسار

حوارات حول المستقبل

د. عمرو عبد السميع

(الجزء الثانى)



مركز الأهرام للترجمة والنشر

مقدمة الجزء الثانى

معركة أدباء التجمع!

المثقف والمجتمع.. المثقف والحزب.. المثقف والدولة.

كانت هذه الكلمات الثلاث هى محور هذا الجزء من «حوارات حول المستقبل»، حيث استمرت محاولتى الصغيرة فى التعرض لبنود جدول الأعمال الذى حددته لنفسها.

كان على هذه المحاولة أن تتصدى ـ أخيراً ـ لاختبار بعض المقولات التى طرحها الكثيرون على الساحتين السياسية والفكرية، بوصفها حقائق مقدسة يقينية، من دون أن يمنحوا الذهن العام ـ حتى ـ نصف فرصة للتأكد من صدقها، أو التثبت من واقعيتها!

كان على وسيط الحوار أن يفحص هذه المقولات مرة تلو مرة ليس للتأكد من أنها «صحيحة»، بمقدار التأكد من أنها «موجودة»!

فإحدى الظواهر التى سادت حياتنا الفكرية والسياسية، هى تلبيس المقولات النظرية على الواقع جبراً واعتسافاً، أو تفسير الواقع تفسيراً تحكمياً ينفى ويستبعد ويزيح، ما لا يتوافق مع العقيدة السياسية لحزب، وما لا يتناغم مع المزاج السياسى لمجتمع، وما لا يساير الخط السياسى لدولة!

وفى ظل السيادة الكاسحة لهذة الظواهر نمت الواحدية بكل فروعها، وبكل اشتقاقاتها، وامتلأت الساحة بالمقولات المقدسة، وتنوعت المصادر التى تستمد منها هذه المقولات قدسيتها، سواء كانت الأيديولوجية المحكمة أو كانت كاريزما ملهمة، أو كانت غوغائية الأغلبية، أو كانت ولاية الزمرة أو الجماعة.

كانت إحدى المقولات المقدسة (إن الحزب يمنح مثقفيه وفنانيه من شعبيته ومن جماهيريته ما يحقق لهم الازدهار، ولأعمالهم سعة الانتشار).

وكانت هناك مقولة، أخرى تقول (إن الأديب أو الفنان هو أداة يستعملها الحزب بمقدار ما يخدم نشر أفكار الحزب ويحقق أهدافه)، وكان هناك من يدعى (أن مسألة هوامش الحرية المتاحة لإبداع الأديب أو الفنان هى محض خطيئة، فالمثقف لا يمنح شارة «ثورى» إلا حين يتطابق إبداعه مع بنود برنامج الحزب ووثائقه)، وكان هناك من يرى قبل انهيار الكتلة الشرقية (أن الأديب أو الشاعر أو الفنان حين يتصور أن حقه هو «النقد من الخارج» لايعدو أن يكون منشقاً ممن أفسدتهم السلطة وخربت إبداعهم، وحين يتصور أن حقه هو «النقد من الداخل» لا يعدو أن يكون واحداً ممن فقدوا الصلابة الثورية، وتكسرت فيهم النصال على النصال).

....

وفى الفصل الثانى من هذا الجزء خاض ثلاثة من الأدباء الذين كانوا أعضاء فى حزب التجمع هم: **يوسف القعيد، وعبد الرحمن الأبنودى، وجمال الغيطانى**، معركة غير مسبوقة تناولوا فيها المرتكزات السياسية والأيديولوجية لحزبهم، وتناولوا فيها انفصال الحزب عن الجماهير، وابتعاد المثقفين عن الشارع، بل وبشروا ـ بشكل ما ـ بسقوط النظم الاشتراكية على الرغم من إفصاحهم عن حزنهم لذلك.

ثم اكتملت فصول المعركة حين طلب منى الأستاذ خالد محيى الدين رئيس حزب التجمع أن يرد عليهم فى حوار سجالى طويل، شكل مع حوارات الأدباء وثيقة نادرة حقيقة بالدراسة، جديرة بالاهتمام.

يضم هذا الجزء أيضاً حوارات مع بعض القيادات الحزبية حول قضايا التطرف، والديمقراطية، والتنمية، كما يضم مجموعة كبيرة من شهادات ورؤى حوارية للمثقفين المصريين ترسم ببساطة حدود وشكل العلاقة بين.. المثقف والمجتمع.. المثقف والحزب.. المثقف والدولة.

مصر الجديدة ـ القاهرة

الدكتور/ عمرو عبد السميع

١٩٩٣/١/٢٣م

الفصل الأول

(حزبيون)

فؤاد سراج الدين - الدكتور/ وحيد رأفت - خالد محيى الدين - الدكتور/ رفعت السعيد - محمد فائق.

فؤاد سراج الديـن

ليبراليون.. ومتطرفون.. وبينهما الناصرية!

* حرية النشر هى أحد جوانب الديمقراطية فقط.
* لابد من إطلاق حرية تكوين الأحزاب فى مصر والبقاء - فى النهاية - للأصلح.
* لو أعملنا الديمقراطية الكاملة فلن يكون للمتطرفين أى شأن فى الانتخابات.. ومصر غير الجزائر.
* على المدارس المصرية أن تهتم بتنقية مناهجها التعليمية ليفهم الطالب ما هو الإسلام وما هى المسيحية وما هى الديمقراطية أيضا.
* الوفد لم يتخل عن مبادئه ولم يتخذ إماماً سواها حتى ولو كان مسز تاتشر.
* ليبراليتنا حقيقية أقرت مجانية التعليم وحقوق العمال قبل ثورة (يوليو).
* أتمنى النجاح لجمعية النداء الجديد لأنها عامل مساعد فيما ينادى به الوفد.
* معارضتنا موضوعية واختلاف صوت الأداء فى صحيفة الحزب سببه تغير الظرف السياسى العام، وليس ضعف الأداء السياسى للحزب.

* إحجامى عن شرب الكحول منعنى من فتح شمبانيا بمناسبة سقوط الشيوعية.

* إلى اليساريين المصريين الذين يتصورون أن الشيوعية يمكن أن تعود أقول: هذا عشم إبليس فى الجنة!!

* أنا الذى يمثل الحزب وأنا الذى يمثل صحيفته ولا يمكن أن أعارض نفسى.

* شكرنى أولاد عبد الناصر على موقف صحيفة الحزب من قضية «ثورة مصر».

* كيف أدخل انتخابات برلمانية وأنا أعلم بسقوطى مقدما نتيجة التزوير؟

* لن أدخل مباراة مع فريق كرة قدم لا يتقيد بقواعد اللعبة والحكم يسانده.

* الوحدة الوطنية لعبتنا ولكننا لا نعلن موقفا تجاه أى حدث إلا بعد التأكد من طبيعته.

* إذا أثبت الحزب الناصرى أنه ديمقراطى سنقول له: عفا الله عما سلف!

* لا أتوقع للحزب الناصرى أى نجاح.

* أنا أفهم معنى الليبرالية والشيوعية والراديكالية ولكننى لا أفهم معنى الناصرية.

* الناصرية - فى تصورى - لا تعنى سوى الاعتقالات والمصادرات والحراسات والتعذيب.

* الحزب الناصرى ليست له أرضية فى الشارع وهو يدافع عن مبدأ دمغته الأحكام القضائية.

* أعتقد أن خالد محيى الدين استراح بخروج الناصريين من حزبه!

* الترابى لا يؤمن بالديمقراطية الحقيقية.

* كل ما فعله الترابى فى السودان هو انقلاب أتاح له إغلاق الأحزاب والبرلمان والنقابات والجمعيات.

* كنا وسيلة الاخوان للوصول إلى مجلس الشعب، وكان الاخوان وسيلة حزب العمل للوصول إلى المجلس!

* نقطة الخلاف الوحيدة بين الوفد والحزب الوطنى (الحاكم) هى عدم إيمان الحزب الوطنى بالديمقراطية.

* كثير من الأحزاب المصرية إذا آمنت بالديمقراطية - حقا - كتبت شهادة وفاتها!

* * *

«وهذا حوار آخر مع رمز عتيد من رموز الحياة السياسية والحزبية فى مصر.

** فؤاد سراج الدين رئيس حزب الوفد الذى يقاتل معركتين فى آن، معركة عامة يدافع فيها عن منطلقات ليبرالية يتبناها حزبه منذ أكثر من سبعين عاماً، ومعركة شخصية يتحدى فيها الزمن ويحاول بحيوية ـ لا يمكن إنكارها ـ أن يستجيب للمستجدات ويعبر عنها، بل ويدفع فى اتجاهها.

وفى حواره تعرض لقضايا متعددة تتعلق بمستقبل الديمقراطية فى مصر سواء من حيث علاقته بالحكم حول محورى (التعاون ـ الصراع) أو من

حيث علاقته بالأحزاب المعارضة الأخرى التى تشكل معه جوانب الساحة فى مصر».

*** ما هو تقويمكم لمستوى التطور الديمقراطى فى مصر واحتمالاته فى الفترة المقبلة، وأين ترى المشكلة الرئيسية التى تعترض استمرار وتعميق هذا التطور؟ وبشكل محدد هل ترى هذه المشكلة نابعة من قيود حكومية أم من عدم قابلية المجتمع نفسه للديمقراطية بما فى ذلك معظم الأحزاب والقوى السياسية الفاعلة على الساحة المصرية؟**

ـ من دون أدنى شك، فإن الشعب بجميع طوائفه يطالب بالديموقراطية، والأحزاب السياسية كلها تسعى إلى ديمقراطية كاملة وحقيقية، لا ديمقراطية الشعارات المكتوبة على الورق.

ثورة ۱۹۱۹ كانت تهدف إلى غايتين:

ـ الاستقلال وجلاء القوات المحتلة.

ـ الحياة الدستورية والديمقراطية.

ولما كانت ثورة ۱۹ هى التجسيد الحقيقى لإرادة الأمة المصرية فإن مبادئها مازالت التعبير الحقيقى عن مطالب الناس، وأولها الديمقراطية كحقيقة لا شعار، وكممارسة وليست بيانات.

*** تقول إن الأحزاب السياسية المصرية تسعى كلها إلى الديمقراطية فهل تثق فى استمرارية هذا المسعى، أم أن مثل هذه الإعلانات عن الالتزام بالديمقراطية هى مواقف تكتيكية تخفى وراءها نزعة شمولية يؤكدها تاريخ بعض هذه القوى والأحزاب؟**

ـ لعلك تقصد الناصريين، وأنا أتحدث عن الأحزاب الموجودة ـ فعلا ـ على الساحة، وليست التى بصدد الإنشاء والتكوين.

صحيح أن حزباً ناصرياً ظهر بحكم قضائى ولكنه لم يمارس أية سياسة حتى الآن، ولم يمارس عملا حزبياً وأظن أن صحيفته ستصدر قريباً، وفى هذه الصحيفة ستتضح سياسة الحزب، واطاره وأهدافه.

وعلى الرغم من هذا فإنهم سموا حزبهم (الناصرى الديمقراطى) بما يعنى - أيضا - أنهم متعلقون بأهداب الديموقراطية، أما كون إيمانهم فعلياً أو قولياً شعارياً فذلك ما سوف يظهر فى سياسة الجريدة، وفى تصريحات قادة الحزب إزاء الأحداث والقضايا الجارية.

إذن فعندما أقول إن الأحزاب المصرية متمسكة بالسعى نحو الديموقراطية فأنا أقصد الأحزاب العاملة فعلاً على الساحة.

هذه الأحزاب ترى أن حرية النشر موجودة، ولكن هذه ليست كل الديموقراطية، وإنما هى ناحية من نواحيها فقط، وهى أيضا ترى أن هناك أحزاباً تظهر فى مصر، ولكن مبدأ حرية تكوين الأحزاب ليس متحققا بعد..

حين تريد إنشاء حزب تقدم طلبا إلى لجنة الأحزاب لتبحثه، وتدرسه، ثم توافق هذه اللجنة أو لا توافق فتبدأ رحلة جديدة طويلة باللجوء إلى القضاء ومجلس الدولة.

هذه ليست الحرية الحقيقية، فلتظهر كل الأحزاب والبقاء - فى النهاية - للأصلح.

فى عام ١٩٥٢ كان لدينا فى مصر حوالى ١٨ حزباً، بينما كانت الأحزاب المعروفة ثلاثة، والباقى موجود رسمياً، ولكنه غير مؤثر، بل إننا كنا نصف بعض هذه الأحزاب بأنها شقق عليها لافتات فحسب.

ومن هنا ليس هناك خوف من تعدد الأحزاب، فالشعب - فقط - هو الذى يملك الحق فى بقاء بعضها أو عدم بقائه.

سألتنى عن سبب المشكلة التى تعترض استمرار وتعميق المسار الديموقراطى، وأرى أن السبب هو - ببساطة - القيود الحكومية، فالديموقراطية لا تقبل قيوداً.

لا توجد نصف ديموقراطية، أو ربع ديموقراطية، الحرية الحقيقية لا تقبل أنصاف الحلول، ولا تقبل أى قيد عليها ولو هامشيا.

الديموقراطية كما تعلمناها ودرسناها وشفناها، تقوم على أساس أن الشعب يحكم نفسه بنفسه.

والشعب يحكم نفسه أى بواسطة ممثليه الذين يختارهم فى انتخابات حرة ونزيهة، ومن هؤلاء الممثلين الشعبيين تنبثق الحكومة أو السلطة التنفيذية التى تتولى الحكم.

وإذا انهار هذا العنصر فإن الديموقراطية تنهار من الأساس.

أما حرية الكلمة وحرية النشر فهذه هى هوامش الديموقراطية.

الديموقراطية ـ كما تعلم ـ من كلمة لاتينية ذات مقطعين (ديموس ـ كراتوس) أى حكم الشعب فهل تحقق ذلك فى مصر؟ بالطبع لم يتحقق، لأن أعضاء المجلس النيابى الذين يفترض أنهم يمثلون الشعب لم يختاروا فى انتخابات حرة نزيهة ـ كما هو معلوم ـ إذن الشعب الآن لا يحكم نفسه بنفسه، إنما يحكمه أناس يحملون صفة تمثيله، وهم ـ فى الواقع ـ لايمثلونه.

*** بافتراض أن التطور الديموقراطى فى مصر شهد دفعة أخرى إلى الأمام، هل تعتقدون أن تجربة الجزائر قابلة للتكرار فى مصر إذا استمر تصاعد نفوذ التيارات الإسلامية وأين يكمن الحل الملائم لهذه المشكلة؟**

ـ الظروف مختلفة تماماً فى مصر وفى الجزائر.

ما يقع فى بلد ليس ضرورياً أبداً أن يقع مثيله فى بلد آخر، فكل دولة لها

أوضاعها، ولها العناصر التى تكون حياتها السياسية والتى يندر ـ حتى ـ أن تتماثل ولا أقول تتطابق.

لو طبقنا الديموقراطية الحقيقية فى مصر، ولو طبقنا حرية الانتخابات الحقيقية فى مصر، اعتقد أن الجماعات المتطرفة لن يكون لها أى شأن فى هذه الانتخابات.

*** على ماذا بنيت هذا الاعتقاد؟**

ـ الضجيج الذى يحدثونه يشعر البعض بأنهم كثرة، ولكنهم فئة قليلة جداً.

وهناك كثيرون يخلطون بين الاخوان المسلمين وبين الجماعات الدينية المتطرفة، وهذا خطأ وستندهش حين أقول لك إن الجماعات الدينية تكفر الاخوان وقادتهم.

عندما كنت فى معتقل طرة عام ١٩٨١ قبل اغتيال السادات كان معى المرحوم الأستاذ عمر التلمسانى المرشد العام السابق لجماعة الاخوان، وحكى لى أنه فى يوم اعتقاله دخل إلى الزنزانة مع عشرة من الاخوان، وكان معهم شاب عمره ١٨ عاما، ولم يكن التلمسانى يدرى شيئا عن هوية هذا الشاب، وعندما حلت صلاة الظهر، قام المرشد العام بإمامة الجميع للصلاة، إلا هذا الشاب فلم يصل، وظن الجميع أنه لا يصلى ـ عموما ـ ولما انتهت الصلاة فوجئوا بأنه قام للصلاة لوحده، وتكرر الشيء نفسه فى صلاة العصر وما تلاها من صلوات.

وسأله المرشد العام الراحل، لماذا لا تصلى معنا يا بنى؟

فأجابه: لا أصلى وراءك أبداً، فلما أعاد سؤاله ما إذا كان يعرفه أم لا، أجابه: نعم أعرفك أنت عمر التلمسانى المرشد العام للإخوان، وأنت كافر

وكلكم كفرة، ولن أصلى خلفكم لأنكم لا تكفرون الحاكم، وتكفير الحاكم هو استباحة قتله وعرضه وماله.

على أية حال لا يجب أن تدفعنا الحوادث المتنوعة التى يقوم بها أفراد الجماعات الدينية المتطرفة إلى تصور حجم لهم أكبر مما ينبغى، هؤلاء «الأولاد» لا يخيفوننى أبداً.

*** أليس ظهور مثل هذه الجماعات وانضواء شباب تحت مظلتها يعكس قصوراً فى الحياة الحزبية فى مصر التى لم تنجح فى استيعابهم؟**

ـ بالقطع هذا يعكس قصوراً، وهو ليس قصوراً حزبياً فقط، ولكنه قصور سياسى فشل فى مواجهة البطالة، وفشل فى إقرار سياسة تعليمية سليمة، وفشل فى مواجهة الأزمة الاقتصادية.

كان المقبوض عليه فى حادثة اغتيال المرحوم الدكتور فرج فودة طالباً فى معهد ومفصولاً لتكرار رسوبه، أى أنه أصبح متشرداً فى الشوارع، ولو كان نجح فى دراسته ما كان وصل إلى ما وصل إليه.

لابد من معالجة كل هذه المشاكل من جذورها معالجة سياسية تشارك فيها الأحزاب، بحيث تتم تنقية المناهج التعليمية، ليفهم الطالب ما هو الإسلام، وما هى المسيحية، وما هى الديموقراطية أيضا.

*** ريجانيون وتاتشريون!**

*** يعتبر الوفد نفسه المعبر عن التيار الليبرالى فى مصر، فيما يرى بعض المختلفين معه أنه أقرب للتعبير عن تيار محافظ أكثر منه ليبراليا ـ وتحديداً يقول هؤلاء إن الوفد يتبنى الآن الأسس الفكرية للريجانية والتاتشرية بدرجة أو بأخرى، أكثر مما يعبر عن أفكار ليبرالية كتلك التى يتبناها الديموقراطيون فى أميركا ـ مثلاً ـ فى مقاومتهم للريجانية وللتيار السائد فى الحزب الجمهورى.. فهل توافق على ذلك؟**

ـ لا أوافق على ذلك مطلقا، ومن يردد مثل هذا القول يحاول تلبيس الوفد قالبا يبعده عن تراثه الليبرالى الأصيل.

الوفد له سياسته وبرنامجه وأهدافه منذ تكون عام ١٩١٩ ولم يتخل عنها أبداً.

مبادئ الوفد هى إمامة الذى لم يتخذ سواه إماما، مهما كان شخصه وحتى ولو كان مسز تاتشر.

الوفد لم يبتعد عن ليبراليته الحقيقية، ليتقوقع فى فكرة حزب محافظ فحسب.

انظر إلى ماضى الوفد وبرنامجه وستعرف هذا.

الوفد أول من اعترف بحقوق العمال، وكنت ـ شخصياً ـ وزيراً للشئون الاجتماعية عام ١٩٤٣ عندما أصدرت قانون نقابات العمل، وكانت المرة الأولى التى يعترف فيها بحق العمال فى إنشاء نقابات لهم فى مصر.

أنا ـ أيضا ـ الذى أصدر قانون عقد العمل الفردى حول تنظيم العلاقة بين العامل وصاحب العمل.

الوفد هو صاحب مجانية التعليم الابتدائى والثانوى والفنى، وتوسيع فى مجانية التعليم العالى إلى حد كبير.

فى برنامجنا ١٩٨٧ ـ ١٩٨٨ قلنا إننا نؤيد مكاسب العمال، ولا نعتبرها مجرد مكاسب ولكنها حقوق، حصلوا على بعضها بعد الثورة ونطلب لهم المزيد منها.

وإلى جوار ذلك كله لا نفرط فى الليبرالية أو الديموقراطية.

كل الأزمات التى حدثت بين الوفد وبين الملك أيام سعد زغلول ثم أيام

مصطفى النحاس كان سببها الديموقراطية، وحق الشعب لا القصر فى أن يحكم.

والآن نحن نطالب بحريات عامة أكبر وبحقوق الإنسان ولنا إلى جوار هذا برنامجنا الاجتماعي الذى يقوم على التخفيف عن المواطنين.

نحن حزب ليبرالى بكل معنى الكلمة.

*** النداء:**

*** على الرغم من تأكيدك أن الوفد حزب ليبرالى بمعنى الكلمة، فإن بعض المراقبين للحياة الحزبية السياسية المصرية يعتبرون أن ظهور جمعية ثقافية اجتماعية جديدة فى مصر ذات توجه ليبرالى وهى (النداء الجديد) على غرار الجمعية الغابية، تضم مثقفين ورجال أعمال، تأكيداً لعدم نجاح الوفد فى التعبير فعلياً عن هذا التوجه، فما رأيك؟ وكيف تفسر ظهور هذه الجمعية وانضمام بعض أعضاء الوفد إليها؟**

ـ ما هو الجديد فى برنامج هذه الجمعية أكثر من الوفد؟

*** لا أقارن بين وضع جمعية ثقافية (النداء) وحزب سياسى (الوفد) ولكننى أعتبر ظهورها مؤشراً، أما إذا كنت تسأل عن برنامجها فهو نشر الثقافة الليبرالية السياسية والاقتصادية تحكمها فى هذا مبادئ خمسة هى:**

١ ـ الحرية الاقتصادية.

٢ ـ العدالة الاجتماعية.

٣ ـ العدالة بين الأجيال.

٤ ـ الديموقراطية وحقوق الإنسان.

٥ - العقلانية.

ـ هذه المبادئ كلها موجودة فى برنامج الوفد، وجريدتنا تكتب ـ يومياً ـ عن الحريات العامة، وكل هذه المبادئ ترد فى خطبنا واجتماعاتنا.

*** أليس ظهور كيان يتبنى هذه الأفكار يعكس قصوراً فى تبنى الحزب للأفكار ذاتها مع تحفظى - مرة ثانية - على المقارنة بين جمعية ثقافية وحزب سياسى؟**

ـ أتمنى لهذه الجمعية التى تكونت أن تنجح لأنها تردد نفس أفكارنا، ونفس أهدافنا ونفس مبادئنا، ولأنها ستكون عاملاً مساعداً فيما ينادى به الوفد.

*** كلمتنى - حالا - عن صحيفة الوفد وألاحظ أن الصحيفة فقدت بعض بريقها السابق، ليس بمعنى أنها أصبحت أقل معارضة، ولكن من منظور أنها غدت أقل تميزاً على المستوى السياسى على الرغم من جودتها المهنية، وهذا يعنى أن القصور ليس نابعا منها وإنما من أداء الحزب الذى تعبر عنه؟**

ـ أنت تخلط بين ظروف سياسية مختلفة.

ففى الفترة ما قبل ١٩٩٠ كنا فى معركة سياسية مع اللواء زكى بدر وزير الداخلية المصرى السابق، الذى كان يعاملنا بعنف فنرد عليه بعنف أيضاً، وكنا فى معركة سياسية مع المرحوم الدكتور رفعت المحجوب رئيس مجلس الشعب السابق، فيها عنف وفيها إثارة لاتهامات حول دوره فى إتمام صفقة بناء مستشفى القصر العينى الجديد.

والظروف ـ الآن ـ مختلفة فلسنا فى معارك سياسية مع أشخاص، ولكننا طرف فى معارك سياسية عامة، نكتب فى كل يوم عن الحريات العامة،

ونناشد الرئيس توسيع قاعدتها، ونخاطبه قائلين بأنه المسئول عن هذه الأوضاع ونهاجم سياساته أحياناً.

صحيفة الوفد تضم فى كل يوم خمس أو ست مقالات سياسية هجومية معارضة، ولكن ليس المطلوب منى أن أهاتر.

نحن نقول على السياسة الصحيحة أنها صح.

ونقول على السياسة الخاطئة إنها غلط.

هذه هى المعارضة الحقيقية، إما أن أعارض على طول الخط، أو أهاجم على طول الخط فهذا لون من المعارضة لم أومن به فى أى مرحلة من مراحل حياتى.

كان هذا هو أسلوبى وأنا عضو معارض فى مجلس الشيوخ المصرى من ١٩٤٦ ـ ١٩٥٠ كثيراً ما وقفت أؤيد الحكومة، وكثيراً ما عاملتها بهجوم قاسٍ شديد، ولهذا كان الأعضاء يتقبلون كلامى فى المعارضة بشىء من الطمأنينة والثقة.

استطعت بهذا الأسلوب أن أكسب معارك ضد الحكومة بأصوات أعضاء أحزابها الذين انضموا لى فى إسقاط بعض التشريعات التى قدمتها هذه الحكومة.

كان لى ٣٠ عضواً ـ فى هذه الفترة ـ فى مجلس الشيوخ أمام ١٤٨ عضواً من أحزاب أخرى، واستطعت أن أنجح أمام الحكومة فى معركتين بأصوات الأعضاء الحكوميين لأن معارضتى موضوعية ليست سباباً، وليست صراخاً.

*** هل تعتقد أن هذا الأسلوب (الموضوعى) قديماً أو الآن كان أمراً تعلمت منه أحزاب وقوى سياسية أخرى؟**

- أرجو أن تتعلم، وإن كنا مقتنعين بأسالبينا حتى لو امتلأت الساحة بصحف ذات عناوين حمراء وخضراء وزرقاء تسب وتلعن كل شخص وكل إجراء وكل سياسة.

جاءنى - مرة - عضو فى حزبى قائلا: «يا باشا ألاحظ أن صحيفتنا تشير إلى مشروعات حكومية بوصفها إنجازاً وعملاً إيجابيا، ونحن نريد لمعارضتنا أن تكون شاملة، الشيء الخاطئ نصفه بالخطأ، وحتى الشيء الصحيح نخطئه» فقلت له : «يفتح الله» لا أستطيع أن أنهج مثل هذا المنهج أبداً، وإلا تسقط الجريدة» .

انتشار صحيفة الوفد وتوزيعها الكبير دليل على أن الرأى العام راضٍ عن هذا الخط، والحكاية ليست أن نغمة الوفد هدأت، ولكنها أسلوب موضوعى وعقلانى نتبعه ويليق بحزبنا.

*** يأخذ البعض أيضا على صحيفة الوفد أنها تخرج على خط الحزب فى بعض قضايا السياسة الخارجية، وخاصة فى معالجتها للصراع العربى - الإسرائيلى. وعملية السلام حيث تبدو أحياناً بما تنشره فى موقع رافض لهذه العملية، ويشار فى هذا المجال خصوصا إلى ما ينشر تحت لافتة «مركز الوفد للدراسات السياسية» فهل هذا مقصود ضمن إطار المزايدة بين صحف المعارضة، أم أنه راجع لأسباب أخرى؟**

- المسؤولون عن مركز الدراسات السياسية ينشرون آراء لكبار الكتاب السياسيين والاقتصاديين عملا بحرية الرأى، وليس معنى هذا - أبداً - أن تلك الآراء تعبر عن الصحيفة أو الحزب فرأى الصحيفة أو الحزب يتضح فى تصريح على لسان رئيسه أو سكرتيره العام، أو مقال لرئيس التحرير، وما ينشر - عدا هذا - من مقالات وآراء يكون عملا بحرية الرأى.

أنا رئيس الحزب، وأنا ـ أيضاً ـ رئيس مجلس إدارة الصحيفة.

وفى القضايا العامة تكون للحزب سياسة مرسومة ظاهرة، تعبر عنها الجريدة بشكل واضح ولا تخرج عنه أبداً.

وإلا فكيف يمكن تصور أن فؤاد سراج الدين رئيس مجلس إدارة الجريدة يخرج على فؤاد سراج الدين رئيس الحزب؟

فى أى حدث سياسى مهم يسألنى المسؤولون بالجريدة عن موقف الحزب ويطبقونه تماما.

وأضرب لك مثلا بقضية تنظيم ثورة مصر التى كان خالد عبد الناصر أكبر أبناء جمال عبد الناصر متهما فيها، عندما أذيعت كنت فى الاسكندرية وهاتفنى رئيس تحرير الوفد، سائلا عن خط الحزب تجاه هذه القضية، فأجبته: «المتهم برىء حتى تثبت إدانته» وليس معنى خلافنا مع عبد الناصر أن نهاجم ابنه وهو فى هذه المحنة، وقد شكرنى أولاد عبد الناصر على هذا الموقف.

* الخروج الكبير:

*** أضر خروج الوفد من الانتخابات البرلمانية المصرية السابقة ومقاطعته لها بموقف الحزب، بل كان غيابه عن مجلس الشعب الحالى سبباً فى ركود أدائه.. فانظر ماذا ترى؟**

ـ جربنا مسألة الاشتراك فى الانتخابات البرلمانية مرتين، فى سنة ١٩٨٤، وسنة ١٩٨٧، وكانت النتيجة سيئة، حيث لم ينجح سوى عدد قليل جداً من نوابنا، تحت ضغط أساليب التزوير والتزييف التى مورست إلى أقصى حد.

وقبيل انتخابات ١٩٩٠ جلسنا فى الحزب لنناقش قرار الدخول من عدمه، وضم الاجتماع حوالى ٥٠ عضواً صوت منهم ٤٨ على عدم الدخول.

كيف يمكن بعد تجربتين انتخابيتين مريرتين أن تجد شخصيات وفدية لها قدرها يمكن أن تدخل الانتخابات لتتحمل مصاريف المعركة، وتعرض اسمها للهزات، وهي تعلم بأن سقوطها محقق مقدما.

لو فعل أى شخص هذا لكان رجلا عبيطا.

لقد استطلعنا رأى اللجان العامة للحزب فى الأقاليم كلها، فكانت ضد خوض المعركة.

فالمعروف ـ بداهة ـ أن البرلمان هو الذى يقوم بترشيح رئيس الدولة للاستفتاء، ولابد أن يكون هذا بغالبية ثلثى الأعضاء إذن فلابد أن يتوافر فى البرلمان هذا النصاب لمرشحي الحكومة الموالين.

*** ولكن حتى نواب المعارضة الذين كانوا داخل البرلمان وافقوا على ترشيح الرئيس، فما المشكلة فى دخولكم الانتخابات ودخولكم البرلمان لتصبحوا عنصر توازن فى الحياة السياسية المصرية؟**

ـ هذا صحيح، ولكن الحكومة تحب أن تكون مطمئنة إلى أن الغالبية فى المجلس تمثلها، أما بشأن ما تثيره عن الوجود فى البرلمان لمجرد أن نصبح عنصر توازن، أو نرفع صوت الوفد فى مجلس الشعب، فإن تجربتنا ـ أيضا ـ تشير إلى عدم صحة هذا الرأى لأن نوابنا الذين أفلتوا من الحصار والتزييف فى المرات السابقة ودخلوا إلى البرلمان، لم يمكنوا من إبداء رأيهم، وكان الدكتور رفعت المحجوب رئيس المجلس السابق ـ رحمة الله عليه ـ يحجر على تعبيرهم عن رأيهم فى الأمور المهمة، وبالذات موازنة الدولة إذ كان يمنح العضو الوفدى عشر دقائق لمناقشة موازنة الدولة، ثم نأتى إلى تغطية التليفزيون للجلسات، التى تهتم بإبراز كلام الوزراء كاملا مهما كان حجمه، بينما يحذف ما يقوله أى نائب وفدى ما عدا جملتين أو ثلاثا لا تسمن ولا تغنى من جوع، وهو حذف (فنى) يستبعد القضايا الرئيسية التى يتكلم فيها النائب المعارض.

كيف يمكن مع هذا أن ندخل الانتخابات؟

لو كنت أريد منبراً للشعب يهدف إلى تنوير الرأى العام فلدى الحزب بمؤتمراته التى تحضرها عشرات الآلاف وعندى جريدة الحزب التى يقرأها كل يوم ٣٠٠ ألف مواطن.

إذن وجودنا فى البرلمان ليس له فائدة، فلن أتمكن من المعارضة الحقيقية، ولن أتمكن من ذكر شيء يذاع فى أداة الحكومة الإعلامية كل ما سوف أحصله من هذه العملية أننى سأكون شاركت فى عملية خداع للأمة.

موقفنا شبيه بموقف فريق كرة قدم، يلعب فى مواجهة فريق ثان، وهذا الفريق الثانى لا يتقيد بقواعد اللعبة فيمسك الكرة بيده ويضعها فى المرمى، وهنا يصفر الحكم (تووووت) ويحتسب هدفا، فكيف تقبل اللعب مع هذا الفريق؟ هل تهرج معه، أم تتركه ليلعب وحده؟

*** ولماذا لا تطالب بضمانات وتدخل الانتخابات؟**

ـ هذا ما فعلناه قبل الانتخابات وقبل المقاطعة، واجتمع رؤساء الأحزاب وأرسلوا برقية للرئيس تطالب بالضمانات ولم نتلق رداً ولا استجابة، فى هذه المعركة الانتخابية رشح الحزب الوطنى (الحاكم) مرشحين بينما خرج على الترشيح مجموعة أخرى من الحزب الوطنى أيضا ورشحوا أنفسهم ضد ممثلى حزبهم.

كانت معركة بين (الحزب الوطنى١) و(الحزب الوطنى٢).

وأفرج عن هؤلاء الخارجين فى عمليات التزوير، باعتبار أنهم لو نجحوا فسيعاودون الانضمام إلى حزبهم الأم.

بهذا المعنى لا يمكن أن يشارك الوفد فى مثل هذه المهزلة الانتخابية.

*** لن أناقشك فى مدى صحة اتهاماتك بالتزوير ولكننى سأسألك عن تقييمك لمدى تأثير مثل هذه المقاطعة السياسية على الوضع العام فى مصر؟**

ـ سيكون لها أوخم العواقب، وأولى هذه العواقب التأثير على عملية الإصلاح الاقتصادى.

فقد قلنا ـ خمسين مرة ـ أن مدخل الإصلاح الاقتصادى هو الإصلاح السياسى والدستورى، بما يشمله من انتخابات حرة وضمانات قضائية وحريات كاملة، وهذا ما يخلق الثقة لدى الناس والطمأنينة.

فإذا تساءلنا لماذا لا يذهب إلى صناديق الانتخابات المصرية إلا ثمانية فى المائه أو عشرة فى المائة ـ على أقصى تقدير ـ من المواطنين أصحاب حق الانتخاب؟ فذلك لأن النتيجة ـ ببساطة ـ معروفة مقدما، أما لو كان المواطن يعلم أن اشتراكه له تأثير فى اختيار النواب فسوف يذهب ويتحمل ويقف أربع ساعات فى الطابور أمام لجنته الانتخابية.

*** قلت لى قبل دقائق إن صحيفة الحزب تعبر عن موقفه تجاه الأحداث المهمة، وقد لوحظ أن حزب الوفد لم يعالج أحداث الفتنة الطائفية التى جرت فى مدينة (ديروط) بصعيد مصر فى شهر آيار (مايو) الماضى، مما أثار دهشة الكثيرين وبخاصة أن الوفد يعتبر حزب الوحدة الوطنية تاريخياً.. ولماذا صدر بيان الوفد بشأن هذه الأحداث متأخرا كثيرا بل وبعد محاصرة الفتنة؟**

ـ هذا الاتهام ظالم.

عندما تقع حادثة لابد أن نتبين طبيعة هذه الحادثة، فهل هى فتنة طائفية

أم مجرد ثأر، أو نزاع عائلى، وكل هذا يظهر من تحقيقات البوليس والنيابة، وبعد ذلك نعلن رأى الحزب، وهذا ما حدث.

الوحدة الوطنية هى «شغلة» الوفد، وهى لعبتنا تاريخيا من أيام ثورة ١٩١٩ وحتى اليوم، فثانى شخصية فى الوفد، وهى نائب رئيس الحزب ابراهيم فرج (مسيحية) والهيئة العليا لحزبنا فيها عدد كبير من الأقباط، وانتخبوا من جمعية عمومية عن طيب خاطر لأن كل وفدى يؤمن بالوحدة الوطنية، وقد كتب الأستاذ جمال بدوى رئيس تحرير صحيفتنا كثيراً فى هذا الموضوع.

*** موقفنا وموقفهم:**

*** لم يتخذ الوفد موقفاً واضحاً تجاه حصول الحزب الديموقراطى الناصرى على شرعية الوجود من خلال حكم قضائى، فكيف ترى مستقبل علاقتكم بهذا الحزب، وهل تعتقد فى إمكان إجراء حوار ما معه أو الدخول فى أى نوع من التعاون؟**

ـ سئلت هذا السؤال أمام هيئة تحرير جريدة الحزب، وقلت إن موقفنا من الحزب الناصرى يتحدد على ضوء موقفه من قضايانا، فهو يقول إنه حزب ناصرى ديموقراطى، خير إن شاء الله، فإذا أثبتت الممارسة أنه حزب ديموقراطى فعلا، وأنه حزب معارض فعلا، فسنقبل التعاون معه، ونقول عفا الله عما سلف، ويصبح هذا الحزب قوة جديدة انضمت إلى المعارضة، أما إذا أثبت أنه لا يزال متأثراً بالناصرية التى نعرفها، والتى عانت منها البلاد، وأن تسمية ديمقراطى هذه على سبيل الخداع فسنهاجمه.

فإذا سألتنى عما اتنبأ به لهذا الحزب، سأقول إننى ـ شخصيا ـ لا أتوقع له أى نجاح.

فأول سؤال يتبادر إلى الذهن عند ذكر كلمة (ناصرية) هو: ماذا تعنى هذه الكلمة؟

أنا أفهم ماذا تعنى الشيوعية، وأفهم ماذا تعنى الليبرالية، وأفهم ماذا تعنى الراديكالية، ولكننى لا أفهم معنى الناصرية، إلا بوصفها مرادفا للاعتقالات والحراسات والمصادرات والتعذيب.

الناصرية ـ هذه ـ دمغت بأحكام قضائية فى غاية الخطورة، وبالذات الأحكام الخاصة بقضايا التعذيب.

ثم إنه لا يوجد بيت فى مصر لم تؤذه الناصرية بموت أحد ابنائه أو بتعذيبهم، أو بمصادرة أملاكه، أو بهجرة البلد كلها خوفاً من الإرهاب والتعذيب.

ومع ذلك فأنا على استعداد لنسيان كل هذا وأعلن (عفا الله عما سلف) إذا ظهر الحزب الناصرى كحزب معارض حقيقى يطالب بالديموقراطية وحقوق الإنسان وحقوق الشعب.

*** ذكرت يا باشا ـ فيما ذكرت ـ أن حكمك النهائى على الحزب الناصرى سيتحدد على ضوء ممارساته، ولكن فصيلاً من الناصريين (مجموعة فريد عبد الكريم) كان استغل ثغرة فى القانون ٤٠ لسنة ١٩٧٧، وظل يمارس العمل كحزبٍ تحت التأسيس لسنوات طويلة قبل أن يفصل القضاء فى أمره، وبالتالى فإن للناصريين ممارساتهم الحزبية التى يمكن أن تحكم عليها على ضوء هذه التجربة؟**

ـ أول مرة فى حياتى أسمع عن هذا الحزب الذى كان تحت التأسيس!

على أية حال لقد تبلورت مجموعاتهم جميعا فى الحزب الناصرى الديمقراطى الذى ظهر ـ أخيرا ـ بحكم محكمة.

ولقد تابعت كل ما يكتبه الكتاب الناصريون فى السنوات الماضية فى وسائل الإعلام، أو من خلال بياناتهم ولم ألمح فيهم أى تغيير، وعلى الرغم من ذلك، لا أريد أن أتعجل أو أظلمهم فبيننا وبين موعد صدور جريدتهم شهر.. وسنرى!

*** من خلال تجربتك فى التعاون - كحزب معارض - مع خالد محيى الدين رئيس حزب التجمع التقدمى الوحدوى الذى يضم ضمن عناصره فصيلاً ناصريا، هل شعرت أن ناصرى التجمع قادرون على التجاوب مع الأفكار التعددية والديموقراطية؟**

- كان وجودهم فى حزب الأخ خالد محيى الدين، يدفعه إلى الشكوى أحيانا حين نلاحظ فى اجتماعاتنا أنه لا يصل إلى المدى الذى كنا نفكر فيه، وكان يقول إنه لا يرأس حزباً واحداً مثلى، ولكنه يرأس ثلاثة أحزاب (شيوعيون - ناصريون - قوميون) وهو مضطر إلى المواءمة بين الاتجاهات الثلاثة لكى لا يؤدى إلى انقسام الحزب.

كانوا يحدون من حريته إلى حد كبير، واعتقد أنه استراح بخروجهم.

*** فإذا كانت هذه تجربتك معهم فكيف تصل إلى ما ذكرت عن أن الله يعفو عما سلف؟**

- قيادات الناصريين فيهم من اشترك فى الحكم إبان العهد الناصرى، وشارك فى ارتكاب الآثار والجرائم التى تكلمنا عنها، ولكن يظل نبراسنا فى هذا الموقف هو الآية الكريمة: ﴿ إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحاً ﴾ فإذا كان الله يسامح فلابد أن نسامح نحن أيضا.

*** حددت شروطك للتعاون مع الناصريين ولكنك إذا اختلفت معهم - كما بدا من هذا الحوار - حول معنى الناصرية فلا يمكن أن تتفق معهم - حتى إذا تحققت شروطك - على معنى الناصرية أيضا؟**

ـ بينى وبينهم البرنامج الحزبى، سواء كان نصه أو أسلوب تنفيذه، وإذا كانوا عقلاء وحكماء، فلابد أن يقطعوا أية صلة لهم بالماضى لأنها ستؤدى إلى خسارتهم، فقد قال لى البعض إنهم سيسمون جريدتهم (الميثاق) وهذه بداية غير موفقة.

*** ألم يجر أحد من رموز هذا الحزب أو التيار أية محاولة اتصال بالوفد؟**

ـ يتصلون بنا؟.. على أى أساس؟

*** على أساس شرح النقاط الأساسية التى يتضمنها برنامج الحزب الناصرى؟**

ـ لو حدث هذا، سنرى ما هى نقاط البرنامج ولكن الأهم التنفيذ.

*** أحد المرتكزات للحزب الناصرى هو مخاطبة جيل الشباب فى مصر، فهل ترى أن تغييراً قد حدث فى الجيل الجديد ناحية الأفكار الليبرالية والديموقراطية، مما يشكل موقفاً يعوق تأثيره هذه المخاطبة؟**

ـ مع الأسف، حالة الجيل الجديد لا تسر.

الأربعون عاماً الماضية بكل ما فيها من كبت وإرهاب وتعذيب فضت على حيوية المواطنين وعلى انتمائهم وخصوصاً الشباب.

لم يعد الشباب يهتمون بالمسائل العامة.

عندما كنا طلابا فى المرحلة الثانوية كنا نهتم بأحوال مصر، نقرأ أخبار العالم الخارجى، والآن نادراً ما ترى شاباً يسير فى الشارع وفى يده صحيفة يومية، ولكنك ترى فى أيديهم مجلة الموعد أو الشبكة أو صباح الخير.

الشباب لا يفهم معنى الديموقراطية، ولا يتلقى تعليما يفسر له معنى

الديموقراطية، أو يقدم له النماذج العظيمة من تاريخه، فى زماننا كان هناك طلبة يترشحون لمجلس النواب، ولكن كل هذا ضاع مع إلغاء الأحزاب لأكثر من خمسة وعشرين عاما، بينما هذه الأحزاب كانت المدارس التى تخرج السياسيين ورجال الدولة ورجال الحياة النيابية.

أغلقت المدارس بالضبة والمفتاح، فحدثت فجوة هائلة فى التعليم السياسى للناس.

ومما زاد من سوء وضع الشباب أزمة البطالة الخانقة التى تقاذفت هذا الشباب ليتطرف يمينا، ويتطرف يسارا، ويكفر بالمجتمع وبالدولة وبالأسرة وببلده كوطن.

ومن آيات الفقر التعليمى عند الشباب أن كلمة مثل «العلمانية» لم تعد واضحة الدلالة بذاتها فى أذهانهم فصار بعضهم يرى أنها تعنى الكفر والإلحاد.

العلمانية تعنى مدنية الحكم، وجاءت لتصوغ شكلا جديداً للدولة بعد حكم البابوات مانحى صكوك الغفران، الحكم المدنى يتولاه السياسيون، وليس رجال الدين سواء كانوا بابوات أم آيات الله.

ثم إن هناك أكثر من علمانية، فهناك علمانية تفصل بين الدين والدولة فصلا كاملا مثل حالة فرنسا مثلا أو تركيا، وهناك علمانية لها نوع من الاتصال مثل إنجلترا ومصر، وهكذا.

ولقد شرح الدكتور وحيد رأفت ـ رحمه الله ـ مثل هذه الأمور مراراً وتكراراً فى صحيفة الحزب، ولكن بعد فوات الأوان، حين كان غياب الأحزاب، وغياب الثقافة السياسية لأكثر من ربع قرن قد أتى بثماره المخيفة التى نرى بعضها الآن.

* اخوان وترابى!

*** إلى أى مدى ترى أن جماعة الاخوان المسلمين فى مصر قد أسهمت بأدائها السياسى فى رواج تيار التطرف الدينى على رغم إدانة هذا التيار لها بعدما اشتد ساعده؟**

ـ ليس من مصلحة الاخوان أن يقروا الأعمال العدوانية التى يقوم بها المتطرفون، فهى ـ أولا ـ منافية للدين الذى يتحمسون له، وهى ـ ثانيا ـ تعطى فرصة لاضطهادهم والتنكيل بهم ومصادرة حرياتهم.

*** هل تعتقد أن تيار الإسلام السياسى عموما قدم طروحا اقتصادية أو سياسية محددة يمكن التعويل على أن تكون أساسا لجدليات فكرية بين الفصائل المختلفة التى تشكل بدن المجتمع السياسى فى مصر؟**

ـ لم يقدموا برامج محددة، ولكن لهم أهداف معروفة ومعلنة كلها تدور حول تطبيق أحكام الشريعة، وهذا فى حد ذاته هدف لا يعترض عليه أحد، ولكن لابد من وقفة هنا نتساءل فيها: تطبيق الشريعة بأى معنى؟ فالقانون المدنى المصرى (أبو القوانين الذى وضعه عبد الرزاق باشا السنهورى) ومواده حوالى ١٥٠٠ مادة، كل أحكامها مستقاة من الشريعة الإسلامية، ماعدا مادتين أولاهما كانت فوائد البنوك، وهذه أفتى مفتى الديار المصرية بأنها حلال، والمادة الثانية المتعلقة بفوائد التأمين على الحياة، وهى محل جدل بين الفقهاء، ولا أظن أنها ضد الشريعة.

أما الشريعة عندهم فهى متوقفة عند تطبيق الحدود، وهو أمر من الواضح أنهم لا يعرفون تفاصيله، لأن تطبيق الحدود له شروط صعبة جدا، مثلا فى تطبيق حد السرقة لابد ألا تقل قيمة الشىء المسروق عن حد معين، وألا يوضع فى مكان معرض للسرقة، وألا يكون السارق جائعا وهكذا.

*** على أى أساس تحالف الوفد والاخوان فى انتخابات ١٩٨٤ البرلمانية ؟**

ـ لم يكن تحالفا، ولكنه كان نوعا من احترام حرية الرأى وإعطاء الفرصة لهذا الفصيل كي يدخل البرلمان ويعبر عن رأيه، بدلا من أن يعمل تحت الأرض Under Ground ولم يكن باستطاعتهم دخول المجلس إلا عن طريق قوائم أحد الأحزاب القائمة وفق القانون.

ولقد طلب منى عمر التلمساني ـ رحمة الله عليه ـ أن نبيح لعدد منهم دخول الانتخابات تحت علم الوفد، وأفادنى بأنهم معنا سواء وافقنا على هذا المطلب أم لم نوافق.

وأجبته بالموافقة بصرف النظر عن كونهم معنا أو ضدنا لأنه ينبغى ـ من وجهة نظرنا ـ أن تكون لهم وسيلة لإظهار رأيهم، وانتهت العملية بانتهاء الانتخابات.

كنت أرى أن لا داعى للمخاوف التى أظهرتها الدوائر الحكومية وبعض الأقباط وقتها، لأن هدفى كان أن يعبر الاخوان عن رأيهم من خلال خمسة أو ستة نواب يدخلون الانتخابات تحت عباءة الوفد، وسيقتصر رأيهم على المطالبة بتطبيق الشريعة من دون أن تكون لهم القدرة عل أى شيء.

*** قبل أسابيع قال لى المستشار مأمون الهضيبى المتحدث باسم جماعة الاخوان فى حوار صحفى إن الوفد كان بالنسبة لهم فى انتخابات ١٩٨٤ مجرد أوتوبيس يصل بهم إلى البرلمان، ولما سألته عن مصلحة الوفد فى هذا قال لى : «الحصول على أصوات الاخوان» فهل تعتقد أن لدى الاخوان هذا الحجم من الأصوات الذى يمثل ثقلا فى مساومة انتخابية من هذا النوع؟**

ـ لم يهتم الاخوان بأى حشد فى هذه الانتخابات إلا فى الاثنتى عشرة دائرة التى وضعنا فيها أسماء مرشحيهم على قوائمنا، ولم يساندوا مرشحا وفديا واحدا فى باقى الدوائر، والدليل على صدق هذا الكلام أن عدد الأصوات التى حصل عليها الوفد فى انتخابات ١٩٨٤ (وهو متحالف مع الاخوان) كان حوالى ٨٠٠ ألف صوت، وهو الرقم نفسه الذى حصل عليه الوفد عام ١٩٨٧ (وهو بدون الاخوان)!!

*** من وجهة نظرك، فيما يختلف اتفاق الاخوان مع الوفد عام ١٩٨٤ عن اتفاقهم مع حزب العمل عام ١٩٨٧؟**

ـ حزب العمل كان كريماً جداً مع الاخوان، فقد أعطاهم (٣٠ إلى ٤٠) دائرة، ووضع أسماءهم فى صدر القائمة بينما أعطينا نحن واحداً على عشرة من هذا الرقم.

*** ما الذى دفع حزب العمل إلى هذا؟**

ـ لكى يصل إلى المجلس، وما كان يصل بغير الاخوان.

*** ما هو تقييمك لأداء المعارضة البرلمانية التى يتزعمها خالد محيى الدين فى المجلس الحالى؟**

ـ المعارضة الآن فى المجلس لا تكاد تكون معارضة، ليس لها صوت، واعتقد أن هذا كان نوعاً من رضاء التجمع عن دخوله البرلمان للمرة الأولى، وهو أمر لم يكن اليسار يحلم به.

*** الحزب الوطنى الديموقراطى (الحاكم) فى مبادئه المعلنة وبرنامجه يقترب كثيراً من حزب الوفد، لماذا لا تنشأ بينكما علاقة تحالف على غرار كل هذه التحالفات؟**

ـ النقطة الخلافية الوحيدة هى الديموقراطية، فإذا آمن الحزب الوطنى

الحاكم بالديموقراطية على الوجه الذى يؤمن به الوفد لن يكون هناك خلاف، والانتخابات بالطبع هى جزء من الديموقراطية وأساس لها، لأنها توصلت إلى تمثيل الأمة تمثيلا صحيحا يحكم فيه الشعب نفسه بنفسه.

*** كل الأحزاب المصرية القائمة ـ تاريخيا ـ تقوم على فكرة الحزب الواحد، فالوفد نشأ كوكيل شعبى عن الأمة أو كحزب وحيد، وحزب مصر الفتاة كان ينحو تجاه الفاشية بشكل أو بآخر، والناصريون لا يستطيعون التملص من تاريخهم فى حكم الحزب الواحد، وكذلك الشيوعيون، والاسلاميون من تجاربهم حولنا يطرحون أفكاراً فى هذا المعنى، كيف يمكن لهذه القوى أن تنخرط فى ظل نظام تعددى حقيقى؟**

ـ هذا صحيح تاريخيا، ولكن عمليا نحن نحاول العمل ـ الآن ـ فى ظل ظروف جديدة، وربما لا يساعدنا فيها أن القوى التى ذكرتها إذا آمنت بالديموقراطية إيمانا حقيقيا كتبت صك زوالها أو شهادة وفاتها، لأنها ستحتكم إلى الشعب الذى سيرفضها حينذاك.

*** ومن هنا أعود وأسألك السؤال نفسه الذى بدأت به: ما هو مستقبل الديموقراطية فى مصر والحال كذلك؟**

ـ من يرى ظاهر الحال ولا يتفاعل فهو معذور، أما أنا ـ شخصيا ـ فمتفائل ولابد أن نرى فى مصر ـ يوماً ـ ديموقراطية كاملة وانتخابات نزيهة.

*** هل تعتقد أن علاقات مصر ببعض الأنظمة حولها، والتى ليس فيها ديموقراطية أو تعددية من أى نوع تؤثر سلبا على تطورها نحو الديموقراطية؟**

ـ التجربة المصرية تؤثر على بعض الدول، ولكن الدول التى حولنا لا تؤثر فينا.

*** هل ترى أن تجربة الإسلاميين الجدد فى العالم العربى مثل حسن الترابى فى السودان تقدم بديلا ديموقراطيا مغايراً لذلك البديل الإسلامى الذى يطرح تحت عبارات عامة من طراز (الإسلام هو الحل) ؟ أم أن البديل الذى يقدمه أمثال الترابى هو معوق - أصلا - للمسيرة الديموقراطية، ولسعى الإنسان العربى نحو حريته ؟**

ـ لا صلة لمثل هذه الاتجاهات بالديموقراطية، حسن الترابى فى السودان هو صاحب الانقلاب العسكرى الحقيقى، ولم يقدم شيئا سوى حل الأحزاب والنقابات والجمعيات والبرلمان وإغلاق الصحف، لقد حقق الترابى حكم الإرهاب والسجن والتعذيب ومصادرة الأموال.

مثل هؤلاء لا يؤمنون بالديموقراطية، والدليل على ذلك أن وسيلتهم للوصول إلى الحكم هى الانقلابات العسكرية.

ولقد قلت هذا الكلام مباشرة للترابى حين زارنا قبل سنوات فى صحيفة الوفد، وقلت له أيضا: «ليس هدفنا مناقشة أموركم الداخلية، سواء أحسنتم أو أخطأتم ولكننا ضد الحكم القهرى، وسنحاربه فى كل مكان، كما نناصر الديموقراطية فى كل مكان، ويوم ترجعون للديموقراطية فسوف نناصركم».

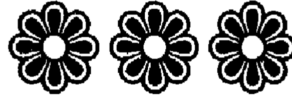
*** من زاوية شخصية جداً، ماذا كان شعورك أيام سقوط الأنظمة الشيوعية الشمولية ؟**

ـ كنت فى منتهى السعادة، ولولا أننى لا أشرب الكحول أبداً، لكنت فتحت شمبانيا احتفالا بهذا الحدث العظيم.

*** ومع هذا السقوط لماذا يبدو اليساريون المصريون - من دون اليسار فى العالم كله - يعتقدون فى صحة النظرية، وسلامة النظرية، وحكمة النظرية ؟**

ـ إذا كان اليساريون المصريون مصرين على هذا الاعتقاد أملا فى أن يأتى زمان ترجع فيه الشيوعية فى العالم، فإننى أقول لهم: «هذا عشم إبليس فى الجنة» !!

يونيو ١٩٩٢



د. وحيد رأفت

واقتصاديات النصف فى المائة!

* الثورة وضعت أساسا اقتصاديا للصراع السياسى.
* جماعات المصالح ورجال الأعمال أقوى من أى حزب لأنهم يعرفون مصالحهم المباشرة!
* ليس للوفد الجديد نظرية اقتصادية اجتماعية واضحة.
* دللنا العمال والموظفين، ويجب إعادة حق الفصل!
* بعض الحرس القديم فى الوفد حاولوا أن ينسوا الثورة، كما حاول البوربون فى فرنسا، ولكن الوقائع ردتهم للحق.
* لا ننادى باقتصاد حر تماما، ولكن نطالب بترشيد الأداء الاقتصادى.
* التعرض فى الرؤى الاقتصادية الحزبية محكوم بشروط عدم ظهور أحزاب فئوية أو طبقية.
* «تاتشر» تصفى القطاع العام، ومن حق اليمين المصرى إذا وصل للحكم أن يفعل مثلها!

** فى الأدبيات السياسية للإدارة المصرية تعبير (مجتمع النصف فى المائة) وبرغم أن هذا التعبير ـ كلاسيكيا ـ يصف شريحة لم تعد موجودة. فإنه قد عاد يتقافز فى جدل سياسى لا ينتهى، وتحليلات اجتماعية لا تفرغ، منذ أن عاد حزب الوفد إلى ساحة العمل السياسى فى مصر.

قال البعض إن مجموعة (النصف فى المائة) لم تعد تمثل الحزب الجديد.

وقال البعض الآخر إن مجموعة (النصف فى المائة) هى التى توجه وتدبر وتفكر.

وقال البعض إن الحزب الجديد يجب أن يبحث لنفسه عن أفكار جديدة غير تلك التى التصقت بتراثه السياسى مثل (الاستقلال) أو (الوكالة الشعبية عن الأمة). على حين قال البعض إن الحزب الجديد يجب أن يبحث لنفسه عن شريحة اجتماعية جديدة يلتصق بها.

....

تساؤلات كثيرة ربما تكون قد أعلنت عن نفسها بحدة، انتظاراً لوصول الدكتور وحيد رأفت نائب رئيس حزب الوفد الجديد والفقيه الدستورى المعروف إلى ساحة هذا الحوار ليعكس لنا رؤية واحد من قدماء الحزبيين، الذين اعتبرهم البعض ـ يوما معبرين عن (مجتمع النصف فى المائة).

....

*** هل يحتاج المجتمع الاقتصادى فى مصر ـ ترشيدا لحركته إلى مزيد من القوانين والضوابط، أم يحتاج إلى تخفيف هذه القوانين والضوابط؟**

** ليس المهم الكثرة أو القلة، ولكن المهم إلى أين تتوجه هذه القوانين وكيف يفكر الخبراء الذين يضعون هذه القوانين، فالمسألة لم تعد مسألة خبرة، وأذكر على سبيل المثال ـ أن الرئيس مبارك عندما أراد أن يستمع لكل

الآراء في المشكلة الاقتصادية، جمع المؤتمر الاقتصادى عام ١٩٨٢، ولم يصل جهابذته إلى حل. وهذا هو النمط السائد فى مناقشة خبرائنا للمسألة الاقتصادية.

فأنا اقرأ فى جريدة واحدة رأى لعلى لطفى يطالب بتوحيد سعر الصرف بأسرع وقت ممكن، ورأى آخر لمصطفى السعيد يعززه رأى القيسونى بأن يتم توحيد سعر الصرف على مدى زمنى طويل، أى أن الخبراء يختلفون .. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن من أهم الأشياء التى تضعف الإحساس بالأمل سلوك الإنسان المصرى الذى غلب عليه التكاسل واللامبالاة وعدم تقدير الواجب.

*** وما السبب؟**

** سنوات الكبت التى مرت علينا، تدخلت الدولة فى كل شيء منذ ١٩٥٢ تحت ستار الاشتراكية، وانتهت الحريات الاقتصادية تماما وأصبح المواطن يشترى الخبز من الجمعية بدلا من أن يخبزه فى فرن بيته.

أممت الدولة الاقتصاد، وأممت الشركات، وقضت على الابتكار الحلو ونشاط الشركات، الفردى فى القطاع الخاص، ومن هنا بدأ التواكل، يضاف إلى ذلك القضاء على الحريات السياسية والاقتصادية، ثم نظام التوظف الذى يعتمد فيه المواطن على الدولة لتوظفه.

*** إذا كان النظام الاقتصادى قبل الثورة محققا لغاية المنى والمراد فلماذا كنا نتعرض لأزمات اقتصادية قبل الثورة، وإذا كان نظام التوظف قبل الثورة مثاليا فلماذا شاع وذاع عنه تفشى المحسوبية والرشوة والفساد؟**

عندما نتكلم عن النظام الاقتصادى قبل الثورة، يجب أن تأخذ فى الاعتبار

أشياء كثيرة جداً، فنحن كنا دولة فى بداية النمو، وكنا نعتمد على محصول واحد هو القطن، ولم يكن عندنا صناعة بمعنى الكلمة، وكانت البلد تحت اغلال الامتيازات الأجنبية، وفوق هذا كنا دولة محتله، يعنى اقتصادنا كان تابعا للاقتصاد البريطانى، وكان عدد السكان محدوداً ومشكلاتنا محدودة.

حينما نقارن بين عصر وعصر لابد أن نضع فى اعتبارنا الثوابت التى تحكم حركتنا فى كل سياق تاريخى.

كنا نحاول أن نبنى صناعات معقولة، لكن فجأة ـ قامت الثورة ـ وانتقلنا طفرة واحدة إلى التصنيع الكامل، كما كان عبد الناصر يقول (من الإبرة إلى الصاروخ).

*** الرئيس عبد الناصر لم يقل ذلك، وحتى إذا قال فإنه ليس عيبا أن يكون لك هدف تنمية طموح تحققه ولو بعد عشرات السنين.**

** والله يقال إن هذا خطاب لعبد الناصر.

*** يقال يعنى فلكلور مثلا؟**

** لا .. أظن اننى سمعته فى خطاب له، وعموما فقد كان يركز فى خطبه على تمجيد ما أحرزناه فى حقل الصناعة ويدعمه فى ذلك وزير صناعته عزيز صدقى، وكان الخطأ الكبير أنه ركز على الصناعة الضخمة مثل الحديد والصلب، بينما كان الأوجب أن نختار ما يتفق وإمكانياتنا، أما أن نبدأ بالحديد والصلب ثم لا نجد من يشتريه فهذا عيب كبير.

*** صناعة الحديد والصلب لم تكن اختراعا للثورة ولكن كان مشروعا مبحوثا ومدروسا قبلها بشكل ما.**

** على كل الأحوال ليست هذه الصناعات هى التى نحتاجها، ولكننا كنا نحتاج إلى صناعات صغيرة مثل تعليب الخضر والفاكهة والعصير.

*** وهذه الصناعات أيضا أنجزناها وبمستوى عالمى ممتاز.**

** هذا مثال جيد للتطبيق، ولكن يظل غياب النظرة الشاملة التى تتيح فرصة الحركة للقطاع الخاص ولنمو الحافز الفردى هو أخطر ما أحبطته الثورة بحيث أوصلت مجتمعنا إلى شكله الحالى وأوصلت اقتصادنا إلى شكله الحالى.

*** لقد طبقنا النظام الاقتصادى الحر بشكل ما من عام ١٩٧٤ وحتى الآن لماذا لم يعدل من شكل مجتمعنا، ولماذا لم يعدل من شكل اقتصادنا، ويسير به فى الطريق السليم الذى تتكلم عنه؟**

** كيف تتحدث عن الطريق السليم، ونحن نعدل قراراتنا الاقتصادية كل ستة أشهر؟ فمن قرارات مصطفى السعيد إلى تعديلها، ثم عشرات القوانين بعدها نحن نعدل خطنا الاقتصادى ألف مرة ومرة.

*** ولكن قرارات مصطفى السعيد التى ذكرتها تخدم مفهوم عدم تعدد أسعار العملة، وهو الذى كنت تطالب به منذ قليل؟**

** ما أريد قوله، هو أن القلقلة التى تحدث نتيجة التغيير المستمر فى القرارات الاقتصادية، لا يمكن أن يقوم على أساسها اقتصاد سليم، أو استثمار سليم، (التعريفة الجمركية ـ قوانين الاستيراد والتصدير) هى أمور تحتاج إلى قدر كبير من الاستقرار، لكن هذا الاستقرار منعدم، حين نفاجأ كل كذا شهر بوزير جديد يطلع علينا لتغيير سياسات الوزير القديم.

*** أرى أنك تسير بالحوار إلى مناقشة (القوانين) الاقتصادية، بينما ما بدأت به حديثى كان مناقشة (الفلسفات) الاقتصادية، واعتقد أن فكرة الاقتصاد الحر التى طبقت منذ ١٩٧٤ تنتمى إلى خانة الفلسفة، صحيح أن الظروف تفرض أحيانا صدور قوانين بشكل عاجل، أو تعديل قوانين**

بشكل عاجل، ولكن الفلسفة تظل موجودة والسؤال الآن هل تعتبر أن ما نعيش فى ظله يمثل فلسفة الاقتصاد الحر أم لا؟

** المفروض أن القرارات أو القوانين تكون وليدة فلسفة، وهى لا تصدر عبثا.

ولكن ما نشهده هو سيطرة للناصريين أحيانا تؤدى إلى استصدار قرارات وقوانين من شأنها الوصول إلى نوع من التقييد وسيطرة الدولة على الاقتصاد، ثم سيطرة ـ فى فترات أخرى ـ للساداتيين تؤدى إلى استصدار قرارات وقوانين من شأنها الوصول إلى الاقتصاد الحر والباب المفتوح.

إذن فنحن لا نستطيع أن نتكلم عن ثبات السياسة أو الفلسفة الاقتصادية.

*** ألا تعتقد إننا بهذه التصورات نجعل مجتمعنا الاقتصادى سجينا لفكر مجتمع ما قبل الثورة، ولفكر نظام الرئيس عبد الناصر ولفكر نظام الرئيس السادات؟ أليس صراع هؤلاء الفرقاء السياسيين والاقتصاديين فى كل شىء هو أكبر سبب لانعدام القدرة على الحركة والابتكار والنظر إلى المستقبل؟**

** من الصعب أحيانا أن تفصل بين السياسة والاقتصاد. وقد يكون ماذكرت صحيحاً، ولكن الفكرة التى أريد ـ مرة أخرى ـ أن أؤكد عليها هى أنه إذا تولت الحكم جماعة سياسية لها ميول معينة فإن ذلك يترك أثره على شكل الاقتصاد، ففى عهد عبد الناصر كان رجاله من حوله مثل على صبرى يؤمنون بالاشتراكية أى سيطرة الدولة على وسائل الإنتاج، وهذا بالطبع يتطلب قوانينا من نوع معين يختلف تماما عما إذا تولى الحكم حزب يؤمن بالاقتصاد الحر، وبالتالى فإن الصراع بين هؤلاء الفرقاء شرعى وطبيعى والغلبة فى النهاية ـ من حيث شكل النظام الاقتصادى ـ تكون لمن يحصل على الرضاء الشعبى والأغلبية البرلمانية.

انظر- يا أخى - إلى تاتشر، وشكل التغييرات التى تجريها فى بنية الاقتصاد، أليس هذا لأنها تغلبت سياسيا على الحزب المنافس، وأصبح من حقها أن تفرض شكل النظام الاقتصادى الذى تراه؟!

*** لحظة من فضلك .. برغم أن الصراع السياسى فى بريطانيا هو أمر يختلف تماما عما يدور فى مصر، وبرغم أن المقارنة لا تكون إلا بين وحدات متكافئة، وبرغم - أيضا - أن الصراع السياسى هناك يقوم حول مصالح اقتصادية واضحة، وحول مواقف واضحة من ملكية أدوات الإنتاج، إلا أن هناك - بالقطع - حداً أدنى من الالتزام القومى حول القضايا الهامة، وهذا هو ما نطلبه حينما نطلب من الفرقاء الاقتصاديين والسياسيين أن يتطلعوا إلى المستقبل؟**

** ربما أخطأت فى اختيار التشبيه بنظام تاتشر، ولكننى أردت إيضاح فكرة تداول الحكم وتأثيره على الاقتصاد، بين الفرقاء السياسيين، فإذا جاء حزب العمال للحكم سيؤم وطالما بقيت تاتشر فى الحكم فسوف تعيد الملكية للقطاع الخاص كما فعلت فى (British Telecome) «شركة الاتصالات والتليفونات البريطانية».

*** بكثير من الصعوبة تفعل هذا .. وتتعرض للإضراب، وهى كلها أمور لا يتحملها مجتمع من طرازنا، نحن نحتاج إلى تعبئة القوى كلها خلف هدف قومى هو (التنمية).**

** أراك تحاول التملص من فكرة الأساس الاقتصادى والاجتماعى للأحزاب، وصولا إلى فكرة الالتزام القومى.

أحزاب الآن ليست كأحزاب ما قبل الثورة.

قبل الثورة لم تكن هناك فروقاً أساسية كبيرة بين الأحزاب، فكلها تطالب بالجلاء وكلها تطالب بالاستقلال.

لم يكن لهذه الأحزاب أفكار اقتصادية واضحة، ولم يكن هناك صراع فى المجال الاقتصادى.

أما بعد الثورة، فكان طبيعيا أن تنشأ التشكيلات السياسية، ويقوم الصراع بينها على أساس اقتصادى، فقد عرفنا الاشتراكية ومارسناها فى عهد عبدالناصر بشكلها الكامل من سنة ١٩٦١ إلى ١٩٧١، ثم عرفنا شكلا آخر فى عهد السادات هو شكل النظام الرأسمالى على الطريقة الأمريكية.

ونحن الآن نسير فى طريق توفيقى بين الرأسمالية والاشتراكية، وهو الأمر الذى اعترفت به كل النظم فى العالم. فأصبح الاتحاد السوفيتى والصين يعترفان بوجود شكل لإسهام القطاع الخاص وكان الحوار قبل انهيار الكتلة الشرقية، وأصبحت الولايات المتحدة تعترف بوجوب شكل ما لإسهام القطاع العام.

أصبحنا نعرف الاشتراكية الديمقراطية، وهى الاشتراكية التى تصل للحكم بطرق ديمقراطية والتى تقبل تعدد الأحزاب، وبالتالى تقبل الصراع السياسى، على أساس الاختلاف بين الفلسفات الاقتصادية للأحزاب المتعددة.

*** وما هو الفارق بين الفلسفات الاقتصادية للأحزاب المصرية وفقاً لبرامجها ؟**

** واقعياً، ليس عندنا ستة أحزاب، ولكن عندنا حزبان، وربما ثلاثة، لأن حزب العمل، وحزب التجمع الاشتراكى أفكارهم الاقتصادية متقاربة، ولكنهم يختلفون فى درجة اشتراكيتهم، وبلا شك، من الممكن أن نتصور اندماجهم فى حزب واحد يمثل اليسار!!

ومن ناحية أخرى لا نجد فروقا ـ تقريبا ـ بين حزب الوفد وحزب الأحرار، فمصطفى كامل مراد رئيس حزب الأحرار هو زعيم الرأسمالية، وحزب الوفد

حزب يمينى، مهما وجدت فيه بعض الاتجاهات اليسارية مثل عبد المحسن حموده، وهم فى أفكارهم أقرب إلى (مصرالفتاة) منهم إلى الوفد.

إذن فهناك تيار لليسار يضم حزبين، وتيار لليمين يضم حزبين وتيار للوسط هو الحزب الحاكم، ثم حزب الأمة الذى لا محل له من الإعراب.

*** فى الفقه السياسى - وأنت سيد العارفين - ينشأ الحزب فى النظم الحرة تعبيراً عن فكرة كمثل ما جاء فى كتابات دافيد هيوم، أو فى النظم الاشتراكية تعبيرا عن طبقة مثلما يذكر لينين «أن الحزب هو الطليعة المسيسة لطبقة»... وهذه الاحزاب المصرية الموجودة الآن عن ماذا تعبر؟**

** مع الأسف وضعنا شروطا لنشأة الأحزاب منها شرط ألا ينشأ حزب فئوى أو طبقى، فلا يمكن أن ينشأ عندنا حزب عمال مثل بريطانيا، ولا حزب فلاحين كالذى نشأ فى رومانيا قبل الحرب، وأيضا لا يمكن أن نؤسس حزبا دينيا، وإلا عدنا إلى تفتيت عنصرى الأمة.

وفوق هذا كله كان شرط لجنة الأحزاب بأن تؤمن جميع الأحزاب الطالعة بالاشتراكية الديمقراطية.

*** إذن أين هو التعدد؟**

** الواقع أن هذه الأحزاب تتعدد داخل اطار ضيق جداً لا يمثل كل الاتجاهات.

*** وإذا لم تكن كل هذه الأحزاب مختلفة بالفعل، أو تمثل تعدداً حقيقياً فما هو موجب الصراع السياسى أو الاقتصادى بينها كما بنيت وجهة نظرك السابقة كلها؟**

** سأتكلم عن حزب الوفد لإيضاح فكرة التميز السياسى فى اطار التعددية المقيدة.

هناك أشياء ورثناها تاريخيا، فقد ظهر حزب الوفد لسبب معروف هو تحقيق الاستقلال، واعتبر البعض أن الحزب قد انتهى بمعاهدة الصداقة مع انجلترا عام ١٩٣٦ وانجز مهمته، فدوره فى التاريخ الوطنى قريب جداً من دور حزب (المؤتمر) فى الهند.

وظهر فى الوفد بعد ١٩٣٦ الجناح اليسارى الذى حاول تعديل الفكرة التى يقوم عليها الحزب، بعدما استنفذت أغراضها.

*** برغم ارتباط القضية الوطنية بالسلوك السياسى للوفد أياً كان مستواه قبل الثورة، فقد كان للوفد أساس اجتماعى - اقتصادى دون شك، وهذا هو ما اسأل عنه، هل هناك أساس اقتصادى اجتماعى مختلف لحزب الوفد الجديد، أم أن كل أحزاب التجربة الحزبية الحالية متشابهة فى أساسها الاقتصادى - الاجتماعى؟**

** لم يكن لحزب الوفد أساس اقتصادى ـ اجتماعى واضح قبل الثورة.

*** لا.. كان تعبيراً عن الطبقة المتوسطة، وسيطرت البرجوازية مالكة الأراضى على قيادته ردحا من الزمن.**

** كان حزب الوفد لكل الأمة، صحيح أنه حينما كان يصل إلى الحكم كان يسعى لإصدار تشريعات وقوانين لأنصاف الموظفين، ولكنه لم ينس إصدار التشريعات العمالية، مثل حق التأمينات ضد حوادث العمل، كما أصدرنا تشريعات مجانية التعليم الابتدائى والثانوى لكل الطبقات الفقيرة.

*** هناك فرق بين قوانين وتشريعات موجهة لشرائح اجتماعية مختلفة، وبين أن تكون هذه الشرائح الاجتماعية هى قوام الحزب سياسياً أو القوة الضاغطة لخدمة مصالحها الاقتصادية؟**

** هذا حديث ذو شجون، الحقيقة لا أستطيع الآن أن ادعى أن لنا نظرة اقتصادية ـ اجتماعية واضحة.

فالحزب الوحيد فى مصر الذى يمكن أن يكون تعبيرا عن قوة اقتصادية اجتماعية واضحة، أوله فكر واضح فى هذا المجال هو حزب التجمع أو التيار اليسارى!!! فهو يمثل الطبقة الكادحة العاملة، أما نحن فى حزب الوفد الجديد نتلمس طريقنا، لأن العمال لم يقبلوا علينا حتى الآن، بالطبع زمان كان هناك اتجاهات عمالية تنضم إلينا تحت تأثير الجاذبية الشعبية لمصطفى النحاس (باشا).

*** إذن كان هذا الأمر تعبيراً عن تأثير زعامة النحاس الفردية وليس سياسات الوفد القديم بعامة؟**

** نعم إلى حد كبير، وهذه القدرة لا تتوافر لكثير من القيادات الحزبية الحالية، بما يؤدى إلى عدم اجتذاب العمال إلى صفوف الوفد الجديد.

*** لم تعودوا تعبيراً عن العمال بالطبيعة.**

ولم تعودوا تعبيرا عن البرجوازية مالكة الأراضى - بالضرورة - إذن فعن ماذا تعبرون؟

** لا يستطيع أحد أن يقول إننا لا نمثل الطبقة الوسطى، فمعظم أعضاء الوفد من هذه الطبقة، وهى تشمل المثقفين والتجار ورجال الأعمال الحرة، والمحامين، والمهندسين.

*** حينما نتكلم عن الطبقة الوسطى، أرجو أن تضع فى اعتبارك، الحراك الاجتماعى الشديد الذى حدث فى العقد الماضى، وبهذا المفهوم هل تستطيع أن تقول إن سياساتكم التى تنادون بها تخدم هذه الطبقة الوسطى بمعناها الجديد؟**

** الدم الجديد فى الحزب هو من الطبقة الوسطى، صحيح ما زال هناك بعض الأشخاص فى الحزب من (الحرس القديم) يفكرون بعقلية ما قبل الثورة، وينعكس هذا على ما يتصوره البعض سياسات لا تخدم الطبقة الوسطى.

لكن هذا عالميا دائما يحدث، فعندما عاد البوربون للحكم فرنسا نسوا الثورة، ونسوا نابليون، ولكن الوقائع ردتهم إلى الحق بعد ثورة ١٨٣٠ و١٨٤٨.

هؤلاء الأشخاص الذين تربوا فى العهد القديم، من الصعب عليهم أن يتحولوا ـ بطبيعة الحال ـ الأمل فى طبقات جديدة طالعة لم تعرف شيئا عن الوفد القديم، ولم تعرف شيئا عما قبل الثورة، تمثل نظرة جديدة وسياسات جديدة لمصلحتها.. أى لمصلحة هذه الطبقة الوسطى.

*** ولماذا تدخل هذه الشرائح الجديدة إلى الوفد إذا كانت فلسفته الاجتماعية الاقتصادية ـ كما ذكرت سيادتك ـ غير واضحة؟**

** تدخل لتطور الحزب!

تدخل لتطور فلسفته!

فأنت لا تستطيع أن تقول إن الوفد ليس له فلسفة اقتصادية اجتماعية بشكل مطلق، فبرنامج الحزب فيه أفكار دستورية، وفيه أفكار اقتصادية، ولكن ـ مع الأسف ـ لم تتبلور البلورة الكافية.

فمثلا فيما يتعلق بالدستور، نحن مع النظام البرلمانى، ولسنا مع النظام الرئاسى.

وما يحدث فى أمريكا هو أكبر دليل على فساد تركيز السلطة فى يد

شخص واحد، خاصة مع تواجد أشخاص يعملون من وراء هذا الرئيس دون أن يدرى عنهم شيئا.

لقد أصبح من الصعب جداً، أن يضطلع شخص واحد بشئون دولة، ولو كانت ـ حتى ـ دولة متوسطة، فكيف يواليها يومياً، ويتخذ القرارات، أنه يحتاج إلى وزراء، والوزراء ـ حسب الدستور الرئاسي ـ يختارهم الرئيس بينما فى النظام البرلمانى، الحكم ليس فى يد شخص، ولكنه فى يد مجلس الوزراء.

الوزراء عندنا الآن موظفون، ولذلك تبنينا فكرة العودة للنظام البرلمانى أى العودة على الحكومة (الوزارة)، وليس حكومة (الشخص).

أما من الناحية الاقتصادية الاجتماعية، فقد قلنا ـ بصراحة ـ إننا لسنا اقطاعيين لأن الاقطاع انتهى، كما أن القوة الآن ليست فى الزراعة، بل هى فى المال، والمال فى البنوك فى حسابات أصحاب الملايين.

*** ومن هم أصحاب الملايين.. ماذا يعملون؟**

** هم رجال الأعمال، طبقة الـ (Business).

*** وهل يلتصقون الآن بحزب الوفد، ويلتصق بهم حزب الوفد بشكل أو بآخر؟**

** ليس عندنا بنكير واحد كبير، بالعكس نحن نقاسى ضائقة مالية! واشترينا مقرنا الحالى بصعوبة، وبالطبع ليس لدينا تاجر مخدرات أو تاجر عملة فهؤلاء نسقطهم، وبالطبع ليس لدينا واحد من المقاولين الكبار الذين يشكلون الطبقة التى تحكم المال.

وعلى أية حال فهؤلاء جميعا ينأون بأنفسهم عن الأحزاب ويحاولون السيطرة بطريقة خفية على أجهزة الدولة!

*** هل تقصد يشكلون جماعات ضغط.**

** بالضبط هم يشكلون جماعات ضغط.

*** ألا ترى أنه من العجيب أن يكون لجماعات الضغط ـ على النحو الذى ذكرت ـ فكر تعبر حركتها عنه، بينما حزب كامل ليس لديه تبلور لفلسفة اقتصادية ـ اجتماعية تحكم حركته السياسية؟**

** بالعكس، هذا طبيعى، فهؤلاء فئة تجمعها المصلحة الواحدة.

فمن المفهوم جدا، ومن الواضح جدا أن جماعة المستوردين، لابد أن يكونوا ضد القرارات والقوانين التى تحد من الاستيراد، وهم يحاولون أن يضغطوا لتوجيه اقتصاد الدولة عكس هذه الوجهة.

أما الحزب فيضم جماعات وشرائح تنتمى إلى عقيدة سياسية واحدة، وليس عقيدة اقتصادية، لأن ـ كما ذكرت ـ ممنوع إقامة أحزاب على أساس عقيدة اقتصادية، أو أحزاب فئوية، وعلى ذلك أصحبت الأفكار الاقتصادية ـ الاجتماعبة فيها شيء من عدم الوضوح والوعى بالمصالح هنا يكون أقل من الوعى بالمصالح المباشرة عند رجال الأعمال.

برنامج الحزب هو الذى يمثل سياسة الحزب افتراضا، وهو الذى يجمع الأعضاء فى هذا الحزب افتراضا، فإذا كان أعضاء الحزب لم يستوعبوا البرنامج فإن العلاقات بينهم تظل ضعيفة جداً.

أما المصالح الفئوية المباشرة فإنها تجمع أعضاءها برباط أقوى لا يمكن فصمه.

*** أخيرا وبعد طول نقاش وصلنا سوياً لأنك تعتبر أن حزب الوفد الجديد هو حزب الطبقة الوسطى، ألا ترى أن الحزب الوطنى الديمقراطى ينافسكم على هذا الأمر، بل ويتفوق؟**

** واقعيا تستطيع أن تقول ليس بيننا وبين الحزب الوطنى فروق كثيرة!

وكان هناك تلاؤما بيننا فى البداية، خاصة عندما كان الرئيس مبارك يقابل زعماء المعارضة، وربما أساء الرئيس اندفاع حزبنا فى معارضاته السياسية

بطريقة تتجاوز الحدود ـ أحيانا ـ وبالذات فى جريدة الحزب، إلا أن ذلك لا ينفى أننا أقرب للحزب الحاكم من أى حزب آخر!

فقط الأمر الذى نختلف فيه معه هو أن الحزب الوطنى ما زالت فيه بقايا للناصريين وبقايا للساداتيين تجعله كعربة يجرها حصانين، كل منهما إلى اتجاه مختلف.

*** تعدد الاتجاهات داخل الحزب الوطنى الديمقراطى هو دليل صحة، فإذا كان التيار اليمينى فى الحزب الوطنى يجنح بحدة للاقتصاد الحر، فالجناح اليسارى فيه يضع بعدا اجتماعيا مطلوبا للأداء الاقتصادى، وبالتالى يصبح هذا الحزب ـ مهما اختلف البعض حوله ـ تمثيلا صادقا لفكرة تيار الوسطية السياسى؟**

** يكون دليل صحة حينما يحدث وفاق بين التفكيرين.

*** أى قرار يصدر عن الحزب هو نتيجة وفاق بين تياراته كل بحسب حجمه، وكل بحسب تأثيره، وهذه هى الديمقراطية كما تريدون.**

** هذا رأيك على كل حال.

*** أعود فأسألك.. ما هى السياسات الاقتصادية التى تنادون بها؟**

** نحن لا ننادى باقتصاد حر، من قال إننا ننادى به؟!!

لا يوجد اقتصاد حر ١٠٠٪ نحن فقط نطالب بترشيد الأداء الاقتصادى.

خذ مثلا حكاية الاستيراد، لا يمكن أن نكون من دعاة فتح باب الاستيراد إلى ما شاء الله، لأن معنى هذا أن يدخل إلينا الاستيراد الطفيلى الذى يستورد سلعا كلحم الطاووس والكافيار والفواجرا (عجين كبد الوز)، كيف نصل إلى هذا، ونحن لا نصدر ما يغطى كل هذا السلع المستوردة.

فتح حرية الاستيراد على مصراعيها معناها الاستفزاز الاجتماعى.

ثم تعال وامسك القطاع العام، نحن لسنا ضد القطاع العام، لكننا نرى ضرورة انكماشه لابد أن تخرج السياحة ـ مثلا ـ من القطاع العام، ولابد أن تخرج الدكاكين (شملا وشيكوريل وغيرها) من القطاع العام.

لا بد من تهذيب القطاع العام!

هناك بعض الصناعات الكبيرة التى يرفضها الأفراد، يجب أن تقوم بها الدولة، وأكثر من هذا لا أتصور وجود للقطاع العام.

ما تفعله تاتشر (مرة أخرى) هو تصفية الصناعات الخاسرة، فيجب ـ إذن ـ أن نعرف من أين تأتى الخسارة، فإذا كانت من سوء الإدارة، الإدارة تطلع بره، لا يوجد شيء اسمه «إنسانية»، أما إذا كانت الخسارة ناجمة من أن المؤسسة الاقتصادية تبيع بما يسمى (السعر الاجتماعى) فليس لإدارتها ـ حينئذ ـ ذنب.

من هم الذين يحميهم القطاع العام؟

*** القطاع العام يحمى محدودى الدخل.**

** لا.. يا أستاذ، القطاع العام يبيع الرغيف المدعوم بقرش صاغ لرجل ممن تسميهم محدودى الدخل، فيضع فى هذا الرغيف جمبرى بأربعة جنيهات.

*** أنت تتكلم عن الحرفيين وأنا أتكلم عن موظفى الحكومة محدودى الدخل، وهذا ما قصدته فى أثناء الحوار بالحراك الاجتماعى الشديد صعوداً أو هبوطاً والذى جعل من الموظفين مثلا طبقة كادحة، ومن الحرفيين طبقة وسطى.**

** أقول لك الحق، لقد دللنا الموظفين والعمال، أكثر مما ينبغى، فنحن نعطيهم حقوقا تفيض، ولا نطالبهم بواجبات، ومن أهم العقبات فى هذا

الأمر، انتفاء حق فصل العامل، فعدم فصل العامل هو عقبة كبيرة جداً فى ميدان عمل شركات الاستثمار الأجنبية.

*** نحن لا نضع تشريعاتنا العمالية لخدمة شركات الاستثمار الأجنبية.**

** لا أقول هذا، ولكن أقول إن الانتاج لا يمكن أن يستمر بهذه القوانين التى تستبقى المهمل المقصر فى عمله، ثم يحصل على الحوافز والعلاوات والمرتبات كما لو كان مجدا.

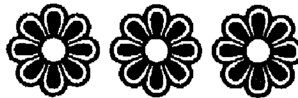
*** هذا قصور إدارى وليس قصوراً تشريعياً.**

** بل وقصور تشريعى أيضا، فماذا نسمى نسبة الخمسين فى المائة للعمال والفلاحين فى المجالس الشعبية؟، ولا حتى فى الاتحاد السوفيتى كان يوجد مثل هذا الشرط.

*** رجعنا إلى المقارنة بين وحدات غير متكافئة.**

** المقارنة لازمة هنا لنوضح كيف أننا نتمسك بالحقوق وننسى الواجبات، لابد من إعادة النظر فى هذه التشريعات، بحيث نراعى فيها الناحية الإنسانية، ولكن نضع مصلحة الإنتاج فوق أى اعتبار.

مارس ١٩٨٧



خالد محيى الدين

* نحن غير مسئولين عن النظرية الماركسية اللينينية ونسعى إلى تعديل النظام الرأسمالى بشكل متطور لتحقيق قدر من العدل الاجتماعى.

* ما دامت التجربة الشيوعية لم تنجح، لا يستطيع أحد أن يقول إن النظرية سليمة!

* التطورات فى فكر قيادة التجمع أسرع من التطور فى فكر الأعضاء العاديين!

* نعيد النظر فى برنامجنا السياسى العام على ضوء المتغيرات المحلية والإقليمية والدولية!

* اعترض الكثيرون على جلوسى إلى فؤاد سراج الدين وأولهم زوجتى!

* لا يوجد أحد فى مصر يمكن أن يجارينا فى معارضتنا لأننا - ببساطة - نفهم ماذا نريد!

* نحن لا نمارس الردح السياسى مثل جريدة حزب العمل، أو ربما مثل الجريدة الناصرية التى ستصدر!

* الناصريون كانوا الأكثر تشددا ضد الذهاب إلى مدريد على الرغم من أن عبد الناصر هو الذى قبل ٢٤٢.

* لن أتحالف مع الوفد ضد الناصريين.

* قلت للناصريين لا يجب أن يزايد أحد على الفلسطينيين أو المنظمة أو قيادة المنظمة.

* يبدو أن هناك عداءً مستحكما بين أميركا وفقراء مصر!

* هناك إجماع وطنى مصرى ضد أميركا فى موضوع الأزمة الليبية لا تتاح له فرصة التعبير عن نفسه!

* لم تذكر المصادر الروسية اسم الدكتور رفعت السعيد صراحة فيمن تقاضوا أموالا من الحزب الشيوعى الروسى، وبالتالى لا أستطيع أن أعتمد جدية هذا الكلام!

* تدعى بعض فصائل الإسلام السياسية أنها ضد العنف ولكن جوهر فكرهم واحد.

* ندرس الطريقة التى ستكون بها علاقاتنا مع فصائل الإسلام السياسى!

* ليس المهم حوار اليسار مع الترابى ولكن المهم هو الهدف الذى يريد الترابى الوصول إليه عبر الحوار!

* تجربة الجبهة القومية الإسلامية فى الحكم سيئة ديمقراطيا وتقوم على فهم غير عملى للشريعة الإسلامية!

* إيران والجزائر والسودان ثلاث تجارب تؤكد تأييد تيارات الإسلام السياسى للديمقراطية!

* جبهة الانقاذ فى الجزائر تحلت بغباء سياسى تجاوزه الغنوشى بذكاء!

* النقطة الأساسية فى أى حوار مقبل لنا مع تيار الإسلام السياسى، أن أحداً ليس معادياً للدين الإسلامى ولا للدين المسيحى.

ولكن الاختلاف هو حول دور الدين فى السياسة!

* لم يطرح عضو واحد فى حزبنا مسألة حصول البعض على أموال من الاتحاد السوفيتى لأجرى تحقيقا فيها!

* عدد الناصريين الذين سيخرجون من التجمع لينضموا إلى الحزب الناصرى الجديد لن يكون كبيرا!! ولن يتجاوز ١٠ فى المائة!

* لا أحتكر زعامة المعارضة وحقيقة قيمة الناصريين ستظهر من نوع المعارضة التى سيقدمونها!

* أتمنى أن يصل الحزب الناصرى فى الديمقراطية الداخلية إلى مستوى التجمع!

* لن يذهب عضو واحد من أعضاء التجمع فى البرلمان المصرى إلى الحزب الناصرى!

* عدم اصطباغ التجمع بصبغة ماركسية هو معركتى وهى معركة حياة أو موت!!

* أنا ضد «سوقية» فكرة بيع القطاع العام!

* الحل أمام القطاع الخاص هو إلغاء الاعفاءات وتخفيض نسبة الضريبة.

* نحاول اتصالا بجمعية رجال الأعمال المصرية لنتعرف على آراء الرأسمالية المصرية، ولتأتى مطالبنا مراعية لمقتضيات الواقع الذى يمثلون جزءاً مهما منه!

* * *

« لا يوجد فصيل على الساحة السياسية المصرية واجه من المتغيرات فى العام الأخير قدر حزب التجمع الديمقراطى التقدمى اليسارى، فهو حزب

عليه أن يمارس حركته وسط أنباء وقعقعات انهيار رموز اليسار فى العالم، وهو حزب يدخل البرلمان المصرى ويمارس معارضته الشرعية من خلاله، وقتما تزدهر على الساحة تيارات بعيدة عن الشرعية وتخاصمها.

ثم إنه ـ أخيراً ـ حتى فى ساحة اليسار المصرى نفسه أصبح مواجها بمنافس جديد سبق ضجيجه حركته وهم الناصريون، ويزاحمه هذا المنافس مساحته المعتادة وبعض طروحه التقليدية، وتلوح بعض رموزه وبخاصة من الشباب بتصفية حساب قديم.

والحوار مع الأمين العام لحزب التجمع **خالد محيى الدين** (٧٠ عاما) يكتسب بهذا المعنى أهمية، ويمثل جانباً جديداً فى الصورة التى نرسمها لحركة الأحزاب السياسية والتيارات الفكرية فى مصر».

*** أعلنت الأحزاب الشيوعية المصرية فى إطار تقييمها لانهيار المعسكر الشرقى سلامة النظرية الماركسية وأسقطت الفشل على أخطاء التطبيق، هل يمثل هذا رأى التجمع الوطنى الديمقراطى الوحدوى الذى ترأسه فى مصر، أم أن التجمع يرى أنه فى حاجة إلى إعادة تقييم التجربة وتنظير مبادئ الحزب وأهدافه وبرامجه على ضوء هذا التقييم ؟**

ـ نحن غير مسئولين عن النظرية الماركسية اللينينية.

التجمع من ضمنه الماركسيين كقوة رئيسية ومهمة، ونحن متأثرون بالفكر الاشتراكى العلمى، وأى فشل للتجربة الاشتراكية يؤثر علينا، ولكن ليس التجربة الاشتراكية الروسية على وجه التحديد.

ليس عندنا نموذج مسبق لتطبيق الاشتراكية، وكان هذا واضحا فى برنامجنا ووثائقنا من أول دقيقة.

نحن مع تعديل النظام الرأسمالى بشكل متطور إلى أن نصل إلى شكل من أشكال العدل الاجتماعي المقبول.

مادامت هناك تجربة لم تنجح، فلا يستطيع أحد أن يقول بسلامة النظرية الشيوعية مائة بالمائة، وأن الفشل كان لأخطاء فى التطبيق فقط.

وعلى الرغم من ذلك فإن النظرية ـ فى دراستنا لفشل التجربة، الشيوعية ـ لا تهمنا، ولكن ما يهمنا هو فهم الناس للنظرية، وإلا أصبحنا فى موقف شبيه بمن ينظر إلى انهيار الدولة الإسلامية وحضارتها فى الأندلس، ويرد ذلك إلى أسباب تتعلق بالإسلام.

هذا غير منطقي وفيه تعسف كبير.

إذا نظرت إلى فكرة مثل ديكتاتورية البروليتاريا حيث طبقها السوفيات، تجدها تحولت بدلا من (ديمقراطية فيما بين البروليتاريا وديكتاتورية على أعدائهم) إلى (ديكتاتورية على الجميع)!

هذه ـ إذن ـ من لون المسائل التى تحتاج إلى دراسة على ضوء انهيار المعسكر الشرقى، بل وإلى إعادة النظر فيها، ولا يمكن اعتبارها من ثوابتنا.

نحن حزب وطنى له بعد قومى وبعد عالمى، ونسعى إلى إقامة مجتمع أكثر عدلا، وهذه الفكرة تتأثر كثيراً بالظروف الواقعية لمصر وما حولها، وللعالم كله بحيث تتغير الأولويات من دون تغيير فى الأهداف الاستراتيجية لنا.

فإذا كانت الظروف والمتغيرات تفرض أن أضع أمامى ـ كحزب ـ أولويات معينة، فذلك لا يعنى التخلى عن هدف العدل الاجتماعى.

وعلى سبيل المثال فإن برنامجنا السياسى العام بأكمله يتحدث عن حماية القطاع العام وتطويره والتنمية المستقبلية، فإذا ارتأينا أن الإرادة الوطنية مقيدة لظروف عملية عن تحقيق التنمية المستقلة، نضع أولويات أخرى من دون التخلى عن الهدف الاستراتيجى.

* **حراك:**

* **داخل حزبك (التجمع) لابد أن هناك حراكا فكريا أفرزته هذه التطورات المتلاحقة التى حدثت بالنسبة للنظرية، وبالنسبة للمعسكر الشرقى كله.. هل تعتقد أن هناك فى التجمع من يفكر- الآن - مثلما تفكر أنت، أم أنك مؤسسة لوحدها كما أراك دائما؟**

- التطور في فكر القيادة أسرع من التطور فى فكر الأعضاء العاديين، فالقيادة تشتغل فى معترك العمل اليومى، ويفرض عليها الواقع أسئلة يومية يجب أن تجد لها إجابات، أما العضو العادى الذى لا يتحرك، والذى ربما بنى ثقافته السياسية على قراءة كتاب واحد، ولمرة واحدة فإن التغير فى فكره يصبح أمراً صعباً.

وعلى سبيل المثال يعد البرلمان المصرى مشروع قانون جديد لتنظيم العلاقة بين المالك والمستأجر، وفى إطار دراسة بنود هذا القانون قمت بعقد اتفاق مع الحزب الوطنى الديمقراطى (الحاكم)، اعتبره اتفاقاً جيداً، لم أحصل فيه - بالطبع - على كل ما أريد، ولكن اطمأننت على عدم خروج المستأجرين من الأرض الزراعية وعلى امتداد عقد الإيجار لأبنائهم العاملين بالزراعة، وفى هذا الاطار كنت على استعداد لتقديم تنازلات تتمثل فى رفع قيمة الإيجار وفى إمكانية البيع بالتعويض.

ولما فتحنا المناقشة فى حزبنا حول الموضوع، وجدت من يسألنى: «لماذا تقدم أى تنازلات؟»، وهذا - بالطبع - يعكس عدم استيعاب الظروف الواقعية التى نعمل فيها، وأيضا عدم استيعاب لما يجرى فى العالم.

فكر هؤلاء يكون صعب التطور بحكم واقعهم الطبقى، وبحكم تجاربهم الخاصة وثقافتهم وكذلك بحكم عادة تمترسهم فى مواقع فكرية بعينها!

ومثال آخر كان أزمة الخليج، حين فتحنا المناقشة حولها فى الحزب، ووجدنا من ينحاز ـ إطلاقا ـ إلى جانب العراق، وأيضا من ينحاز ـ إطلاقا ـ إلى جانب الكويت، ثم من أخذ خط الحزب وهو إدانة العدوان العراقى والوقوف ـ كذلك ـ ضد فكرة الحرب على العراق.

الحزب يموج ـ إذن ـ بالآراء، ولكى تنتظم هذه الآراء خطوط عامة تتوخى ما يجرى فى العالم، ولهذه الأسباب شكلنا لجنة لإعادة النظر فى البرنامج السياسى العام للحزب، وهو عمل سيستغرق حوالى ثلاثة أعوام.

*** ما هى النقاط المرشحة لإعادة النظر والتقويم فى فكركم؟**

ـ نحن فى عالم غابت فيه الاشتراكية كحقيقة مادية، ففى ماذا يمكن أن نحادث الناس، ونحن متمسكون بصورة العدل الاجتماعى الذى نسميه (اشتراكية) ؟

لابد من تقديم أفكار جديدة يتسلح بها أعضاء الحزب لمواجهة هذا المعنى الجديد.

*** وهل تعتقد أن الجمود العقائدى الذى يتسم به الكثيرون من أعضاء حزبك يمكن أن يسمح لهم بحركة مرنة تستجيب لمتغيرات الواقع؟**

ـ البراعة الحقيقية أن يفرض أصحاب المرونة الفكرية موقفهم ـ بالإقناع ـ على الجادين، وينجحوا فى تحقيق تجاوب الجميع مع الواقع الجديد، لقد كان الجامدون يتحدثون بضيق دائم عن بعض الشخصيات العامة الأعضاء فى الحزب، والذين يطورون أفكارهم باستمرار تجاوبا مع الواقع مثل لطفى الخولى والدكتور اسماعيل صبرى عبد الله، وكان الاتهام الموجه لهم أنهم لايقومون بعمل حزبى ويقتصر وجودهم على حضور الندوات والكلام والانصراف.

هؤلاء ثروة هائلة لحزبنا، وعندما تقدم بهم السن وفضلوا البقاء كأعضاء لجنة مركزية من دون دخول الأمانة العامة، انزعج أعضاء الحزب جدا، وأدركوا القيمة الحقيقية والوزن الذى يمنحه هؤلاء للحزب، وأصبح همنا ـ الآن ـ كيف نستفيد من أفكارهم لتطوير برامجنا وأفكارنا، واقتنع الجميع بذلك لأن أحداً لا يحب أن ينهار المعبد فوق رأسه.

*** محدود:**

*** اتجه حزب التجمع فى العامين الأخيرين - خصوصاً - إلى تقديم نموذج جديد لمعارضة أكثر هدوءاً وموضوعية، وكان أداؤه فى مجلس الشعب مؤشراً لهذا التوجه بالفعل، ولكن يتوقع بعض المراقبين أن يضطر التجمع لمجاراة الحزب الناصرى إذا بدأ ممارساته بالتصعيد لإثبات وجوده وجذب الأنظار إليه، فهل هناك أساس لهذا التوقع، وهل يمكن أن يحدث العكس بأن يتجه حزبك إلى المزيد من التقارب مع الحزب (الحاكم) ؟**

ـ من يوم أن دخلنا إلى مجلس الشعب، ونحن نعرف حدود قوتنا، نحن عدد محدود داخل المجلس (ستة أعضاء) وهذه المعارضة الصغيرة الحجم لاتستطيع أن تفعل ما كانت تقوم به معارضة (الاخوان ـ الوفد) والتى كانت تبلغ ٨٠ عضواً، إذا انسحبوا يحدثون أثراً، أما نحن فإذا انسحبنا لن يكون هناك تأثير.

نحن نركز على معارضة الجوهريات أو القضايا الحاكمة، ويساندنا مجموعة من الأعضاء المستقلين لا بأس بهم، وهذه الجوهريات تشمل بيان الحكومة وموازنة الحكومة، وبعض القوانين الحاكمة مثل قانون قطاع الأعمال، وهذه أمور يظهر فيها موقف حزبنا بوضوح، ولا تراجع عنها، ولا

يوجد أحد فى مصر يستطيع أن يجارينا فى هذه المعارضة لأننا ـ ببساطة ـ (فاهمين إحنا عاوزين إيه) !!

لدينا أفضل خبراء ونعد دراساتنا جيداً، ولقد جن جنون عاطف صدقى رئيس الوزراء المصرى حين قدمت ردى على بيان الحكومة فى البرلمان لأننى لم أقل كلمة إيديولوجية واحدة، ولم أذكر حرفاً عن الاشتراكية، وإنما ركزت ببيانات متعمقة على مشكلات الناس اليومية من غلاء وبطالة وغيرها، وهذا أمر لا يستطيع أحد ـ مرة أخرى ـ أن يجارينا فيه.

أنا لا أهتم بالمعارضة كظاهرة صوتية يعلو فيها (TUNE) الأداء، ولكننى أهتم بجوهر المعارضة.

جريدة الشعب (لسان حال حزب العمل الاشتراكى) تمارس المعارضة كعملية من عمليات الردح السياسى، وربما تظهر جريدة الحزب الناصرى الجديد لتمارس هذا اللون من الردح، ولكننا لا نفعل، أبداً لن نفعل.

ما دمنا قررنا أن ندخل فى مجال المعارضة البرلمانية، سنتكلم ـ إذن ـ على قدر قوتنا، ولن نمارس المعارضة الصوتية، أما مسألة الاقتراب من الحزب الوطنى فلا أعتقد أنها ممكنة لأن جوهر سياساتنا مختلف، ولكننا نتفاهم فى بعض الأمور ونصل إلى حلول وسط.

* فاهمين!

*** «إحنا فاهمين احنا عاوزين إيه».. هذه الجملة لفتت نظرى - حالاً - فى كلامك، فهل تصمد هذه الحملة أمام التساؤل الذى ثار أكثر من مرة عن طبيعة علاقات حزبك مع حزب الوفد، والتيارات المختلفة التى ظهرت عندكم ليدعو بعضها إلى التحالف أو - على الأقل - إلى علاقات وثيقة مع حزب الوفد، وكيف سيكون الحال بعد تأسيس الحزب الناصرى، وهل**

يحتمل أن يجد حزبك مصلحة فى التحالف مع الوفد إذا اشتدت منافسته مع الناصريين ؟

ـ الخلاف بيننا داخل حزب التجمع لم يكن حول التحالف أو عدم التحالف مع الوفد لأن التحالف غير مطروح، ولكن الخلاف كان حول التعاون أو عدم التعاون.

نحن نتعاون مع الوفد فى قضية الديموقراطية، ولنا مصلحة فى هذا، لأن أى تطوير للديموقراطية هو تطوير للمصلحة الوطنية.

وحتى زوجتى كانت تعترض على هذا التعاون قائلة: «كيف تجلس إلى فؤاد سراج الدين وأنت من رموز ثورة تموز (يوليو) ؟..

أنا كسياسى أتعامل مع الواقع، وحزب الوفد حزب موجود على الساحة وحزب العمل ـ أيضاً ـ على الساحة ويأتلف مع الاخوان المسلمين، لاأستطيع أن أتجاهلهم، حين الكلام عن قضية الديموقراطية.

ومع ذلك فقد كان هناك ـ أيضاً ـ فى حزبنا تيار ضد أن ننسق مع حزب الوفد بوصفه معاديا لثورة تموز (يوليو).

أنا لا أجلس إلى حزب الوفد فى موقف العداء للثورة، ولكننى أجلس إليه فى قضية الديموقراطية.

برنامج حزبنا الأساسى يتكلم عن أننا حلفاء للناصريين والماركسيين، هذه قضية تحالف وليس تعاونا بعكس الوفد.

ما بينى وبين الناصريين أوثق ولا يمكن أن أتحالف مع الوفد ضدهم، صحيح أننى يمكن أن اختلف مع الناصريين لأنهم يتشددون ويركبون دماغهم كثيراً ولكننى لا أتحالف ضدهم.

وحتى داخل حزبنا كان الناصريون أكثر العناصر وقوفا ضد ذهاب مصر إلى مؤتمر مدريد مع أن عبد الناصر هو الذى قبل ٢٤٢ الذى هو أساس

التفاوض ولدهشتى فإن بعضهم قال إن عبد الناصر قبل القرار كرئيس دولة له حساباته المغايرة.

كان لابد أن يؤيد حزبنا الذهاب إلى مدريد ليس لهدف المفاوضة فحسب، ولكن لهدف تحقيق نتيجة من المفاوضة ولهذا قلت للناصريين: «لا يجب أن يزايد أحد على الفلسطينيين أو المنظمة أو قيادة المنظمة».

نعم ربما يتشدد الناصريوين ويحاولون الوقوف على يسارنا لكننى على يقين أن الموقف العاقل هو الذى يكسب أخيراً.

* وليبيا:

*** اختلفتم - أيضا - فى حزب التجمع مع موقف السياسة الخارجية المصرية تجاه الأزمة الليبية، وبخاصة الالتزام بتنفيذ القرار ٨٤٧، لكنكم لم تقدموا بديلا واضحا لهذا الموقف فهل لديك بديل جدى لا يعرض المصالح المصرية للخطر؟**

- هناك صعوبة - دائما - فى الموقف المصرى تأتى من أن الدولة لم تحل - حتى الآن - مشكلة اعتمادها الغذائى على الولايات المتحدة الأمريكية، ناهيك عن الاعتماد العسكرى.

هذا الوضع لا يعطينا الفرصة أو المرونة اللازمة فى التحرك.

وعندما زرت ليبيا عند بدء العقوبات عدت لألتقى بالرئيس المصرى حسنى مبارك وطرحت عليه - وعيا بالظروف الموضوعية والواقعية - أن تطلب مصر ولو بعد فترة إعادة النظر فى قرار مجلس الأمن بتطبيق العقوبات على ليبيا لأن فى هذا الموقف إضراراً بمصر ومصالح المواطن المصرى، وهناك سوابق فى هذا المجال يمكن أن نجرى عليها مثل استثناء زامبيا من قرارات مقاطعة زيمبابوى.

ووجدت الرئيس مبارك يتعامل بعقل مفتوح مع الأمر ويرى أنه مسئول عن ٥٨ مليون مصرى ولا يجب أن يورط بلاده فيما لا يجب أن تتورط فيه.

بصراحة ـ ليس لدى حزبنا حل مطروح وسريع لهذا الموقف، ولكن الحل كان يجب أن يتحقق كما قلنا منذ العام ١٩٨٥ حين أجبرت أمريكا طائرة مصرية على الهبوط فى صقلية فى تداعيات ما عرف بحادث «اكيلى لاورو» لأن هذا الحادث أثبت الهيمنة الأمريكية علينا، وكان لابد أن نحاول منذ حدوثه تحقيق قدر من اعتمادنا على أنفسنا.

ولكن على أية حال أنا لا أصنع السياسة، ولكننى أنبه، وفى الموضوع الليبى بالذات نحن نتحدث من منطلق مصلحة المواطن المصرى التى أضيرت والتى يمكن أن تضار أكثر إذا تم تشديد العقوبات.

وفى هذا السياق يبدو لى أن هناك عداء مستحكما بين أمريكا وفقراء مصر، فكلما ذهبت العمالة المصرية إلى بلد، لتخفيف الكثافة السكانية أو حل مأزق التنمية إذا بأمريكا تضرب هذا البلد وتعيد تصدير المشكلة إلينا.

ثم هناك نقطة أخرى مرتبطة بكل ما سبق وهى القيود التى تضعها السلطة فى مصر على حرية التعبير خارج نطاق الخط الرسمى فى موضوع الأزمة الليبية.

هى تمنع أى تعبير مضاد ومن ثم تفقد نفسها قدرة استخدام ورقة هذا التعبير المضاد فى اتصالاتها مع الغرب وأمريكا.

لو سارت مظاهرة إلى مقر السفارة الأمريكية فى القاهرة فسوف تمنع ولو سارت مظاهرة إلى الحدود الليبية ـــ المصرية فسوف تمنع، وهذا يعكس صورة غير صحيحة لموقف الشعب المصرى من الأزمة.

وهناك رأى ثالث يقول: لا يجب أن ندين، لأن المتطرفين معادون للفكرة العامة، ومعادون للديموقراطية، ومعادون للوحدة الوطنية.

ويختلف فريق أخير حول ما إذا كان عداؤنا للتطرف أكبر، أم للحزب الوطنى (الحاكم)!

*** هناك فصيل سياسى إسلامى يمثله الترابى فى السودان والغنوشى فى تونس يطرح أفكاراً فيها حوار وتنسيق مع بعض القوى اليسارية والقومية فما هو موقفك منه؟**

ـ نحن لسنا ضد الحوار، فلا يوجد حزب سياسى على الساحة يعقل أن يكون ضد الحوار، ولكن القضية هى ما الذى يريد تيار الترابى الوصول إليه من خلال الحوار.

*** الترابى يمثل تجربة وصل فيها أحد تيارات الإسلام السياسى للحكم، ربما يكون الحوار حول تقويمها؟**

ـ هذه تجربة سيئة ديموقراطيا.

*** لماذا؟**

ـ الترابى منع القوى السياسية الأخرى من الظهور ومازال، بل إنه فى سبيل أن يطبق الشريعة الإسلامية من وجهة نظره كان مستعداً لأن ينفصل الجنوب، وهذا منطق غريب، وفهم غير عملى للدين الإسلامى، وفهم غير عملى للشريعة الإسلامية.

***كيف؟**

ـ وحدة الأمة قضية أقوى من أية قضية، وصيغة تطبيق الشريعة كما وردت أيام الخلفاء الراشدين ليست الصيغة الوحيدة، فهى صيغة عربية خاصة

بمكة، وهناك صيغة حديثة تقوم على عمل قوانين مدنية تحقق أهداف الشريعة، ويتساوى أمامها المسلمون والمسيحيون.

المجتمع الإنسانى يسعى لإنهاء تطبيق العقوبات البدنية، وحتى عقوبة الإعدام، وهم يفكرون فقط فى تطبيق الحدود، بينما النص الفقهى «أن الضرورات تبيح المحظورات» يعطى الحاكم حق تعطيل تطبيق الحدود فى أى وقت. إذن حصرهم لتفكيرهم فى هذه النقطة غير عملى بالمرة.

*** ولكنهم ربما يرون فى تجربة الجزائر تأكيداً لأن غيرهم هو الذى يقيد الديموقراطية ؟**

ـ أخطأت جبهة الإنقاذ فى الجزائر خطأ كبيراً.

كنا نتمنى أن تأتى هذه الجبهة إلى الحكم لتقدم ـ كما تقول ـ عدلا وديموقراطية.

ولكن هذا لم يحدث حتى الآن أبداً من أى فصيل من فصائل الإسلام السياسى.

أول الأمثلة هو نظام إيران، صحيح أن فيه عملية انتخابية ولكنها فى اطار نظام دينى معين لا يخرج أحد خارجه.

وتجربة السودان مثل تحدثت عنه.

ثم نموذج جبهة الإنقاذ فى الجزائر الذى لوح كثيراً قبل الانتخابات بأنه إذا ما حصل على أغلبية سيغير فى الاطار الديموقراطى الذى جاء على أساسه.

الأغلبية إذا جاءت إلى الحكم يمكن أن تصدر القوانين التى تشاء، أما أن يتم الاعلان عن جيش إسلامى، ودولة إسلامية، فهذا يشعر موظفى الدولة وضباط الجيش بأنهم عرضة للتسريح، وهنا استفزت جبهة الانقاذ الناس

ضدها، وتصرفت بغباء سياسى حقيقى، وبالتالى فإن راشد الغنوشى كان أكثر ذكاء من الجزائر حين أكد أن العاجل ليس تطبيق الشريعة الإسلامية، ولكن العاجل هو الديموقراطية واستقرارها وتداول السلطة.

الناس فى العالم العربى ليسوا بلهاء.

وليس مقبولا أن يجىء تيار ليقول أنا قابل للديموقراطية، بينما الناس متأكدون أنك إذا وصلت إلى الحكم ستعطل الأداء الديموقراطى.

نحن ـ إذن ـ لا نعترض على فكرة الحوار مع أى تيارات الإسلام السياسى نحن جاهزون، ولكن النقطة الأساسية التى أود التأكيد عليها فى أى حوار مقبل معهم أن أحدا منا ليس معاديا للدين الإسلامى ولا للدين المسيحى، ولكن الاختلاف بيننا وبينهم هو حوار دور الدين فى السياسة.

*** وما هى جوانب الاختلاف حول هذا الدور من وجهة نظرك؟**

ـ الفكرة هى ألا يحاسبنى أحد قائلا: «إن هذا العمل كفر» يمكن أن يقول: «إن هذا العمل خطأ».

هناك فارق بين أن تخطئ فى الوطنية، أو تخطئ فى الاجتماع، وبين أن تكفر.

الكفر يعنى وجوب القتل، وهذا أمر خطير، ومن ثم فإن إدخال الدين فى السياسة قضية نأخذها بحذر شديد، الدين للأفراد، والتدين والأخلاق الفاضلة مسئولية تحميها الدولة.

أما السياسة فأمر آخر، لأن السياسة عقل، ووارد فيها أن يخطئ الإنسان ويصيب، فإذا أخطأ هل يكون مقبولا اتهامه بالكفر وحسابه على هذا الأساس؟!

* **فلوس!**

* **تردد فى الصيف الماضى أنك أعلنت استقالتك وحررتها وقمت بتسليمها إلى الدكتور رفعت السعيد الأمين العام المساعد لحزبك، والذى احتفظ بها فى مكتبه إلى حين عودتك من الإسكندرية وتهدئة الأحوال هل تسمح بإلقاء الضوء حول أسباب تلك الاستقالة؟**

- كان سبب الاستقالة أننى غير قادر على تلبية مطالبة الأعضاء التى طرحوها فى اجتماع اللجنة المركزية للحزب، والتى تدور حول أعمال «خارقة» يجب أن تقوم بها الهيئة البرلمانية للحزب، أو جريدته «الأهالى».

فى آب (أغسطس) المقبل سيبلغ عمرى ٧٠ عاما وقدرتى البدنية والذهنية قلت عن ذى قبل، ورأيت أن الاستقالة هى وسيلة إجبار أعضاء اللجنة المركزية على إعادة توزيع الأساسيات من أعمال الحزب اليومية بحيث يكون رئيس الحزب هو ممثل هذا الحزب لدى الغير، وهو المسئول السياسى والمشرف السياسى على أى عمل جبهوى أو سياسى، ثم الأمين العام المساعد هو المسئول عن العمل الإدارى المالى اليومى لوحدات الحزب فى ٢٦ محافظة مصرية.

* **ضمن عمليات النشر والإذاعة التى رافقت وترافق سقوط الكتلة الشرقية، أذاعت ألمانيا الشرقية معلومة معينة نشرتها بعدها نشرة «أنباء موسكو» تفيد أن الدكتور رفعت السعيد الأمين العام المساعد لحزبكم كان يتقاضى أموالا من الحزب الشيوعى السوفيتى هل حققت هذه المعلومة، وماذا كان تصرفك إزاءها؟**

- لم تذكر هذه الأنباء اسم رفعت السعيد، ولكنها قالت بالنص «ر. سعيد عضو المكتب السياسى فى الحزب الشيوعى المصرى» وبالتالى لا استطيع اعتماد جدية هذا الكلام، لم يذكر فى أى من هذه التقارير الصحافية اسم

الدكتور رفعت السعيد ولكن فقط «ر. سعيد» ربما كانت هذه التقارير تقصد شخصا اسمه رفيق سعيد مثلا.

*** هل عندكم واحد اسمه رفيق سعيد فى الحزب؟**

ـ التقارير قالت إنه فى الحزب الشيوعى وأنا لا أعرف الحزب الشيوعى وهناك من اتهموا من ضمن أعضاء التجمع بأنهم أعضاء فى الحزب الشيوعى المصرى، وذهبوا إلى المحكمة وحصلوا على البراءة، وبالتالى لا استطيع حتى أن أجزم بأن فلانا عضو فى الحزب الشيوعى.

لا أستطيع أن آخذ بهذه المعلومات الصحافية وأجرى تحقيقا فيها ساعتها سيقول الأعضاء تحقيق لماذا؟ وتحقيق على ماذا؟

ثم إن عضواً واحداً بالحزب لم يطرح هذا الموضوع للنقاش أو التحقيق فقد وجدوا أن المسألة ليس لها أساس.

*** بعيداً عن التصريحات ذات الطابع الدبلوماسى عن علاقة التجمع والناصرية إلى أى مدى سيؤثر تأسيس الحزب الناصرى الجديد على استمرار تمثيل حزب التجميع لليسار فى مصر؟**

ـ مؤكد أن الناصريين سيصبحون شركاء رئيسيين فى تمثيل اليسار فى مصر، وهم باستمرار كانوا يحملون هذه الصفة حتى من دون أن يكون لهم حزب، ولكنهم الآن سيحملون لافتة وجود شعبى، وإذا قلنا غير ذلك نكون من الذين يضحكون على أنفسهم، وعلى الرغم من ذلك فإننى أستطيع أن أؤكد أن عدد الأعضاء الناصريين الذين سيخرجون من حزب التجمع لينضموا إلى الحزب الناصرى الجديد لن يكون كبيراً.

*** على أى أساس تبنى توقعك هذا عن حجم الانتقال الناصرى من**

التجمع، ويخاصة أن هناك من يتوقعون أن يتم تفريغ التجمع من الناصريين؟

ـ نحن نعلم عدد أعضاء التجمع الذين وقعوا فى الحزب الناصرى الديموقراطى ونعلم عدد من وقعوا مع مشاريع الأحزاب الناصرية المختلفة التى كانت أوراقها أمام المحاكم قبل ظهور الحزب الناصرى الديموقراطى.

*** كم تبلغ نسبة هذا العدد إلى حجم الناصريين فى التجمع من وجهة نظرك؟**

ـ ١٠ فى المائه على أقصى تقدير، وسيكونون من الأعضاء القادة، وليس من الأعضاء العاديين لأن أغلب قواعد الحزب عندنا تجمعية، ولعب الناصريين كله محصور فى القيادات الوسيطة والعليا.

*** على أية حال فإن عشرة فى المائة ليس رقماً بسيطا؟**

ـ هو رقم تقريبى، ومع ذلك فإن من يبقى من الناصريين فى التجمع ستزداد قيمته عندنا ولن يحجموا بل سينطلقون إلى آفاق أرحب فى العمل لأنهم سيصبحون بالنسبة لنا «فرخة بكشك»!

*** منافسة:**

*** على الرغم من وجود الكثير من المواقف المشتركة بين حزب التجمع والحزب الناصرى فمن الصعب تصور عدم حدوث منافسات بينهما.. فما هى المجالات المرشحة لهذا التنافس من وجهة نظرك؟**

ـ المنافسة غير مرفوضة، ولكن العداء مرفوض.

والمنافسة ستكون فى مدى التعبير عن المصالح الوطنية والإجتماعية، كما أتوقع أن يكون هناك رغبة لديهم فى المزايدة حول القضايا الاجتماعية وقضية العلاقات مع اسرائيل.

*** تقول إن العداء سيكون مرفوضا فهل تتوقعه؟**

ـ لا أعتقد أننا أو الناصريين سنوصل الموضوع إلى العداء.

*** وعلى أى أساس بنيت هذا الاعتقاد؟**

ـ ليس من مصلحتنا أن نضرب بعضنا البعض الآن العدو أمامنا أكبر، واعتقد إذا ظلت قيادة الحزب الناصرى فى يد ضياء الدين داود فإن الأمر سيكون أيسر.

*** توقع بعض المراقبين أن يتمكن الحزب الناصرى الجديد فى مصر من تشكيل هيئة برلمانية له تضم عدداً من النواب أكبر من حزب التجمع، ويعنى هذا انتقال زعامة المعارضة التى تتولاها الآن إلى السيد ضياء الدين داود كيف ستتعامل مع هذا الأمر؟**

ـ زعامة المعارضة ليست ميراثا، وحزب التجمع سيؤدى دوره فى المعارضة كما يؤديه فى كل الحالات ـ وأنا ـ على أية حال ـ لا أعتبر نفسى زعامة، لأننى لا أحرك المعارضة خلفى، ولا أستطيع أن أتكلم باسم المعارضة ولا باسم المستقلين، واتكلم ـ فقط ـ باسم التجمع لأننى الحزب الوحيد الممثل فى البرلمان.

فإذا شكل الناصريون هيئة برلمانية من سبعة أو ثمانية أعضاء فى البرلمان سيتغير الوضع، ولكن الحقيقة أن قيمتهم الفعلية ستظهر من مستوى ماسيقدمونه من معارضة.

الزعامة وحدها لا تساوى شيئا، سنمارس دورنا وستكون هناك منافسة.

أنا غير متخوف من انتقال زعامة المعارضة، وكنت أفضل أن تظل للتجمع، فإذا ما انتقلت فهذا موضوع آخر، وسيظل تعبيرى عن المعارضة قائما.

وعلى أية حال فقد أعلن الأستاذ ضياء الدين داود أنه طوال الدورة البرلمانية الحالية مشغول ببناء حزبه ولا يفكر فى بناء الهيئة البرلمانية إلا فى الصيف المقبل.

وفى هذا السياق يهمنى أن أؤكد أن عضواً واحداً من الأعضاء الستة الذين يمثلون التجمع فى البرلمان المصرى لن ينضم إلى النواب الناصريين!!

*** داخلية!**

*** يعتقد الكثيرون أنه ما لم يصلح حزب التجمع أوضاعه من الداخل سيزداد تأثره ـ سلباً بتأسيس الحزب الناصرى، وبخاصة أنه مازالت هناك شكاوى من أساليب إدارة العلاقات الداخلية فى التجمع ومحدودية الديموقراطية الداخلية فيه؟**

ـ أنا أتمنى أن يصل الحزب الناصرى فى الديموقراطية الداخلية إلى مستوى التجمع.

التجمع بالنسبة إلى الديموقراطية الداخلية إيجابى جداً، وليس معنى هذا أننا وصلنا إلى القمة، ولكن نحن الحزب الوحيد الذى يتم انتخاب كل موقع فيه من تحت إلى فوق، ونحرص على الرغم من ذلك أن تكون الأقلية ممثلة.

لن يكون التجمع جهازاً طارداً لعيب فى ديموقراطيته الداخلية أبداً، ولكن إذا أراد أحد أعضاء التجمع أن يذهب إلى الحزب الناصرى ليشعر أنه ناصرى نقى PURE مائة بالمائة فهذا موضوع آخر، وهكذا لو افترضنا أن حزباً شيوعياً قام فى مصر لابد أن أعضاء من التجمع سيخرجون من عندنا لينضموا إليه.

*** ولكن خروج الناصريين حتى لو كان يمثل ١٠ فى المائة من القيادات العليا والوسيطة ـ فى تصورى ـ يمثل أضراراً بصيغة التجمع، أو بمعنى آخر سيؤدى إلى تغليب وإعلان الصفة الماركسية لحزب التجمع؟**

ـ هذا وارد، ولكن فى تجمعاتنا الأخيرة ظهرت اتجاهات معتدلة كثيرة حتى فى أوساط الماركسيين، ومع ذلك فالنتيجة الطبيعية فى أوساط قيادة التجمع لخروج الناصريين من بعض المستويات القيادية هى أن يحل الماركسيون محلهم لأن القوميين والتيارات الأخرى ضعاف.

وهنا تصبح المعركة هى كيف لا يؤدى هذا الصعود للماركسيين إلى اصطباغ التجمع بصبغة ماركسية، وهذه معركة حياة أو موت ـ بالنسبة لى ـ لأننا إذا سمحنا بذلك فلن يكون هناك فارق بيننا وبين الحزب الشيوعى.

*** وهل ظهرت بوادر لإعلاء الصيغة الماركسية على حزبك الآن؟**

ـ لا.. تماما، وما أود إيضاحه هنا أن الماركسيين أنواع، فهناك الماركسى تماما، وهناك الشيوعى الذى يغلب عليه المنهج التجمعى فى الحركة أى يضع فى اعتباره مشاعر الجماهير وما يمكن أن تقبله أو لا تقبله، بمعنى أنه يتخفف كثيراً مما ورد فى الكتب والنظريات ويتعامل مع الواقع.

قد أجد فى الفصيل الأول من يقول إن الموقف المبدئى لحزبنا يجب أن يكون ضد الوجود الاسرائيلى ومن يقول إننى مع الوجود الاسرائيلى؟؟ ولكن الفارق هو أننى كتجمعى اتعامل مع حركة وواقع موجود، ورفض الوجود الاسرائيلى فى ظل وجود دولة فلسطينية أفضل من رفضه فى ظل غياب هذه الدولة.

وقد أجد فى الفصيل الأول من يقول بحتمية سيادة القطاع العام فى بلد مثل مصر وضرورته للتوازن الاجتماعى وبأنه أفضل من القطاع العام فى بلدان أخرى كثيرة، ولكن إذا فرض الواقع ظهور القطاع الخاص، واتساع نطاق هذا الظهور فإننى أفضل كتجمعى أيضا وألف مرة القطاع الخاص الوطنى عن القطاع الخاص الأجنبى.

*** هناك فى حزبك من يرى أن هذا تراجع؟**

ـ هذا ليس تراجعا ولكنه دفاع، وهناك متطرفون من الجانبين فى حزبى بعضهم يرى أنه تاجع والبعض الآخر يرى أننى كان يجب أن أظهر مرونة أكبر.

*** أعمال!**

*** من المنتظر أن تبدأ الدولة فى مصر فى شهر (يوليو) المقبل تنفيذ قانون قطاع الأعمال، ويرى بعض المعلقين السياسيين أن القانون سيؤثر بالسلب على مصالح العمال، ومكاسبهم فما هو موقفك من هذا القانون؟**

ـ موقفا من قطاع الأعمال ومصالح العمال هو موقف لا مراجعة فيه، ونحن نتعاون مع كل القوى السياسية والنقابية فى هذا السياق وتحالفنا الحركة العمالية، وليس الحزب الوطنى أو غيره وعندما أتحدث فى البرلمان فى هذا النقطة يكون النواب العمال معى على طول الخط وهذا لا يرتبط ـ بالطبع ـ بتسويتهم مع الحزب الوطنى فى القضايا الأخرى.

فى هذا الموضوع سأقف وأدافع بقدر ما أستطيع.

*** حول أية أمور سيكون دفاعك؟**

ـ نحن ضد إخراج العمال من عملهم، أو انتزاع مكاسبهم، وضد فكرة Vulgarisation أو «سوقية» بيع القطاع العام، فلا معنى لبيع مشاريع ناجحة، أو مشاريع استراتيجية كالحديد والصلب.

مجال الحركة فى الصناعة الوطنية الاستهلاكية وارد أمام القطاع الخاص، كالصناعات الغذائية والملابس الجاهزة.

ولكن لابد أن يبقى القطاع العام لأنه الذى يحقق التوازن الاجتماعى فى مصر، ففائض دخل هذا القطاع حوالى ١٢٠٠ مليون، وتضاف إليها حصيلة

الضرائب حوالى ٤ آلاف مليون، أما مع توسع القطاع الخاص فإننى أخشى على موارد الموازنة المصرية، وبخاصة مع تطبيق الضريبة الموحدة، وذلك لكثرة الإعفاءات.

وكذلك أنا من أنصار إلغاء الإعفاءات وتخفيض نسب الضريبة. لأن الإعفاءات لا تحمى الصناعة الوطنية، ولكن ما يحميها هو تخفيض نسب الضريبة، ورفع الجمارك على البضاعة المماثلة المستوردة من الخارج.

*** هل قمت بمجس لموقف الرأسماليين المصريين تجاه دعوتك هذه؟**

- هذه مطالبهم وهى تتلاقى مع مطالب الطبقة العاملة فى كثير من جوانبها.

وقد بدأنا لونا من الاتصالات مع بعض الرأسماليين المهمين فى مصر للتعرف على وجهات نظرهم بوصفها جزء من الواقع الجديد فى مصر الذى يجب أن تراعيه مطالبنا وممارساتنا، ومن هؤلاء محمد فريد خميس صاحب شركة النساجون الشرقيون للسجاد، كما نود أن نبدأ اتصالات مع بعض أعضاء جمعية رجال الأعمال المصرية.

مايو ١٩٩٢



محمد فائق

الناصريون والمعارك المؤجلة !

* القاعدة الجماهيرية الناصرية وجدت قبل الحزب.. بعكس الأحزاب المصرية الأخرى التى نشأت ثم أخذت تبحث عن جماهير!

* لا توجد خلافات بين قادة الحزب الناصرى، ولكنه نوع من الحيوية السياسية الزائدة!

* الناصرية ليست نظرية ولكنها انتماء إلى تجربة!

* هدف الوحدة لم يتغير، ولكن المداخل إليه تغيرت!

* الديموقراطية والتعددية أصبحتا من المفاهيم الثابتة لدى الناصريين؟

* الخلافات بين الفصائل الناصرية فى الاجتهادات وليست فى الثوابت!

* القطاع العام بالنسبة لنا ليس بقرة مقدسة..

* ولكن ما يهمنا هو قيامه بدوره سواء تملكته الدولة بالكامل أم تملكت جزءاً منه أو طورته!!

* نحن لسنا من المتفائلين بنتيجة الانتخابات الاسرائيلية!

* الامتداد التنظيمى للناصريين فى العالم العربى أصبح أمراً غير وارد!

* إذا انطوى الناصريون تحت راية التنظيمات السرية فقدوا ناصريتهم!!

* الأحزاب القومية فى العالم العربى مدعوة للتنسيق فيما بينها على غرار الدولية الاشتراكية!

* هناك فارق بين اللقاء الفكرى للقوميين والإسلاميين وبين التحالف السياسى!

* حوارنا السياسى سيكون مع كل الأحزاب والقوى المصرية ولن نخص الإسلاميين بهذا!!

* الناصريون ليس لهم مصلحة فى هدم حزب التجمع أو سحب الأعضاء الناصريين منه!

* لم يعد من الممكن تأجيل جانب الحقوق المدنية فى أى حكم ديموقراطى فى العالم!

* التنمية ليست أرقاما فقط، وإذا لم تقترن بالديموقراطية تكون مشوهة!

* هناك بعض الناصريين لا يزالون يتصورون أنهم سيفتحون كتب الثورة ليجدوا فيها رداً على أى موقف يواجههم!!

* سياسات أنور السادات هى التى فرضت علينا تسمية أنفسنا بالناصريين!

* لسنا سلفيين كحزب الوفد الذى تقوم كل حركته على العودة إلى ماقبل ٢٣ يوليو ١٩٥٢.

* الحملة على الناصرية تبدأ دائما من الحزب الوطنى.

ثم هذا حديث آخر مع **الأستاذ محمد فائق**، أحد الرموز الناصرية البارزة فى مصر، والمهموم بمواءمات بين أفكار مصر عبد الناصر وأفكار أخرى جديدة يمور بها العالم من حولنا، وتطرح فى كل لحظة على الناصريين تحديا يتعلق بمدى قدرة طروحهم الفكرية والسياسية على الصمود والتجدد وبخاصة وهم يمارسون عملا حزبيا شرعيا وعلينا للمرة الأولى فى مصر، ثم هو أيضا يرأس أحد التشكيلات الإقليمية لمنظمة حقوق الإنسان فيصبح قدره أن يبنى مواءمة أخرى بين الناصرية وحقوق الإنسان يحاول فيها معالجة العاهات التاريخية المستديمة التى أصابت تياره من جراء ما وصم به من معاداة لهذه الحقوق.

وفيما يلى نص الحوار:

*** توقع بعض المراقبين فورة فى النشاط الناصرى بعد حكم القضاء المصرى الخاص بالترخيص لحزب ناصرى بالظهور. ولكن هذه التوقعات ما لبثت أن أصابها شىء من التراجع السريع، فما تفسيرك لذلك؟ وهل هو مؤشر على أن الحزب الناصرى مجرد إضافة (كمية) إلى قائمة الأحزاب التى تعمل فى مصر، بعكس بعض التوقعات التى بالغت متصورة أنه سيؤثر بقوة على خارطة النظام الحزبى؟**

ـ الحزب الناصرى يختلف عن أى حزب مصرى آخر، فى أن جماهيره عريضة للغاية، وهذه الجماهير هى قاعدة يعمل عليها الحزب، بعكس الأحزاب الأخرى التى ظهرت أولا ثم بحثت لها عن جماهير.

هو حزب أخذ ـ أخيراً ـ الاعتراف الرسمى والقضائى، ولكنه كان موجوداً من الناحية الواقعية على الساحة قبل ذلك، وكانت له أطر، وبذلت محاولات متعددة من أجل إعادة صياغة وتكوين هذه الأطر.

والمرحلة الحالية التى يمر بها الحزب الناصرى بعد حكم القضاء بظهوره

ليست مرحلة عمل حزبى، لأننا لم نباشر أى عمل حتى الآن، ولكنها مرحلة قبول العضوية التأسيسية.

حزبنا يريد أن يبدأ كبيراً، حتى أن البعض يطالبون بألا تصدر جريدة الحزب إلا يومية، ومنذ البداية، وهذا يقتضى التمهل والهدوء والاستعداد لكل شيء.

مثل هذه المرحلة التى يمر بها الحزب، قد تؤدى إلى خلل فى النظرة إلى أمور الحزب من خارجه، فهناك من يبالغ فى وصف ما يجرى داخل الحزب الناصرى بأنه خلافات بين القيادات، والواقع أنه لا يوجد خلاف، ولكن هناك لوناً من الحيوية السياسية الزائدة يراها البعض مؤشرات لخلاف، وهذا غير صحيح.

أما على الساحة العامة فليس فى نيتنا دخول أية معارك مع جهة أو حزب أو مؤسسة، فنحن فى مرحلة خصصناها للبناء وليست للمعارك، فقط سنحاول أثناء هذه الفترة حماية ثوابت الناصرية بالحوار والإقناع ومحاولة التأثير وهى كلها وسائل مشروعة.

*** قبلما آتى إليك استمعت إلى الأستاذ محمد حسنين هيكل فى حديث إذاعى يقول بالحرف: «يوجد ناصريون.. ولكن لا توجد ناصرية»، ألا تتناقض هذه الرؤية مع ما ذكرته حالاً من أن الناصرية كانت لها جماهير وليس لها حزب، فالحزب تعبير عن فكرة أو نظرية، إن لم تكن موجودة فلا مجال لوجود الحزب ذاته؟**

ـ إذا كان القصد بكلمة (ناصرية) هو نظرية، فأنا أتفق مع الأستاذ هيكل بأنه لا توجد نظرية بهذا المعنى، أما إذا تكلمنا عن الناصرية بمعنى أنها الانتماء إلى تجربة، وأن هذه التجربة فى جوهرها صالحة لحل مشاكلنا حتى الآن، فالموضوع يصبح جد مختلفا، ثم إننا لو طرحنا فكرة أن الناصرية ليست

نسبة إلى فرد، ولكنها نسبة إلى تجربة إنسانية فسوف تختفى تماما حساسية الاعتقاد فى أن الناصرية هى نظرية سياسية أو فكرية.

*** ربما يكون هذا الكلام مدخلاً مناسبا لمناقشة الآلية التى تحكم ظهور وتطور المقولات الناصرية السياسية، فهل تعتقد أن عملية تطوير المقولات الناصرية لتصمد أمام معطيات محلية وإقليمية ودولية جديدة، كان مسألة ينبغى لها أن تنتظر لكى يظهر للناصريين حزب، أم أنها جهد فكرى كان ينبغى له أن يتواصل ناسجا علاقة هذا التيار بما يجرى فى الدنيا بدلا من أطنان الكلام التى قيلت وكتبت طوال عشرين عاماً خلت للتغنى بمحاسن التجربة الناصرية وإنجازاتها؟**

ـ أهم ما فى الناصرية، أنها أبرزت الضرورة إلى ظهور مشروع عربى، وهو ما أعتقد أنه أصبح الآن يمثل حاجة ملحة.

فإذا كنا فى الماضى نتكلم عن الوحدة العربية باعتبارها وسيلة تحقق لنا القوة فى مواجهة الآخرين، فقد ازدادت الحاجة إلى هذه الوسيلة الآن بعدما لم يصبح هناك مكان للكيانات الصغيرة فى عالم متغير.

نعم مازلنا نسعى إلى الوحدة وإلى الكيان العربى الكبير، ولكن مداخل هذه الوحدة أو اقترباتها ستتغير.

*** وحدة ما يغلبها!**

*** هل يمكن أن تشرح لى بشكل محدد كيف تغيرت مداخل الوحدة عند الناصريين، فمازلت لا أرى سوى مدخل الخمسينات الرومانسى الذى يطالب بالوحدة التى ما يغلبها غلاب من دون إدراك لعناصر الظرف التاريخى الدولى التى تطرح فى إطاره مثل هذه المطالب؟**

ـ من قبل المتغيرات الدولية التى نعيشها الآن، كان عبد الناصر يتحدث

قبل رحيله عن أن الوحدة ـ ليست ـ بالضرورة ـ وحدة دستورية، كما حدث بين مصر وسورية، ولكن الاقتراب من الوحدة له طرق عديدة أهمها تجربة وحدة أوروبا التى تعد أصلح الاقترابات وأنسبها للواقع العربى.

الناصريون هم أول من انتقدوا تجربتهم ومقولاتهم وعمدوا إلى تصحيحها وتطويرها، ففى عام ١٩٨٥ قامت دار المستقبل العربى بعقد ندوة عن الناصرية، وظهرت من خلال هذه الندوة مجموعات من المفاهيم السياسية الجديدة التى تمثل تطوراً تاريخياً فى الفكر الناصرى، مثل الاهتمام بقضايا التعددية والديموقراطية والتى أصبحت من المفاهيم الثابتة بين الناصريين.

*** هل هناك إجماع على كون الديموقراطية والتعددية من المفاهيم الثابتة بين الناصريين لدى الفصائل الناصرية المختلفة؟**

ـ ماذا تقصد بالفصائل الناصرية المختلفة؟

*** أقصد بها تلك المجموعات التى عملت فى الساحة السياسية قبل أن ترخص المحكمة لحزبكم بالظهور، مثل مجموعة فريد عبد الكريم أو مجموعة كمال أحمد أو غيرهما.**

ـ هناك اجتهادات ـ بطبيعة الحال ـ وأى فصيل قد يختلف فى اجتهاداته عن الآخر، ولكن ليست هناك خلافات على الثوابت.

وهذا أيضا مع الاحتفاظ للتيار بحيويته وبقدرته على التكيف مع المعطيات الجديدة.

فإذا قلنا إن فكرة (التنمية المستقلة والاعتماد الجماعى على النفس) هى من الثوابت الناصرية التى لا يختلف عليها أحد، فإن هوامش من الاختلاف والاجتهاد يمكن أن تنشأ حول الأسلوب أو الطريقة التى يتم بها تحقيق هذه الفكرة.

وكذلك ـ اتصالا بمفهوم التنمية المستقلة ـ قضية القطاع العام، وسنجد أن موقفنا من هذه القضية هو أن القطاع العام ـ بالنسبة لنا ـ ليس بقرة مقدسة، وإنما هو دور، وما يهمنا هو قيام القطاع العام بدوره سواء تملكت الدولة هذا القطاع بالكامل، أو تملكت جزءاً منه، أو اكتفت بتطويره، مايهمنا أن هذا القطاع مازال له دور فى تنمية المجتمع وفى إيجاد التوازن الاجتماعى داخل هذا المجتمع.

وإيماننا هذا لا يلغى القطاع الخاص أو سيادة اقتصاد السوق اللذين لم يعودا موضوعا للمناقشة، ولكن السؤال بالنسبة لنا كيف نواجه اقتصاد السوق ونحتفظ باستقلالنا وبإرادتنا وبصناعاتنا، هذا كله يمثل اجتهادنا الواجب الذى أخذ هامشا على الثوابت، لكيلا تتجمد الناصرية عند مواقفها القديمة أو تصبح تياراً سلفياً ماضوياً.

* لست متفائلا:

*** فى هذا السياق أيضا، كان أحد الثوابت الناصرية الشهيرة هو الموقف من الصراع العربى ـ الإسرائيلى، والآن يسود الاعتقاد بأن نتائج الانتخابات الإسرائيلية تعزز فرص إحراز تقدم فى مفاوضات السلام وبخاصة فى شقها الفلسطينى، فما هو موقف التيار الناصرى من هذه المفاوضات ابتداء؟ وكيف سيكون موقفه فى حالة التوصل إلى اتفاق للحكم الذاتى الفلسطينى يتوقعه الكثيرون مع نهاية هذا العام؟**

ـ نحن نؤمن بضرورة وجود استراتيجية عربية لهذه القضية، وبدون مثل هذه الاستراتيجية يستحيل إحراز أى تقدم فى القضية.

أما موقف الناصريين الحالى، فهو يحتاج كى يبلور نفسه إلى اقتراب من كل الأطراف ومعرفة مواقفها.

أنا لست من المتفائلين بنتيجة الانتخابات الإسرائيلية، والشواهد الأولية لاتوحى بهذا التفاؤل، فقد بدأ رابين يتراجع فى كثير من المقولات التى صرح بها قبل الانتخابات، وبالتالى فإن الإستراتيجية الإسرائيلية ستظل ثابتة ولن تتغير وهنا يتوقف الأمر على رؤية العرب ووحدة العرب.

نحن ـ بطبيعة الحال ـ مع تحقيق السلام، ولكن يجب أن يكون السلام العادل الذى يضمن حقوق شعب فلسطين، وفى هذا السياق فالناصريون لايرون ضرورة فى أن يطرحوا ـ هم ـ البديل، ولكن إذا لم يكن من الممكن الوصول إلى حل عادل يعطى الفلسطينيين حقوقهم فليس بالضرورة أن يكون الحل اليوم، ولكن يمكن الانتظار لحين حلول ظرف تاريخى مناسب، وبطبيعة الحال ـ فنحن لا ننفرد بموقف متشدد، ولكننا نلتزم بالتفاهم مع الاخوان العرب والفلسطينيين تحقيقا لأحد الثوابت الناصرية، وهى وجود استراتيجية عربية موحدة فى مواجهة اسرائيل.

*** ملتزمون جدا!**

*** تحدثنى عن الاتفاق مع العرب، وهذه المقولة تطرح ـ كذلك ـ شكل علاقة الحزب أو التيار الناصرى المصرى بالأحزاب والتيارات الناصرية فى بلاد عربية أخرى آخذاً فى الاعتبار بالقيود التى يفرضها القانون المصرى فى هذا المجال؟**

ـ سوف نلتزم بالقانون والدستور التزاما كاملا ـ بطبيعة الحال ـ وقد أصبحت لدينا قناعة بأن الامتداد التنظيمى للناصريين فى البلاد العربية أصبح أمراً غير وارد، ولكن التنسيق يجب أن يكون وارداً.

*** لماذا أصبح الامتداد التنظيمى غير وارد؟**

ـ التجربة أثبتت هذا، لأنه لا يوجد قطر يسمح بامتداد نشاط سياسى من قطر آخر إلى داخل حدوده وتنظيماته ومؤسساته.

ثم إن تصوراً نظرياً يجب أن يطرح فى هذا الإطار، وهو يمثل حالة تنظيم يمتد فى عدد من الأقطار العربية، ونجح أحد فروعه فى الاستيلاء على السلطة، فأين يكون الرأس؟ وأين يكون الفرع؟ ولعل حالة حزب البعث مثال واضح جدا فى هذا الصدد..

فإذا كانت هذه هى محاذير الإمتداد التنظيمى العلنى، فقد يتبقى ـ فى نظر البعض ـ الإمتداد التنظيمى السرى، وهنا أود أن أقول: أننا ـ كناصريين ـ نرفض فكرة التنظيمات السرية رفضاً باتاً، فنحن نرى أن العمل الناصرى لابد أن يكون مفتوحا وعلنيا وملتصقا بالجماهير، والناصريون إذا دخلوا تحت مظلة أحزاب أو تنظيمات سرية سيفقدون ناصريتهم بهذا المعنى.

نحن منفتحون على كل التنظيمات أو الأحزاب القومية فى العالم العربى التى نرى أنها مدعوة إلى أن يكون بينها لون من ألوان التنسيق على غرار الاشتراكية الدولية.

*** شبه فاشية!**

*** تيار سياسى آخر ينازعكم أفكار التنسيق عبر الحدود ولا يخاف من أفكار الإمتداد التنظيمى فى العالم العربى، وهو تيار الإسلاميين الجدد. ونعلم أن هناك عدة محاولات جرت وتجرى سواء من خلال الندوات والمحتفلات العلنية أو من خلال الاتصال أو الاقتراب الشخصى ما بين رموز التيارات القومية والناصرية وهؤلاء الإسلاميين فى تصورك ما هى الأرضية التى يمكن أن تجمع بين تيارين بهذا الحجم من الاختلاف فى كل التفاصيل اللهم إلا ما وصفه بعض أعداء التيارين بالطبيعة شبه الفاشية لهما؟**

ـ هناك فارق بين اللقاء الفكرى لأصحاب التوجه الإسلامى، والتوجه القومى، وبين التحالف السياسى.

فأما عن اللقاء الفكرى فليس لدينا كقوميين أية مشكلة فى هذا اللقاء، فقد حدد عبد الناصر دوائر ثلاث لحركة مصر هى: الدائرة العربية، والدائرة الافريقية والدائرة الإسلامية، ولا يوجد بطبيعة الحال أى تعارض بين هذه الدوائر، ولكن دائرة الارتكاز الأساسية هى الدائرة العربية، بينما يرى الإسلاميون أن دائرة العمل الأصلية هى الدائرة الإسلامية، ومثل هذا الخلاف يمكن أن يكون مجالاً للحوار والإقناع والشرح.

إلا أن ما أود التركيز عليه فى هذا السياق هو أن حوارنا سيكون مع كل التيارات والقوى السياسية المصرية ـ بوجه عام ـ وإننا لن نخص الإسلاميين بخصوصية معينة فى هذا الأمر.

*** الصلح خير!**

*** ألاحظ منذ بداية حوارنا هذه النغمة التصالحية التى ترد على لسانك كثيراً وربما هى نغمة تفرضها مقتضيات الواقع لحزب فى مرحلة الإعداد لا يود أن يدخل معارك مع أحد أو يختلف مع أحد، ولكن إذا تعرضنا ـ مرة أخرى إلى علاقة الحوار الحاصلة بين التيار القومى بما فيه الفصيل الناصرى، وبين التيار الإسلامى، أو علاقة التحالف السياسى المحتملة ـ ضمن احتمالات أخرى ـ لتحالف الناصريين مع قوى أخرى، فاسمح لى أن أسأل: ما هو برنامج (الحد الأقصى - الحد الأدنى) الذى يمكن أن يحكم حواراً أو تحالفاً من هذا اللون؟**

ـ مثل هذا الحوار لم يبدأ إطلاقاً، وليس فى أولوياتنا حتى الآن مناقشة أفكار للتحالف أو الحوار.

*** ولكن حواراً دار فى بيروت أخيراً من خلال المؤتمر القومى العربى بين القوميين والإسلاميين؟!**

ـ هذه اجتهادات مراكز أبحاث، وليس لها علاقة بالحزب الناصرى، وقد اهتمت هذه المراكز بإزالة التناقض الموجود بين الفكر القومى والفكر الإسلامى.

ونحن لن نكون طرفاً فى مثل هذه الحوارات إلا بعد انتهاء مرحلة بناء حزبنا.

*** خضت بنفسى تجربه إجراء عدة حوارات مع رموز وقادة الفصائل والتشكيلات السياسية المصرية الفاعلة على الساحة، ولمست هذه الحوارات موضوع ظهور الحزب الناصرى فى مصر بوصفه متغيراً سياسياً جديداً، فكان رأى المستشار مأمون الهضيبى المتحدث الرسمى بإسم الاخوان المسلمين أن الناصريين ليس لهم أية شعبية وأنهم مسيطرون على جميع أجهزة الاعلام وأجهزة الحكومة من دون أن يكون لهم حزب، ومع ذلك لم يحققوا شيئاً، أما خالد محيى الدين فقال إن خروجهم من حزب التجمع لن يمثل إلا ١٠ فى المائة من المستويات القيادية وليست القاعدة، وأن أحداً لن يستطيع مجاراة معارضة التجمع البرلمانية الموضوعية والمحترمة، أما فؤاد سراج الدين فقال إنه ينصح الناصريين بقطع كل صلة لهم بالماضى بما فيها اسم الحزب نفسه.**

إذن الجميع كان لهم ردود فعل واضحة لم تنتظر فترة الإعداد التى يصر الحزب الناصرى على مرورها قبل أن يعلن علينا مواقفه، التى لامعنى لتأجيلها فى مواجهة مثل هذه الطروح المهمة.

ـ سياساتنا لن تكون رد فعل لمثل هذه الأقوال، وإن كنا نؤجل ردودنا، وذلك لأننا مؤمنون ـ حقيقة بالعمل الديموقراطى، ونحن نريد أن تكون كل

الخطوط الرئيسية، التي يقوم بها الحزب، مدروسة جيداً وموافقاً عليها ديموقراطيا داخل الحزب.

ولكن فى هذا الإطار ـ قد يكون مفيداً أن نقول، إننا لا نعتقد أن الناصريين لهم مصلحة فى هدم حزب التجمع، وعلى العكس فهو حزب ساهمنا فى إنشائه، وليست لدينا نية لسحب الأعضاء الناصريين منه، ثم إن رئيسه خالد محيى الدين هو قيادة تاريخية للثورة، نقدر دورها فى البرلمان، وحزبه ليس منافسا وإنما مكمل، وجميع القضايا التى طرحت على مجلس الشعب منذ ظهور الحزب الناصرى، كان فيها تنسيق كامل بين الأستاذ خالد محيى الدين والأستاذ ضياء الدين داود.

أما ما يقوله الهضيبى عن حجم حزبنا فهو أمر ستثبته الأيام عندما نعلن عن حجم العضوية فى حزبنا، ونحن ندرك القلق الذى نثيره فى نفوس بعض العناصر، ولكن ليطمئنوا فليس همنا هو سحب السجادة من تحت أقدام أحد، ولكننا نريد أن نكون حزباً ممثلاً للجماهير العريضة التى غاب تمثيلها فترة طويلة. ونريد أن نعيد الحيوية للشارع السياسى العربى، ولتكن ولادة الحزب الناصرى فرصة جيدة كى تنشط الأحزاب الأخرى.

*** كنت تحدثنى ـ قبل قليل ـ عن أنكم أصبحتم ديموقراطيين تعدديين، منذ متى حدث هذا التحول، إن كان ثمة تحول؟**

ـ المقصود بكلمة الديموقراطية، ليس نقل نظام ليبرالى بحذافيره فقط، ولكن المقصود هو المعنى الواسع للكلمة الذى يحقق الديموقراطية السياسية جنبا إلى جنب مع الديموقراطية الاجتماعية والاقتصادية، وتجربة المجتمع الاشتراكى تثبت أن من أهتم بجانب وترك الآخر وصل إلى الانهيار والخراب.

التجربة الناصرية اهتمت بالديموقراطية الاجتماعية، ووسعت قاعدة المشاركة الديموقراطية السياسية للمواطن، فبدلاً من أن تكون الحياة السياسية

مرتبطة بالنصف فى المائة الذين يملكون كل الثروة، امتدت المشاركة إلى قاعدة أوسع.

*** هل دخل ضمن هذا التصور الديموقراطى الناصرى أن عنصر حقوق الإنسان والحقوق المدنية هو أحد أركان الديموقراطية التى يعرفها العالم؟**

ـ هذه الحقوق اعتقد أنها لم تحظ بنفس اهتمام ثورة تموز (يوليو) بجوانب أخرى، هذا مع الإقرار بأنه لم يعد من الممكن ـ الآن ـ تأجيل أى جانب فى التطبيق الديموقراطى مهما كان نبل الأهداف.

عملية التنمية ـ مثلا ـ ليست أرقاما فقط، وإذا أهملت جانب الديموقراطية والحريات فستكون تنمية مشوهة لأنها تهمل أهم عناصر التنمية وهو الإنسان.

وكما نعلم فإن لكل وقت آذانا، ولذلك عندما قامت ثورة يوليو كان الحديث كله عن التحرير من ٨٠ ألف جندى استعمارى فى مصر، وكان بعض المفكرين الكبار أمثال توفيق الحكيم يرون أن المستبد العادل هو وسيلة تحقيق هذا الحلم، وتحلقت تطلعات المصريين حول الجيش لتحقيق هذا الأمل.

الوضع الآن تغير، وهذا المناخ لم يعد قائما، وإذا كان هدف قيام الثورة هو تحقيق التحرير والاستقلال فإن هدفنا الحالى هو الديموقراطية، والحرية السياسية.

وقد كانت مصر سباقة فى الفترة الناصرية بقيادتها لحركة التحرر، ويجب أن تقود الآن فى عالمها الثالث حركة الحرية وحقوق الإنسان.

*** طرح الناصريين لأفكار الديموقراطية وحقوق الإنسان يثير حفيظة الكثيرين الذين يرون أنكم كنتم أثناء وجودكم فى الحكم أعداء حقوق**

الإنسان وحريته، فكيف أصبحتم من المنادين بهذه الحقوق، والداعين إليها داخل الحدود ووراء الحدود بغير ما حدود؟!!!

ـ هذه مقولة خاطئة بكل تأكيد، لأن عبد الناصر كان مع حق الشعب في الحرية الذى يعنى البعد الاجتماعى والبعد السياسى، وقد سعى عبد الناصر باستمرار إلى توسيع هذه الحركة، وبشهادة زملاء عبد الناصر أنفسهم فإنه كان أكثرهم تمسكا بالديموقراطية، ثم إن إقامة حياة ديموقراطية سليمة كانت هدفاً من الأهداف التى قامت من أجلها الثورة، وكونه لم يتحقق بالكامل فهذا لا ينفى أنه كان هدفا ـ وما يزال ـ من أهداف الثورة.

لقد حدثت تجاوزات كثيرة فى الثورة الفرنسية، ولكن عندما نلخص هذه الثورة الآن سنجد أننا نتكلم عن: (الحرية ـ الاخاء ـ المساواة) على الرغم من كل تجاوزات هذه الثورة.

ثورة تموز (يوليو) كانت ثورة من أجل التحرر مهما كانت تجاوزاتها، وتحرير الشعوب هو تحرير الإنسان، وهذا جوهر الناصرية الذى يتمسك به الناصريون تحقيقا لحرية الوطن، وبالتالى حرية المواطن.

*** مضغوطون!**

*** بعد هزيمة ١٩٦٧ خرج كثير من العسكريين من مراكز التأثير على الحكم، وحلت محلهم العناصر المدنية الجديدة الممثلة لثورة تموز (يوليو)، والممثلة فى قيادات التنظيم السياسى الأوحد، ودارت رحى معركة هائلة طرحت فيها مظاهرات الطلاب عام ١٩٦٨، وبعض المبادرات الصحافية الجسورة أفكار المجتمع المفتوح، وانحراف الأجهزة الأمنية، وكان عبد الناصر يستجيب لبعض هذه المؤثرات استجابات محسوسة تمثلت فى محاكمات لرموز الفساد والهزيمة، أو فى إصدار بيان ٣٠ آذار (مارس)،**

ولكن كل هذه الإيجابيات كانت تحدث بضغط من خارج النظام، وليس من داخله، بما يشعرنا أنه لم يكن نظاما يمكن أن تتعدد الآراء داخله؟

ـ فى اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكى العربى (تنظيم عبد الناصر السياسى الأوحد) كانت تناقش أفكار التعددية الحزبية، وهل تنفذ بظهور أحزاب مستقلة، أم تظل أجنحة داخل الاتحاد الاشتراكى العربى.

وقد كان حس عبد الناصر الجماهيرى يمكنه باستمرار دائما من التجاوب مع الناس، ولذلك حين حدثت مظاهرات الطلبة عام ١٩٦٨ خرج عبد الناصر ليقول: «إن الشعب يريد التغيير، وأنا معه» وأصدر بيان ٣٠ آذار (مارس) الذى كان جزءاً منه محل التطبيق قبل إزالة آثار العدوان، والجزء الثانى بعد تحقيق الجلاء وهو الديموقراطية والحريات.

*** الجيل الصاعد!**

*** قضية التيار الناصرى ـ بالذات ـ تفتح الباب أمام مجايلات سياسية غريبة بين جيلكم وبين جيل الشباب الذى وجه لكم رسالة صحفية بمجرد ظهور الحزب تقول: «سعيكم مشكور» بما يعنى رغبته فى الاستئثار بشئون الحزب، كيف سيحسم هذا التباين بين جيلين؟ وفى أى اتجاه؟**

ـ قضية الأجيال لا تمثل مشكلة بالنسبة للناصريين، فلا يوجد تيار له نسبة حضور بين الشباب قدر التيار الناصرى.

*** أنا لا أسأل عن نسبة الشباب فى التيار، ولكننى أسأل عن اختلاف رؤى، فقبل دقائق استمعت منك إلى محاضرة هائلة ترافعت فيها طويلا عن إيمان الناصريين بالديموقراطية، ولكننى استمع بذات الدرجة من الاهتمام إلى أصوات شابة كثيرة قد ترى غير ما ترى؟**

ـ لا تنس أن الحزب لم يمارس دوره كتنظيم له تشكيلاته بعد، ومثل هذه

القضايا عندما تفتح للنقاش داخل الحزب فسيكون فيها تفاعل كامل بين كل الأجيال وتصور مشترك، ولا يمنع فى هذا السياق أن نشير إلى أن هناك بعض الناصريين مازالوا يتصورون أنهم يستطيعون فتح خطب عبد الناصر ليجدوا فيها إجابة على أى سؤال يتعلق بموقف يواجههم، وهذا يجب أن يتغير بالمناقشة والتفاعل بين الأجيال.

لابد لنا أن نقدم فى وقت قريب جداً مجموعة من القيادات الشابة الناصرية، وإلا نكون حكمنا على حزبنا بأنه جامد وغير متجدد.

*** تكلمنى عن إنكم ستسلمون الراية طواعية لشباب الفصائل الناصرية، ولكننى لا ألمح من خلال حوارات مع العشرات منهم سوى الرفض لسيطرة الآباء البطريركية حتى فيما يتعلق بتسلم الراية طواعية، أو تحديد موعد هذا التسليم؟!!**

ـ أنت تتكلم عن فصيل محدود جداً، وقضية الشباب فى مواجهة الكبار انتهت بنهاية عهد السادات الذى كان من الضرورى أن يتصدى فيه الشباب له، لأن الكبار كانوا غائبين فى السجون، والخلاف مع السادات لم يكن مع أفراد ليتصور هؤلاء الأفراد أن خلافهم معه نصبهم لقيادة تيار، ولكن الخلاف معه كان على فكرة، وقد فهم الشباب هذا الآن، وانتهت مسألة صراع الأجيال داخل التيار الناصرى.

نحن لا نفرض أبوتنا على أحد، ولكننا نحاول إعمال الحوار بين جميع الفصائل وجميع الأجيال داخل الحزب، وذلك حرصا على الديموقراطية الداخلية التى نعتبرها مزية كبيرة لحزبنا على الأحزاب الأخرى، حزبنا تتجدد فيه القيادة وتتداول فيه السلطة.

*** مواريث!**

*** أصبح للناصريين حزب، ولكنه حين وصل إلى التحقق الشرعى وجد أن ميراث ثورة (يوليو) يتقاسمه حزبان: أحدهما معارض، والآخر فى السلطة، وأعنى حزب التجمع، ثم الحزب الوطنى الديموقراطى الحاكم. بهذا المعنى أنتم الآن طرف فى صراع مواريث، فأى الطرفين ترونه مغتصبا لميراثكم؟**

ـ إذا تكلمنا عن الميراث فإن الشعب المصرى بل الشعب العربى كله هو وريث فى الثورة، وكل مواطن مصرى حقيقى وشريف ستجد فيه جزءاً ناصرياً.

بل أذهب إلى أبعد من ذلك فأقول: إنه ميراث إنسانى لثورة قدمت شيئا للإنسانية، فإذا كانت الثورة الفرنسية تولدت عنها الحقوق السياسية والمدنية، وإذا كانت الثورة البلشفية تولدت عنها الحقوق الاقتصادية والاجتماعية، فإن ثورة (يوليو) تولدت عنها فكرة التحرر مقترناً بالتنمية المستقلة، وهذه هى التى جعلت من الثورة المصرية ميراثاً إنسانياً.

*** حدثتنى لتوك عن الثورة الفرنسية وأنت تقارنها بالثورة المصرية، ولكن هذه الثورة ليس لها حزب يمثلها أو يرتبط بواحد من قادتها، فلم نسمع عن حزب «الروبسبيريين» مثلا، أو حزب لأنصار «مارا» فى فرنسا، ولكننا نرى على الساحة السياسية الفرنسية الآن أحزاباً يمثل كل منها اتجاها متعارفا عليه فى الفكر الإنسانى الاقتصادى والاجتماعى والسياسى، بما فيها حزب العمل الملكى الجديد الذى يسعى لعودة البوربون إلى الحكم، وبالتالى فإن هذا الحضور الزائد لثورة (يوليو) وطرحها باستمرار على الساحة المصرية يحد دون تعبير الاتجاهات**

المختلفة عن نفسها بحرية، بل يسهم فى ذلك ظهور حزب للناصريين، وادعاء أحزاب كثيرة أخرى أنها تمثل الثورة وتمثل فكرها وتمثل أهدافها وتمثل مبادئها ؟!

ـ يدفعنى هذا السؤال لاستعراض الأمر منذ قيام الحزب الناصرى، فتجربة عبد الناصر قريبة، وطروحها عن الوحدة فى مواجهة التجزئة، والتوازن الاجتماعى فى مواجهة السيطرة الطبقية، والاستقلال فى مواجهة التبعية، هى أفكار حية حتى الآن بشكلها التفصيلى، وليس بوصفها مفاهيم فلسفية عامة، وهى أفكار نجدها مطروحة فى عالم اليوم على لسان واحد كجون ميجور مثلا حين يتكلم عن مجتمع بلا طبقات(CLASSLESS SOCIETY)، وبالتالى لأن التجربة قريبة، ومازالت طروحها حية فلا بأس من وجود حزب يرتبط بها ويتبنى خطوطها كبرنامج سياسى له، ولكن الذى فرض علينا تسمية أنفسنا بالناصريين هو أنور السادات الذى كان يمثل النقيض لكل ماطرحه عبد الناصر، ومع ذلك كان يدعى أيضا أنه امتداد لثورة تموز (يوليو)، ومن هنا جاءت فكرة استخدام كلمة الناصرية نسبة إلى هذه التجربة، ولا يعنى هذا للمرة الألف أننا سلفيون، فعبد الناصر كان مع التقدم، وليس مع العودة إلى الماضى.

نحن لسنا كحزب الوفد (الذى يبنى كل حركته السياسية على العودة لما قبل ٢٣ يوليو) ١٩٥٢.

*** بمناسبة الوفد يحتفل حزب الوفد هذا العام بالذكرى الأربعين لقيام ثورة تموز (يوليو) احتفالا - جد - مبتكرا يتمثل فى الدراسة النفسية التى حدد فيها بعض الأطباء النفسيين سمات شخصية عبد الناصر بأنه هوسى ونرجسى ومصاب بالبارانويا، فى تصورك ما هى أسباب هذا الاحتفال الغريب ؟!**

ـ حزبنا لم يقم ليدافع عن جمال عبد الناصر الذى لا يحتاج إلى حزب

ليدافع عنه، الوفد يريد إرجاع عجلة التاريخ إلى ما قبل ٢٣ (يوليو) ١٩٥٢، وأنا أختلف معه فى هذه الجزئية على الرغم من اتفاقى معه فى أمور أخرى مثل الحريات والديموقراطية.

هنا يسقط الوفد أسير العاهة السياسية المستديمة بينه وبين ثورة تموز (يوليو)، ويصبح حزباً سلفياً مائة فى المائة.

عبد الناصر أقام الدولة القوية، وهى ليست دولة الفرد، ولكنها دولة المؤسسات والقانون والمصانع الكبيرة، ومن يريد أن يرتد عن هذا أن يسأل نفسه ببساطة: هل غلب الصراع الشخصى على أى تقويم صحيح لدور عبدالناصر فى إقامة الدولة القوية؟ وهل نرفض هذه الدولة القوية لمجرد أن عبدالناصر هو الذى أقامها؟

نحن على العكس من هذا ليست عندنا حساسية تجاه ما يتم طرحه من أى حزب، فنحن نسعى إلى تحقق الأهداف التى نؤمن بها سواء جاءت هذه الأهداف منا أو من غيرنا، يمكن أن نتفق فى جزئيات مع الأحزاب الأخرى، ويمكن أن نختلف فى جزيئات، فليس من الضرورى أن يكون الاختلاف كاملا مع كل فصيل له خصومة مع الثورة.

*** «الاختلاف ليس كاملاً مع كل فصيل» هذه نقطة مهمة تطرح تساؤلات: لماذا كان من الضرورى أن يكون الحزب الناصرى معارضاً؟ ولماذا لم تدخلوا إلى الحزب الوطنى الحاكم الذى يقول إنه وريث مبادئ وأفكار (يوليو) مادمتم أيضا مؤمنين بأن الاختلاف ليس كاملاً مع كل فصيل؟!**

ـ الحملة على الناصريين تبدأ دائما من داخل الحزب الوطنى (الحاكم) ونظرة واحدة إلى جريدة هذا الحزب (مايو) تشى بهذا المعنى تماماً، ونحن لا نجد ـ حتى الآن ـ نقطة التقاء واحدة مع هذا الحزب.

وقد لاحظنا أيضا أن كتاب الحزب الوطنى لم يستقبلوا حزبنا استقبالا جيداً، بل هاجموا الناصريين وهاجمونا، ليس لنا مكان فى الحزب الوطنى.

*** نجومية!**

*** انقسم الناصريين كذلك حول موقفهم من أزمة الخليج، فظهر تيار يؤيد العراق بشكل مطلق على رأسه كمال أحمد، وظهر تيار يؤيد الكويت بشكل مطلق على رأسه محمود المراغى، وبينهما تياران أو أكثر، إلى أى مدى ما يزال هذا الانقسام مؤثراً على الفاعليات الناصرية؟**

ـ أعارض فكرة تقسيم الناس بهذا الشكل.

*** إذن كيف تريد أن تقسمهم؟**

ـ كنا ضد العدوان على الكويت بشكل واضح وصريح، واعتبرنا ذلك عملا ضد القومية والعروبة، وذلك من خلال بيانات الحزب الاشتراكى العربى الناصرى ـ تحت التأسيس وقتها ـ ولكننا كنا ضد تدمير العراق أيضاً.

عبد الناصر لم يفرض الوحدة على السودان بالقوة، ولم يحافظ على وحدته مع سورية بالقوة، ووقف ضد عبد الكريم قاسم حين حاول ضم الكويت.

قضية حرب الخليج كانت قضية من القضايا التى أوجدت انقساما كبيراً جداً داخل الشارع العربى والشارع المصرى، وحزب كبير مثلنا لابد أن تكون فيه اختلافات وتمايزات، ولكنه فى النهاية يأخذ موقفه بشكل ديموقراطى معبراً عن مجمل الآراء داخله.

*** يرى بعض المراقبين أن التيار الإسلامى نجح فى أن يكون نجم الشباك فى الشارع العربى أكثر من الناصريين فى أزمة الخليج، بمعنى الحركة فى الشارع، وليس بمعنى الموافقة على توجهاته إبان هذه الأزمة؟!**

ـ القضية ليست نجومية، ولكنها قضية دور، والدور الناصرى كان أوقع، وكان قادراً على تصحيح أدوار بعض التيارات الأخرى الفاعلة فى الساحة، سواء تلك التى لم تر فى الأمر سوى غزو العراق للكويت، أو تلك التى لم تر فى الأمر سوى التدخل الأميركى فى المنطقة.

أزمة الخليج ليست قضية موقف يؤخذ فى لحظة، ولكنها موقف يؤخذ ليستمر فى كل لحظة.

وعندما وقفنا ضد الغزو العراقى كنا نحافظ على فكرة القومية، وعلى فكرة التضامن العربى، المسألة ليست نجومية، ولا شعارات ترفع فى الشوارع.

*** أولم يعتمد النظام الناصرى ـ تاريخيا ـ أبداً فكرة رفع الشعارات التى تكفل له نجومية الشباك فى الشارع العربى؟!!**

ـ نعم اعتمدها، ولكنها كانت تعبيراً عن واقع حقيقي، وبخاصة فى المرحلة التى قام فيها بتعبئة الشعب العربى ضد الاستعمار.

وعلى أية حال فإن نغمة الشعار السياسى الناصرى اختلفت باختلاف السياق الزمنى الذى ظهر فيه؛ فالأسلوب الذى ظهرت فيه إذاعة صوت العرب غير الأسلوب الذى اتبعته قبيل هزيمة ١٩٦٧، فالمرحلة الأولى فيها تعبئة ضد مستعمر يحتل أرضك، والثانية فيها بناء وتنمية وخطة خمسية.

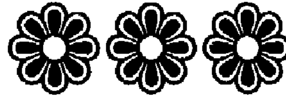
*** ما هى احتمالات بقاء السيد ضياء الدين داود فى موقع القيادة للحزب الناصرى؟ وما هى حدود قدرته على الإمساك بدفة التفاعلات الحزبية داخل هذا الحزب؟**

ـ بحسب القانون الأساسى فإن الأستاذ ضياء يتولى الأمانة العامة للحزب، وكل الفصائل الأخرى تعاونه فى هذا.

***كيف تعاونه؟**

ـ بالمشورة وبالرأى، وهو شديد الكفاءة وقادر تماما على إدارة الحزب، وليس فقط الأستاذ ضياء، ولكن الحزب الناصرى ملىء بالقيادات القادرة على أن تقود عملا حزبيا كبيراً جداً.

يوليو ١٩٩٢



الدكتور رفعت السعيد

التطرف .. معركة أخيرة!

* حسن البنا بدأ بإرهاب الوفد وهتف مع أتباعه «الله مع الملك»!

* حسن البنا كان خلف كل عمليات الإرهاب.. ومن لا يصدق فليرجع لكتابى صلاح شادى وأحمد عادل كمال.

* يكذب من يدعى أن الضغط الحكومى هو الذى أدى إلى العنف الإسلامى.. فقد مارس الإخوان - تاريخيا - إرهابهم فى فترات.. لم يوجه ضدهم فيها أى عنف!!

* لا يوجد معتدل ومتطرف فى ساحة الجماعات المتأسلمة!

* هناك ترتيب علوى مخطط يستهدف تغيير المناخ الفكرى والعقلى العام فى المجتمع المصرى لصالح التطرف!

* إيران هى المصدر الأساسى للإرهاب فى المنطقة!

* لم يحدث فى تاريخ مصر الحديثة أن ظهرت حكومة مناوئة لها فى السودان إلا على يد التمويل والدفع والتحريض الإيرانى الذى يستهدف تقليص الدور المصرى إفريقيا وعربيا!

* أماكن معسكرات تدريب المتطرفين فى السودان معروفة.. وبما أنها معروفة فهذا يعنى أن السودان لا يريد إخفاءها ويحاول أن يستخدم معرفة الآخرين بهذه الأماكن كوسيلة للضغط على الحكومة المصرية!

* هناك - الآن - أمميتان للجماعات الإسلامية!

* قضية سلسبيل كشفت عن أكثر من ألف اسم لمجالس شورى للإخوان في بلدان العالم المختلفة!

* الإيرانيون مجددون - فقط - في العنف والتطرف وليس في الفكر الإسلامي!

* على الإدارة الأمريكية أن تجيب عن التساؤلات المصرية عن وجود الشيخ عمر عبد الرحمن في أميركا!

* لابد من إشعار الأقباط المصريين بأنهم شركاء في وطنهم!

* سقوط «الخط الهمايوني» أصبح مسألة ضرورية لتحقيق حرية العبادة في مصر!

* الجماعات المتأسلمة تعتبر أن الأقباط هم الحائط المائل في مصر!

* المصريون عرفوا العشرات من رجال الدين ولكنهم لم يطلقوا (الأستاذ الإمام) إلا على محمد عبده!

* جريدة «الشعب» تلعب دورا في إثارة الفتنة الطائفية!

* أريد أن يبلغني واحد من المتأسلمين.. من هو المؤمن، ومن هو الكافر في الحرب الدائرة الآن في أفغانستان؟!

* * *

«أصبح الدكتور رفعت السعيد منسق أعمال اللجنة القومية للوحدة الوطنية، وهي كيان يولد - الآن - في مصر ضاما عناصر من المثقفين والفنانين والمفكرين والسياسيين لمحاولة مواجهة محاولات الاستقطاب الطائفي وتداعياتها المتنوعة.

وهو فى هذا الحوار يفصح عن الكثير من آرائه عن التطرف والفتنة والإرهاب وإيران والسودان، وغيرها من الآراء التى كانت سببا فى تلقيه أخيراً العديد من التهديدات بأن يلقى مصير الدكتور فرج فودة المفكر العلمانى المصرى الذى اغتاله التطرف»

*** فى تصورك كيف نمت حركات الإرهاب المتطرفة إلى الحد الذى باتت تهدد فيه وحدة مصر الوطنية.. ثم ما هو حجم التأثير القادم من السودان على نمو هذه الحركات؟**

ـ أريد أن أسجل ـ أولاً ـ أن الإرهاب المتأسلم عمل ليس جديداً على مصر، واتخذ أشكالا عديدة ابتداء من العام ١٩٣٦، وعندما حشد الأستاذ حسن البنا المرشد العام الأسبق للإخوان جموعا من الجوالة ليرهبوا عناصر وفدية خرجت تحتج على محاولة إقالة الملك فاروق لمصطفى باشا النحاس، هاتفة: «الشعب مع النحاس».

فى هذه اللحظة وقع متغير جديد لم يحدث من قبل فى تاريخ مصر الحديثة، حيث خرجت مظاهرات مناوئة للوفد تهتف: «الله مع الملك»!!

وذهبت فرق الجوالة التابعة لجماعة الإخوان المسلمين إلى قصر عابدين معلنة: «نهبك بيعتنا على كتاب الله وسنة رسوله»، وخرج الملك إلى المبايعين له سعيداً فخوراً، وعندما اهتز ميدان عابدين بهتافاتهم «الله مع الملك» قال: «نعم الله معنا».

كان هذا نوعاً من الإرهاب السياسى!

فعندما يحشد حزب قوى منظمته ذات الطبيعة شبه العسكرية ليفرض إرادته على الشارع بطريقة غير منطقية فهذا لون من الإرهاب السياسى.

*** ولكن حسن البنا نفسه كان يصطدم بالاتجاه نحو الإرهاب**

السياسى، وأذكر فى هذا واقعة مشادته مع عبد الرحمن السندى عضو التنظيم الخاص للإخوان حين دفعه الأخير من على سلم منزله فى بولاق بعدما احتدم الخلاف بينهما؟

ـ ما أريد أن أقوله هو أن الإخوان فى سنة ١٩٣٦ ـ بالذات ـ كانوا يتعاملون مع القصر تعامل الصديق المخلص التابع.

لقد أسس حسن البنا الجهاز السرى للإخوان المسلمين، وهذا يوحى بأن جماعة الإخوان المسلمين منظمة لا يؤمن جانبها لأنها يمكن أن تقول شيئا وتفعل غيره.

وفيما يتعلق بعلاقة الأستاذ المرشد حسن البنا مع الجهاز السرى فهناك أقاويل كثيرة من ضمنها واقعة السندى، ولكن الشيء المتيقن منه أن الأخ حسن البنا كان خلف كل عمليات الإرهاب، والذى لا يصدق هذا يمكنه أن يرجع إلى كتابين كتبهما أخوان مسلمان وهما: «النقط فوق الحروف» للأخ أحمد عادل كمال، وهو الرجل الثانى فى الجهاز السرى للإخوان، والكتاب الثانى هو «حصاد العمر» للأخ صلاح شادى وكان ـ أيضاً ـ مسئول قسم الوحدات، وهو قسم للعمل الإرهابى السرى فى جماعة الإخوان أيضا.

بعض غير المتخصصين يتصورون أن جماعة الإخوان المسلمين كان لها جهاز إرهابى واحد، ولكن عندما تتعمق فى الدراسة تكتشف أنها كانت تمتلك جهازين، أولهما الجهاز الخاص، وثانيهما قسم الوحدات.

ومسئول قسم الوحدات كان الأخ صلاح شادى.

وأنا أدعو أى مؤرخ منصف أو أى سياسى منصف أن يلقى نظرة على هذين الكتابين ليكتشف الآتى:

أن الأستاذ حسن البنا كان يصدر التعليمات بالاغتيال بنفسه ثم يستنكر واقعة الاغتيال فى اليوم التالى، بل إن الأخ أحمد عادل كمال يورد واقعة غاية فى الغرابة هى أن المرشد أمر بنفسه بتنفيذ عملية نسف محكمة الاستئناف وعندما قبض على شفيق أنس (عضو الجماعة الذى نفذ العملية) أصدر المرشد بياناً بعنوان: «ليسوا إخوانا وليسوا مسلمين».

القضية ليست أخلاقية، بمعنى أننا نريد أن نثبت أن الأخ حسن البنا كاذب أو غير صادق، ولكن القضية هى دراسة منهج منظمة فى العمل السياسى تتبع التقية بمعنى إخفاء حقيقة المنظمة والظهور بغيرها، أو الظهور بمظهر مغاير للمخبر.

البعض يدعى ـ الآن ـ أن الضغط الحكومى أو الإرهاب الحكومى أو العنف الحكومى هو الذى ولد رد الفعل من الجماعات الإسلامية، والحقيقة أن الإخوان المسلمين مارسوا العنف فى فترات لم يكن هناك أى ضغط موجه ضدهم فيها.

كانت جماعة الإخوان المسلمين ملء السمع والبصر، ومع ذلك صدرت تعليمات الجهاز السرى باغتيال القاضى أحمد الخازندار.

ومارست الجماعة عمليات نسف وقتل واغتيال متعددة، وروعت القاهرة أكثر من مرة أعوام (١٩٤٩/٤٨) و (١٩٥٤) و (١٩٦٥).

على أية حال فإن سبب انخداع البعض فى شأن هذه الجماعة يعود إلى خطأ فى الفهم، فالبعض يتصور أن هناك تيارا معتدلا وتيارا متطرفا فى الجماعات الإسلامية، بينما لا يوجد معتدل ومتطرف فى ساحة هذه الجماعات المتأسلمة، فعندما يقررون أن المجتمع القائم جاهلى وأنه مجتمع كافر بقوانينه وأحكامه، فلا بد ـ من جانبهم ـ من السعى لتغيير المنكر القائم بالعنف، ثم عندما يقررون أنهم جماعة المسلمين أى أهل الحل والعقد

فى الإسلام، ومن والاهم فقد والى صحيح الدين، ومن خالفهم فقد خالف صحيح الدين، إذن فكل من يخالفهم هو مخالف لصحيح الدين، ومن ثم فقولهم هو القول الفصل، ومن ثم فهم يستطيعون تكفيره.

إذن فعندما يقررون نظرية «البيعة» وأن كل من مات وليس فى عنقه بيعة فقد مات ميتة كافرة، وأن عضو الجماعة يبايع المرشد على المنشط والمكره، مخلياً بذلك مسئوليته أمام الله، لكى يصبح المرشد مسئولا عما يفعل عضو الجماعة أمام الله إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

هنا يصبح المرشد هو المتحكم فى أمور الجماعة بحيث يأمر فيطاع فى المنشط والمكره، وأن يصدر تعليمات بالقتل والاغتيال، مجسداً ـ بذلك ـ تركيبة كاملة متكاملة تؤدى إلى إمكان استخدام العنف. وفى الفترة الراهنة ـ بطبيعة الحال ـ هناك متغيرات، ولا نستطيع أن نقرر أن الجميع كتلة واحدة صماء، أو نغالى. فنقول إن جماعة الإخوان المسلمين مثلها تنظيم الجهاد أو الفرماويين أو الحقوقيين أو الشوقيين أو غيرهم، ولكنها هى الأساس والمنبع كما كانت الحركة الشيوعية اللينينية هى الأساس وينبع منها الجيڤاريون وغيرهم، أى أن هناك مدارس متعددة منبثقة من الجوهر الأصيل وهو جماعة الإخوان المسلمين.

وحين نتحدث عن هذا التيار فلابد أن نرجع إلى عصر السادات الذى سعى سعياً حثيثاً فى أعقاب سيطرة اليسار سيطرة واضحة على اعتصام الجامعة عام ١٩٧٢ وقدرته على إدارة هذه السيطرة بشكل كفء، سعى إلى وجود الحزب الحاكم لأى وجود شبابى بعد حل التنظيم الشبابى الناصرى.

وهناك عشرات وربما مئات من الوثائق الرسمية التى تؤكد أن السادات سعى ومول ونظم وحرض الجماعات الإسلامية على الوجود، ودافع عنها وحماها.

*** دكتور رفعت.. هل يمكن أن تحيلنى إلى وثيقة واحدة من عشرات أو مئات الوثائق التى تتحدث عنها والتى تثبت علاقة السادات بإنشاء الجماعات الاسلامية ؟**

ـ أقدم لك اعترافات مصطفى كامل مراد زعيم حزب الأحرار الذى نشره فى صحيفة حزبه.

*** وهل كلام مصطفى كامل مراد يرقى إلى مرتبة الوثيقة فى أى أمر؟**

ـ فى هذا الأمر ـ بالذات ـ كان كلامه إعترافا بأنه كان حاضراً لاجتماع مع السادات، الذى دعا الحاضرين إلى التبرع إلى الجماعات الإسلامية فى الجامعة.

ثم هناك إعترافات وزير الداخلية الأسبق اللواء محمد النبوى إسماعيل، التى وردت فى كتاب صدر أخيراً، والتى قال فيها إنه قد تلقى تقارير من مصادر حزبية تفيد أنهم يسعون إلى تحريك الجامعة عن طريق الجماعات الإسلامية، ووصل الأمر إلى أن أبلغوه بأنه يجب إعداد سيارات للإسعاف لأنه ستجرى عمليات ضرب وتحطيم للعناصر اليسارية.

نعم لقد ساعد السادات هذه الجماعات وانتهى الأمر بأنه أطلق المارد من القمقم، ولم يستطع التحكم فيه، وانتهى الأمر باغتياله.

السادات ومن ينهج نهجه ينسى مسألة خطيرة، وهى أن الإسلام يعتبر أن الحاكم مسئول والحديث الشريف يقول: «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته» بمعنى إذا سارت فتاة ترتدى الميكروجيب فى الشارع فهى ترتكب الإثم وأبوها مسئول عن هذا الإثم، والحاكم ـ أيضاً ـ مسئول عن ارتكابهم الإثم.

وبالتالى حملت الجماعات الإسلامية أنور السادات مسئولية كل الإثم الذى تراكم ـ من وجهة نظرها ـ فى المجتمع.

ولكن الشيء الأخطر الذى يشجع الجماعات الإسلامية، والذى يخلق منها الأرضية التى تتحرك فيها، هو ما أعتقد أنه ترتيب علوى مخطط يستهدف تغيير المناخ العام الفكرى والعقلى للمجتمع المصرى.

*** أتقصد ترتيباً إقليمياً أم محلياً؟**

- هو ترتيب عالمى.. إقليمى.. محلى، ولا يمكن أن استبعد السلطة المصرية من مسئوليته.

وكمثال على ذلك فقد اعتدنا ونحن أطفال صغار أن يُطبع على ظهر كراساتنا إرشادات مثل: (اغسل يديك قبل الأكل وبعده).

والآن ألغيت هذه العبارة وحلت محلها عبارة أخرى تقول: (المسلم يغسل يديه قبل الأكل وبعده)، وهذه العبارة توحى بأشياء خطيرة لأنها تعطى للطفل منذ اللحظة الأولى بتعلمه القراءة والكتابة مفهوماً بأنه شيء آخر غير زميله القبطى، فهو يغسل يديه قبل الأكل وبعده، ولكن زميله القبطى لا يغسل يديه قبل الأكل وبعده.

وأيضاً كتاب المطالعة للسنة الرابعة الإبتدائية فى مصر، نجده يحتوى على درس بعنوان «العائلة» وفيه صورة مرسومة للعائلة بأفرادها (الأب - الأم - البنت - الولد)، فإذا بهذه الصورة ترفع وتحل محلها صورة امرأة محجبة وصورة الابنة بالحجاب، وهذا - أيضاً - يعطى للطفل الصغير إيحاءً بأن التى ليست محجبة ليست أماً، أو ليست أختاً، أو هى على أية حال نشاز، ليست من ذلك المنطق الذى يتعلمه أو من ذلك التراث الذى يتراكم فى ذهنه.

*** إيران ودور الكومنتيرن!**

*** سنعود إلى هذه النقطة، ولكن بعد أن تشرح لى الجوانب الإقليمية**

والدولية فى هذا الترتيب العلوى الذى قلت إنه يشجع التطرف الإسلامى فى مصر؟

ـ المصدر الأساسى للإرهاب فى المنطقة هو إيران، وما يجرى فى منطقة الخليج بغض النظر عمن يتحمل المسئولية هو تجسيد لهذا المعنى.

نعم صدام حسين يتحمل مسئولية البدء بالكارثة، ولكن بعض الآخرين يتحملون مسئولية امتداد الكارثة، والتداعيات أدت إلى أن يستعيد الإيرانيون دورهم الفاعل فى المنطقة نتيجة لضعف العراق، وكلما ازداد العراق ضعفاً زاد الدور الإيرانى فى المنطقة، فإيران تلعب دور «الكومنتيرن» بالنسبة للخليج.

هناك أيضا أفغانستان حيث المجاهدون الذين تم تمويلهم وتسليحهم وتدريبهم بواسطة الأميركيين بهدف الإطاحة بالحكم الشيوعى فى أفغانستان، وقد انبهر كل خصوم الشيوعية بهذا الدور الأساسى الذى لعبه المجاهدون. ولم يكتشف أحدهم ما يمكن تسميته بالتداعيات الجانبية لهذا الوضع، حيث تحول مئات وربما آلاف الشباب المتحمسين الذين استدرجوا إلى أفغانستان إلى إرهابيين على أيدى مدربين متخصصين، واعتقد أن ملفات العديد من قضايا الاغتيال الحالية فى مصر ـ بما فيها قضية المرحوم الدكتور رفعت المحجوب رئيس مجلس الشعب المصرى السابق ـ قد زخرت بأسماء أشخاص دربوا فى أفغانستان ثم أعيد تدريبهم فى السودان.

ولى فى موضوع السودان وقفة..

فلم يحدث فى تاريخ مصر الحديثة أن ظهرت حكومة فى السودان مناوئة للنظام المصرى، كان يمكن أن توجد حكومة مختلفة مع النظام المصرى، أو لا ترضى عن النظام المصرى، أو لا يرضى النظام المصرى عنها، ولكن لم يحدث أن ظهرت حكومة مناوئة للنظام المصرى إلا تلك التى تحكم الآن.

وهذه المناوأة تستمد سطوتها من تمويل وتحريض ودفع إيرانى يستهدف

تقليص الدور المصرى فى أفريقيا والمنطقة العربية، ومن النفوذ الإيرانى ـ عبر السودان ـ إلى إريتريا والصومال وأوغندا، وربما إلى أى امتدادات إسلامية ـ أفريقية أخرى.

إذن السودان لا يلعب ـ فقط ـ دور المحرض ولكنه يلعب دور المعبر للنفوذ الإيرانى إلى المنطقة العربية وإلى الدائرة الأفريقية.

السودان ـ بالنسبة لمصر ـ لديه عدة خواص، أهمها أن الحدود المصرية ـ السودانية يصعب إغلاقها، وأن التهريب يتم (رسميا) منذ قرون متمثلاً فى قوافل الجمال، ومن يهرب جملاً يستطيع أن يهرب سلاحاً، أو أى شيء آخر.

ثم هناك أيضا القبائل المشتركة على الحدود والتى يمكن أن تلعب دوراً فى هذا التهريب.

السودان يلعب دوراً أساسياً فى تدريب وتمويل وتسليح الجماعات الإسلامية المتطرفة.

*** علام بنيت هذا الاتهام؟**

ـ بنيته على المعلومات المتوافرة عن وجود معسكرات للتدريب وأماكنها معروفة، وبما أن أماكنها معروفة فهذا يعنى أن السودان لا يريد إخفاءها إخفاء حقيقياً، ولكنه يريد أن يستخدم معرفة الآخرين بهذه الأماكن كأداة للضغط على الحكومة المصرية لكى تقطع علاقاتها بالمعارضة السودانية وتحديداً، لكى تقطع علاقاتها بجيش التحرير الشعبى السودانى.

السودان أصبح يمثل عمقاً إستراتيجياً للجماعات الإرهابية، فالشاب المتطرف يرتكب جريمته وهو مطمئن إلى أنه سيفلت من القاهرة ليذهب إلى الصعيد، ومن الصعيد إلى «دراو» ومنها إلى السودان، حيث يجد الاستقبال والترحيب والامتنان والتمويل.

أنا أعتقد أن مصر تتعرض إلى مثلث إقليمى أطرافه (إيران ـ أفغانستان ـ السودان) لكن هذا ليس وحده التدخل الخارجى، وإنما هناك محاولات أخرى لبعض القوى فى المنطقة لإشاعة مناخ دينى عام يكون هو المزرعة التى تنمو فيها الجماعات المتطرفة.

*** ترابيات!**

*** أليس حرياً بنا قبل أن نتكلم عن مثلث (إيران - أفغانستان - السودان)، أن ننظر إلى تلك الأممية الإسلامية الجديدة التى تضم فيما تضم جبهة الترابى الإسلامية فى السودان، وحزب النهضة الغنوشى فى تونس، وجبهة مدنى للإنقاذ فى الجزائر..**

هؤلاء الذين يرفعون لواء التجديد والاجتهاد فى الفكر الإسلامى ويرتبطون بوشائج تلو وشائج مع الإيرانيين..

ننظر إلى هذه الأممية الجديدة ونتساءل عن مدى تأثيرها فى خلق مناخ مناسب لحركة التطرف فى مصر؟

ـ هذه حقيقة واقعة، ومن المعروف أن أحد أسباب الاختلاف بين الدكتور حسن الترابى وجماعة الإخوان المسلمين المصرية، أن الترابى بعد أن كان إخوانياً انشق وحاول أن يؤسس أممية غير الأممية التى أسسها الإخوان المسلمون.

هناك ـ الآن ـ أمميتان للجماعات الإسلامية أو الجماعات المتأسلمة، إحداهما أممية بزعامة إيران وتضم الترابى والغنوشى ومدنى، وأممية أخرى للإخوان المسلمين يمكن أن يعبر عنها الهيكل التنظيمى الذى جرى اكتشافه فى القضية المعروفة الآن فى مصر باسم (قضية سلسبيل) حيث تتواتر الأنباء عن وجود أكثر من ألف اسم ـ تم اكتشافها ـ لمجالس شورى فى بلدان العالم المختلفة، والتى تتضح معالمها أكثر من المؤسسات المالية الضخمة التى تحركها مثل بنك التقوى فى جزر الباهاما.

ونعود إلى المعسكر الإيرانى (الترابى ـ الغنوشى ـ مدنى) فأقول إن إيران لاتمثل أية حركة تجديد فى الإسلام، هم يدعون أنهم مجددون ، وهم مجددون ـ فقط ـ فى إطار المزيد من العنف والمزيد من التطرف ويمثلون حالة يستند فيها الإسلام المتأسلم ـ للمرة الأولى ـ إلى إرهاب الدولة ويستمد نفوذه وقوته منها.

الإرهاب المتأسلم كان ـ عام ١٩٤٨ مثلاً ـ بأن يحوز طالب مسدساً فيقتل رئيس وزراء مصر محمود فهمى النقراشى باشا، ولكن الوضع ـ الآن ـ مختلف، فقد كانت هناك محاولة لاغتيال زين العابدين بن على رئيس الجمهورية التونسية بصاروخ «ستينغر» وبالطبع لا توجد حركة سياسية تستطيع الحصول على صاروخ ستينغر إلا عبر مؤسسات ذات طابع حكومى، وبطبيعة الحال فوجود الدولة المؤيدة للإرهاب والمساندة له يكفل تمويلاً ويكفل حماية وتنظيماً وامداداً أكثر كفاءة من الأفراد.

وهذا بالطبع غير دور الأميركان.

*** وما هى علاقة الأميركان ومصلحتهم فى أن يوجد هذا التشدد الإسلامى الجديد بزعامة إيران ويلعب ـ كما ذكرت ـ من أدوار إقليمية بعضها ضد مصر؟**

ـ الأميركان لهم علاقة.

وفى المكان الذى تجلس فيه الآن (أمانة حزب التجمع فى وسط القاهرة) كان يجلس معنا قبل أربعة أسابيع مجموعة من هيئة موظفى الكونغرس وسألتهم: «ماهى مصلحتكم فى أن تقدموا هذه التسهيلات للجماعات المتأسلمة المتطرفة؟» .. ولم يرد أحد!

وأنا أعتقد أن الأميركيين لا يريدون لهذه المنطقة أى قدر من الاستقرار،

وهم يعرفون أنه سيتم ـ خلال فترة قريبة ـ إيجاد تسوية سلمية للقضية الفلسطينية، وبالتالى يجب ألا تستقر هذه المنطقة وتتقدم وتخطو فى طريق التقدم العلمى والحضارى، ويجب أن تظل مرتبكة لتظل مصالح الغرب فى بترولها متحققة، ومن ثم تجرى عملية التقسيم العرقى(شيعة ـ سنة ـ أكراد فى العراق) أو عملية التمزق الطائفى (موارنة ـ سنة ـ شيعة فى لبنان)، أو تجرى عملية التمزق الدينى (مسيحيون ـ مسلمون فى السودان)، وفى مصر وتونس والجزائر تجرى هذه العملية أيضاً.

أنا عندى بعض الأسئلة التى لا أجد إجابة عنها:

* لمصلحة من تقوى إيران فى المنطقة عبر إفشال اتفاق دمشق حيث كان من المفترض أن تملأ قوات مصرية ـ سورية الفراغ الدفاعى فى المنطقة بدلاً من أن تتحرك إيران لتلعب هذا الدور وتمارس ضغوطها فى جزيرة أبو موسى وغيرها؟

* لمصلحة من تتم محاولات تقسيم العراق بما يعنى وجود كنتون أو دويلة أو دولة شعبية فى جنوب العراق بما يعنى أنها ستكون نقطة ارتكاز لإيران ستهدد أمن دول المنطقة؟

*** دكتور رفعت.. شيعة العراق - تاريخياً - كانوا منحازين إلى اندماجهم القومى فى العراق أكثر من علاقتهم المذهبية بإيران؟**

ـ مع تردى الأوضاع، ومع وجود نزعات إسلامية متشددة يتذكر الإنسان انتماءه الدينى أكثر مما يتذكر انتماءه القومى، ومع تردى الأوضاع العراقية يصبح الاقتراب من إيران أفضل للمواطن الشيعى وأقرب إلى معتقده فى آن واحد.

واعتقد أن وجود كنتون شيعى، حتى ولو لم يكن هناك انفصال رسمى،

يمثل وجود نقطة ارتكاز إيرانية فى المنطقة، كل هذا ليس الأميركان ضده بل هم ـ أحياناً ـ عناصر فاعلة فيه.

* ثم نأتى إلى التساؤل الثالث: وهو قصة الشيخ عمر عبد الرحمن مفتى تنظيم الجهاد فى مصر. ولقد سألت أحد الدبلوماسيين فى السفارة الأميركية عن هذا الموضوع.

*** ماذا كانت درجة هذا الدبلوماسى؟**

ـ سكرتير أول، وسألته لماذا أعطيتم تأشيرة دخول لأميركا لعمر عبدالرحمن، فأجابنى أن قنصل أميركا فى السودان خُدع، حين أرسل إليه جواز سفر عمر عبدالرحمن بواسطة الترابى مباشرة، وفهم أنه رجل ضرير ذاهب لقراءة القرآن فى أميركا فأعطى له التأشيرة!

فإذا تجاهلنا حجم التبسيط فى الأمر وأن عمر عبد الرحمن ليس شخصية مجهولة بالنسبة للعامة، فما بالنا بالخاصة وبأجهزة الكمبيوتر الأميركية، ومع ذلك فكيف حصل على «Green Card» بعد ذهابه إلى أميركا؟ وكيف سمح له ـ رسمياً ـ بجمع تبرعات؟ وكيف تقول أميركا إنها تواجه الإرهاب وتقصم ظهر ليبيا من أجل تسليمها اثنين تقول بأنهما إرهابيان، بينما تعطى إقامة لعمر عبد الرحمن المعروف بأنه يصدر الفتوى تلو الفتوى لاغتيال فلان وعلان، وهو جالس فى أميركا يجمع أموالاً ليرسلها إلى مصر، بينما قبضت الأجهزة المصرية على إحدى زوجات عمر عبد الرحمن وهى عائدة من أميركا ومعها نقداً ٤٠ ألف دولار؟

إذن الأمر يحتمل التساؤل، وعلى الإدارة الأميركية أن تجيب عن هذا التساؤل لأن الأمر يضر بالأمن المصرى والمستقبل المصرى، فالخطر الحقيقى ليس أن يقوم هؤلاء الشبان المتطرفون بقتل هذا الرجل أو ذلك، أو يهددون

هذا الرجل أو ذاك، أو ـ حتى ـ يقتلون خمسة عشر مسيحيا فى «صنبو»، ولكن الخطر هو كل المستقبل فى مصر.

*** على ذكر مسيحى «صنبو» كيف تقوم وتصنف مطالب الأقباط المصريين فى إطار الاستقطاب الطائفى الحادث الآن، ومن هو المسئول مباشرة عن تحقيق هذه المطالب فى مصر؟**

ـ عندما تقوم فتنة طائفية فى أى مكان فى العالم، فأنا أضع المسئولية فى عنق الأغلبية لأن الأغلبية هى التى تستطيع أن تحل المشاكل الطائفية بحكم كونها أغلبية، ولقد حكى لى الدكتور رشدى سعيد أحد الرموز القبطية المهمة أن السادات استدعاه فور حدوث أحداث الزاوية الحمراء الطائفية فى أواخر عهده وقال له: «ماذا سنفعل فى أقباطك يا رشدى؟» (وكان وقتها عضواً فى البرلمان المصرى)، فرد الدكتور رشدى رداً غريباً قائلاً: «إحرقهم بجاز ياريس!!» وقال له السادات:«أنت مجنون» فأجابه: «إننا بصدد سلوكين مع الأقلية، فإما أن نجيبها إلى مطالبها، وإما أن نحرقها بجاز!».

لا بد من إشعار الأقباط المصريين بأنهم شركاء فى هذا الوطن، وقد بدأت الجماعات المتأسلمة تهددنى بالقتل بادعاء أننى أدافع عن الأقباط، وأنا لاعلاقة لى بالأقباط، إذ إننى أدافع عن مصر، وعن وحدة الوطن المصرى، وعن أن ينال كل مصرى حقه، مدركاً أن افتقاد الديمقراطية فى أى مجموعة تعيش فى وطن يؤدى إلى افتقاد الديمقراطية بالنسبة للجميع فى هذا الوطن.

المشكلة الحقيقية أن هناك تمييزاً بين الأفراد، وأن هذا التمييز يبدأ ـ رسميا ـ من السلطة، وأنا لا أناقش فى هذا السياق نسبة الوزراء، لأنه بالإمكان ألا يكون هناك وزير واحد مسيحى من دون أن يستشعر أحد تمييزاً،

وأذكر أنه عندما شكل سعد زغلول باشا وزارته الأولى وضع فيها وزيرين قبطيين، فقال له الملك فؤاد: «هناك خطأ فى الحساب فوزارتك فيها عشرة وزراء من ضمنهم اثنان أقباط، مع أن نسبة العدد فى مصر تفرض أن يكون هناك تسعة مسلمين وواحد قبطى فقط»، فأجابه سعد زغلول: «الأقباط شركاء فى هذا الوطن ورصاص الإنكليز ضد الثورة لم يكن يميز بين المسلم والقبطى، وبما أن الذين اعدمتهم سلطات الاحتلال كانوا ستة ضمنهم أربعة من الاقباط، إذن فسلطات الاحتلال لم تراع النسبة، ولهذا لم نراع النسبة فى تشكيل الوزارة، وقد تأتى مرة أشكل فيها وزارة بلا قبطى واحد».

أما الآن فالتمييز ينبع من التركيبة المتكاملة للمجتمع، التمييز موجود فى برامج التعليم التى تضع التلميذ القبطى فى موقع المذلة إزاء الطالب المسلم.

والتمييز موجود فى الوظائف، إذ إن الكثير منها محرم على الأقباط.

وقد طلعت علينا الدكتورة نعمات أحمد فؤاد لتثير قضية خطيرة حين قالت إن رئيس الجمهورية مسلم، والقياس واضح، فيجب أن يكون كل من يمثل رئيس الجمهورية مسلما.

وقد رجعت إلى الدستور واكتشفت أن الدستور لا ينص على أن يكون رئيس الجمهورية مسلما، فالدستور عاقل، ويعرف أن رئيس الجمهورية ـ بحكم الواقع ـ سيكون مسلما، لكنه لم ينص على ذلك.

ومن جهة أخرى فإذا قلنا إن كل من يمثل رئيس الجمهورية فى مصر يجب أن يكون مسلما، فمن لا يمثل رئيس الجمهورية؟!!

رئيس الجمهورية ـ بحكم الدستور ـ هو رأس السلطة التنفيذية، ومن ثم يجب أن يكون كل الوزراء وكل كبار الموظفين مسلمين، وهو القائد الأعلى للجيش، ومن ثم فكل قائد فى الجيش يجب أن يكون مسلما، وهو رئيس السلطة القضائية، ومن ثم فكل قاض يجب أن يكون مسلما.

هذا طبعاً غير معقول وهو خطأ فى القياس وفى الرأى، لأنه يدمر وحدة الأمة ويصنف المصريين ـ بخلاف الدستور ـ الذى ينص على أن المصريين أمام القانون سواء وأن الوظائف العامة هى حق لكل المصريين.

*** همايونى!**

*** فى هذا السياق كثيراً ما تثار مسألة حقوق الأقباط فى بناء كنائس فكيف تحدد عناصر هذه المسألة؟**

ـ هناك تفرقة فى مسألة بناء دور العبادة فى مصر، حيث يستطيع أى إنسان فى مصر أن يبنى مسجدا فى أى مكان حتى فى وسط ميدان التحرير من دون أن يعترضه أحد..

أما بالنسبة للأقباط فيحكم هذا الأمر مسألة غريبة جداً وهى ما يسمى «الخط الهمايونى»، وهو القانون الوحيد المتبقى من العصر العثمانى فى مصر!

والخط الهمايونى كان ـ أصلا ـ خط إصلاح يستهدف تحسين أحوال الرعايا غير المسلمين فى الإمبراطورية العثمانية، ولكن تطبيقه حتى الآن أصبح يمثل كارثة بالنسبة للأقباط.

وقد استدرج الأقباط الإدارة المصرية إلى أن توقع القيادة السياسية على مرسوم يسمح لهم بإصلاح دورة مياه فى كنيسة ونشروا هذا المرسوم أخيراً فأثار سخرية العالم، إذاً لم يكن معروفا حتى لدى الكثير من المصريين أن القانون يجعل مثل هذا الأمر منوطا برئيس الجمهورية، هذه السلطات لرؤساء المدن، ولماذا لا يطلق للأقباط حق بناء دور عبادتهم؟

مصر تنفرد بوضع غريب سببه هذا الخط الهمايونى، فإصلاح وترميم الكنائس يجب أن يكون بقرار جمهورى، وبناء كنائس جديدة يجب أن يكون بقرار جمهورى.

وبطبيعة الحال فهذا الوضع قائم منذ القدم، فى العصر الملكى وعصر عبدالناصر، وعصر السادات والعصر الحالى، ولكن لماذا يثار الآن؟

لأنه - حتى - فى ظل وجود الخط الهمايونى فى الماضى فقد كان الأقباط يتقدمون بطلب بناء كنيسة فيجابون، أما حينما يتقدمون بطلب ولا يجابون فإنهم يتذكرون - على الفور - هذا الخط الهمايونى.

ولهذا فإننى اعتقد أن هناك ممارسات رسمية خاطئة، تؤدى إلى إشعار الأقباط بأنهم مواطنون من الدرجة العاشرة وإلى تشجيع التطرف ضدهم، وأنا اعتقد أن الجماعات الإسلامية تعتبر أن الأقباط هم الحائط المائل فى مصر كلما ضغطت عليهم السلطة.

فإذا ضغطت السلطة على المتطرفين، يقومون بالضغط على الأقباط كى ترفع الدولة قبضتها عنهم.. وهذا ما حدث فى صنبو.

المتأسلمون المتطرفون يعتبرون الأقباط رهائن لديهم.

وفى هذا السياق لابد - أيضا - أن نقرر أنه كانت هناك أخطاء فادحة فى التعامل مع الجماعات الإسلامية، حين كانت السلطة تنظر إليهم - أحيانا - كمانعة صواعق ضد اليسار، وقد قال لى أحد المسئولين عن الأمن فى وزارة الداخلية منذ عدة سنوات فى حضور خالد محيى الدين رئيس حزب التجمع وبحضور وزير الدخلية وقتها: «نحن نعتقد أن اليسار يوازن الجماعات الإسلامية، وأن الجماعات الإسلامية توازن اليسار، ووظيفتى أن أمسك بالمقص لأقص الطرف الذى يزيد».

هذه اللعبة، بليدة وأثبتت بلادتها، لأن ممارستها مع المناخ العام الذى تجرى أسلمته عن عمد، والذى يجرى منحه فى جرعات منظمة، تؤدى إلى ازدهار هذا التطرف.

أنا اعتقد أن المناخ العام يولد التطرف، والإعلام يولده، عبر أحاديث الشيخ محمد متولى الشعراوى التى تتهكم على المسيحية فى كثير من الحالات. التلفزيون ينشر الفكر المتطرف وينشر الفكر المتخلف، ويقدم إسلاما غير الإسلام الحقيقى، ويقدم برامج تؤدى إلى حدوث خلل عقلى.

وفى إحدى المرات استمعت مصادفة إلى حلقة من برنامج «حديث الروح» قبل نشرة الأخبار فوجدت أحد الأساتذة الأجلاء قبل القرن الواحد والعشرين بعدة سنوات يتكلم عن الحسد، وهذا أمر عاقل ومعقول ومقبول ووردت فيه الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة، ولكن الأستاذ الجليل فجأة - بدأ يبتكر، ويخاطب الناس فى كيفية اتقاء الحسد، ويملى عليهم تعويذة من صناعة البشر، ويؤكد وجوب قراءتها صباحا والمرء فاتح ذراعيه، ثم يبصق فى كفيه ويمسح بالبصاق على وجهه!

أى درس يقدمه الإعلام عبر هذا الكلام؟ وأى سخرية يمكن أن يكنها الإنسان المتحضر فى العالم الإسلامى عندما يستمع إلى هذا الكلام؟ ثم أية قيمة لهذه الكلمات التى تلاها هذا الرجل؟

الإعلام ينشر التخلف، وينشر فهما رديئا للدين الإسلامى.

وأنا أتذكر - فى هذا السياق - بيتى شعر قالهما الأستاذ الإمام محمد عبده، وليست مصادفة أن المصريين شهدوا مفتين كثيرين وشيوخ أزهر كثيرين، ولكن الوحيد الذى يسمى (الأستاذ الإمام) حتى الآن هو محمد عبده، أما بيتا الشعر اللذان أتذكرهما فهما:

ولست أبالى أن يقال محمد

أبل أو اكتظت عليه المآتم

ولكنه دين أردت صلاحه

أحاذر أن تقضى عليه العمائم

نعم هذه العمائم لا تروج للدين الصحيح ولا تقدم صحيح الدين، وإنما تقدم دينا متأسلما يصب فى خانة التخلف ويدفع المجتمع المصرى أكثر فأكثر إلى الوراء.

*** لجنة أم حزب؟**

*** هل تحولت لجنة الوحدة الوطنية، أو بصدد التحول إلى حزب سياسى؟ وهل هى نفسها حزب المستقبل تحت التأسيس الذى كان فرج فودة يسعى إلى تشكيله؟**

ـ اللجنة المصرية للوحدة الوطنية هى مبادرة عدد من الشخصيات الحزبية وغير الحزبية المختلفة فى الفكر والمنهج والتوجه، ويجمعها ـ فقط ـ الخوف على مصر والحرص على وحدتها، وقد أساء هذا الجيل كثيراً إلى مصر، فإذا انتهك هذا الجيل وحدتها ـ أيضا ـ يكون ارتكب إثما حقيقيا فى حق وطنه.

وسأتلو عليك بعض أسماء أعضاء اللجنة للتأكد من أنها ليست حزبا ولا تصلح أن تكون حزبا:

١ ـ السيد حسن أبو باشا وزير الداخلية الأسبق.

٢ ـ كمال حسن على رئيس وزراء مصر الأسبق.

٣ ـ المستشار محمد سعيد العشماوى.

٤ ـ الأستاذ أنطون سيدهم رئيس تحرير جريدة «وطنى» القبطية.

٥ ـ الدكتور ميلاد حنا.

٦ ـ ابراهيم نافع رئيس تحرير «الأهرام».

٧ ـ مكرم محمد أحمد نقيب الصحفيين المصريين.

٨ ـ الفنانة فاتن حمامة.

٩ ـ الدكتور يونان لبيب رزق المؤرخ المعروف.

١٠ ـ الفنان عادل إمام.

١١ ـ الدكتورة عائشة راتب وزيرة الشئون الاجتماعية السابقة.

١٢ ـ الدكتور رفعت السعيد أمين حزب التجمع.

إذن هم من تيارات سياسية مختلفة ومن منطلقات فكرية مختلفة ومن مواقع اجتماعية مختلفة، وقد حرصنا على ذلك لنسجل للجميع أننا على الرغم من اختلافاتنا إلا أننا نتفق على كلمة واحدة هي الحفاظ على وحدة الوطن المصرى.

وهذه اللجنة ليست هى حزب المستقبل الذى كان يسعى الأستاذ الشهيد فرج فودة إلى إقامته، فقد كان فرج فودة عضواً أيضا فى هذه اللجنة، ولكنه لم يكن من الأربعة الذين بدأوا المبادرة وهم: المستشار سعيد العشماوى والدكتور يونان لبيب رزق والدكتور ميلاد حنا والدكتور رفعت السعيد.

وأنا اعتقد أن هذه اللجنة مبادرة تستهدف ـ فى الأساس ـ مواجهة المناخ الردىء الذى يتشكل ويجرى تشكيله عن عمد، بمناخ توحيدى تصالحى يجرى تشكيله عن عمد أيضا.

وقد فوجئنا فور الإعلان عن تشكيل هذه اللجنة أننا لسنا وحدنا، فالكثيرون غاضبون منا لأننا لم نضمهم، ونحن لا نستطيع أن نضم كل المصريين، ولكننا شكلنا ـ على وجه السرعة ومن دون استئذان أحد ـ مجموعة من اللجان فى الاسكندرية والدقهلية وتشكلت فى القاهرة حوالى ٢٠ لجنة، ويصدر بعضها ـ الآن ـ نشرات للوحدة الوطنية.

* **معتدلون :**

*** اسمح لى أن أضم ملاحظة مبدئية على أعضاء اللجنة، ففيهم عدد من أعضاء حزب المستقبل تحت التأسيس بما يوحى بأنها امتداد له، ثم إنه لا يوجد فيهم اسم واحد من الفصيل الذى يطلق عليه - عادة - فى الأدب السياسى المصرى: «الدينيون المستنيرون» ؟!**

- لم ينضم من حزب المستقبل إلى اللجنة سوى المرحوم فرج فودة، وقد يجوز عدد من أعضاء الحزب فى اللجنة ولكنهم موجودون بصفتهم الشخصية وليس بصفتهم الحزبية.

أما عن الدينيين المستنيرين فمنهم فى لجنتنا الأستاذ خالد محمد خالد، والأستاذ جمال بدوى رئيس تحرير جريدة «الوفد».

ولكنك تلاحظ أننا لم نضم إلى اللجنة رجال دين، لأننا نريد أن نناقش القضية بشكل مصرى، وبشكل بعيد عن الدين، ونحن لا نريد أن يأتى ممثل للكنيسة ليقول إن الدين المسيحى يقول كذا، ويأتى ممثل للأزهر ليقول إن الدين الإسلامى يقول كذا، ونصل إلى حالة مساومة بين الدينين للالتقاء فى منتصف الطريق.

نحن نريد أن نعلى الاحترام الكامل للأديان، والاحترام الكامل لحق كل مواطن فى اعتناق الدين الذى ارتبط به، إلا أننا نتعامل كمصريين وهذا هو جوهر التعامل بيننا.

وليس صحيحا أن هذه الجماعة تصلح لتكوين حزب، فأى حزب هذا الذى يمكن أن يجمع خالد محمد خالد مع ابراهيم نافع مع كمال حسن على مع رفعت السعيد؟

*** ما لفت نظرى غير هذه النقطة الشكلية أن أسلوب التحرك من أجل**

اللجنة بنشره وشعاره ولجانه هو نفس الأسلوب الماركسى، وأننا إذا اعتبرنا أن وجود عدد من الحزبيين ـ ولو بصفتهم الشخصية ـ فى اللجنة هو لون من العمل الجبهوى فإن الأداء التنظيمى ـ بلا شك ـ يظل ماركسيا ؟

ـ أنا لا أعرف ما إذا كان الناس يحبون ـ الآن ـ أن يقال عنهم إنهم ماركسيون، إلا أننى واحد من هؤلاء الذين يقولون عن أنفسهم ـ فى هذا الزمن السعيد ـ: «أنا ماركسى»!!

ومع ذلك فأنا موجود فى اللجنة بصفتى الشخصية وبدورى الذى لعبته فى قضية الوحدة الوطنية على مدى السنوات الأربع الفائتة.

الأسلوب الماركسى فى التنظيم غير وارد لأن اللجان التى تتشكل ليست خاضعة لأحد، وليس لدينا تنظيم هرمى داخل اللجنة تعبر عنه اللجان، ولكن هذه اللجان تتشكل بمبادرات من أصحابها ولا تخضع لإشراف اللجنة المصرية للوحدة الوطنية، وإنما ـ لكيلا ينفرط الأمر ـ فنفاجأ بلجان تضر بالعمل أو تتخذ طابعا حزبيا، قررنا أن يكون هناك متابع وليس رئيسا على هذه اللجان فالدكتور يونان لبيب رزق هو المتابع للجنة القاهرة والدكتور وليم سليمان هو المتابع للجنة الاسكندرية والدكتور ابراهيم الدسوقى أباظة هو المتابع للجنة الدقهلية.

هؤلاء الناس يأتون إلى هذه الساحة لأنهم مفزوعون مما يجرى فى مصر، ومن مصلحتنا ومصلحة مصر أن يجرى تنظيم هذا الفزع لكيلا تصبح هذه الأغلبية التى تخشى على الوطن أغلبية صامتة.

والقول بأن هناك أشكالا ماركسية فى التنظيم هو قول غير صحيح وتطلقه الجماعات المتأسلمة للتخويف من اللجنة.

*** ولكن الماركسية لا تخيف أحداً الآن؟**

ـ مازالت تخيف البعض.. (يضحك)

*** والأمر كذلك.. فى هذا التنظيم الدقيق لعمل اللجنة فهل يمكن أن يؤثر على هذا العمل تصريح الدكتور محمد على محجوب وزير الأوقاف المصرى عن أن الدولة لن تسمح بحزب علمانى، ولن تسمح بحزب دينى، بما يلقيه من تساؤلات حول حقيقة موقف الدولة فى مصر ـ رسميا ـ من هذه التجمعات حزبية كانت أو غير حزبية؟**

ـ اعتقد أن التسمية الحقيقية للجنتنا هى (اللجنة المصرية للوحدة الوطنية) وبين قوسين (لجنة شعبية غير حكومية).

نحن لسنا لجنة حكومية، لسنا لجنة معارضة للحكومة.

يستحيل أن تكون لجنة حكومية وأنا فيها وابراهيم الدسوقى أباظة فيها.

ويستحيل أن تكون لجنة معارضة وفيها ابراهيم نافع والدكتور محمد عبداللاه ومكرم محمد أحمد.

أما وزير الأوقاف ـ فمع احترامى الكامل له ـ اعتقد أنه ـ عادة ـ ما يدلى بتصريحات غير دقيقة فهو يقول إن الدولة لن تسمح بقيام حزب على أساس دينى، بينما القانون هو الذى يمنع قيام حزب على أساس دينى، ولو كان صرح بأن القانون هو الذى لا يسمح لكان تصريحه أكثر إيجابية وفعالية، أما الذى صرح به فيوحى بالقرار المتحكم من جانب السلطة التنفيذية.

أما فيما يتعلق بعدم قيام حزب علمانى، فأنا اعتقد أن العلمانية هى موقف فكرى وليست موقفا سياسيا، فمن الصعب أن توجد أحزاب للعلمانيين، ولكن يمكن لحزب أن يتخذ العلمانية موقفاً.

وقد يكون هناك حزب يمينى رجعى ويأخذ العلمانية كموقف له، وقد يكون هناك حزب يسارى ويأخذ العلمانية كموقف.

*** الدور والفتنة!**

*** فى تصورك لماذا تهاجم جريدة «الشعب» لسان حال حزب العمل الاشتراكى فى مصر (حزب ذو طبيعة دينية) لجنة الوحدة الوطنية بهذه الضراوة؟**

ـ اعتقد أن هذه الجريدة تلعب دوراً فى إثارة الفتنة الطائفية فى مصر، وهى تمثل رأس الحربة لعملية التطرف الذى لا يستخدم سلاحا وإن كان يشجع على استخدام السلاح، وكمثال لذلك مقالات الدكتور محمد حلمى مراد نائب رئيس الحزب، ومقالات الأستاذ عادل حسين رئيس تحريرها، وكذلك مساندة هذه الصحيفة للحكومة السودانية بالحق وبالباطل ـ حتى فيما يمس الوحدة الوطنية المصرية والكرامة الوطنية المصرية والتراب الوطنى المصرى ـ وأنا اعتقد أن الضراوة أصبحت صفة للتيارات المتأسلمة، وهذه الصفة تثير دهشتى.

ففى أفغانستان يقتلون بعضهم البعض، وفى البداية كنا نقول إن المجاهدين يحاربون الشيوعيين الكفرة، طيب الآن حكمتيار يحارب من ليسوا شيوعيين وإنما مجاهدون مثله، وأنا أريد أن يبلغنى واحد من هؤلاء المتأسلمين من هو المسلم ومن هو الكافر فى هذه المعركة التى نشبت بوحشية فى أفغانستان.

ثم هذه الضراوة والوحشية التى ظهرت فى السودان لتحكم على المعارضين بالإعدام.

ثم الضراوة والوحشية التى ظهرت فى إيران ليحكموا بالإعدام على كل من يشارك فى مظاهرة، وهى ذات الوحشية التى ظهرت فى بيروت أو صنبو.

نعم وهى ذات الضراوة والوحشية أيضا التى تعبر بها جريدة «الشعب» عن نفسها بالكلمات، كلمات تأخذ طابعا متوحشا، وأريد أن أقرر أن هذه الوحشية سواء استخدمت السلاح، أو استخدمت سطوة السلطة، أو استخدمت الكلمات، هى وحشية متأسلمة وليست وحشية إسلامية، الإسلام ليس هكذا، وليس بهذه الصورة الرديئة التى تتجسد سواء فى التصرفات الرسمية الإيرانية والسودانية، أو فى تصرفات الجماعات المتأسلمة، أو فى تصرفات الصحف المتأسلمة.

هذه الوحشية تأتى من اعتقادهم الخاطئ بأنهم أهل الحل والعقد فى الإسلام،وأن من والاهم فقد والى صحيح الدين، ومن خالفهم فقد خالف صحيح الدين، وهذا الإحساس الخاطئ يعطيهم انطباعا بأنهم مع صحيح الدين، وأن كل ما يعارضهم يصبح ضد صحيح الدين، ومن ثم تأتى الوحشية فى تطرف السلطة الإيرانية أو السودانية أو الجماعات المتأسلمة فى أفغانستان وبيروت أو الجماعات المتأسلمة فى ديروط أو المحررين المتأسلمين فى جريدة الشعب.

*** توأمة!**

*** ما ارتباط اللجنة بنشرة الدكتور سعد الدين ابراهيم عن المجتمع المدنى التى يصدرها عن دار ابن خلدون، والتى أبدت اهتماماً كبيراً بظهور لجنتكم وحوت تصريحات كثيرة لأعضائها، وهل ستتم توأمة نشاط اللجنة والدار؟**

ـ لم يدع الدكتور سعد الدين ابراهيم إلى الانضمام إلى اللجنة ولم يطلب ذلك، ونحن نعتقد أن لنا دورا آخر، فنحن لجنة شعبية غير حكومية ولا نحب أن نتوأم مع أية مؤسسات قد تكون لها أية روابط واهية بأى عمل حكومى فى مصر وخارجها.

أما عن اهتمامها بعمل اللجنة فهذا شئ محمود، وطبيعى لأن نشرة تتحدث عن المجتمع المدنى من الضرورى أن تهتم بالأنشطة المدنية الفاعلة فى المجتمع فى مواجهة هجمة الجماعات المتأسلمة عليه.

* فراغ.. فراغ!!

*** هل كان الفراغ السياسى الذى تعيشه ويعيشه الماركسيون بعد انهيار الشيوعية هو سبب انخراطكم بحرارة فى أى عمل يتعلق بقضية أخرى غير تلك التى نذرتم سنواتكم الماضية لها؟**

ـ لم ينخرط فى هذا العمل بحرارة من الماركسيين غيرى.

ثم إننى لم أتخل عن أى نشاط من أنشطتى فأنا كحزبى أتولى ـ الآن ـ مسئوليات أكثر جسامة فى أعقاب المؤتمر الثالث للحزب، وإنتخبت أمينا عاما لحزب التجمع، وليس عندى وقت فراغ.

*** لا أتكلم عن الفراغ بالمعنى المادى للوقت، ولكن بمعنى عدم وجود قضية؟**

ـ الذى يدفعنى إلى هذه المعركة هو خشية حقيقية على مصر، والذى يثير شجنى هو أن يكون هناك بعض المفكرين أو المثقفين المصريين الذين لايشعرون بحقيقة الخطر الداهم الذى يواجه مصر، والذى يدهشنى ليس أننى منغمس فى هذا النشاط، ولكن الذى يدهشنى هو أن الكثيرين ليسوا منغمسين فى هذا النشاط.

أنا لا يمكن أن استرخى، أنا استشعر فى هذه القضية هما مصريا حقيقيا يؤرقنى إلى أقصى مدى.

*** ما الذى يمكن أن تفعله لجنة الوحدة الوطنية ـ عمليا وبشكل محدد ـ تجاه هذا الهم المصرى العام؟**

ـ أن تحرك الصخر وتحرك كل المصريين.

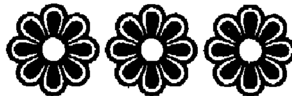
*** أنا لا أريد شعرا.. إنما أريد كلاما واقعيا؟**

ـ نعد لاحتفال ضخم يوم ٩ (اكتوبر) المقبل يحضره عشرة آلاف مواطن وسيتحدث فيه قداسة البابا شنوده وفضيلة المفتى، ومكرم محمد أحمد وسنطلب إلى عدد من كبار الفنانين المصريين أن يقرأوا شعر شوقى عن الوحدة الوطنية.

*** هل ما زال مثل هذا اللون من الأداء العام قادراً على تحريك شىء فى المواطن العادى؟**

ـ اعتقد أنه قادر بخلق مناخ جديد نظيف ضد المناخ السائد الردىء، ذلك المناخ الذى تشيع فيه تهديدات القتل لأصحاب الفكر، والذى يجبرنى ـ الآن ـ على السير فى حراسة ستة أمناء شرطة، والذى أتلقى فيه عشرات الخطابات من المواطنين يوميا أقباطا ومسلمين يستحلفوننى مزيداً من الحرص على نفسى!!

سبتمبر ١٩٩٢



الفصل الثاني

(أدباء وفنانون)

نجيب محفوظ - الدكتور/ يوسف إدريس - إحسان عبد القدوس - ثروت أباظة - يوسف القعيد - جمال الغيطانى - عبد الرحمن الأبنودى - (حديث تعقيبى لخالد محيى الدين على أدباء المجتمع) - الرسام حجازى - رجاء النقاش - على سالم - أحمد عبد المعطى حجازى - أحمد عباس صالح - أسامة أنور عكاشة.

نجيب محفوظ

مجتمع الحرافيش الجدد

* بعض الانفتاحيين تراكمت ثرواتهم على حساب البلد وليس لحساب البلد!

* لم أضع مدخراتى فى شركات توظيف الأموال لأننى لا أصدقها!

* سلبيات الانفتاح صفت كل المكاسب السياسية للسبعينات!

* مجتمع الانفتاح يبدو وكأنه ينتحر من أعلاه إلى أدناه!

* لا يمكن أن تتكون ثروة بطريق غير شرعى ثم يتم توظيفها لصالح الأمة!

* جالست بعض الأغنياء الجدد فخفت أن أحدثهم عن الأدب!!

* بيوت الطبقة المتوسطة أصبحت تحتاج لوزير تخطيط يضع لها ميزانيتها الأسبوعية!

* * *

لم يكن حواراً تقليدياً.. ولم يكن مصدراً تقليدياً.. ولم يكن تجاذباً معتاداً لأطراف الحديث فى أمور ألف الناس أن يسألوه عنها، أو يجيبهم عليها.

ولكنه كان محاولة للنفاذ إلى الرؤية الاقتصادية والاجتماعية فى عقل أديب كبير..

*** نجيب محفوظ..**

لم يتخل - أبداً - عن مراقبته لمجتمعه.. لم يمل - أبداً - فحص شخوصه والتعبير عنها.. لم يخاصم - أبداً الزمن أو يحجم عن الاعتراف بتغيره.. وإنما ظل مصوراً بارعا لكل التطورات الاقتصادية والاجتماعية فى بلاده، وناقلا لها فى نمنمات أدبية هى فى - أبسط صورها - (وصف مصر) عبر ثمانية عقود.

وفى ساحة هذا الحوار «تحدث نجيب محفوظ عن مجتمع الموظفين وأسماهم الحرافيش الجدد، وتحدث عن الانفتاح الاقتصادى، وظاهرة الفساد، وشركات توظيف الأموال، وقرارات منع الاستيراد، والسلوك الاقتصادى لأبطال رواياته، وجوانب الإصلاح التى يراها، وكنا نشعر معه أننا أمام فصول تترى من رواية جديدة يوشك الزمن أن يصوغها واقعا يرسم حياة المصريين ١٩٨٧.

فصل فى الإدارة:

*** أستاذ نجيب.. تناولت فى ملحمة «الحرافيش» كل أشكال النظم الاقتصادية الفردية والاجتماعية من خلال حكم الفتوات.. إلى أيها تنحاز؟**

أنحاز لحكم الجماعة على المستويين الاقتصادى والسياسى، فنحن جيل تربى - كما تعلمون - فى مدرسة الديمقراطية، وقد أصبح هذا الحس الحر جزءا لا يتجزأ من حياة جيلى، وكلما ساد المناخ ذو الطبيعة الاجتماعية فى مجتمعنا تجدنا فى ارتياح كبير، ومهما وجه إلى حكم الجماعة من مآخذ، فإنه يظل أفضل ما عرف الإنسان من نظم الحكم.

*** تغيرت الدنيا.. ولم يعد الحرافيش هم الصعاليك والشطار.. فما هى هموم حرافيش المدينة الآن؟**

** الحرافيش اليوم هم صفوة الأمس، إنهم موظفو الحكومة والقطاع العام، المتعلمون والمثقفون، الذين تزداد معاناتهم الاقتصادية يوما وراء يوم.

أما الحرافيش الأصليون، فقد فتح الله عليهم، وتحسنت أحوالهم جدا، وأصبحوا أثرياء بين يوم وليلة.

وأنا أذكر هذا من موقع الحب، إلا أن ما ينقصهم هو أن يصيبوا مستوى ثقافياً معتبراً، ونعلم جميعا أن هذا لا يتحقق إلا بمدة طويلة، عندما تظهر أجيال أبنائهم وبناتهم الذين يتلقون تعليما رفيع المستوى فى كل المراحل بفضل وضعيتهم الاقتصادية الجديدة.

إذن فالأزمة، أو المصيبة لم تقع إلا على رأس الحرافيش الجدد!

*** على مستوى النظام الاقتصادى - الاجتماعى، فإن هموم هؤلاء الحرافيش الجدد تقتضى شكلا من أشكال الجماعية يختلف - بالتأكيد - عن حرافيش الأمس فما هو؟**

** كان قدماء الحرافيش يصيبون رزقاً محدوداً جداً، وحياتهم - تكاد - تكون غير إنسانية من حيث المسكن والغذاء، ولم يكن فى حياتهم - وهذا أيضا من معايب المجتمع - مسئوليات، بمعنى أنهم لم يعتادوا الذهاب للطبيب إذا مرض أحد أفراد أسرتهم، ولم يخبروا لذة التعلم، أو يدركوا أهمية أن يذهب أبناؤهم إلى المدارس، فهم لم ينتبهوا لقيمة أشياء معينة، فأصبحوا معفيين منها، وتخففوا - بالتالى - من أعبائها الاقتصادية التى تستتبعها.

أما وضع الحرافيش الجدد فيختلف.

نعم أصبح الرزق محدوداً، لكنهم كانوا كشريحة اجتماعية يدركون

ضرورة المحافظة على قيم معينة، وتلبية حاجات معينة، أى أنهم يطحنون بين شقى رحى هما قلة الموارد، والالتزام بجميع المسئوليات والأعباء المترتبة عليها من وجهة النظر الاقتصادية.

أصبح تفكيرهم منحصرا فى لقمة العيش، وتفشى بين بعض عناصرهم الانحراف.

*** كيف يحقق الحرافيش الجدد قدراً من المشاركة فى حل الأزمة الاقتصادية لصالح الجماعة ؟**

** بداية.. أعتقد أنهم يعطون العمل العام أقل مما يستحقه بكثير، وهم معذورون فإن أياً منهم يحتاج إلى عمل آخر يدعم به نفسه.

وأنا أعتبر أن العمل الإضافى الخارجى للموظف يشكل حالة (انحراف) متكاملة الأركان، فالمفترض ألا يكون للموظف عمل آخر، ولكن الضائقة تدفع بهم إلى هذا الانحراف، فيزيدون مصادر دخلهم بحيث تتواءم مع احتياجاتهم، وفى بعض الحالات يكملونها بما هو أسوأ من العمل الإضافى (الرشوة أو ما شابه).

وفى مثل هذه الظروف ـ بعامة ـ يكون الموظف مضرباً عن التفكير العام، وأنا أحاول أحيانا ـ أن أحدث بعضهم، أو أبناءهم عن قانون الانتخابات، أو الأحزاب، أو الديون فأجدهم نافذى الصبر، راغبين فى التخلص من الإحساس بهذا الهم العام.

هؤلاء لا تدفعهم الموعظة أو النصائح للعمل العام، إنما يدفعهم توافر قدر مقبول الأمان الاقتصادى والطمأنينة ولو فى حدها الأدنى.

وهؤلاء ـ بالأمس ـ لم يكونوا مضربين عن العمل العام، فقد كانوا قراء للصحف وأعضاء فى الأحزاب، وعلينا أن نعرف لماذا حدث هذا التحول

السلبى فى مسلكهم وستكون الإجابة ـ فوراً ـ هى اختفاء الإحساس بالأمان الاقتصادى.

*** فى قلب مناخ الأزمة الاقتصادية العالمية (١٩٣٠ - ١٩٣٤) برز اسم نجيب محفوظ كأديب، كيف أثر الإحساس بهذه الأزمة على تناولك لتراجيديا الطبقة الوسطى فى مصر؟**

** الطبقة الوسطى وأغلبها من الموظفين والأفنديات وقتها، كانت تكابد مشاكل من لون مختلف عن ذلك الذى تعانيه ذات الطبقة الآن.

كانوا يفتقدون إلى العدالة فى المعاملة الإدارية، والطبقية الشديدة، والتمييز والتحيز الإدارى، فتجد موظفاً يجلس فى مكتب واحد مع أحد زملائه، ويعمل مثله، وربما أكثر ثم يجده قد مرق فجأة ليحتل مراكز أكبر وأعلى، لمجرد أنه قريب لأحد الباشوات، أو زوج لابنة أحد الوجهاء.

*** مثل عيسى الدباغ فى (السمان والخريف) ؟**

** بالضبط.. ولكن بالرغم من هذا، فقد كان الحد الأدنى للمعيشة متوفراً، فلم أر موظفا ـ وقتها ـ يعانى أزمة تسلمه إلى درجة الجوع، فقد كانوا أقل دخلا بالمقارنة إلى الصفوة، ولكنهم كانوا يستطيعون الحياة!

فقد كان الشاب يستطيع التوظف بالبكالوريا بمرتب يصل إلى سبعة جنيهات ونصف، وعندما توظفت ـ أنا ـ فى إدارة الجامعة كان مرتبى ـ بعد الخصم، يصل إلى تسعة جنيهات ونصف، ووجدت زملائى يستفهمون بعجب، لماذا لا أتزوج، وأنا أستطيع أن أفتح بيتين بهذا المرتب!!

كان أى زوج يعطى زوجته ثلاثة جنيهات كمصروف للبيت، فتكفيه أن يعيش فى يسر، بل ورخاء.

كان الواحد منا يستطيع أن يعد ميزانية لبيته ويتصور أنها ستستمر عشرين

سنة، أما الآن فهو يحتاج كل شهر، بل كل أسبوع إلى ميزانية لبيته يضعها وزير تخطيط شديد البأس!!

لم تكن احتياجات الرزق ـ إذن ـ هى التى تضغط على طبقة الموظفين، ولكن أزماتهم كانت من لون آخر، فتجد طائفة منهم اسمها (المنسيين) وهم الذين تخطتهم الإدارة فى الترقيات، الذين يظل الواحد منهم عشرين أو ثلاثين سنة فى درجة وظيفية لا تتغير.

كانت المحسوبية ـ أيضاً ـ هى أحد جوانب أزمتهم، فتجد طالباً نجيباً مجتهداً ينجح فى كلية الحقوق ويتخرج بتقدير هائل، ومع ذلك لا تعينه الإدارة فى سلك النيابة، لأن والده ليس أحد البكوات أو الوجهاء!

ولأن هذا اللون من الأزمات لا يهدد الإحساس بالأمان، ولا يهدد الاحتياجات الأساسية من مأكل ومشرب ومسكن، فإن هؤلاء الموظفين من الطبقة الوسطى، كانوا يجدون فرصة، لمناقشة المسائل العامة، ومن هنا كان جلوسهم فى المقاهى، لتدخين (الشيشة) والكلام فى السياسة، وتبادل القلق على حزب الأغلبية الذى أمضى معظم سنوات عمره خارج الحكم.

كان الإحساس العام موجوداً لا شك فى ذلك.

أما اليوم فإن حال موظفى الحكومة له فى ذهنى صورة، أشبه بصورة لون من العقوبات التى كان يقتص بها من بعض الخارجين على القانون فى الماضى، حين يوضع الخارج على القانون فى برميل ضخم، ويسلطون عليه نبعا من الماء، فيظل ينزح الماء خارج البرميل، وإلا مات غرقا، وهذا هو حال الموظف الآن ينزح هموم احتياجاته الاقتصادية العاجلة. فلا يجد فرصة أو نصف فرصة للاهتمام العام بما يقع خارج حدود برميله!!

*** ما هو حجم مشاركة طبقة الأفنديات - فى الماضى - فى تشكيل القرار الاقتصادى بالرأى.**

** كان كاملا!!

*** كيف والمقدرات الاقتصادية للمجتمع تحت سيطرة طبقات اقطاعية ورأسمالية عاتية؟**

** بالرغم من هذا، فقد كان الأفنديات يشاركون بنشاط فى الحياة الحزبية، وتجدهم حريصين على أن يكونوا على رأس القائمة فى يوم الانتخاب، ولا يمكن أن يخلو أحد مجتمعاتهم من الكلام فى مستقبل البلد، وكانوا من القواعد الأساسية التى تقدر على أن تدفع بحزب الأغلبية إلى الحكم، رغم كل المعوقات، ولذلك فقد كان هذا الحزب حريصا على أن يفعل شيئاً للموظفين حينما يصل إلى الحكم، فقد أنجز وقتها، القوانين الأساسية للموظفين، وأنصاف المنسبيين وأنصاف أصحاب الشهادات، ومجانية التعليم.

و.. فصل فى الانفتاح:

*** فى وصف درامى لمصر، كيف ترى أزمتها الاقتصادية الآن؟**

** من ينظر للحالة العامة أو للعجز، وكثرة السكان، والديون يجد هذه الأزمة خانقة، ولكن كل شيء كان له فائدة حتى الخسائر!

والحل هو الإصلاح السياسى، الذى ينبغى أن يكون البند الأول فى رأس المسئول عن الإصلاح الاقتصادى!

الإصلاح الاقتصادى دون إصلاح سياسى يصبح مجرد كلام فى الهواء، ولكن عندما نعتمد الإصلاح السياسى طريقا لنا ويشعر كل مواطن أن حقوق الإنسان محترمة فيه، وأنه إنسان مدعو لاتخاذ القرار والمشاركة فى صناعته وأنه شخص مهم يتعلم جيدا ويتثقف جيداً تصبح استجابته مهما كانت ظروفه مع العمل وليس مع التخريب!

أخلصت الإدارة له، فأصبح يشعر بأنه يجب أن يخلص لها - بطريقة ما.

دعوة شراء البضائع الوطنية مثلا من أنبل الدعوات، ولكن حينما توجهها لأناس يتمتعون بحقوقهم وينظر إليهم على أنهم قوة فعالة لها قيمتها تجد استجابتهم لها فورية وحقيقية.

كنا فى الماضى نشجع الصناعة الوطنية ونصر على ارتداء الملابس ذات الصناعة المصرية التى تجعل أشكالنا كالبهلوانات لأنها بدائية وبسيطة، وكنا نلقى كل التشجيع من أهلنا وذوينا بدافع تلقائى وحقيقى، أما الآن فإن الاستجابة تختلف فى ثقلها وحرارتها لأن عنصر شعور المواطن بأهميته لايزال منقوصا.

إذن فالبعد السياسى للشعار الاقتصادى هو الأساس فى كل حالة، لأن الأزمة التى نواجهها تحتاج إلى إنسان يعمل بإخلاص، وهو لا يمكن أن يعمل بإخلاص إلا إذا شعر أنه محترم.

*** ساعتها - إذن - يكون «حضرة المحترم»؟**

** تماما!!

*** أستاذ نجيب - طوال الوقت وأنت تتحدث عن دور الإدارة أو الحكم فى مواجهة الأزمة، ولكن هناك دورا آخر لم تتحدث عنه وهو دور الناس، وكيف يتغير سلوك الناس بشكل لا يتناقض مع التحرك لحل الأزمة؟**

** التناقض حدث فى ظرف من ظروف الانفتاح الاقتصادى، عندما وجدت شريحة من الناس، أن من السهل تحقيق تراكم مالى واقتصادى بأى سبيل ودون مراعاة لمصلحة المجتمع، أى أنها حققت ثروتها على حساب البلد وليس لحساب البلد!!

وجانب آخر للتنافس هو أن الانفتاح قد أدرك الجماعات الشعبية التى يسرنا أن تتحسن أحوالها، ولكن لأنها قادمة من حرمان شديد، فقد غاب رشدها فى الإنفاق على الطعام حتى التقيؤ والشراب حتى الثمالة، والمخدرات حتى الغياب!

وبدا المجتمع كله ـ من أعلاه إلى أدناه ـ وكأنه ينتحر!

ولم يعد الأعداء التقليديون الذين نشير إليهم، دائما كالامبريالية العالمية والصهيونية العالمية مؤثرين قدر التأثير العدائى لهذا المجتمع على نفسه!

ووجدنا أنفسنا مرة أخرى فى حاجة للإصلاح السياسى لنجعل من الحيوان السياسى الملقب (بالإنسان) مدركا لمصالح الجماعة ومرتبطا بها، وكلما أعطينا له المزيد من الحقوق، كلما سار فى طريق يتخلى عن الفردية ويسلك سلوكا لا يتناقض مع التحرك لحل الأزمة.

*** كان سعيد مهران فى (اللص والكلاب) يجسد أزمة روحيه لها مصدرها المادى، فهذا البطل فقير يشعر أن فقره نتيجة لظلم اجتماعى.. لو أتيح لسعيد مهران أن يعيش من جديد عام ١٩٨٧ فكيف سيكون سلوكه.؟**

** (يضحك) كان سيصبح مليونيراً..!

سيلقى بالكلمتين الطيبتين اللتين تعلمهما، ويستخدم جرأته التى ستمكنه دون شك أن يصبح مليونيرا!!

*** وفى (المذنبون) شبكة من المصالح الاقتصادية المعقدة وراء ظاهرة الفساد، كيف يمكن للمجتمع أن يواجه هذه الظاهرة؟**

** الفساد يواجه بطريقتين:

الإصلاح.. والعقاب..

فقد كنت موظفا لفترة تربو على السبعة والثلاثين عاما، وأعرف أن الموظف العام يمكن أن يمشى كالألف، ولكن فقط نعطيه حقوقه التى تمكنه من الوفاء بالحد الأدنى لمتطلباته.

نعطيه ثم نضرب المنحرف ونقسم ظهره!

٩٩٪ من الموظفين أيامنا ـ كانوا شرفاء ومعتزين بأنفسهم، كان الأفندى يشعر أنه الحكومة ويبرم شواربه فى فخار فما الذى أوصله إلى الانحراف؟!

الحل هو أن نضرب الكبار، الذين نشعر أن فسادهم يضر البلد ويضر الاقتصاد القومى.

ولابد لكى نضرب الكبار، أن تستعيد الدولة كل هيبتها التى تتمثل فى احترام القانون والمساواة أمامه، وعند الدولة الأجهزة التى تمكنها من ذلك.

*** مجتمع التجار فى الجمالية يشكل أرضية اجتماعية ـ اقتصادية عريضة حركت عليها شخوص الثلاثية، ومجتمع أثرياء الانفتاح يشكل أرضية اجتماعية ـ اقتصادية عريضة حركت عليها شخوص (أهل القمة) و(يوم أن قتل الزعيم) ما هو الفارق بين أثرياء المرحلتين؟**

** كان المجتمع الأول متوازنا، وفيه نوع من العبير الدينى يمثل رادعا للانحراف وكان السلوك لا يخلو من الإحساس بالوطنية والمسئولية العامة رغم أن الحياة الشخصية قد يعتورها سلوك منحل أولاٍ.

أما معظم أثرياء الانفتاح، فهم يشعرون أن المال أتاهم بطريق غير شرعى، وبالتالى فقد سلوكهم مبادئ أخلاقية اجتماعية كثيرة.

لا يمكن أن أنهب مالا بطريق غير شرعى، ثم أقبل ـ طائعاً مختاراً ـ أن أوظفه لصالح الأمة!!!

*** هل جالست بعض الأغنياء الجدد لتراهم عن قرب؟**

** مررت ببعضهم، فقد أخذنى أحد أصدقائى إلى سهرة فى بيت أحدهم.

*** ما هى ملامح سلوكهم - كما رأيتها؟**

** أحسست أننى أقعد مع ملوك! يصرفون صرف الملوك، ويحيون حياة الملوك!

المفترض أننا كنا ذاهبين إلى فيللا، ولكننى وجدتها من أربعة أدوار أى أنها عمارة على شكل فيللا، والغريب أن صاحبها أتى بفروع العائلة وأسكنها أجنحة هذه الفيللا فى سلوك قبلى غريب، سمعت كثيراً عن تكراره فى حالات أخرى لأغنياء آخرين.

*** فى ماذا يتكلمون وما هى اهتماماتهم؟.**

** كانت الجلسة كلها صفقات، ولم أكن فاهما لما يدور حولى ويتكلمون فيه.

*** ألم يحدثك أحدهم فى الأدب؟**

** أبداً.. ولم افتح سيرته فقد خفت أن يضربونى!! (يضحك)

*** فى كل تناولاتك المكتوبة تبدو مؤيداً لشكل النموذج الذى طبق فى مصر السبعينات من الناحية السياسية، ولكن كلامك الآن عن الانفتاح يبدو مختلفا؟**

** هنا لابد من إيضاح، فقد أيدت ولا أزال، الاتجاه للديمقراطية، ونصر أكتوبر، والسلام أما الانفتاح وسيطرة الانتهازيين فهى التى صفت أو تحاول تصفية كل مكاسب السبعينيات السياسية!

و.. فصل فى السينما:

*** كنت مسئولاً عن مؤسسة السينما فى الستينيات، ما هو عنصر الارتباك الحقيقى الذى أصاب اقتصاديات صناعة السينما وقتها، ثم كيف أثرت سيطرة القطاع الخاص على ذات الصناعة واقتصادياتها فى حقبة السبعينيات وحتى الآن؟**

** الخلل فى المؤسسة، كان نفس نوعية الخلل السائد فى القطاع العام، فبدلا من أن يشعر السينمائيون أن لهم مؤسسة أصبح منوطا بها النهوض بمستوى الفيلم المصرى، شعروا أن هناك مالاً سائباً يجب الاغتراف منه بلا حسيب أو رقيب.

المؤلف الذى كان يتقاضى ٣٠٠ جنيه فى القطاع الخاص، وإذا قبضهم دفعة واحدة أقام نذراً لأهل الله، أصبح يتقاضى ٣٠٠٠ جنيه فى القطاع العام!! نتيجة تلاعب المنتجين من السينمائيين.

وأصبح المؤلف يقول إنه زميل فلان ويجب أن يساويه فى الأجر، وكأن المسألة دفعات، أو مستويات وظيفية ودرجات حكومية!

وأصبحت أجهزة التوزيع فى المؤسسة مشغولة ومهتمة بتوزيع أفلام القطاع الخاص أكثر من أفلام القطاع العام!

وبالرغم من هذا كله فإن القطاع العام حقق فى المستوى الفنى أشياء لم تكن لتحقق بدونه، ويكفى أن نتأمل أفلام (الناصر صلاح الدين) و(المومياء) و(الأيدى الناعمة) و(الأرض).

وبعد القطاع العام جاء القطاع الخاص بمنطق التاجر الذى يبحث عن مزاج الجمهور فأنتج أفلاما تلبى احتياجات وذوق هذا الجمهور، وحدث رواج لم تشهد السينما له مثيلا أصبحت الأفلام تنتج بالجملة كالبورصة، حيث تغطى الأفلام تكاليفها من العرض الأول.

ثم جاء عصر الفيديو الذى ضرب اقتصاديات (العرض السينمائى) فى مقتل فقد ضاعف من زبائن الفيلم المصرى عشر مرات ،لكنه انخفض بإيراداته إلى العشر!

الناس لم تنصرف عن الفيلم المصرى ولكنها انصرفت عن دور العرض.

وعلى سبيل المثال فقد شهدت السينما المصرية موسماً ممتازاً عام ١٩٨٦، وبإجماع النقاد كان هناك ١٢ فيلماً جيداً فى هذه السنة، وهو شىء لم تحققه السينما المصرية فى عمرها، وبالرغم من هذا فإن العام الذى شهد أعظم ذروة فنية شهد أكبر خسارة اقتصادية لأن المخرجين الشباب الجدد الذين قادوا هذا التيار الفنى المتميز جاءوا بكل أسف فى وقت الانهيار الاقتصادى لصناعة السينما تحت وطأة ضربات الفيديو.

والحل الآن يكمن فى الإجراء الممتاز بإنشاء شركة للفيديو والتوزيع تحقق التوازن الاقتصادى المطلوب فى صناعة السينما، ويمكن أن يكون هذا الاتجاه ناجحاً شريطة أن يسانده قانون جديد لتنظيم سوق الفيديو ووقف عمليات تهريبه.

و.. فصل فى الأمل:

*** الواقع الاقتصادى الآن يفرز أى نوع من أنواع الأدب؟**

** الأدب الآن تغلب عليه بصمة السلبيات والتشاؤم، وهو يحتاج من الأديب إلى عراك طويل مع نفسه، كى لا يصبح هو الآخر ـ من القوى المخربة.

فالأديب يجب أن يكون صادقاً وأن يفتح فى ذات الوقت نافذة للمستقبل وللتبشير بالأمل.

ونلمس هذا بوضوح عن بعض الأدباء الشبان، وخصوصا الذين يعتنقون ايديولوجيات يسارية.

*** هل يوظفون الأمل لخدمة التبشير بايديولوجياتهم أو لخدمة المجتمع ؟**

** يمتزج العنصران ببعضهما فى أدب هؤلاء، ولكن على الأقل ـ سنجد فى أعمالهم لوناً من الأمل أو التطهير.

ويبدو هذا فى أعمال الغيطانى ويوسف القعيد وصنع الله ابراهيم.

*** الأمل.. هو الشباب ـ بشكل ما ـ تعال لنتأمل أشكالا من السلوك الاقتصادى لبعض ابطالك ونحدد مدى انطباقيتها على نظائرهم من الشباب الآن ؟**

فلنقل أولا إن التطلع الاقتصادى والقلق الطموح عند حسنين فى (بداية ونهاية) الذى انتهى به الانتحار..

** الانتحار لم يعد نمطاً سائداً لأن فيه لون من ألوان الرومانسية، ولكن الشباب الآن يحاول أن يفك أزمته بطرق فردية، يتصادف أن يكون أهله أغنياء أو يتزوج من زوجة غنية، أو يهاجر!

فيما عدا هذا فمعظمهم مصاب بإحباط نتيجة ظروفه الاقتصادية ونسمع كيف يحاول البعض منهم اختراق السدود بحوادث جديدة على مجتمعنا وقيمنا.

*** ولنقل ثانيا إن مأساة الضعف الاقتصادى عند حميدة فى (زقاق المدق) دفعت إلى رضوخها لأن تتشكل وفقا لما يريد صاحب القوة الاقتصادية، ألا يصبح وجود فرد صاحب للقوة الاقتصادية عائقا أمام حرية الشباب فى الاختيار؟**

** هذا صحيح - إلى حد كبير.

* **والعمل؟**

** العمل عمل ربنا (يضحك)

والحقيقة أننا لا يجب أن ننساق إلى ترديد الشعارات فحسب.

الديمقراطية يجب أن تكون حقيقية والعدالة الاجتماعية يجب أن تكون حقيقية، ولا يوجد أى تناقض بينهما، وستجدهما مطبقتين أجمل تطبيق فى بلاد الشمال بشكل لا يوقع الأجيال الجديدة فى مأزق الاختيار غير الحر.

* **الديمقراطية تمارسها أحزاب وجماعات لها مصالح اقتصادية تعمل على خدمتها وليس خدمة المجموع؟**

** هذه هى ديمقراطية زمان، وقد ضيعها استيلاء طبقة عليها، ولكنك إذا نظرت إلى ديمقراطية انجلترا مثلا ستجد أن النظام الديمقراطى يمنع سيطرة طبقة على الحكم.

* **هذا وضع مختلف وهو نتاج ثورة صناعية حسمت القسمة إلى شركات ونقابات ثم إلى حزب محافظين وحزب عمال؟**

** أوليس القطاع العام المصرى يضم عمالا لهم مصالح ويمكنه التعبير عنها سياسيا؟

* **نعم هذا ممكن بشكل ما - ولكن علاقتهم بملكية أدوات الإ واضحة بالشكل الذى يسمح بوصفهم على النحو الذى تريا وعيهم بمصالحهم الاقتصادية والسياسية يتأرجح وفقا عديدة.**

** الإصلاح السياسى هو الذى سيوضح علاقتهم بأدوات الإنتاج ووعيهم بمصالحهم الاقتصادية.

*** الإصلاح السياسى أو الصناعة الكبيرة؟**

** لا .. الإصلاح السياسى وعندك مثلا الصين الشعبية التى حققت هذا فى البداية بدون الصناعة الكبيرة.

*** نعود إلى نماذج السلوك الاقتصادى عند أبطالك فقد كان الوصول إلى طبقة أعلى يتم عبر حياة الهوان والانحطاط فى نموذج بطل (القاهرة الجديدة) فما هو المعادل الموضوعى لهذا النموذج فى حياتنا الآن؟**

** يحدث هذا بطرق أخرى فقد اتسع الميدان الذى تمارس فيه الانتهازية عملها، ولم يعد مجرد الحصول على علاوة اثنين أو ثلاثة جنيهات هو الأمر الذى يمارس فيه الانتهازى انتهازيته على حساب مجتمعه وإنما أصبح الآن يعرف مكاتب التصدير والاستيراد وغيرها من الوسائل الحديثة!!!

*** ألا ترى أن جزءا من أزمة الأجيال الجديدة هو الطريقة التى يعتمد بها على الدولة فى كل شىء من تعليمه إلى توظيفه إلى كل أموره؟**

** نعم لقد أصبح الشباب اعتماديا يفتقد المبادرة وحتى المجموعة التى كانت ما تزال تحتفظ بقدر من المبادرة وظفتها لفكرة الهجرة، فأصبحت هذه الهجرة هى مبادرتهم!

و.. فصل فى الإصلاح:

**** لماذا لم يعد فى مصر رموز فكرية تتبنى - ضمن ما تتبنى - أفكاراً اقتصادية محددة للإصلاح تراعى الحد الأدنى للالتزام القومى؟**

** باستثناء الماركسيين والتيار الدينى نجد أن التيار الباقى فقد الثقة فى

كل المفاهيم من الديمقراطية إلى الاشتراكية إلى غيرها بفعل الممارسات التى شهدوها.

*** أقصد الزمرة الفكرية وليس الانتماء التنظيمى؟**

** حينما أتكلم عن هؤلاء فأنا أتكلم عنهم كتيارات وليس كتنظيمات.

*** وما هو تقييمك للحلول الاقتصادية التى تطرحها بعض هذه التيارات مثل شركات توظيف الأموال؟**

** أشك فى الأرباح الخرافية التى تعطيها هذه الشركات وأنا مثلا ـ أضع مدخراتى المتواضعة فى شكل سندات بأسماء البنات فى بنك مصر، ولعمرى لم أفكر فى نقل هذه المدخرات إلى شركات توظيف الأموال لأننى لا أصدقها وعلى كل الأحوال فمسألة نشاط هذه الشركات تحتاج إلى جلاء.

*** ربما يكون فى مراقبة الحكومة لنشاط هذه الشركات لوناً من الجلاء؟**

** الحكومة من حقها أن (تعرف) بالفحص كل جوانب نشاط هذه الشركات لأن الحكومة مسئولة عن المجتمع وإذا عرفت الحكومة أن هذه الشركات تنحرف فيجب أن (تراقبها).

*** ألم تدفعنا بقية التيارات، الفكرية إلى لون من ألوان الارتباط بالقوى العظمى الذى احتاج منا إلى جهد هائل لتأكيد استقلال القرار الاقتصادى المصرى فيما بعد؟**

** الاستقلال الاقتصادى يكون متحققا بالكامل حينما نحقق الاكتفاء الذاتى، وأنا غير متخصص فى (التنمية) ولكن كمواطن بسيط أستطيع أن

أقول، إن العبرة بالنتائج، ولابد أن هناك طريقا للتنمية كان أفضل من ذلك الذى سلكناه طوال سنوات طويلة وأوصلنا إلى عدم الاكتفاء الذاتى.

***كيف تتصور هذا الطريق الأفضل؟**

** على قدر تفكيرى غير الاقتصادى ـ ألخصه فى المثل الشعبى (على قد لحافك مد رجليك) فنوقف فيضان الاستيراد بحيث لا نستورد سوى آلات ضخمة يمكن أن تعيش عشرات السنين ثم نهتم بالصناعات البسيطة التى لدينا وندعمها وألا نقترض أبداً كدولة!

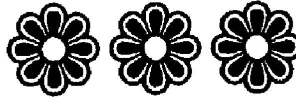
*** قرارات منع الاستيراد كيف ترى أثرها اقتصاديا واجتماعيا؟**

** وصلنا إلى حالة سيئة نتيجة غياب الرشد فى سياسات الاستيراد، والأغنياء على كل حال يستطيعون شراء ما يريدون من الخارج عندما يسافرون، أما نحن كمجتمع فلا يجب أن نستورد أى شىء سوى ما هو ضرورى للحياة فى أبسط صورها.

وقد يقول لى قائل إن هذا قد يسبب ضيقا لبعض الشرائح أو قرفا، ولكنى أقول إن هذه الشرائح يجب أن تقرف.

أتكون البلد فى أزمة وهم مبسوطون سعداء مرحين؟؟!!

فبراير ١٩٨٧



يوسف إدريس

الاقتصاد أخطر من أن يترك للاقتصاديين

* نحن محتلون بالعفاريت الخفية فى مصالحنا وإداراتنا الاقتصادية؟
* الذين هربوا أموالهم هم الذين كونوها بطرق لا يمكن إثبات شرعيتها.
* دكاترة الجامعة نظموا الاقتصاد على طريقة الكتب!
* أطالب بثورة رأسمالية متكاملة!
* المشكلة ليست طريق الاشتراكية أو الرأسمالية، ولكنها وسيلة الحركة على هذا الطريق أو ذاك؟
* نبدو وكأننا ندير الأمور لصالح بعض بيوت الخبرة الأجنبية!
* نحن فى عالم لم ينشأ صدفة، ولم يحدث فيه التطور بالفهلوة الاقتصادية!
* مبارك مبرأ من خطايا الأنظمة الاقتصادية السابقة، وهو الوحيد القادر على الإصلاح.

* * *

د. يوسف إدريس و«حديث فى الاقتصاد» ؟!

نفس الدهشة تلبس نفس السؤال، الذى يسأله كل من ندعوه إلى ساحة هذا الحوار.

إلا الدكتور يوسف إدريس فلم يستغرب ولم يتساءل، ولم يبد مقاومة تذكر:

أحبط ـ عندنا ـ لذة مفاجأته بطلب غريب.

وفاجأنا هو بحديث طويل مسهب، كان دافعا لأن نتأمله ـ بكل الدهشة!!

فى هذا الحديث انتظمت كل أربع قضايا اقتصادية ـ مصادفة ـ فى مربعات تناولها بوجهة نظر تتجاوز آراء ورؤى الاقتصاديين، فهو يرى ـ ضمن ما يرى ـ أن الاقتصاد أخطر من أن يترك للاقتصاديين!!

....

رباعية:

* الديون

* الأموال المهربة

* الاتجار فى العملة

* شركات توظيف الأموال

*** دكتور يوسف.. هل هناك ما يربط بين هذه الظواهر؟**

** نعم هناك ما يربطها.. ولكنه يقع خارج حدود هذه الرباعية؟

فليس هناك فى مصر مشكلة اقتصادية، ولا مشكلة ديون، ولا مشكلة شركات توظيف أموال، ولا مشكلة أموال مهربة.

ولكن هناك مشكلة تبلور نفسها فى هذا التساؤل الأزلى: (من يحكم الاقتصاد فى مصر؟) أو (ما هو العقل المتحكم فى التوجيه الاقتصادى؟).

لقد بدأت إشكاليه هذا التساؤل، حينما نشأت فكرة نزع الاقتصاد عن السياسة، وهى فكرة لجأ إليها نظام عبد الناصر، حيث أتى ببعض أساتذة الجامعة، ليحددوا شكل نظامه الاقتصادى، فنظموه على طريقة الكتب، وأنتجوا له خلطة توفيقية من أفكار طائرة لآدم سميث، وكينز، وكارل ماركس، وقد تكون هذه الخلطة مقبولة نظريا، ولكن المؤكد أنها غير قابلة للاستمرار.

ولو كان نظام عبد الناصر قد استمر، لواجه نفس الأزمة الاقتصادية التى نعيشها ولكن بملامح مختلفة، فهذه الأزمة ليس سببها ممارسات اليوم، ولكن سببها أن إدارة الاقتصاد المصرى، أو ـ بمعنى أدق ـ إدارة المجتمع المصرى، هى إدارة غير صالحة للإدارة، وغير صالحة لتكوين اقتصاد أو نظام أو سياسات يومية!

*** هل السبب هو سوء سلوك الإدارة، أو انفلات قبضتها؟**

** بالعكس قبضة الإدارة شديدة جداً، ولو نظرنا ـ كمثال ـ للتعريفة الجمركية المصرية وإجراءاتها سنجدها أشد إجراءات جمركية فى العالم، وكذا الإقرارات الضريبية، وأسلوب المحاسبة فيها، إن لنا تراثا تاريخيا فى إحكام قبضة الدولة يبدأ من أيام المماليك وهو فى منتهى الدقة والشدة معاً.

ولكن المشكلة ليست سلوك الإدارة أو إحكام قبضتها.

المشكلة فى العقلية التى تدير هذه العمليات الاقتصادية المتشابكة.

لقد وضع نظام عبد الناصر مبدأ (السياسة قبل الاقتصاد)، وبدأ يستعمل الاقتصاد لأهداف سياسية، وهذا أخطأ وأخطر شىء، فإذا كان (كارل ماركس) نفسه وهو مبتدع استخدام الاقتصاد فى السياسة يقول: إن الاقتصاد

هو محرك التاريخ، فكيف لا يصبح الاقتصاد فى عهد عبد الناصر وسيلة لتغيير نظام وطريقة الحكم، أو اختيار نظام العلاقة بين الحكام والمحكومين؟!

عموماً، نحن حينما نستخدم فكرة نزع الاقتصاد عن السياسة، بل وعن الثقافة والتغييرات الاجتماعية، فإننا نجافى منطق الأشياء وحدود النظريات العلمية، أو الواقع العملى.

وكانت النتيجة لهذه الفكرة التى سادت الإدارة المصرية، هى اختلاط أكيد فى كل الأوراق، وسيادة للأفكار التوفيقية والتلفيقية، فقد أتينا بزعماء القطاع الخاص ليديروا القطاع العام، فأداروه بمنطق، ولمصلحة القطاع الخاص!

نعم.. أدار هؤلاء القطاع العام بمنطق التخلص منه أساسا!

أداروه بمنطق الاستهلاك وليس بناء على نظرية ـ كما حدث فى الاتحاد السوفيتى مثلا ـ، حين كان هدف الاقتصاديين هو خدمة الاتجاه الاشتراكى والتخلص النهائى من القطاع الخاص.

وعندما جاء السادات، وجد المسرح مستعداً تماماً، فتخلص ـ دون أى مقارنه تذكر ـ من الدور الذى يقوم به القطاع العام، وقد تسلمه كمؤسسة إنتاجية غير متماسكة تدار لمصلحة القطاع الخاص.

غير أن أخطر ما اتسم به أداء السادات الاقتصادى، كان ابتداعه لنظرية أن العمل هدف فى حد ذاته، وغير مرتبط بالإنتاج، فوظف الناس لمجرد أن يعملوا، وهنا تضخمت العمالة جداً وعطلت الإنتاج، وقتلت الحافز لدى المنتج.

هذا ـ بالطبع ـ بالإضافة لإشكاليات نظام السادات الاقتصادية المعروفة، والمترتبة على سياسة الانفتاح الاقتصادى بالطريقة التى طبقت بها، والتى تعد

أركان هذه الرباعية (الديون ـ تهريب الأموال ـ الاتجار فى العملة ـ شركات توظيف الأموال) نتيجة مباشرة وحادة لها.

*** إذن - تعال - نربط بين عناصر هذه الرباعية وبين الفكرة التى ذكرتها عن غياب العقلية التى تحكم الاقتصاد؟**

** فى قضية شركات توظيف الأموال

سنجد أننا أمام موقف، تتجه فيه مدخرات فئة عريضة من المصريين إلى هذه الشركات، وهذه الشركات تعطى فائدة تساوى ـ تقريبا ـ التناقص فى قيمة العملة، وهنا يتصور المواطن أنه يحصل على أرباح بينما ـ واقعياً ـ هو لا يحصل على شيء، ثم لماذا تتناقص قيمة العملة؟ إنها تتناقص لأسباب متعددة من ضمنها، ومن أهمها أن هذه الأموال التى تجمعها شركات التوظيف تستخدم فى شراء الدولار وفى مضاربات الذهب، أى أنها دائرة جهنمية تخفض سعر العملة وتعطى الفارق للمدخرين على أنه ربح، وهو ليس ربحا!!

ولو كانت هناك عقلية (سياسية) تدير الاقتصاد كانت ستلجأ على الفور إلى رفع سعر الفائدة فى البنوك الوطنية بشكل يجذب لها هذه المدخرات، ولكن الفارق المهم والخطير هو أن هذه البنوك الوطنية ستستخدم التراكم المالى لديها فى مشروعات منتجة، حقيقية وجادة فترتفع قيمة العملة المحلية فى مواجهة العملات الأجنبية.

بغير ذلك سيظل المواطن الذى يضع مدخراته فى البنوك الوطنية، ويحصل على ١٣,٥ ٪ فائدة، تصفى على ١٠ ٪ بعد سلسلة خصومات، سيظل هذا المواطن يدفع ـ واقعياً ـ خسارة للبنوك الوطنية، تساوى الفارق بين فوائدها وفوائد شركات التوظيف!!

وفى قضية الديون:

سنجد أننا ـ مرة أخرى ـ أمام الحقيقة الساطعة بأن أساتذة الجامعة لا يقدرون على إدارة بلد من الناحية الاقتصادية.

الاقتصاد ـ مثلما قال كيسنجر ـ أخطر من أن يترك للاقتصاديين!!

وهى ليست مسألة تنافس بين الاقتصاديين والسياسيين، ولكنها إقرار لحقيقة أن الاقتصاد إن لم يدر بمفهوم سياسى واسع جدا فإنه يخطئ جداً، ويرتبك جداً، ويتدهور جداً!

قضية الديون لا يمكن فهمها على أنها مسألة اقتصادية فحسب، ولكن فهمها يتطلب إدراكا لحقائق سياسية داخلية، ولظواهر سياسية دولية تتشابك فى نظام محكم ومعقد.

فحينما ظهر العالم الثالث كقوة كبيرة مع بزوغ حركة عدم الإنحياز، فإنه لم يظهر كقوة سياسية فقط، ولكن كتجمع اقتصادى وطنى يحسن الثروات القومية لبلدان هذا العالم النامى.

حينما ظهرت هذه القوة هددت مخطط العالم الغربى للسيطرة على هذه الثروات.

وبالتالى عمل العالم الغربى على تكسير هذه الكتلة، وهنا فرض الأقوى شروطه التى تتمثل فى أرخص محاصيل ومواد خام ـ فى مقابل ـ أغلى منتجات صناعية.

وهكذا نشأت ديون العالم الثالث.

هذه ـ إذن ـ ليست راجعة لنقص فى خبرة الإدارة الاقتصادية التكنوقراطية، ولكنها راجعة لضعف ارتباطاتها السياسية بالعالم الثالث، ثم بالطبع ـ ضعف هذا العالم الثالث أمام العالم الأول.

وفى ذات الوقت عجز العالم الاشتراكى، الذى يفترض أنه الحليف للعالم النامى، عن سد الفجوة التى تمكن هذا العالم النامى من الصمود.

وأنا أعتبر العالم الاشتراكى (ملحق عالم ثالث) وبالتالى يجب أن لا تكلفه أكثر من وسعه، فهم واقعون بطريقة غير مباشرة تحت تأثير العالم الرأسمالى، ولذلك بدأوا يقتبسون بعض طرقه ـ مؤخراً ـ، وهذا أيضا يمثل كارثه، لأنه يشبه حالة شخص يسير منهكا فى الرمال الناعمة، ويحلم باللحظة التى يصل فيها إلى الأسفلت ليجرى، ولكنه حينما يصل إلى الأسفلت سيجد نفسه راكبا بسكليته، وأمامه العالم الغربى يمرق بسيارة متقدمة!

الأسلوب يجب أن يتكامل مع النظرية والتوفيق لا ينفع.

وبالنسبة لنا فإن المشكلة ليست هى طريق الرأسمالية أو الاشتراكية، ولكنها وسيلتك فى الحركة على هذا الطريق أو ذاك.

وفى أى الاختيارات فإن أسلوبنا لمواجهة مسألة الديون يجب أن يتوافق مع اختيارنا الاقتصادى ـ السياسى، ويجب أن يدرك حقائق العالم التى شكلت هذه المسألة على النحو الذى تواجهنا به اليوم.

* **ثم قضية تهريب الأموال:**

نحن فى هذا الأمر أمام شقين..

* **الشق الأول:** يجب أن نقرر فيه أن الجزء الأكبر من الذين هربوا أموالهم، هم الذين كونوا هذه الأموال بطرق لا يمكن إثبات شرعيتها.

وليست مصر وحدها التى تشهد هذه الظاهرة، فالولايات المتحدة تشهدها من عناصر تنتمى لنفس النوعية التى كونت ثروتها بطرق غير شرعية، ولكنها تستعيض عن هذا بأنها مركز جذب لاستثمارات أجنبية كبيرة.

* **والشق الثانى:** يمثله هؤلاء الخائفون من المستقبل، وهم عادة يهربون

مبالغ صغيرة جداً، لا تمثل ثروة، وهم يجسدون ظاهرة اختفاء المصداقية الاقتصادية للإدارة، واستمراريتها، أو وجود رموز معينة توحى بالثقة فى هذه الاستمرارية.

والتعرض للشق الأول يكون (من المنبع) بمعنى عدم السماح بتكوين ثروات بطريقة غير شرعية.

أما التعرض للشق الثانى فلا يكون إلا بالاطمئنان الذى لا ينتج إلا بتكون ثقه تدير الاقتصاد بمنطق سياسى يعى قضية المحكومين اقتصاداً وسياسة.

*** وقضية الاتجار فى العملة:**

هى بشكل ما ـ نتيجة لكل المقدمات السابقة، وحلها لا يكون إلا فى إطار كلى يخلق البنيان الاقتصادى الجديد على النحو الذى سأفصله بتحديد أكبر.

رباعية:

*** الاكتفاء الذاتى**

*** الصناعة الوطنية**

*** التصدير**

*** معدلات النمو المرتفعة**

*** هل تضع العناصر فى خانة الحلم، أما أنها رؤية يمكن أن تتفسر فى واقع المصريين؟**

** الصناعة الوطنية تقوم فى دولة عندها مقومات، نشوء صناعة وطنية من رأسمال وكادر وخبرة، وهذا كله كان موجوداً، قبل الثورة بشكل ما، وكان ينمو بشكل طبيعى للغاية، ولكن هذه العناصر هربت بعد الثورة، ولم

يبق عندنا سوى طبقة من أنصاف العارفين، وقد حاولت أن تبنى صناعة وطنية، وكادت تنجح، بمساندة حماس جماهيرى جارف.

إلا أن هجمة الانفتاح - بالطريقة التى حدث بها - لم تبق لنا مقوم واحد من مقومات الصناعة الوطنية التى كانت متوافرة لدينا، بل ولم تفتح بابا لهذه الصناعة إلا بالخضوع الكامل للمعسكر الرأسمالى الغربى، مثل نموذج تايلاند.

*** هنا أنت تتجاهل تجربة الباكستان - مثلا - بتحقيق الاكتفاء الذاتى من القمح رغم علاقتها الخاصة بالمعسكر الرأسمالى الغربى، أو تجارب بلدان أخرى استطاعت أن تبتكر حلولاً صناعية تبدو بدائية، ولكنها تفى بالاحتياجات الضرورية لشعوبها؟**

** ظروفنا تختلف عن هذه النماذج، باكستان تستطيع إنتاج قنبلة ذرية، وتستطيع أن تكتفى ذاتياً من القمح، ولكن نوع الضغوط التى تواجهنا أعتى وأكبر.

وهى ضغوط من الخارج، وضغوط أخرى من الداخل.

نحن محتلون بالعفاريت الخفية فى مصالحنا وإدارتنا، هذه العفاريت التى تحاول إدارتنا لصالح الاحتكارات العالمية الكبرى.

هذه العفاريت التى أظهرتنا بمظهر من لا يستطيع تحقيق الاكتفاء الذاتى فى (قضاء الحاجة)!!

دفعنا ٥٩ مليون جنيه لبيت خبرة أجنبى لنعرف أين تصرف مجارى الاسكندرية، القاهرة ليس فيها بحر، وهى تصرف فى «أبو رواش» فلنفعل فى الاسكندرية ما فعلناه فى القاهرة، ولكن العفاريت الخفية تأبى هذا وتصر على دفع ٥٩ مليون لبيت خبرة، وكأنها تدير الأمور لصالح بيوت الخبرة الأجنبية!

كل عناصر الرباعية الثانية ترتبط تأثيراً وتأثراً بقضية الصراع بين السيطرة الاقتصادية التى يحاولها الغرب والاستقلال الاقتصادى الذى نحاوله.

الأشكال الجديدة للسيطرة تحاول إبقاءنا فى حالة حاجة إليها باستمرار والعفاريت الخفية تساعد فى هذا!

العالم الغربى لم يعد فى حاجة إلى جيوش ليحتل العالم، فقد توافرت له ثلاثة عوامل ليخضع العالم وهى:

- الطاقة وبدائلها.

- القمح والغذاء.

- الأسرار التكنولوجية الكبرى.

وحتى السوفييت محتاجون لأمريكا!، لأن الاستعمار لم يعد قبيلة تهجم بفرسانها لتحتل واحة، وتسبى نساءها، كما لم يعد سباق (بأى آلة تحارب) من العجلة الحربية إلى القنبلة الذرية، ولكن الاستعمار أصبح يعنى السيطرة بلا طلقة مدفع وبلا نقطة دم!

*** كل هذه النقاط تتجاهل إرادة الشعوب، ألا يمكن أن تتبلور إرادة الشعب فى حل إشكالية الاكتفاء الذاتى - والصناعة الوطنية - معدلات النمو- التصدير؟**

** نعم يمكن.. بثورة رأسمالية متكاملة.

وهى ليست ثورة غوغاء، أو ثورة هوجاء، أو ثورة فى شكلها الكلاسيكى، إنما هى ثورة قانونية لا تخرج على القانون، ثورة رأسمالية على غرار ما قام به لنكولن، وهى تسعى لتحقيق الرأسمالية بكل أبعادها. وبكل عدالتها.

فإذا طبقت النظام الرأسمالى ـ كما هو بحذافيره ـ فهو المؤدى إلى الاشتراكية بأحلى معانيها.

فالاشتراكية جاءت لتصحح عيوب الأداء الرأسمالى، وهى ملازمة للرأسمالية، كما كان «أوين» ملازما «لسميث»، و«ماركس» ملازما للنهضة الصناعية فى أوروبا، والرأسمالية علمت الفرد، أن يتحرك داخل آلة إنتاج ضخمة اسمها المجتمع، ثم جاءت الاشتراكية لتدير هذه الآلة على أسس اجتماعية معينة فلابد إذن أن تنشأ الرأسمالية أولا لتنشأ الاشتراكية بعد ذلك، أما أن نقفز من عصر الاقطاع الزراعى إلى عصر الاشتراكية دون أن نمر بالرأسمالية فهذا مرادف مطابق لمعنى (التلبيخ الفلسفى أو العقائدى)!

نحن فى عالم لم ينشأ صدفة ولم يحدث التطور فيه بالفهلوة الاقتصادية، فالتطور التاريخى له أسبابه، ولا نستطيع أن نقول إن الرأسمالية هى كلام فارغ فحسب، هذا تبسيط إلى درجة الفلطحة، الرأسمالية كانت خلاصة خبرة تاريخية طويلة، (دعه يعمل ـ دعه يمر) جاءت نتيجة لصراع طويل مع الدويلات الأوروبية الاقطاعية، (البشرية لا يمكن أن تخترع نظاما اقتصاديا أو سياسيا من فراغ، لكن هذه النظم تنشأ تلقائيا فى سياقها التاريخى المحدد.

عندنا ـ مثلا كانت ثورة ١٩١٩ هى ثورة رأسمالية أجهضت، وفشلت قيادتها السياسية فى تحقيق الاستقلال الاقتصادى، فجاءت الثورة الاقتصادية بقيادة طلعت حرب لكى تحقق الاستقلال الاقتصادى بدون قيادة سياسية ففشلت أيضا.

وجاء عبد الناصر ليحل هذه المشكلة ويقوم بثورة سياسية ـ اقتصادية معا، وكانت مرشحة لأن تكون الثورة الرأسمالية المتكاملة، ولكنه أخفق لأن دكاترة الجامعة، ولفوا له نظاما يأخذ جزءاً من الرأسمالية، ويترك جزءاً آخر، وبحيث أقاموا له نظاما رأسماليا بدون رأسماليين، وبدون عقلية رأسمالية، نظام

رأسمالى وطنى رغما عن أنف الرأسمالية الوطنية!! بينما هذا النظام الرأسمالى لابد وأن يكون بتعضيدها.

تخلى نظام عبد الناصر عن فرغلى باشا وسيد جلال وأبو رجيله، وأنشأ رأسمالية مصطنعة يقود ضباط المخابرات فيها المنشآت الاقتصادية.

أصبحت المناصب الاقتصادية نوعا من المكافأة السياسية، فلا نفعت كمكافأة، ولا نفعت كإدارة!

أما السادات فقد تصور نظامه أن الطريق الجديد هو الاستسلام الكامل للاحتكارات العالمية، وقد أثبتت هذه التجربة أن هذا شىء مستحيل، وأنه ذاهب إلى تشرذم سياسى واقتصادى كامل.

مبارك مبرأ تماما من عيوب وخطايا كل التجارب، السابقة، وهو القادر على أن يحقق هذه الثورة الرأسمالية، بحيث تتحول الشعارات المتفرقة المتناثرة مثل (تشجيع الصناعة الوطنية وغيرها إلى دعوة متكاملة، يسود فيها النظام الرأسمالى الواضح المعالم، وتسبقه أيضا التعبيرات السياسية عن عناصره الاقتصادية والاجتماعية، مثل إطلاق حرية تكوين الأحزاب، ـ تعديل الدستور ـ حرية الخطابة والصحافة، وفى هذا الإطار فإن تكوين الأحزاب سيكون من أساس اقتصادى ـ اجتماعى حقيقى، وسيصبح الإصلاح الاقتصادى قائماً على مدى قدرة برنامج أى حزب على الإنتاج والإسهام المحدد فى حل الإشكال الاقتصادى، وساعتها سيسود استقرار سياسى فى شكل ومنهج المجتمع لفترة غير محددة. وتتحقق الصحوة الكبرى ويطمئن المواطن العادى والشخص الرأسمالى إلى الإطار الذى يمارسون فيه أنشطتهم ذات الطابع الاقتصادى.

بهذا ـ فقط ـ يمكن تتفسر جوانب الرباعية الثانية كواقع فى حياة المصريين، وليس حلما في خيالهم.

رباعية:

- الدعم.

- مجانية التعليم.

- تعيين الخريجين.

- التأمينات الاجتماعية.

*** هل مازال لهذه المكاسب الاجتماعية تحقق واقعي في حياتنا؟**

** لا ... التعليم مع الدروس الخصوصية ليس مجانياً، والعلاج الحقيقي مع تكاليفه ليس مجانياً، وقد كنت أدفع في الماضي ٤٥ جنيها لكلية الطب في السنة كمصروفات (وترجمتهم بلغة العصر حوالي ٩٠٠ جنيه) ولذا كنت حريصا على الحصول على (مجانية التفوق)، أما الآن فالطالب يتعلم مجاناً، ويدفع حوالي ٢٠٠٠ جنيه للدروس الخصوصية وهو غير حريص على التفوق، بقدر ما هو حريص على العبور الدراسي والسلام.

وأنا لا أطالب بإلغاء هذه المكاسب الاجتماعية ولكنني أطالب بألا تصبح في متناول كل «إنسان».

مجانية التعليم للمتفوقين، والدعم للطبقات التي تحتاج الدعم.

*** وكيف تحددها؟**

** هي الفئات العاملة وتحديدها - بسهولة - في مواقع العمل من مصانع وإدارات ومصالح، بل إنني لا أتجاوز إذا طالبت برفع (الدعم) في قضية تعيين الخريجين، فالتعيين يجب أن يكون بالتفوق أيضا.

*** هذا معناه أننا سنوظف أعداداً قليلة جداً؟**

** لا... حينما أتكلم عن التعيين بالتفوق فإن ذلك يعني (غربلة)

الخريجين على الوظائف بحيث يخضعون لما يشبه مسابقة التعيين، ومن لا يستطيع إحراز مؤهلات وظيفة معينة، يمكن أن يصلح لوظيفة أخرى، وبهذا نكون قد هيأنا أنسب العناصر ـ من الناحية النظرية ـ لكل وظيفة. فلا يمكن أن نلزم المصرى بالإنتاج فى مجتمع غير منظم، أو مجتمع تسوده معايير قيمية غير مفهومة فى الحصول على فرصة العمل، المصرى لن ينتج دون شروط بل يجب أن يكون بينه وبين الإدارة عقد اتفاق، توفر له فيه الوظيفة المناسبة لقدراته ومستواه، ويلتزم هو بتحقيق نسب إنتاج معينة فى هذه الوظيفة.

إذا تعاملنا مع كل المكاسب الاجتماعية السابقة تعاملا واقعيا ـ فسوف نستطيع تحريض مجتمعنا على الإنتاج والتفوق، بل وسنستطيع التطلع للمستقبل.

وقد كتبت كتاب (خلو البال) لأضغط فيه على نقطة هى عدم قدرتنا على التطلع للمستقبل، وانشغالنا باليوم أكثر مما ينبغى، فمن ٤٠ سنة كان الدكتور فؤاد محيى الدين زميلى فى الدراسة والمعتقل، يقول لى: سأصبح رئيس وزراء مصر، أى إنه ـ بشكل ما ـ كان قادراً على النظر إلى ما بعد ٤٠ سنة أما شباب اليوم ـ فى ظل ـ الحلول الدعمية الجاهزة فى كل مجال فإنه غير قادر على التطلع إلى المستقبل لأن المستقبل ـ فى هذه الحالة ـ فى علم من بيده الدعم، بل إن المستقبل أيضا يجب أن يكون مدعوماً!!!

رباعية:

- البنوك الأجنبية.
- المنح.
- المشروعات المشتركة.
- المعونة الأجنبية.

*** فى أى طريق تسير بنا هذه العناصر؟**

** طالما ملكنا زمام أمورنا، فلنتعاون حتى مع الشيطان.

ولكن لابد أن توجد أنت أولا.

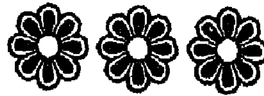
فى أى تعامل اقتصادى مع جهة أجنبية، الطرف المصرى هو الطرف غير المعروف.

ففى المشروعات المشتركة مثلا لا تعرف إذا كان الطرف المصرى هو (الحكومة أو القطاع العام أو بعض الأفراد) ؟ وهل سيمثل جناحا من أجنحة الحاكم، أم سيمثل إدارة من إدارات القطاع العام؟

ومن الذى سيحاسبه؟ هل هو الطرف الأجنبى أم البرلمان المصرى، أم اللجنة الاقتصادية للحزب الحاكم.

فى الصين مثلا ـ نجد مشروعات مشتركة، لكن الطرف الصينى معروف، ويعمل لحساب الشركة، ولو أنها بدون وطن، أما عندنا فتختلط الأوراق دون مناسبة.

فبراير ١٩٨٧



إحسان عبد القدوس

القضية نائمة فى سيارة كاديلاك!

* لم نعد نعيش «قضايا» وطنية ولكننا نعيش «حالات» وطنية!
* طبيعة الطبقة الوسطى لم تتغير، ولكن دوافعها اختلفت!
* شركات توظيف الأموال لا علاقة لها بالإسلام من بعيد أو قريب!
* استكمل مبارك وعيه السياسى بعد ٢٣ يوليو ١٩٥٢ فأصبح قادراً على تلافى الأخطاء!
* الأحزاب والجماعات السياسية المصرية ترتبط بالماضى، ولم تتحمل مسئولية أية دعوة وطنية حقيقية!
* الذين هربوا بأموالهم للخارج، أصبحوا ـ واقعيا ـ مهاجرين مصريين!
* أحزابنا أبرزت قيادات إدارية ولم تبرز قيادات سياسية وطنية!

* * *

** إحسان عبد القدوس

لعله الوحيد فى جيله الذى لا يسأل: (أين عمرى؟!).

فالرجل يدرك، ونحن ندرك معه أن عمره قد تبلور الآن تياراً يحفر مجراه فى حياة مصر السياسية بعدما نشأ فى أحضان مجلة!

والرجل يزهو ـ ويجب أن نزهو معه ـ بأنه قد أنفق سنى هذا العمر فى تأسيس مدرسة صحفية للوطنية المصرية تعلن بالبرهان الساطع، إن مؤسسات الصحافة لا تكون ثرية بأموالها، قدر ثرائها بكتابها ومفكريها ورساميها وفنانيها.

والرجل يعلم، ونحن أيضا نعلم ـ بعد هذا، العمر ـ أن الجماهيرية الطاغية التى أصبح اسمه علامة مسجلة عليها، ليست وليدة مخاطبته للنوازع الحسية كما يحلو للبعض أن يصور أو يتصور، ولكنها وليدة قدرته الهائلة على تحدى المجتمع ورج فكره وتغيير وتجديد قناعاته التى استسلم لها ونام فى ظلالها الوارفـة.

لقد قال متحديا ما أعجز غيره عن القول!

الرجل فى جيله سطر مقالات وقاد حملات كانت بمثابة المدفعية الصحفية الثقيلة التى تمهد لـ ٢٣ يوليو.

والرجل فى جيلنا رفع بالرواية صوت شباب يرنو لمجتمع جديد ولقيم جديدة.. ولحلم جديد.

يدخل إحسان عبد القدوس إلى ساحة الحوار ليثير عشرات الأفكار والخواطر تبدأ جميعها وتنتهى بأننا نعيش (حالات) وطنية ولا نعيش (قضايا) وطنية، ويرجع كل ظواهر السياسية والاقتصاد على الساحة المصرية لهذه الفكرة الأساسية التى تلخص نفسها فى صعود (الفردية) واختفاء (القضية) تلك القضية التى ربما أصبحت الآن نائمة فى سيارة كاديلاك تنساب بها خارجة من شارع الوطنية المصرية، وهو الشارع الوحيد الذى كان يجب أن نفرح لازدحامه بل واكتظاظه بكل أنواع المركبات والبشر.

....

«أرشيف» روز اليوسف والطبقة المتوسطة.

*** أستاذ إحسان ربما كانت روز اليوسف هى المطبوع المصرى الأول الذى يهتم بالموضوع الاقتصادى.. حين ظهرت على صفحاتها مقالات تعلق على الميزانية وتحلل بنودها.. كيف؟ ولماذا كان هذا التركيز رغم زحم الأولويات السياسية والوطنية فيما قبل ثورة يوليو؟**

** بالطبع لم تكن روز اليوسف متخصصة اقتصاديا، ولكن صفة الموضوع الوطنية هى التى حكمت تناول المجلة لأى عنصر فى حياة البلد، سواء كان سياسياً، أو اقتصادياً، أو اجتماعيا.

تعودنا فى روز اليوسف أن نخوض أى موضوع وطنى بجرأة وصراحة، وحينما كانت الصحف والمطبوعات المصرية تحجم عن الخوض فى الموضوعات الاقتصادية أو فى مواد معينة منها حرصا على ألا تنزلق فى متاهاتها أو تلمس من لا يجب أن تلمسهم، اندفعت روز اليوسف إلى تناول الموضوع الاقتصادى بطبيعتها التى لا تراعى أى اعتبار سوى التعبير عن النبض الوطنى فى أى مجال.

*** فى هذا الموقف الوطنى.. كانت روز اليوسف تحمل قضايا الطبقة المتوسطة وتعبر عنها وربما يبرز ذلك أيضا فى أدبك هل تستطيع أن تميز معالم هذه الطبقة الآن.. أين ذهبت.. وكيف أصبحت؟**

** الطبقة الوسطى هى التى تمثل قوة التطور فى أى مجتمع..

هى التى تواجه الطبقة الأعلى.

وهى التى تشد طبقة الكادحين وتقودها فى هذه المواجهة.

وأنا أنسب نفسى للطبقة المتوسطة لأننى نشأت وتربيت فى اطارها.

ومن هنا فإن الطابع الذى اتسمت به روز اليوسف هو تعبيرها عن هذه الطبقة المتوسطة.

اليوم مازالت الطبقة المتوسطة موجودة، ومازالت هى التعبير الحركى عن الأغلبية ولكن الدوافع التى تحرك الطبقة المتوسطة هى التى اختلفت.

لم نعد نعيش فى (قضايا) وطنية.

ولكننا نعيش فى (حالات) سواء سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية.

وهذا بالضبط ما جعل الطبقة الوسطى تعجز عن إبراز وإفراز قيادات تتولى توجيه المجتمع بكل طبقاته.

* **(حالات) بأى معنى؟!**

** الحالة: تقتصر على دفع الأفراد إلى التصرف لحل مشكلاتهم هم.

والقضية: تقوم على تحريك المجتمع كله لحل مشكلات الجميع.

* حينما نعيش «حالة تسود» روح الفردية ولا نشعر فى مجال الاقتصاد مثلا ـ أن الشعب كله يحمل المسئولية، ويسود مبدأ (كل واحد وشطارته) ويصبح الاعتماد على الحكومة وليس الشعب هو أساس التصدى لأية أزمة.

أما حينما نعيش «قضية» فإن كل إنسان على أرض الوطن يجب أن تنتظمه دعوة عامة كبرى تكون وسيلته ووسيلة مجتمعه للخلاص الوطنى..

....

على سبيل المثال نعرف جميعاً أن إنقاذ الوضع الاقتصادى يعتمد فى الأول والآخر على زيادة الإنتاج، والطريق إلى أن تكون زيادة الإنتاج (قضية وطنية) وليست (حالة) أن نصل إلى اقتناع الجماهير بزيادة ساعات العمل دون زيادة الأجور.

ولكن لأن الحكومة تعودت أن تواجه حالة فهى تلجأ للحل السهل الذى لا يكلفها مشقة الدعوة الشعبية بالإقناع، وهو زيادة الأجور والمرتبات.

وبالطبع لأن هذه الزيادة لا ترتبط بالإنتاج، فإن النتيجة هى خفض قيمة الجنيه، فالعامل الذى يتقاضى مائة جنيه شهريا يعرف الآن تماما أن قيمة مرتبه الشرائية لا تساوى أكثر من عشرة جنيهات!

«بروفة» الدعوة الشعبية والقيادات السياسية:

*** فى تصورك ما هى العناصر التى يجب أن تتوافر لنجاح دعوة شعبية من النوع الذى ذكرته؟**

** ببساطة مصارحة الناس بمسئولياتهم.

والمفترض أن هذا يعتمد على القيادات الوطنية.

قيادات الأحزاب (أغلبية ومعارضة)، وحتى قيادات الجماعات السياسية الغير محددة فى إطار الشرعية، لا تتحمل مسئولية أى دعوة وطنية.

الجميع يخافون!

لم نر أى حزب أو شخصية تدعى الزعامة يطالب الشعب بتحمل مسئولياته.

الكل يحاول أن يكسب الشعب بالطرق السهلة، فالمعارضة تدعى أنها تناضل من أجل زيادة الأجور، والحكومة تفكر فى كسب الناس بزيادة المرتبات بدلا من أن يعمل الجميع على مطالبة الناس بالعمل.

*** (الشعب) .. (الناس) .. (الجماهير) .. ما الذى يدفعهم - بالفعل - إلى تبنى دعوة وطنية والسير خلفها والتضحية من أجلها؟**

** قوة الدعوة!

وأعود لأكرر أننى لا ألمح على الساحة دعوة شعبية لقضية وطنية تتسم بالقوة، فالقوة فقط (للحالات)!

مثلا فى شئون العلاقة مع إسرائيل، لا ألمح الإحساس بكيان قضية بيننا وبين إسرائيل.

فالسلام مع إسرائيل حالة تتمتع بالرضاء العام، ولكن حتى فى إطار اتفاقية كامب دافيد يمكن أن نجد (دعوة وطنية) تطالب بالتعديل، أو تطالب بانتهاء دور القوات الدولية مع التزامنا بحالة السلم مع إسرائيل.

هذا هيكل قضية وطنية يمكن أن تلعب فيها المطالبة الشعبية دورها.

....

حينما كنا نحارب وجود الانجليز فى مصر، لم نكن نعتبر أنهم حالة قائمة، ولكن كنا بالمطالبة الشعبية نحول الأمر إلى قضية وطنية يجب الوصول فيها إلى حكم.

«مراجعة» شكل الطبقة الثرية:

*** نرى فى أدبك صورة عناصر المجتمع المصرى فى كل عنصر..**

كيف تحدد ملامح الطبقة الثرية الجديدة؟

** الطبقة الثرية الجديدة لا ينحصر تكوينها فيما بعد الانفتاح، ولكن قبل هذا القرار الفاصل كانت فى مصر طبقة ثرية جداً من أصحاب البلايين، نجحوا فى تكوينها من خلال صلاتهم بالحكام فى عصر الثورة، وكان لهم فوق ذلك دوراً رئيسياً فى الحكم!

وأنا لا أعتقد أننا نستطيع التوصل إلى إثارة الإحساس الوطنى بين أفراد هذه الطبقة، أو بين أغنياء ما بعد الانفتاح إلى حد اقتناعهم بإعادة أموالهم

التى أودعوها فى الخارج إلى أرض الوطن وبنوكه، بل لن نستطيع - حتى - إقناعهم بالخضوع لنظام ضرائبى حقيقى، أو إقامة مشروعات إنتاجية لخدمة البلد، مهما اشتدت الحركة الوطنية أو المطالبة الشعبية.

هؤلاء - من الناحية الواقعية - أصبحوا مهاجرين (حتى وإن عاشوا على أرض مصر)، بل إنهم لم يعودوا مصريين!!

كل ما نستطيعه الآن هو أن نحاول تدارك الفارق المهول بين من يكسبون بلا حدود، وبين من يكسبون فى أضيق الحدود، وهذا لا يعنى - بالطبع - الجنوح إلى المصادرة، ولكنه يعنى الجمع بين الغنى والفقير فى نظام ضرائبى واحد يحل الإشكال الاجتماعي، ويرتفع بمستوى البلد الاقتصادى؟

*** الرأسمالى المصرى - قديما - كان يفكر فى الوطن..**

لماذا لم يعد كذلك؟

** أود فى البداية أن أحدد معنى وطنية رأس المال:

وطنية رأس المال ترتبط بقدرته ورغبته على إنشاء مشروعات صناعية وزراعية على أرض الوطن، ولن أمعن فى التفاؤل وأقول مشروعات خدمية.

- بالأمس كانت الدعوة الوطنية ترتبط برأس المال الوطنى أيضا حين تواجه قواعد الرأسمالية فى البلد.

- واليوم يسيطر رأس المال المصرى على الموقف وإن كانت بعض فصائله مازالت ترتبط بالاقتصاد الأجنبى.

الدعوة لم تختلف، ولكن تغيرت ظروفها.

الماضى يقوم على التخلص من الأجنبى.

والحاضر يقوم على البناء الوطنى لمصر.

ووطنية رأس المال فى المرحلتين ترتبط بهذين العنصرين.

*** ولماذا لم تظهر فى هذه الطبقة قيادات وطنية تملك المبادرة الخلاقة للانتقال من «الحالات» إلى «القضايا».**

** إحدى غلطاتنا الكبرى أننا لا نقدر الفارق الكبير بين الماضى والحاضر.

الفارق ضخم جداً، رغم أن الماضى يبدو قريبا.

لو أن طلعت حرب ولد اليوم ونادى بقيام بنك مصر لكان هذا البنك عادياً جداً فى شكله ومضمونه، لأن معظم البنوك اليوم وطنية.

هناك مهمة جديدة ينبغى أن تقوم بها الطبقة الثرية ومدى وطنيتها مرهون باندفاعها لأداء هذه المهام.

*** أكرر .. لماذا لم تقم طبقة الانفتاح بأية مبادرات وطنية خلاقة فى ساحة الاقتصاد؟**

** طبقة الانفتاح تشبه جماعة من الناس اكتشفت مغارة على بابا، فأقبلت على ما فيها من ذهب وفضة، وهى تشعر ألا صاحب لهذه المغارة، وهذه النفسية لا تخلق مبادرة وطنية، بل تخلق انحرافا عن الوطنية.

«توضيب» الأحزاب وشركات التوظيف

*** تحدثنا عن الدعوة الشعبية التى توجه السلوك العام تجاه قضايا وطنية، ما هو تقييمك للأداء السياسى للأحزاب المصرية فيما يتعلق بالتزامها الوطنى؟**

** أعتقد أن كل الأحزاب القائمة تمثل الماضى، ولا تمثل الواقع ولا المستقبل، فالعقليات التى تقود هذه الأحزاب تعيش وتستغرق فى الماضى تماما، بل إنها مرتبطة ومقتنعة بالأسلوب السياسى والحركى القديم.

لا ألمح جيلاً جديداً عاش الوضع فيما بعد الثورة ثم نجح فى تولى مسئولية حزب يسعى للوصول إلى الحكم.

كل نجوم الساحة من عواجيز الماضى.. كلهم!

الذى يجب أن يتولى المسئولية الحزبية هو الجيل الجديد.

وهذه ليست مسألة سن، ولكن ما أعنيه هو سيادة العقلية المفكرة للجيل الجديد.

ومن هنا يأتى سر نجاح وشعبية حسنى مبارك.

مبارك يمثل الجيل الجديد بعد قيادات ثورة ٢٣ يوليو (عبد الناصر والسادات). وقد استكمل وعيه السياسى وفكره الوطنى بعد الثورة. مما جعله يقدر كل الأخطاء، ويصل إلى تصور للتغلب عليها.

أيام عبد الناصر والسادات كانت تحت مظلة (مسئولية الثورة) و(حماية الثورة) و (استمرار الثورة)، ولم يكن فى المرحلتين اعتراف بالأخطاء أو كشف لها لأن الزعامات كانت - بشكل أو بآخر - مسئولة عن هذه الأخطاء، وبالتالى كان السائد هو تجاهل الانحرافات والخطايا.

أما الجيل الذى يلى هذه الزعامات فليس مسئولا عن هذه الأخطاء وبالتالى يستطيع إصلاحها.

وأعتقد أن السبب الرئيسى فى بطء التطور الذى نحاول به مواجهة مشاكلنا المختلفة، هو أن الجيل الجديد لم يستكمل سيطرته على المجتمع الذى تتنازعه أهواء عواجيز الماضى حتى الآن.

*** مادمنا قد طرحنا فكرة (المحايلة) فى الفكر السياسى فهل مطلوب من حسنى مبارك بوصفه ممثل للجيل الجديد أو للعقلية الجديدة أن ينشىء حزبا جديدا؟**

**** أبداً.. ولكن المطلوب أن يطور حزبه.**

وأعترف أن الحزب الوطنى أبرز شخصيات إدارية فى منتهى النجاح والقدرة، واستطاع بالفعل أن ينفذ مشروعات كبرى ويجتاز معضلات عويصة، ولكنه لم يبرز قيادات سياسية تستطيع إقناع الناس وتعبئتهم خلف دعوات شعبية تحمل الجماهير فيها المسئولية، ولا تلقى بالعبء كله على الحكومة لتنوب عنها فى التصدى لكل شىء.

نحن لا نجد فى الحزب الوطنى بعد حسنى مبارك شخصية واحدة تتمتع بثقل سياسى وشعبى تستطيع به توجيه الجماهير إلى هدف من خلال الإقناع وليس السلطة.

وبالطبع أتمنى أن ينجح الحزب الوطنى - بوصفه حزب الأغلبية - فى تحقيق هذا، وأظن أنه سيحققه، إن لم يكن بالرغبة فعلى الأقل بتأثير الزمن الذى سيفسح المجال للشباب عنوة.. (يضحك)!!

*** وعلى هامش الساحة الحزبية كيانات أخرى لا ترتبط بإطار الشرعية، ولكنها تحاول توسيع قاعدتها الشعبية.. وربما صاغت إبداعها السياسى فى أشكال اقتصادية محددة مثلما طرح علينا التيار الإسلامى صيغتى البنوك الإسلامية وشركات توظيف الأموال معتمداً أسلوب الأمر الواقع المتسلح بالمال وقوته.. والمتسلح أيضا بغطاء عجيب يحاول أن يحمى به نفسه وهو تحوله إلى ما يشبه مؤسسات الضمان الاجتماعى التى تعطى المساهمين مرتبات ضخمة (هى عوائد إبداعاتهم) وبالتالى فإن على هؤلاء المساهمين حماية مصالحهم والضغط والتضاغط مع أى إجراء حكومى يحاول (توظيف) شركات التوظيف لخدمة المجتمع كله؟**

** ولو أنى سأختلف فيما أقول مع قطاعات كثيرة جداً من الناس يبدأون بابنى، فسوف أوضح رأيى فى هذه القضية بمنتهى الصراحة.

أنا لا أعتقد أن أية مؤسسة اقتصادية إسلامية تعتمد على أى مبدأ إسلامى من قريب أو بعيد.

إنما تحاول هذه الشركات أن تكسب شعبية زائفة وإقبال سريع برفعها للافتة (الإسلامية).

هم يودعون أموال المساهمين فى بنوك أخرى بالداخل أو الخارج، وهذه البنوك تتعامل مع المال بالطرق العادية، بل وثبت أن لهم نشاطات فى البورصة مثلا.

وبالتالى ليس لأى من هذه المؤسسات أن يدعى اختلافا فى تركيبة يعطيه أحقية فى أن يذيل اسمه بكلمة (الإسلامية) اللهم إلا فى طرق التعامل مع الزبائن حين يسمون ما يعطونه للناس باسم (ربح)، بدلا من أن يسموا (الفائدة) باسمها.

لا يجب أن يبنى المجتمع اعتقاده على أنه سيحقق أى تطور لخدمة كل عناصره عن طريق مثل هذه الشركات.

أبدا.. لا يجب!!!

«بروفة بعد التصحيح» الصحافة والاقتصاد:

*** خيط يربط حديثك إلينا.. وهو فكرة (الدعوة الشعبية) التى تخلق قضايا وطنية.. ما هو دور الصحافة فى إثارة مثل هذه الدعوات الشعبية وخاصة فى مجال الاقتصاد؟**

** حرية الصحافة ليست حرية الكاتب، ولكنها حرية الناشر الذى يملك أن ينشر مقال الكاتب أو لا ينشره.

وفى وضعنا الصحفى الحالى نجد أن الناشر هو الدولة فى الصحف القومية، وهى أيضا دافعة الإعانة للصحف الحزبية.

والصحيفة الوحيدة التى تعتمد على حرية رأس مالها هى (الوفد)، ومع ذلك فالوفد لا يمثل المفاهيم الجديدة إنما يعبر عن الأوضاع القديمة، ولذلك لا تجد فى صحيفته دعوات جريئة وكبرى لها صفة الوطنية.

ومادمنا نتكلم عن «دور الصحافة» فيجب أن نحدد «مجال» هذا الدور.

الوضع الشعبى العام أو حتى الوضع الحكومى العام يفرز حالات من السخط تزداد فى أوقات الأزمات.. هذا قانون عام ومعروف.

وحينما يمارس المجتمع سخطاً عاماً تجاه أمر أو سياسة أو وضع فهو يفعل ذلك بغنيه وفقيره.. وهذا أيضا يمكن تعميمه.

وفى هذه الحالة فإن الصحف الحكومية تعبر أحياناً عن السخط، ولا تستطيع أن تنكره، فهى قد تنكر النواقص والأخطاء ولكنها لا تستطيع إلا أن تعكس الروح العامة.

....

هنا يأتى دور الصحافة الكبير فهى القادرة على ترجمة روح السخط التى قد تعترى المجتمع فى وقت ما، أو تجاه سياسة ما، أو توجه ما لتقوم بترجمتها إلى قضايا وطنية شعبية جماعية شاملة تسعى للتحرك الإيجابى، ولا تصبح ممارستها للسخط لونا من ألوان التحرك السلبى!

*** إذا كنت تقول إن الوفد وصحيفته يرتبطان بالماضى... فلماذا كتبت فى الوفد؟**

** أنا لا أتبرأ من الماضى.. ومازلت انظر بتقدير لجريدة الوفد وهى الوحيدة التى تعتمد على رأس مال خاص مما يعطيها قدرة ليست لغيرها.

*** تقول إنك لا تتبرأ من الماضى.. عظيم.. ولكنك فى هذا الماضى كنت خصما عنيداً للوفد؟**

** هناك فارق بين الاعتراف بالماضى.. وممارسة الماضى.

وأنا فى الماضى أعادى الإنجليز والسراى والسيطرة الطبقية بكل المؤسسات التى تمثلها.

أما الآن فإن ممارسة هذا الصراع ليست ذات موضوع فكل عناصر الساحة مختلفة تماما.. لم يعد هناك إنجليز ولا سراى ولا سيطرة وطبقية.

*** وهل تغيرت عقلية الوفد عن ذى قبل.. إن الرموز هى الرموز.. والقيادات هى القيادات؟**

** لا شك هناك تطور ما فى حزب الوفد، ولكنه ليس جريئاً بدرجة كافية... ثم إن مسئوليات الوفد فى الماضى أصبحت مختلفة عن مسئوليات الوفد فى الحاضر.

ربما يؤثر وجود قوانين الطوارئ على حركة أحزاب المعارضة ومن ضمنها الوفد بالشكل الذى لا يؤدى إلى تطور هذا الحزب بسرعة أكبر وبجرأة أكبر.

*** فيما أعلم.. وفيما يشعر غيرى من المواطنين أن مساحة الحرية المتاحة الآن هى ظاهرة غير مسبوقة.. أفلا تكفى لكى يتمخض حزب الوفد عن تطوره الموعود؟**

** تستطيع إن تقول أن حزب الوفد، الآن يعيش بشخصيتين أحدها تنتمى للماضى والأخرى تحاول أن تتجه به إلى التطور.

«كلام صور» الرغيف - الفساد - الأدب!

* ....؟

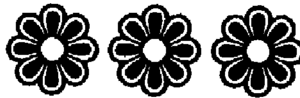
** اعتماداً على رؤوس الأموال الأجنبية وتطرفنا فيه من المؤثرات الخطيرة على كياننا ومستقبلنا الوطنى، فحين يكون رغيف الخبز، «أمريكانى»

فإن علينا أن نتبنى جميعا (قضية وطنية) تقول: رغيف مصرى لكل مصرى ونتحرك جميعاً من أجل هذه القضية.

** كل حقبة لها ثغراتها التى قد تفتح مجالا للفساد ففى أول الثورة كان الفساد من باب الحكم فيكفى أن تكون ضابطاً، وتعتمد على علاقتك بالقيادة لكى يغريك الفساد، ثم تغير شكل الفساد فى السبعينيات ولكنه كان من باب الحكم أيضا.. وبالتالى فعندما يغلق باب الحكم أمام أى محاولة فساد فإن كل الأمور تنصلح تلقائيا.

** لا أعتمد على نقل شخصية من الواقع بحذافيرها فى إحدى رواياتى، ولكن ألتقط النوازع الشخصية المختلفة لعناصر متعددة تنتمى إلى نفس الشريحة وأعكسها فيما أكتب، وهكذا فعلت فى كل قصصى التى وصفت مجتمع الانفتاح.

أكتوبر ١٩٨٧



ثروت أباظة

ابن الباشا.. وشئون الاقتصاد

* نعانى من التعميم الاقتصادى!!
* الناس انتخبت حسنى مبارك، ولم تنتخب البرنامج الاقتصادى للحزب الوطنى!
* لا سبيل لنا إلا أن نواجه القطاع العام مواجهة صريحة كما فعلت يوغسلافيا
* البنوك أمينة على أموالنا وليست صاحبة لها!
* تعيين الخريجين يعد كبيرة من كبائرنا الاقتصادية!
* الشيوعيون يسيطرون على معظم المنابر الاعلامية بما فيها التليفزيون ومدوا سيطرتهم إلى فكر حزب الوفد الجديد!!!
* الدعم كلمة مضحكة جداً لأننا ندعم الجماهير من مال الجماهير!

* * *

** ثروت أباظة.

ابن الباشا الذى يصر على أنه فلاح

والأديب الذى يتقلد واحداً من أهم المناصب النيابية فى مصر كوكيل لمجلس الشورى.

والكاتب الذى يرأس اتحاد الأدباء

يدخل إلى ساحة حوارنا حاملا رؤيته الخاصة فى الاقتصاد والسياسة والأدب. وصائغاً حواره بذات الطريقة التى يبنى بها أدبه..

يحسم القسمة السياسية والاقتصادية والأدبية بشكل قاطع، ويحدد من اللحظة الأولى خصومه، الذين يكونون أمامه فى مواجهة هجوم مشتعل نارى، ولكنه ـ والشهادة لله ـ هجوم بليغ رصين.. محكم الصياغة..

....

ـ طرح رأيه أمامنا بذات الطريقة، وتوارت الأسئلة أمام صاحب الهجوم المشتعل النارى، والبليغ الرصين محكم الصياغة.

أمواج ولا شاطئ !

«تتلاطم أمواج كثيرة فى بحر الاقتصاد المصرى، يلقى كل منها بمسئولية الأزمة على الآخر، وتنكسر هذه الأمواج على صخور الواقع، دون أن يصل أى منها إلى شاطئ الحل..

المسئولية فى الأزمة تقع على الشعارات واللافتات المرفوعة فى فراغ.

بادئ ذى بدء، على أى نوع من الاقتصاد تعتمد الدولة المصرية، هل هى دولة اشتراكية؟!، هل هى دولة رأسمالية؟! يمكن الاعتماد على نوعين من الاقتصاد فى وقت واحد ـ كما هى الحال فى مصر.. شريطة الوضوح.

ولكن الذى يحدث عندنا هو تعتيم فى الاقتصاد المصرى وخططه وخطته،

ومع هذا التعتيم، يهرب منك رأس المال العربى والأجنبى، وينكمش الرأسمالى المصرى.

شركات الاستثمار الموجودة فى مصر أقل مما ينبغى، فمصر بلد له إمكانيات استثمارية عالية للغاية، ويمكن أن يكون مركزاً للاشعاع الاقتصادى - كما هو مركز للاشعاع الثقافى - لكل الدول العربية، بموقعه المتوسط، وأياديه العاملة الغزيرة والرخيصة الأجر، وقاعدته الصناعية، ومجالات الاستثمار المتنوعة فيه.

ولكن لكى يدخل المال إلى السوق المصرى - كما ينبغى - فإن ذلك لايكون إلا بوضوح الاطار العام للاقتصاد.

صراع الفرقاء الاقتصاديين فى مصر، هو المسئول عن التعتيم الاقتصادى.

وهؤلاء الفرقاء هم أصحاب المصالح الخاصة التى يحققونها على حساب الدولة.

لابد من مصالح ولابد من مكاسب.. ولكن المكاسب أنواع.

فلا يوجد مستثمر يضع أمواله فى مشروع ليخسر ثم يقول هذا فى سبيل الوطن، ولكن أصحاب المصالح ينادون بهذا، ويكبلون الوطن بشعارات غريبة.

* عندنا شعار اسمه (دعم القطاع العام الذى يقود التنمية)، ولكن فى هذا القطاع العام توجد مؤسسات كثيرة تخسر - بانتظام - ودون سبب واضح!!

إذا لم نواجه القطاع العام مواجهة صريحة كما فعلت يوغسلافيا (الدولة الشيوعية) وكما تفعل الآن روسيا (وهى رأس الشيوعية العالمية) - كان ذلك قبل انهيار المعسكر الشرقى - فلا سبيل لنا أن نتقدم باقتصادنا أو نطمئن المال الأجنبى كى يأتى ويستقر فى مصر، وبالطبع فإن أصحاب المصالح الخاصة من

رؤساء مجالس الإدارة والمديرين فى مؤسسات القطاع العام يرتعدون من هذه الفكرة، ولا يفهمون منطق أنهم إذا لم يكسبوا فيجب أن يخرجوا.

نحن ـ فى هذا السياق ـ لسنا فى خدمة عامة مثل التليفزيون أو الإذاعة التى يصح أن تكسب، أو تخسر ولكننا بصدد الحديث عن مؤسسة اقتصادية الربح أحد أهدافها، بل هو هدفها الأساسى.

* وعندنا شعار مرفوع ـ آخر ـ اسمه (مجانية التعليم) وأنا مع مجانية التعليم بشرط أن تتيح للقادرين أنواعاً من التعليم بمصروفات.

والهجوم الضخم الذى يثور عند لمس فكرة المجانية أثمر نتيجة مؤكدة، وهى أنه لم يعد لدينا مجانية، كما لم يعد لدينا تعليم!!

وإذا سألنا.. لماذا لا تكون هناك جامعات بمصروفات؟

يجيبنا مجيب: هذا ضد مبادئ الدولة.

كذب.. كذب.. كذب.

الجامعة الأمريكية بمصروفات، وبمبالغ طائلة لا يطيقها إلا كل جبار عتيد، وجامعة بيروت بمصروفات هى الأخرى، إذن فالمبدأ موجود، وما دام المبدأ موجوداً فما هو معنى الصراخ عن مبادئ الدولة التى ستضيع.

* وشعار آخر يقول (الدعم)

الدعم ـ هذه ـ كلمة مضحكة جداً، فمن الذى تدعم، ومن مال من؟!

نحن ندعم الجماهير، من مال الجماهير.

المسئولون لا يملكون مالاً خاصا يدعمون به البضائع، إنما هو مال الدولة، يدعمون به شعب الدولة!

وإذا كان الدعم مضحكا، فالتوسع فيه ادعى للضحك!

أخجل من نفسى وأنا اشترى رغيف العيش بقرش صاغ أو حتى بخمسة صاغات، بينما جالون البنزين بثلاثين قرشا!

ثم حكاية (الدعم لمستحقيه) أكملت الكوميديا.

فقد ثبت أننا لانعلم مستحقيه!

* وشعار رابع اسمه (تعيين الخريجين).

هذا الشعار يعد كبيرة من كبائرنا الاقتصادية.

فليس هناك خريج ـ من هؤلاء الذين تعينهم الدولة ـ إلا ويبحث عن وظيفة يمارسها بعد الظهر!

وأنا أتحدى أن يستطيع خريج الجامعة أن يعيش بمرتب الخمسين جنيها، الذى تصرفه الدولة له، فالخادم والخادمة يتقاضى أيهما ـ الآن ـ ما يقرب من ١٥٠ جنيها هى فى حقيقتها ٣٠٠ جنيه لأنه يأكل ويشرب مجانا.

ورغم موقفى من ثورة يوليو، فإنها ـ ولا شك ـ حطمت الكثير من القيم التى كان ينبغى لها أن تتحطم.

ومن هذه القيم الصورة النمطية، التى كانت قد ارتسمت فى مخيلة مجتمعنا عن أن خريج الجامعة، لابد له أن يركب سيارة ويسكن شقة ويجلس على مكتب فور تخرجه، اليوم.. لا يضيره أن يعمل فى مقهى، أو يبيت، أو أى مكان، مادام يعمل عملا شريفا.

هذه الوظائف التى كنا نتركها بالأمس لمن لم يتعلموا، ينبغى أن يقتحمها المتعلم بشرف، ومرفوع الرأس، وموفور الكرامة.

....

السياسيون أصبحوا ـ أيضا ـ أصحاب مصالح بالإبقاء على الشعارات، دونما البحث فى إمكانية تطبيق هذه الشعارات.

يخافون القرار، لأنهم يخشون رجل الشارع، ويخشون التهويش الإعلامى، إذا لم تواجه مصر هذه الظروف بحسم وقوة، وعلى مبادئ اقتصادية حقيقية مائة فى المائة، ولا أثر فيها لتهريج أو ديماجوجية، فإن الأزمة ستتفاقم، والضنك سيزداد.

هذا الذى أقول يعرفه رئيس الجمهورية، بيقين وقطع، لأن حوله مستشارين اقتصاديين على أعلى مستوى، ويعرفه رئيس الوزراء وأنا أعرف أنه يعرفه، ويعرفه وزراء الاقتصاد ووزراء المالية المتعاقبين.

ولكن المسئولين التنفيذيين يخشون أن يأخذوا قراراً تتصاعد الأصوات بعده (الفقراء ضاعوا.. المكاسب العمالية انتهت).

هذه الأصوات، هى أصوات الغوغاء من الكتاب، الذين لا يريدون لمصر أن «تتقدم ويريدون لها أن تنتكس فى الأزمة دائما، حتى نلجأ للاجراءات التى لا يرضى عنها الشعب.

شىء من الخوف!

«كثيرون يشيعون الخوف فى السوق المصرى، وفى ساحة الاقتصاد المصرى، وهم مسئولون ـ بشكل ما ـ عما وصلنا إليه.

الغوغاء من كتاب اليسار، مرتفعة أصواتهم، رغم ضآلة النسبة التى يحصل عليها هذا الاتجاه فى أى انتخابات.

يملكون السيطرة على الصحف، وهم يسيطرون على التليفزيون بأقوى ما تكون السيطرة من الستينيات وحتى يومنا هذا.

هم يملكون السيطرة ـ حتى ـ على صحف يمينية، فلهم فيها باع وأعوان.

لقد سيطروا على فكرة حزب الوفد الجديد (وهو حزب ما قبل الثورة)،

لدرجة أن رئيس حزب الوفد فى بيانيه اللذين أذاعهما التليفزيون قبل الانتخابات، كان يبدو من أكبر مؤيدى القطاع العام والإجراءات الاشتراكية فى مصر.

هذا البرنامج الذى أذاعه رئيس الوفد يصرخ بأن لا داعى لبقاء الوفد!!

فإن لم يكن هناك تمايز بين الأحزاب فلا داعى للتعدد.

التعدد ليس غاية.. إنه وسيلة.

....

التغيرات التى حدثت فى المجتمع المصرى فى العقدين الأخيرين، تتنافى تنافيا أساسيا مع المصالح الشخصية لسياسى الستينيات.

لقد شربوا دماء الجماهير، واستلذوها، ولا يريدون أن يقصيهم أحد عنها.

ولكن الذى يطمئننا أن الناصريين والشيوعيين مجتمعين لهم فى الجماهير ١٥٠ ألف صوتا فقط.

وهؤلاء ليسوا شيوعيين وناصريين، ولكن معظمهم اختار مرشحا فى الانتخابات لأنه يعرفه شخصيا، وليس لأن هذا الشيوعى أو الناصرى المرشح هو أحد أعضاء حزب التجمع.

هم فى مصر لا يزيدون عن ٧٥ ألفا، مع منتهى الكرم فى الإحصاء.

وبالتالى هم لا يستحقون الحبر على ورق، الذى أتعرض لهم به.

ومع ذلك فصوتهم مرتفع جداً!

إنهم يوهمون الداخل والخارج، أنهم أصحاب المصالح الحقيقية. فى البلاد، وإنهم أصحاب الحظوة، وإنهم الرأى العام الحقيقى.

وبالطبع فى كل مناسبة يتعرضون فيها للرأى العام، نعرف حجمهم الحقيقى.

وبالرغم من علو صوتهم، إلا أن تأثيرهم فى إثارة الخوف لدى المستثمر الأجنبى والعربى قليل جداً، لأن هؤلاء المستثمرين لا يخشون أبداً أن تكون مصر شيوعية، فهى لن تكون!

ولكن غوغاء اليسار قادرون برموزهم وشعاراتهم على إثارة وإشاعة الرجفة فى قلوب الوزراء والمسئولين.

وهم مسئولون عن الخوف الذى ينتاب كل المسئولين التنفيذيين فى مصر. **هارب من الأيام!**

«الهروب من مواجهة الواقع بشجاعة، هو سمة أساسية من سمات اقتصادنا الآن، فى سياساتنا الاقتصادية الداخلية وفى علاقاتنا الاقتصادية الخارجية.

كان الانفتاح الاقتصادى، بشكله الذى حدث به، لوناً من ألوان الهروب من الواقع، فالانفتاح الكامل لا قبل لنا بتحمله، وحالنا معه أشبه بجائع أراد البعض إطعامه، فبدلا من أن يعطوه بعض (الشوربة) لتحرك معدته، أعطوه طعاما دسما كثيراً فقضى عليه.

* من عيوب هذا الانفتاح، التيسير الضخم على أصحاب السوق الاقتصادية فى التصدير والاستيراد.

هذا التيسير ينبغى أن يكون بحذر وباستيثاق كامل مما يتقدم به مصدر أو مستورد من أوراق وبيانات تجعل البنوك فى أمان، فالأصل فى البنوك أن تكون أمينة على أموالنا، وليست صاحبة لها تعطيها لمن تشاء دون بحث أو تمحيص.

وأنا أرى أن المدعى الاشتراكى، كان له أثر ضخم فى تحديد الخسائر فى هذا الميدان لسرعة البت.

ولولا هذا الجهاز ـ الذى أيضا تقاومه الغوغائية والباحثون عن النقد الديماجوجى الرخيص ـ لهربت أموال ضخمة أخرى إلى الخارج فى فترة الانفتاح البلهاء.

* ومن عيوب هذا الانفتاح أيضا، أننا حاولنا علاج التيسير المفرط، بالترشيد المفرط.

وهذا الترشيد هو سلاح بحدين، أخاف المستثمرين وعرقل كثيراً من الأعمال.

فعندما يقدم أحد المستوردين على استيراد «كافيار»، وهو شىء فى منتهى السخف، ولا يقدمه فى بيته أو مطعمه سوى الذين يريدون التظاهر بشراء لا معنى له فلماذا نمنعه؟

هذا مغفل يبيع لمغفلين!

فمن الذى أحميه بالترشيد ومن ؟!

هل أحمى تاجراً جشعاً من شخص يعرف أنه مضحوك عليه ولكنه سعيد) ؟!

ولا يدعى أحد أن الدولة إذا أباحت استيراد كل شىء ـ على هذا النحو ـ ستخسر عملة صعبة، فهى حرة أن تفرض ضرائبها وفقما شاءت بشكل يعوضها تماماً عن هذا الأمر.

سيكون مستوردو ومبتاعو الكافيار والرولز رويس تجسيداً لمقولة (جشع باع إلى حمار) !!

....

من ضمن ما نهرب منه أيضا، الفهم الصحيح للعلاقات الاقتصادية الدولية.

الشيوعيون ـ بمقدرتهم الدعائية وسيطرتهم على الجرائد ووسائل الاعلام ـ يصورون العلاقة بيننا وبين الغرب على أنها لون من ألوان التبعية.

وأريد أن أسألهم سؤالاً واحداً : هل روسيا غير مرتبطة بأمريكا اقتصاديا؟!، مع العلم أنه ارتباط عضوى إذا انقطع تموت روسيا من الجوع!

وهل هناك دولة فى العالم غير مرتبطة اقتصاديا بالآخرين.

ثم لا معنى الآن للخوف من الاستعمار فالاستعمار لم يصبح لغة العصر إلا عند روسيا التى تستعمر الدول الاشتراكية وتمتص دماءها وتطحنها فى آلتها الحادة ذات الضروس.

ولكن هذا لا يعنى أن الولايات المتحدة حينما تعطى لا تكون صاحبة مصلحة فلا توجد دولة تتبرع بأموالها لوجه الله.

لا رحمة ولا شفقة ولا معانى إنسانية فى العلاقات الاقتصادية الدولية.

....

ثم إننا نهرب أيضا من الواقع حين نسمى الأشياء بغير مسمياتها فقد شاع عندنا تعبير الرأسمالية الوطنية.

لا توجد رأسمالية اسمها رأسمالية وطنية وأخرى غير وطنية، ولو كان هذا المفهوم مطابقا للواقع لوجدنا لونين من ألوان الضرائب يفرضان على المشروعات بحيث تكون هناك ضريبة على الرأسمالية الوطنية تختلف عن الضريبة المفروضة على غير الوطنية.

هذه مقولات طلعت علينا دون أن يكون لها مدلول حقيقى.

حتى الأجانب حينما يفتحون مشروعات ويشغلون فيها المصريين ويدفعون ضرائب هذه المشروعات فإنهم يمثلون حينئذ رأسمالية وطنية.

الغير وطنى هو الجاسوس أو الذى يبيع بلده فى سبيل شعارات فكل مصرى وطنى، وكل رأسمال دخل إلى مصر وطنى.

ولكن الشيوعيين يثيرون كالعادة زوابعهم الإعلامية قائلين بأن قوة الرأسمالية أصبحت أكبر من قوة الدولة.

وأقول لهم لكى تكون هناك قوة لدى طرف لابد من التيقن بأنه يملك أداة الضغط والواقع أن الدولة هى التى تملك هذه الأداة.

وهم يقولون إن أداة الضغط عند الرأسمالية المصرية هى إرباك السوق.

وأقول لهم فلنرى مدة العمل وحجم الانتاج فى كل من القطاع العام والقطاع الخاص.

ولسوف نعلم من الذى يربك السوق حقيقة!!

....

باليقين فإن أحد الأشياء التى نهرب منها أيضا أن يكون لنا التزام قومى تجاه بعض المسائل الاقتصادية الكبرى، ولعل أكبر الأسباب وراء هذا الهروب أنه لا يوجد لدينا حزب ذو نظرية واضحة المعالم سوى الحزب الشيوعى أما بقية الأحزاب، وفى مقدمتها الحزب الوطنى الديمقراطى فلا تملك برنامجا اقتصاديا حقيقيا.

ومن أجل هذا أقول إن الناس حينما انتخبت الحزب الوطنى لمجلس الشعب لم تنتخب برنامجه الاقتصادى ولكنها انتخبت حسنى مبارك بكل ما يمثله من قيم النقاء والوطنية والاستقامة.

قصر على النيل!

يحبون أن يصنفونى أحيانا على أننى ابن الباشا وإننى لا أدرى شيئاً عن معاناة الناس من كل الطبقات منعزل فى أحد القصور التى لا تقوم إلا فى خيالهم!

ومن الذى قال إننى لست فلاحا الآن؟ أبى باشا، فما كان أبى قبل الباشوية، وما كان أبوه؟ أبوه عمدة وقاضى محكمة، فلاح أنا وابن فلاح، وأبى كان له موقف وطنى فى ثورة ١٩١٩ فقدكان أول موظف مصرى يستقيل من وظيفته ضد سلطة الحماية الانجليزية.

ثم أوليس ابن الباشا هذا هو الذى عرى الاقطاع فى أكثر من رواية ربما بما لم يفعل كل كتاب اليسار المصرى مجتمعين؟!

هاجمت الإقطاع بأشد ما يكون ووصفت ما رأيته فى قرى مصر حين كان البعض يشهر السلاح والسوط فى وجه الفلاح المصرى.

ولكن عندما عريت الإقطاع فى رواية «هارب من الأيام» كان البديل عندى هو العلم ـ لو تذكرون ـ فشخصية العمدة الذى أتاح له إقطاعه أن يسرق ويرتشى قالت للشاب الحاصل على ليسانس الحقوق فى نهاية الرواية سوف تكون أنت العمدة الجديد!!

البديل عندى للإقطاع هو العلم وليس نسبة الخمسين فى المائة.

كيف نأتى بمن لم يتعلموا ونجعل منهم نوابا يشرعون للبلد؟!

المشرع يجب أن يكون عالما بكل ما سيعرض له من كل جانب.

....

وفى روايتى قصر على النيل عريت الاقطاع كما عريت الشيوعية والتطرف الدينى وأظهرت أن هذا التطرف ليس أصيلا فى النفوس.

وفى تصورى أن التطرف الدينى والشيوعية عند المخلصين وليس عند المنتفعين (لأن المنتفعين عندهم دائما حجة قوية وهى النقود التى تدخل لهم ويبيعون بها أنفسهم فالنقود هى أقوى حجة فى الدنيا ما دام هناك من يقبلها) الشيوعية والتطرف إذن يرتبطان بفترة عمر هى فترة المراهقة.. والبعض يستمرون!!

وإذا لم يثبت الشاب نفسه فى مجال من مجالات العلم والثقافة الجادة يحاول إثبات نفسه فى التطرف من كل لون.

وكيف كان لى أن أعبر عن هذا وأنا ابن الباشا إن لم أخالط وأعرف أناسا من كل الطبقات والملل والنحل فقد كنا نرى فى بيت أبى بحكم وظيفته أعاظم الناس وأسافلهم!

....

وبعد هذا يقولون إننى لم أخالط الفقراء، وإن آدباءهم الجدد أكثر وثوقا بالطبقات الشعبية الفقيرة.

وإنى لأسألهم ولماذا لا يقرأكم الناس كما يقرأوننا، إن هذه المقولات هى تبرير لعدم الشهرة.

من أين جاءت أرقام مبيعات كتبى؟! إن هذه الكتب لا تباع فى استراليا ولكنها تباع فى مصر والعالم العربى.

ما كنت ثروت أباظة إلا لأننى منقوع فى بلدى ونقع الثوب أى جعل الماء يتخلله كله.

وأعود لأسأل هؤلاء الأدباء من يقرأكم؟ إنكم تقرأون لبعضكم البعض وأذكركم بتجربة مجلة ١٩٦٨ التى أصدرتموها وكنتم تقرأونها على مقهى «ريش» ولكن أحداً لا يدرى بها.

وبالرغم من هذا فقد بدأ الكثيرون منهم يعودون الآن للطريق القويم، وفى مقدمتهم جمال الغيطانى وسوف ينال الكثيرون منهم حظ الشهرة ولا شك.

أغسطس ١٩٨٧



يوسف القعيد

يحدث فى مصر الآن

* آخر طبعة من الهجمة الشرسة لنهب مصر.. اسمها: شركات توظيف الأموال!

* سيادة مشروع الخلاص الفردى وتراجع مفهوم الدولة.. وتراجع مفهوم المجتمع.. وتراجع مفهوم التكافل الاجتماعى هى سمات العصر!

* مرحلة السبعينيات خلقت جيلا ثقافيا بديلا مهمته الموافقة على كل ما كان السادات يقرره!

* أجزم أننى لو ألفت مجموعة أخبار وسلمتها لصحف المعارضة فسوف تصبح مانشيتات اليوم التالى!

* أرفض أن تتحول رواياتى إلى مصنع لتصدير الأحلام للناس!

* استراتيجية العمل السياسى عند المعارضة تقوم على دفع النظام للتغيير، أو زحزحته من مكانه لتحل محله وتغير هى.. وفى الحالتين هى تغيب الجماهير وتبعدها عن اللعبة السياسية!!

* الإعجاب بالبطل الشرير ظاهرة مصرية محدثة تتخطى وتكسر قمقم القيم الذى كان يحمى مجتمعنا فى الماضى!

*** لعنة البترو دولار أدخلت القرية المصرية فى دائرة جهنمية!**

*** تتخبط الصحافة القومية والمعارضة بين فكرة أوركسترا التبرير وفكرة أوركسترا الرفض!**

*** المعارضة أصبحت وظيفة.. وأخشى أن يصبح تدوينها فى السجل المدنى مطلبا!**

*** التوترات داخل حزب التجمع هى فى الجدلية ما بين حزب فوق الأرض وحزب تحت السطح!**

*** أشعر أن التجمع هو غرفة من غرف الحزب الوطنى!**

*** وجود مقر حزب التجمع فى شارع (سد) اسمه كريم الدولة هو مصادفة تؤكد الواقع!**

*** البروسترويكا هى تقليد للغرب الرأسمالى، وليست تطورا يحدث من قلب المعسكر الاشتراكى!**

*** نحن لا نواجه الفساد إلا عندما يسكن خانات فعل الماضى التام!**

....

* * *

**** يوسف القعيد**

واحد ممن برعوا فى (وصف مصر)!

تمتزج عناصر الخيال بوقائع الحقيقة فى رواياته امتزاجا مدهشا، يجعل من هذه الروايات وثائق لابد أن تحظى بكل اعتبار لدى أى دارس لسيسولوجيا المجتمع المصرى، وعوامل التغيير التى لحقت به أو طرأت عليه.

وما دام يدخل اليوم إلى ساحة حوارنا ليناقش قضايا الاقتصاد والسياسة فلا

بأس من الإشارة إلى أنه صاحب الصك الأدبى الشهير الذى وصف الانفتاحيين بأنهم (المظليون الذين هبطوا على البلد بالباراشوت).. وهو الوصف الذى أشار له الأستاذ محمد حسنين هيكل فى متن كتابه (خريف الغضب).

ولعلنا لا نملك ـ مرة أخرى ـ سوى أن نخضع لصكوكه حين نقدمه فى ساحة هذا الحوار فنعنون حواره، بعنوان أشهر رواياته (يحدث فى مصر الآن!)، وهو اختيار فرضته طبيعة الحوار وأسلوب التناول.

فالأديب اختار أن يطرح رأيه من خلال حصيلة هائلة من المعلومات والأفكار جمعها بدأب عن كل من راقبهم أو تحدث عنهم أو تكلم معهم!!، ومؤكداً أن رؤيته أقرب إلى الفن منها إلى دقة الإحصاء أو حسابات المواقف!

....

وفى هذا الحوار تحدث يوسف القعيد طويلا عن الانفتاح، وشركات توظيف الأموال وأزمة المعارضة، ومحنة اليسار، وطبيعة التحولات فى البناء الاجتماعى، ودور مؤسسات المجتمع المدنى، والبيروسترويكا الروسية، وقلب كذلك فى بعض أوراق الفساد!

ومرة أخرى خضعت سطور الحوار الذى طرح الأفكار والوقائع والآراء بأسلوب وصفى ودراماتيكى لعنوانه المشهور: (يحدث فى مصر الآن)!!

....

١ ـ فك مصر!

*** لا أمل التأكيد على آثار التحول الدراماتيكى، الذى شهدته مصر فى أواسط السبعينات، تحت اسم (الانفتاح الاقتصادى)، وترك بصمته**

على كل تفاصيل حياة المصريين، وخلف آثاراً من الصعب تجاهلها على نسيج العقل والوجدان المصرى.. فى تصورك ما هو تأثير هذا التحول على ساحة الفكر والثقافة فى مصر.

** هذه المرحلة خلقت جيلا ثقافيا بديلا!

وأهم صفات هذا الجيل البديل، هى المواكبة، والموافقة على كل ما فعله الرئيس السادات منذ منتصف السبعينيات وحتى الآن.

لقد نشأت فى هذا الزمان الازدواجية الأساسية التى مازالت الثقافة المصرية تعانى منها حتى الآن بين (ثقافة حكومة) و (ثقافة الشارع)!!

الإبداع الحقيقى يتم فى الشارع بعيدا عن الدولة تماما، ـ حتى ـ فى ظل وجود فاروق حسنى فى وزارة الثقافة، عاجزة عن استيعاب هذا الإبداع الثقافى وجعله رافدا من روافدها. وجزءاً من عملها الثقافى!

بالإضافة إلى ذلك نشأت ظاهرة (التثليث) حين أنشأ منصور حسن ما يسمى بالمجلس الأعلى للثقافة، وهو جهاز مواز لوزارة الثقافة تماما، دون أن يلغى وزارة الثقافة، فأصبح عندنا جهازاً بيروقراطيا اسمه (وزارة الثقافة)، وجهازا بيروقراطيا من المثقفين اسمه (المجلس الأعلى للثقافة)!

ورغم فوارق تطوير الثقافة المصرية التى أنجزها فاروق حسنى مؤخراً، فإنه لم يقترب من المجلس الأعلى على الإطلاق!

فإما أنه يعتبر أن هذا المجلس غير موجود.. وإما أنه يعتبر أن هذا المجلس هو مشكلة لا يستطيع الاقتراب منها، أو مشكلة مؤجلة!!

ما حدث فى ساحة الثقافة المصرية كان جزءاً من الدراما الحادثة فى مصر كلها.. والتى تتلخص ـ حسب رؤيتى ـ فى فك مصر وإعادة تركيبها من جديد!

السادات قرر بعد حرب اكتوبر ١٩٧٣، أن يكون أحد استثماراته لهذه الحرب أن يفك الوطن ويعيد تركيبه بطريقة مختلفة ـ تماما ـ من جديد، تحقق له كل ما كان يريد منذ أول يوم جاء فيه.

وفى اعتقادى ـ رغم أننى لست من تلاميذ مدرسة المؤامرة فى تفسير التاريخ ـ أن السادات كان جاهزاً من أول لحظة جاء فيها إلى الحكم بخياراته واختياراته المختلفة..

الفك والتركيب أخذا شكلا محدداً جداً، فقد تم إفراغ قيم وطن بأكملها، سلم كامل من القيم الاجتماعية والنفسية والعلاقات اليومية، وللأسف الشديد لم يتم إحلال قيم أخرى بديلة لها.

لو أخذنا الثلاث سنوات الأولى فى النصف الثانى من السبعينات، سنجد سلبا ونهبا مارسه المغامرون القادمون عبر البحار (يعنى من الخارج) وفى الثلاث سنوات التى تلتها بدأ السلب والنهب الذى مارسه أبناء البلد، وهم الذين اكتشفوا حقهم فى النهب بدلا من الغرباء!!

وفى أول الثمانينيات بدأت رغبة فى محاسبة هؤلاء الناس، ثم خفتت وأصبحت خجولة ولكننا نتنبه لها بين الوقت والآخر، ثم هجمة شرسة جديدة لنهب مصر، تحت مسميات مختلفة، وآخر طبعة منها هى: (شركات توظيف الأموال)، والتى ظلت محاسبتها أو ردعها أو مواجهتها تتلكأ طويلا، وحتى عندما تمت المواجهة مؤخراً بقانون شركات تلقى الأموال، فإن القانون جاء هزيلا، وبدأت الحكومة نفسها باختراقه، وعدم تنفيذه، قبل أن ينفذه الطرف الآخر!!

٢ ـ الخلاص الفردى!

*** أراك تسترسل فى عرض رؤيتك من زاوية مسئولية السلطة، ولكننى ـ فى الواقع ـ أحد الذين يبحثون عن مسئولية الجماهير!**

أنا أسأل عن هؤلاء الناس الذين أودعوا أموالهم فى شركات تلقى الأموال، أسأل عن الباحثين عن الخلاص الفردى، والطامحين إلى نسبة براقة من الربح، لا يعرفون من أين جاءت، ولا يرون أو يدركون مصلحة الوطن ومصلحة المجتمع إلى جوار مصالحهم الذاتية.. حين يسمعون ما يتردد حول الطرق التى جاءت بها نسب الربح البراقة.

** أهم رموز الانفتاح الذى طبق فى مصر منذ ١٩٧٤ وحتى الآن، هو المشروع الفردى، وغياب المشروع القومى أو الجماعى، أو مشروع الوطن نفسه أو هم الوطن نفسه.

وأذكر أننى حضرت بعض جلسات محكمة القيم، ووجدت جلال بن عصمت السادات يقف ليقول جملة، أعتبر أنها مازالت دستورا لكل ناهبى مصر، إذ قال: (البلد كانت زى أنجر فتة.. وكل واحد هبر على قد ما قدر!)

هذا الكلام لا يجسد أزمة قائله، ولكنه يجسد أزمة العصر نفسه.

مشروع الخلاص الفردى، أو أنا ومن بعدى الطوفان، كان شعاراً ومازال شعاراً للذين نهبوا مصر.

كما أن تراجع مفهوم الدولة وتراجع مفهوم المجتمع، وتراجع مفهوم التكافل الاجتماعى هو الذى أوصلنا إلى الوضع الراهن، الذى أعتقد أنه ولا - حتى - المعجزات (التى نتفق على أن زمانها قد انتهى) قادرة على تصحيحه أو تغييره!!!

*** مصدوم أنا.. إذ أسمع منك هذا الكلام.. فالأديب - دائما - يقوم بدور تبشيرى، ولا أقول إنه سيصدر للناس حلما أزرقا بالخلاص أو الحل، ولكن على الأقل ينبغى ألا تهتز ثقته إلى هذا الحد - بوجود شىء داخل الناس يستطيع إنقاذ الموقف؟**

** إنقاذ الموقف يقوم على تغيير الواقع للأفضل.

وأمامى طريقان:

- إما أن تتحول كتاباتى إلى مصنع لتصدير الأحلام للناس، وما أسهل هذا، وما أسهل كتابة أدب وردى مقروء يقبل الجمهور عليه.

- وإما أن أتعامل مع الواقع كما هو، بعناصره، ومفرداته دون أى تزويق!

تعال نطالع الصورة الصحيحة للأوضاع حتى لا تتهمنى باليأس.

نحن نعلم أزمة الحكم جيدا، ولكن فلننظر إلى المعارضة نبحث أسباب أزمتها.

المعارضة كلها واقعة فى خطأين من أخطر ما يكون، يوصلانها لما هو أبعد من اليأس الذى تكلمت عنه..

إن أحد بنود استراتيجيتها فى العمل السياسى أن تدفع النظام القائم إلى أن يغير، أو تزحزحه من مكانه لتحل محله وتغير هى.. وفى كلتا الحالتين، المعارضة تغيب الناس وتبعدهم عن اللعبة السياسية!

فكما أن الحكم وظيفة، فقد وصلنا - للأسف الشديد - إلى أن تصبح المعارضة وظيفة!

وأخشى إذا سارت الأمور على ما هى عليه، أن يرتفع صوت يطالب بنص فى البطاقة الشخصية، وفى السجل المدنى على أن تكتب كلمة معارض فى خانة الوظيفة.

كثير من المعارضين ينظرون إلى معارضتهم على أنها عمل يؤدونه، مع أن المعارضة هى نوع من العمل السياسى على كل الناس الغير متفقين مع نظام الحكم أن يمارسوه، سواء داخل أحزاب أو خارجها.

ولكننى أرى أن العكس هو الحادث فى ساحة الواقع!

الطرفان (الحكم ـ والمعارضة) ـ بشكل ما ـ مصران على وضع الناس فى مقاعد المتفرجين، وإذا قاموا من هذه المقاعد، يصبحون «مبررين».. مرة للحكم.. ومرتان للمعارضة!!!

* الخطأ الثانى فى أداء المعارضة هو سيادة فكرة (الصفوة).

وأنا أكره جداً فكرة النخبة أو الصفوة فى التاريخ، وأرى أن وطنا لا يغيره أبناؤه (مجمل أبنائه أو متوسطهم الحسابى) فلن يتغير، وليس عندى أمل فى تغييره إلى الأفضل.

ودعنا نكون صرحاء، مجمل أبناء هذا الوطن ـ الآن ـ منشغلون بقضايا غير تلك التى ينشغل بها المثقفون من أمثالنا!

مشغولون بحجم زيادة المرتبات، مشغولون بالسفر إلى البلاد العربية، مشغولون بالبحث عن وسيلة لخداع الجمرك.. مشغولون بتنمية مشاريعهم الشخصية على حساب الآخرين!

كل يحاول أن يصنع سفينة نوح لنفسه، ولحظة أن يجىء الطوفان، يقفز إليها قائلا للآخرين: «باى.. باى»!!

وبالتالى فإن الهم العام.. أو المشروع العام يتراجع تماما، وهذا هو ما أوصلنى إلى ـ ما أسميه ـ الضفة الأخرى لليأس.

وأنا أعتقد أن هذا هو أخطر شىء يصيب روح الإنسان المصرى بالتآكل من داخلها وإذا لم ننجح فى محاربة هذا اليأس، فقل على الدنيا السلام!

٣ ـ اليسار الذى فقد ظله!

*** لنا عودة إلى النقطة السابقة مرة أخرى، ولكننى أتوقف الآن أمام أحد العناصر التى طرحتها، وأرى أن نسترسل فيها قليلا..**

هذا الإصرار الغاشم من جانب المعارضة على اعتبار أن المعارضة وظيفة، يمكن أن أقبله من بعض كوادر هذه المعارضة التى تنتمى إلى أحزاب ليس لها تراث، وليس لها تاريخ وليس لها دور فاعل فى تشكيل فكر مصر، وليس لها ارتباطها العضوى عبر قيادتها بثورة ٢٣ يوليو.

ولكن إذا كان هذا الموقف يأتى من كوادر التجمع، ويشكل ما أسماه البعض (أزمة اليسار المصرى)، فإننا لا بد أن نتأمل طويلا هذا السلوك، ونفحص جوانب الصورة داخل تيار اليسار التى أصبحت تفرز فى كل يوم شكلا جديداً من أشكال الصراع بين فصائل وملل ونحل لا أفهم أصلا موضع الصراع بينها.. خاصة وأن أبسط ترجمة له هى: المزايدة بين الجميع على عناصر وظيفة المعارض؟

** أزمة اليسار ـ بشكل عام ـ جاءت من خجل الإعلان عن طبيعة ما هو موجود فى مصر.. هل هى أحزاب شيوعية أو أحزاب يسارية عامة.

وقد رأى البعض فى مرحلة من المراحل أنه من الأفضل رفع لافتة (اليسار العام) وتجنب كلمة (الماركسية) وتجنب كلمة (الشيوعية).

ومن هنا أصبح ـ عندنا ـ تنظيمات على السطح تقول عليها يسارية تحركها تنظيمات تحت الأرض هى فى الأصل ـ تنظيمات شيوعية!

وأصبحت كل التواترات الموجودة داخل حزب التجمع هى فى الجدلية بين حزب فوق السطح وظله تحت الأرض.

وأؤكد لك أن هذا هو الكلام الذى يقال فى كل جلسات المثقفين اليساريين سواء كانوا أعضاء فى حزب التجمع، أو ليسوا أعضاء فيه، ولكن الازدواجية الشرقية التى نتمتع بقدر هائل منها، تجعلنا نقول أصدق ما عندنا

فى الهمس، وفى جلسات النميمة الظريفة، ثم نقول أكثر الأشياء كذبا عندما نكون بصدد الكلام الرسمى، أو الكلام فى الأحاديث الصحفية أو الكلام للرأى العام.

....

هذه الازدواجية جعلتنا ـ دائما ـ نقول شيئا بينما تكون الحقيقة شيئا آخر تماما!

وفى اعتقادى أن البرنامج النظرى لحزب التجمع هو من أهم الوثائق السياسية النظرية فى العمل السياسى المصرى الآن، لكن ممارسات هذا الحزب وسلوكياته اليومية هى أقرب إلى أيديولوجية الطبقة الوسطى.

أنا ـ شخصيا ـ حينما أذهب لحزب التجمع أشعر أننى فى غرفة من غرف الحزب الوطنى.

الجميع يؤدون تنويعات على لحن واحد هو ايديولوجية البورجوازية أو الطبقة الوسطى المصرية.

ليس هناك اختلاف جوهرى فى اللعبة السياسية كلها سوى فى أمرين:

١ـ البرنامج النظرى لحزب التجمع.

٢ـ الاطروحات النظرية لبعض الجماعات الدينية المتطرفة.

أما أزمة التجمع فهى أنه حزب يعمل من خلال صفوة المثقفين أو نخبتهم.

وألاحظ عندما يأتى عامل حقيقى أو فلاح حقيقى ويضع قدمه فى التجمع تغيرات مثيرة.

ففى البداية يخلع الفلاح طاقيته ويخلع العامل كاسكيتته، ثم بعد فترة

من الوقت، تجد كلاً منهما قد ارتدى حلة أنيقة، ثم يستخرج كل منهما جواز سفر، ويصبح مستعدا للسفر وتمثيل الحزب فى المؤتمرات الدولية، ويصبح نائبا عن العمال، أو مندوبا للفلاحين.

هذا ما يحدث ممن نفترض أنهم صلب الحزب وتكوينه الجوهرى، والأساسى، إذا أخذنا البرنامج المكتوب مأخذ الجد وتعاملنا معه باعتباره يمثل حقيقة واقعية فى حياة هذا الحزب.

ثم يأتى الجانب الآخر للأزمة، وهو أن البرنامج الجيد ـ بقدر إعجابى به كمثقف ـ مصاغ بطريقة تضع أمامه عقبة فى الوصول إلى عقول الناس.

ثم جانب ثالث هو.. أن هناك لعبة غير مكتوبة بين التجمع والسلطة، فالسلطة تريد وردة حمراء فى عروة سترتها يمثلها حزب صغير فى حارة سد، وليس صدفة أن مقر الحزب يقع فى شارع سد فعلا هو (شارع كريم الدولة).

وهذا العقد غير المكتوب بين الطرفين، يلقى موافقة من التجمعيين وسعادة وحبورا!

وأنا أعتقد أن اللعبة لن تزيد عن هذه الحدود البسيطة!

*** اسمح لى مع إعجابك ببرنامج حزب التجمع، فأنا أرى أن هذا البرنامج ـ فى نقاط كثيرة منه يتوقف عند مفاهيم يسارية تنتمى للقرن ١٩، وقد بليت ونسيتها الدنيا تحت وطأة سنابك التغيير الدراماتيكية فى الصين الشعبية، أو الاتحاد السوفيتى.**

وقد عجز هذا الحزب (التجمع) عن أن يطور نفسه تجاهها، وبالتالى عجز لهذا السبب، وليس لفكرة الاتفاق غير المكتوب بينه وبين السلطة عن الخروج من الحارة السد أو من شارع كريم الدولة.

** أزمة اليسار العالمى كله جاءت من ثلاثة عناصر:

١ـ التطور الهائل الذى حدث فى الصين ولم يأخذه البعض مأخذ الجد!

٢ـ التطور الهائل الذى حدث فى الشيوعية الأوروبية، وأخذناه باعتباره صراعات بين أحزاب شيوعية وبين الاتحاد السوفيتى، ولم نأخذه باعتباره اجتهاد جوهرى فى الرؤية.

٣ـ ثم جاءت الطامة الكبرى بما يفعله جورباتشوف ـ الآن ـ فى الاتحاد السوفيتى.

وللأسف فإن كل الأحزاب الشيوعية فى العالم مضطرة إلى أن تقول إن البيروسترويكا وما يحدث فى موسكو هو شىء جيد، وتخفى كل تحفظاتها عليه أو مفاجأتها به، وعدم توقعها له، وعدم تصورها أن يحدث هذا يوما فى الاتحاد السوفيتى.

....

أنا حزين إذ أقول هذا الكلام للمرة الأولى، فما أراه الآن فى العالم هو مشروع رأسمالى مزدهر أو مشروع رأسمالى متقدم ومعجب بنفسه، وعندما يأخذ من التجربة الاشتراكية فإنه يأخذ منها ما يناسبه ـ فقط ـ فأحيانا تجد ريجان وهو قمة الرجعية فى العالم يقدم على قرار أو سلوك نفهمه ـ نحن بجلاء على أنه اشتراكية، ولكن هذه أشياء تخدمه فى اطار استراتيجيته الأساسية، التى بدأت بالمشروع الرأسمالى فى الأصل!

أما ما يحدث فى المعسكر الاشتراكى، فأنا أفهمه على أن هذا المعسكر تعب وخوفا من أن يصل إلى طريق مسدود، فقد بدأ يطور نفسه.. لكن الخطير فى الأمر أنه بدأ يطور نفسه بتقليد المعسكر الرأسمالى، وليس من داخله، الذى يحدث فى موسكو الآن ليس من تحت المظلة السوفيتية، وليس كالمفهوم الصينى للشيوعية، أو المفهوم الأوروبى للشيوعية.

الذى يحدث فى موسكو الآن هو محاولة تطوير تأخذ مساحة من المشروع الرأسمالى، وأى مساحة من هذا المشروع الرأسمالى، تعنى التخلى عن أسس وثوابت فى الماركسية.

وقد كنت أتمنى لو أن جورباتشوف ـ بدلا من كل ما يحدث ـ قال: فلنعد النظر فى الماركسية، بدلا من كل ما يجرى باسم التطوير والثورة والبيروسترويكا.

وأنا منزعج ـ حقيقة ـ لأن هذا الترميم الذى يدعيه البعض يأتى من التجربة النقيض (الرأسمالية)، ويأتى من البديل الآخر، وأنا لا أتمنى أن أعيش حتى أشهد نهاية حلمى الخاص بقيام مجتمع اشتراكى لأول مرة على الأرض والذى كان متمثلا فى التجربة السوفيتية من جهة، وفى التجربة الصينية والشيوعيات الأوروبية من جهة أخرى.

أما الآن فتعال ننظر كيف انتهت التجربة الصينية إلى اللهاث الشديد وراء البيبسى كولا، بينما انتهت التجربة السوفيتية إلى اللهاث وراء عربات (البيتسا) الساخنة التى تدخل الاتحاد السوفيتى للمرة الأولى!!

أما تجربة الشيوعية فى أمريكا اللاتينية فتتآكل أمام الانقلابات العسكرية، بينما تجربة الشيوعية الأوروبية تتآكل أمام ما يسمى بتطوير الماركسية، الذى بدأ ولم ينته، ولا أعرف متى ينتهى.

أقول إن تطوير الاشتراكية أو الشيوعية أو اليسار يجب أن يتم من داخل معسكره وليس بالاستسلام للمعسكر الغربى.

وأنا أعرف أن كل (مفتشى النضال) سوف ينزعجون جداً من هذا الكلام، وسيقولون إن يوسف القعيد يقدم ورقة للمعسكر الآخر.

وأنا لا يعنينى صخب مفتشى النضال ، ولكن ما يعنينى هو ضرورة إسقاط الخجل والمجاملة فى الحديث عن أزمة المعسكر اليسارى فى العالم!

*** تكلمت كثيراً عن المعسكر الاشتراكى (بمعنى المجتمعات التى طبقت الاشتراكية العلمية والتى كانت بصددها للوصول إلى حلمك الذى أشرت إلى احتمالات سقوطه).**

ولكننى أريد أن نتحدث عن المجتمع المصرى.. وعن تجربته الاشتراكية التى ما زالت تحتفظ ببعض تأثيراتها على التشريع والسياسات.

ونريد أيضا أن نتحدث عن سبب انزعاج اليسار المصرى من أى اقتراب منها.. رغم أن التجربة الأم فى روسيا والصين تقترب دون وجل.. ودون خجل.

لماذا تنزعجون حين يبدأ الكلام عن (التخصيص Privatigatisn) أو تصفية الوحدات الخاسرة فى القطاع العام؟

إذا كان لهذا جانب سلبى من وجهة نظركم الاقتصادية - الاجتماعية، فإن له إيجابية كبيرة على المستوى السياسى، حين يؤدى إلى خلق هامش كبير وحقيقى من الحرية فى المجتمع، قلت إنك تفتقده.. وقلت إن التيار الذى تدعى الانتماء إليه يفتقده، بحيث يقبع أسير الحارة السد التى يقع مقره فيها؟

** أرى أن هناك عقداً اجتماعيا فريداً فى مصر الآن!

فالمعارضة لها حرية الكلام.. والسلطة لها حرية الحكم.

هذا إن كنت تتكلم عن هامش الحرية.. خاصة وأن تطور اقتصادى/

اجتماعى وأى تعبير سياسى عن هذا التطور سيتأسس على ما هو موجود.. فما هو الموجود؟

....

كل طرف فى اطار العقد الاجتماعى الفريد يفعل ما يشاء!

أنا أحكم وفق ما أرى ـ من وجهة نظرى ـ أنه لصالح هذا الوطن، وأنه خلاص لهذا الوطن، وأنه حل لمشاكل هذا الوطن، على حين أترك لك ـ كمعارض ـ حرية التعليق على ما يحدث، وتناوله والهجوم عليه والتجريح والفضائح الشخصية، والكلام الموضوعى وغير الموضوعى.

هذا هو الهامش الموجود وتطويره أو توسيعه، سيكون توسيعا لما هو موجود بالفعل وليس خلقا لهامش جديد.

*** طبيعى أن تزاول السلطة الحكم، وأن تزاول المعارضة النقد، فهل المطلوب هو (المشاركة فى صناعة القرار السياسى) .. أم أن المطلوب هو (المشاركة فى تشكيل القرار السياسى بالرأى) ..؟**

*** الأمر الأخير هو الأقرب للمنطق.. واعتقد أن هذا حادث فى مصر ـ الآن ـ بشكل ما؟**

** لو رجعنا لأصول الأشياء، فالمفروض أن المعارضة تسعى إلى الحكم بطرق سليمة، عن طريق العمل السياسى اليومى، وتشكيل الأحزاب والتأثير فى الرأى العام، وخلق رأى عام مؤيد لها ومناوئ لخصومها.

لكننى فى إجابة سابقة ـ قلت لك إن المعارضة وقعت فى مشكلة أنهم إما يريدون أن يغير الحكم، أو يزحزحوه ويجلسوا مكانه كى يغيروا هم!.

سراج الدين يعلن مؤخراً أنه بديل للنظام ويسعى أن يكون بديلا بالفعل!.

ولكن هذا ـ كما ذكرت ـ فيه خطأ تغييب الجماهير.

....

وأرجو أن تعتبر أن كل ما أقول هو فى إطار كونى أديب أو فنان يرى الحياة من منظور الأدب، ولم أشتغل بالسياسة إلا فترة محدودة فى بداية نشأة حزب التجمع ثم أصبت بخيبة أمل، واكتشفت أن الأحزاب هى نسخ مكررة، وأن كل حزب فيه نفس عيوب السلطة التى يهاجمها وينتقدها!!

مراكز قوى.. وتخلق حول رئيس الحزب.

كل حزب فى مصر يستمد شرعيته من شرعية رئيس الحزب كما كل صحيفة أو مجلة فى مصر تستمد شرعيتها من شرعية رئيس تحريرها، وليس جموع المحررين فيها!

ومن هنا وصلت إلى خيبة الأمل، واكتفيت بدور الفنان والكاتب والأديب قبل أى شىء آخر.

....

أقول إن العقد الاجتماعى الفريد الحادث فى مصر الآن بأن السلطة تحكم والمعارضة لها حرية الكلام ليس وضعا سيئا بالعكس هذا وضع جيد وجيد جداً، ولكن لو اقترن الأمر بحرية لقمة العيش إلى جوار حرية (المشاركة فى تشكيل القرار السياسى بالرأى) كما أسميتها ـ لكنا الآن فى نعيم حقيقى!!

٤ ـ الدم واللحم!

*** لا نستطيع الحديث عن (المشاركة) دون أن نتعرض للعمليات الانتخابية مختلفة المستوى والدرجة!**

وبداية سأتجنب الحديث عن الانتخابات البرلمانية التى تحدث المعارضون عنها حديثا طويلا عريضا يفتقد البراهين عن نزاهتها.

كما سأتجنب الحديث عن الجدل العقيم حول تعدد المرشحين لمنصب رئيس الدولة.. حيث يعلم الجميع (ويتظاهرون بعدم العلم) ضرورته وأهميته.. واقترانه بمرحلة نمو معينة.. وبظروف مجتمعيه معينة أيضا.

....

ولكننى سأقصر الحديث على مسألة ليس فيها فصال وهى الانتخابات فى المجتمعات المدنية (الاتحادات والنقابات وغيرها).

فإذا كان اليسار يرد أسباب إخفاقه فى الانتخابات البرلمانية لعوامل غير مرئية ولا يمكن التأكد منها بالحواس الخمس فكيف مع إخفاقه فى المجتمعات المدنية يستطيع أن يدعى أن هدفه هو السعى نحو المشاركة المؤثرة والعملية فى الحكم؟

** فى التراث المصرى كلمة (يسارى) تعنى (مثقف) مرة، وتعنى (شيوعى) مرة أخرى وهى التى تعنى فى وعى الناس (ملحد) مرة ثالثة!

وهذه أشياء داخلة فى لحم ودم وعظم الناس العاديين!

وأقارن ـ حزيناً بين تجربتين فى العمل السياسى المصرى وهما تجربة الجماعات الدينية المتطرفة وتجربة اليسار المصرى!

....

اليسار المصرى يتكلم دائما عن مجردات السياسة ويتبادل أفراده الكتب ويقرأون المجلات ويعلقون على المقالات فيها.

أما الجماعات المتطرفة فأعضاؤها داخلون فى الدم واللحم اليومى لحياة الناس.

فى المنطقة التى أسكن فيها أحد هؤلاء وحينما يغيب عن عمله، يأتى

أحد زملائه ليحضر له الشاى والسكر واللحم والزيت ويتعامل بسلوك يومى يعجب الناس العاديين بمعنى أن يغض الطرف ويبتعد سلمتين قبل أن يفتح له الباب، وهذا هو مدخل حياتى يفهمه الناس ويتعاملون معه بسهولة.

مدخل لا يحتاج إلى ثقافة معينة كى يفهمه أحد بالعكس هو داخل فى الأصول والحكمة والمجتمع المصرى الواقعى، وليس فى مجردات سياسية!

مدخل لا يقول (فائض القيمة) ولا (المثقف العضوى) ولا (هل ناضلت اليوم كفاية).

هذا هو ما أدى فى النهاية إلى غربة اليسار المصرى، رغم أننى كنت مؤمنا ومازلت وسأظل بأن اليسار المصرى هو الاتجاه الوحيد القادر على أن يمسك هموم الناس فى يديه لأنه الوحيد الذى يتكلم عن العدالة والاشتراكية، وحق كل مواطن فى المسكن، وفى مكان مريح بالأوتوبيس يعنى يتكلم عن حقوق الإنسان الأساسية من الميلاد وحتى القبر.

وبالتالى ـ كان المفروض ـ أن يكون أقرب التيارات إلى الناس ولكن لأن المدخل ثقافى ويصعب على ذهنية المواطن العادى فقد أصبح هذا حائلا دون أن يعشق اليسار فى دم الناس ولحمهم.

*** احترم كل ما قلت.. سواء ما يتعلق فيه بالعواطف أو ما يتصل فيه بالحقائق!**

ولكن عندما اخترت المجتمعات المدنية الصغيرة (الاتحادات والنقابات وغيرها) للحديث فأنا افترض ـ وأعتقد أن فرضى صحيح ـ أن أعضاء مثل هذه الاتحادات والنقابات الذين يشكلون المجتمع الانتخابى فيها هم على قدر من الثقافة يتيح لهم التمييز ما بين ظواهر الأشياء وحقيقة الأشياء.

وبالتالى فإذا كان المواطن العادى ينظر لليسارى فى العمليات

الانتخابية واسعة النطاق على أنه إما شيوعى أو ملحد أو كذا فهؤلاء فى المجتمعات المدنية لا يفعلون.

** تعال نناقش النقابات.

دستور النقابات منذ ١٩٧٢ أن كلاً من أعضائها يجب أن تكون معه شهادة عالية إذن فقد حصل على قدر من التعليم يجعله مثقفا.

وسأرجع لتعريف الأستاذ هيكل للمثقف، الذى أعتبره أدق التعريفات:

(المثقف هو الشخص القادر على أن يتناول هموم وطنه ومجتمعه وزمانه بذهنه) يعنى يخرج بذهنه من حالته الفردية ومن دائرته الشخصية إلى الدائرة الأعم والأشمل والتى قد تصل فى تناولاتها النهائية إلى العالم كله.

وعلى ضوء هذا التعريف تعال نرى نقابة الأطباء مثلاً أو اتحاد الكتاب.

أنا أعتبر أن الأطباء هم شريحة من المجتمع المصرى مثلما الجيش شريحة مثلما الشرطة شريحة، وبالتالى فيهم المتوسط الحسابى لأبناء الشعب المصرى (فيهم يسار ويمين وليبراليين.. الخ) ولكن ما حدث أن تيارا واحدا يراهن الكثيرون من أعضائه على الخرافة والأساطير أقفل هذه النقابة بالضبة والمفتاح، وأدار ظهره لكل صراعات الواقع، وفوق هذا كله لم يضع أى برنامج حقيقى لمواجهة مشاكل مصر الآن.

أما اتحاد الكتاب فأسأل هل قام بدوره فى الدفاع عن حقى لنشر رواية ممنوعة هل أدى دوره فى معركة شرعية الأدب والفن التى تمثل الآن ساحة من ساحات الهجوم السلفى المخيف.

الجهة الوحيدة التى لم تدل برأى فى هذه المعركة هى اتحاد الكتاب الذى هو نقابة شئون الكتاب وتدافع عنهم!!

إذن التنظيمات النقابية أو المدنية حالها أسوأ من الأحزاب السياسية التى

نخر فيها السوس فالأولى أصبحت لا تمثل شكلا من أشكال الخلاص للوطن والأخرى أصبحت لا تمثل - أيضاً - شكلا من أشكال الخلاص للوطن!!

ولا - حتى - القهوة التقليدية القديمة للمثقفين يمكن أن تشكل الآن نوعا من أنواع الخلاص الوطنى!

• - أوراق الفساد!

*** الفساد ظاهرة بشرية طبيعية تحدث فى دول المعسكر الشرقى الاشتراكى كما تحدث فى دول المعسكر الغربى الرأسمالية.**

والفساد - كما يقول أحد رجال الاقتصاد العالميين فى مذكراته - هو الزيت الذى يحرك تروس الآلة، بمقدار طبعا!!

لماذا - إذن - تنزعج وينزعج الكثير فى مصر - أكثر مما ينبغى - إذا ظهرت حالة فساد هنا أو هناك.. وبحيث يدفعك هذا الانزعاج إلى هذه الحالة من القنوط واليأس الشديد؟

** أنا مسلم أن الفساد هو جزء من الظاهرة البشرية.

لكننى ألاحظ على مواجهته فى مصر، أنها أغرب مواجهة فى التاريخ!

نحن ننتظر حتى ينقضى حكم وتزول سلطة ثم نبدأ فى تقليب أوراقه.

وأحدث صور الفساد وكمثال هى التحقيق مع سعد محمد أحمد وزير القوى العاملة السابق، ورغم حظر النشر حول هذه المسألة، فلا بأس من الحديث عنها خاصة وأننى لن أتعرض - إطلاقا - لوقائع!!

إننى أتساءل.. ألم تكن الدولة تعلم بما يفعله الوزير وهو فى موقعه؟.. لماذا انتظرت لحين تركه المقعد؟

وأنا أعلم ـ وأنا حزين مما أعلمه ـ أن هذا الوزير أقيل من منصبه بالصدفة بعد العديد من الشكاوى التي كتبها الوزير الحالي عاصم عبد الحق، لعاطف صدقي رئيس الوزراء الحالي، عندما كان رئيساً للجهاز المركزي للمحاسبات.

صدفة ـ إذن ـ أن عاطف صدقي كان رئيسا للجهاز، ولديه هذه الشكاوى، ثم كلف بتشكيل الوزارة، فأقال سعد محمد أحمد، ثم مكثوا بعد ذلك عاما كاملا ليفتحوا ملف فساده.

أريد أن أقول، إننا لا نواجه الفساد إلا عندما يسكن خانات الفعل الماضي التام!!

*** ورغم هذا فإننا لا أفهم أن تكون مثل هذه الحالات دافعاً لليأس الشديد ولعلي هنا أذكرك بجملة موحية كتبها الزميل الأستاذ جمال فاضل في مقدمة كتابه (أدب الفساد الجميل) وهي: «إلى المحروسة.. شدة وتزول» !!**

وهذه الجملة تعني عدم الاعتراف بشرعية الفساد، وتعني ـ أيضاً ـ الأمل، وإذا كان كاتب مصري شاب قد صدر كتابه بهذه الجملة، فمؤكد أن ملايين غيره يتمثلونها ويؤمنون بها.. ولا معنى هنا ـ فيما أظن ـ للقنوط واليأس عند نقطة حدهما الأقصى؟

** لا أقول اليأس عند نقطة حده الأقصى، ولكنني أقول الضفة الأخرى لليأس أمران في تاريخ مصر، هما مصدر استقرارها وهما مصدر كوارثها.

النيل.. والفرعون!

النيل هو مصدر المنح والمنع، وهو مبرر الحياة إذا أراد لمصر الخير والنقمة إذا غضب عليها!

والفرعون ليس شخص الحاكم، ولكن هيبة الدولة وسلطتها والتاريخ الاجتماعي لمصر يقول لنا، أشياء خطيرة جداً في هذا الإطار.

فما أن تهتز صورة النيل أو الفرعون، حتى يصبح الكل باطلا فى باطل!

فى مصر الآن كل شيء مستحيل، وكل شيء ممكن!!

وحينما يفتح هذا الباب على مصراعيه أمام الناس، تهتز فى ذهن المواطن صورة أى شيء.

السكوت على الفساد.. ثم محاسبة أصحابه بعد خروجهم من السلطة، يعطى شرعية للفساد، فكل واحد يقول، مادام فلانا قد فعل وبقى فى منصبه، فلأفعل مثله.. أريد أن آخذ نصيباً فى التورتة الضخمة (لحم مصر)!!!

....

وأنا لا أقول إننى أريد إجراءات استثنائية، ولا أريد أن يكون سيف السلطان مسلطا على رقاب الناس، ولكننى أيضا لا أريد أن يمد منديل الأمان فرشته كى يظلل كل أركان الوادى!!

....

فى بداية سؤالك تكلمت عن الرجل الرأسمالى الذى قال: (إن الفساد هو الزيت الذى يشحم تروس الآلة) !!

نعم.. هذا صحيح.. ولكن فى أمريكا أو اليابان أو أوروبا الغربية، حيث لا جائع!!

عندما لا يكون هناك جائع، فلا بأس بقليل من الفساد يحرك تروس العملية، إنما أنا كيف أقبل هذا ، بينما عندى ٤٠٪ من المصريين يعيشون تحت خط الفقر، وهو ما أحدده بأنه يمثل حالة الأسرة التى يقل دخلها عن خمسين جنيها شهريا، وهذه كارثة، لو أدركنا سعر الرغيف وعلبة السجائر، وكوب الشاى، والجلوس على القهوة، وحتى الذهاب إلى السينما باعتبار أن هذه أشواق لابد أن يشعر بها المصرى!!

إذا أضفنا على هذا أن عندى أكثر من ٢ مليون مواطن يعيشون فى القبور، و٣ مليون بطالة، يضاف إليهم ٧ مليون بطالة مقنعة، فالمسألة ـ إذن ـ لا تحتمل ترف القليل من الفساد الذى يحرك تروس الماكينة!

هناك شيء لا أفهمه ـ وأرجو أن يفهمه لى أحد ـ وهو أننا بلد لديها ترسانة من القوانين التى تحارب الفساد بما يفوق الاتحاد السوفيتى والصين ـ، وكذلك لدينا من الأجهزة الشعبية ما يفوق أى بلد آخر، ومع ذلك فإن الفساد يرتع هنا وهناك، ونكتشف الأشياء بالصدفة، وإذا اكتشفنا الفساد تصبح المحاسبة ميلودرامية!!

....

وأضيف أن هناك ظاهرة خطيرة بدأت تحدث فى المجتمع المصرى، وأرجو أن ننتبه ونلتفت إليها.. وهى (الإعجاب بالبطل الشرير)، فقد أصبح هناك إعجاب ببعض السارقين بدلا من الرغبة فى قطع رقابهم، وهذا يحدث لأول مرة للمجتمع المصرى، فنسمع فى الشارع أن فلانا (هبر) ٥ ملايين وطار، ويكون التعليق فوراً وبعفوية: (جدع.. نشن.. ضرب الضربة اللى هية)!!

هذا خطير.. خطير..

كان لدى المجتمع المصرى أهم ما يضمن له الاستقرار وهى فكرة (المجتمع الواقى)، أو قمقم القيم الذى يحمى المجتمع فى اللحظات الحرجة.

بعض المتصوفين كانوا يصفون هذه الظاهرة، بأنها بركة أهل البيت الذين سكنوا مصر، ويثبتونها ـ الآن ـ مثل الأوتاد.

كل هذا يتبدد أمام أن المواطن العادى أصبح معجباً بالبطل الشرير، ويعتبره سوبر مان!

انظر كيف تغيرت مصر، من الإعجاب بعبد الله النديم وأحمد عرابى وسعد

زغلول وأدهم الشرقاوى (وكلهم أبطال شعبيين حاولوا انتزاع حق مصر وتحقيق حلمها فى العدل والخلاص) إلى الإعجاب، بنماذج أخرى منها السفاح ومنها القاتل ومنها اللص!! ومنها الذى يستطيع إنجاز فعلته، ثم يطلع كما تطلع الشعرة من العجين!

هرم القيم انقلب دون أن ندرى، ولابد أن نعدل هذا الهرم ثانية، وإلا فلا أمل فى مصر!

٦ - الضهرية..قريتى!

*** (الضهرية) هذه القرية من قرى البحيرة، أو الزاوية التى نظرت منها إلى مشاكل شريحة عريضة جداً من المجتمع المصرى تمثل ريفه.. كيف تغيرت الآن تحت وطأة سنابك المفاهيم الجديدة الاقتصادية أو الاجتماعية؟**

** أحشد نفسى الآن لملحمة كبيرة عن هذه القرية.

وهناك حادثان يؤرخان للضهرية من وجهة نظرى!

الأولى هو طوفان النيل ١٩٤٤ وهو نفس تاريخ ميلادى، والثانى هو الحريق الذى أكل الضهرية عام ١٩٨٤ بعد أربعين عاماً ـ بالضبط ـ من طوفان النيل.

والفارق ضخم بين الطوفان الذى دمر ولكنه نشر الخير أيضاً، وبين النار التى أكلت كل شىء.

هذه النار هى تعبير عن الخلل الشديد الذى حدث فى الضهرية.

عندما كنت طفلا رأيت مشهد فتاة ذهب زوجها إلى الترحيلة، وضبطت مع رجل آخر، فحلق أهل القرية شعرها بالموسى، وأركبوها حماراً بالمقلوب وعلقوها فى شجرة حتى ماتت.

لقد نظروا إلى ما فعلت البنت على أنه (حرام) وهذا الحرام منصوص عليه فى الدين والكتاب ويوم القيامة.

وبعد ذلك بأربعين عاماً امسكوا بفتاة بغى، وعندما عادت إلى القرية من نيابة الآداب، أصبح كل رجل فى البلد يطالبها بحقه.

وقد نظر الجميع لما حدث على أنه (عيب)!

والمسافة بين (الحرام) و(العيب) ضخمة.. لأن العيب عرف اجتماعى وليس قيمة دينية أو (تابو) محرم لا يجوز الاقتراب منه.

هذه هى النقلة الأساسية التى حدثت فى الريف المصرى (والضهرية جزء منه).

من عقد الأربعينيات ـ وأنا حزين إذ أقول إنه كان جميلا ـ إلى جحيم الثمانينيات ـ وأنا حزين أيضا إذ أقول إنه أتى على كل شيء!!

القرية علقت البنت الأولى فى شجرة حتى ماتت، وقد يكون فى هذا ظلم أو قهر، ولكننى أرى فى هذا الموقف جانبا إيجابياً، فهناك مجتمع يقى نفسه ويحمى نفسه.

أما فى مجتمع الانفتاح الاقتصادى فقد سادت أفكار مؤداها (ليس مهما كيف تحصل على القرش.. ولكن المهم أن تحصل عليه) و(ليس مهما أن تدوس فى السكة على قيمك وأفكارك، ولكن المهم أن تحصل على القرش).. و(ليس مهما هذا الذى تتخلص منه من ميراثك.. ولكن المهم أن تحصل على القرش) و(ليس مهما أيضا أن تهج من البلد أو تطير منها، ولكن المهم أن تحصل على هذا القرش).

الضهرية أيام البنت القديمة كان فيه الفلاح التقليدى.. الهادى بطل

(أرض) عبد الرحمن الشرقاوى، كان طولا بعرض، شجرة تتحرك وتزرع الخير، وتزرع الظل، وعندما تشح المياه يحفر بيده بئرا تتدفق عبرها الحياة.

اليوم أذهب إلى الضهرية فأجد ثلاثة أنواع من الناس فى الغيط.. طفل أخرجوه من المدرسة لأن «العلام سكته طويلة»، ولابد لمن يزرع قرشا فى الصباح أن يجنيه ثلاثة قروش بعد الظهر، أو امرأة سافر زوجها إلى البلاد العربية، أو عجوز لم يستطع السفر!!

أما الفلاح التقليدى فعندما يملك عافيته، يذهب إلى المدينة، ثم يسافر إلى بلد عربى ويعود ومعه لعنة البترودولار، فيتزوج على امرأته، ويبنى بيتا على الأرض التى تبقت، وعندما يصرف مدخراته، يترك زوجته الجديدة، ويسافر من جديد، ليعود ويتزوج ثالثة وهكذا.

خير الضهرية كان يوضع فى العربات النقل ويذهب للمدينة.

أما اليوم فكان أهم ما حرصوا على بنائه فى الضهرية بعد الحريق، هو مبنى الجمعية التعاونية الاستهلاكية.

كانت أكبر مسبة بالأمس أن تقول لفلاح إنه قد أخذ ضيفه على القهوة ليدعوه إلى الشاى.

أما اليوم ففى الضهرية أكثر من قهوة.

كانت أكبر مسبة تقولها لفلاح إنه يشترى خبزه من الطابونة! ويعتبر أن هذه الكلمة أهدرت شرفه إلى الأبد وكثيراً ما أقيمت جلسات الصلح، وتقرر حق العرب فى أمر كهذا، أما اليوم فهناك فرن أفرنجى فى البلد، وهناك مطعم وأكبر طابورين فى الريف هما طابور الفرن وطابور المطعم.

كانت الإهانة الكبرى التى تلحق بإنسان هى أن يصفه الآخرون بأنه يأكل لحم الجمعية المستورد من الصومال أو السمك القادم من روسيا أو الفراخ الغير مذبوحة على الطريقة الإسلامية.

أما الآن فالضهرية تحاول أن تأخذ نصيبها من هذا العار القديم الذى أصبح فخارا!!

أصبحنا نشهد وفوداً من الناس تذهب للمحافظ كى يمضى ورقة وتعود لرئيس مجلس المدينة كى يوقع مذكرة من أجل أن يفتح لهم مجمعا استهلاكيا يشترون منه السلع المدعمة ومنها اللحم والبيض والسمك والمسلى، وهذه أشياء كان إنتاجها من مصادر فخار الفلاح المصرى.

وقد رأيت فى طفولتى فلاحين لديهم اكتفاء ذاتى كامل، وكان فى الضهرية فلاح يقبع فى أرضه على النيل حقق هذا الاكتفاء لدرجة أن أهل القرية أطلقوا عليه النكات ساخرين من أنه ربما يزرع شابا أيضا!!

الفلاح اليوم هو صاحب الحافظة المنتفخة بالجنيهات الذى يشترى كل شىء!

ولم تعد القيمة هى أن ينتج كل شىء!

٧ - الصحافة.. رحلة فلاح!

*** فى رحلة الفلاح الفصيح من الضهرية إلى القاهرة.. إلى قلب الصحافة المصرية لابد أن أموراً كثيرة - أيضاً - تغيرت فيه، ولابد أن هناك أموراً كثيرة شافها وعاشها وأحس بها هذا الفلاح داخل مطبخ الصحافة المصرية تؤكد هذا التغير كيف تتصور ملامح هذا التغيير؟**

** لم أعاصر صحافة ليبرالية ما قبل ثورة يوليو ١٩٥٢، أسمع عنها وعن معاركها وأقرأ عنها ولكننى لم أرها.

أما صحافة التأميم فقد عاصرتها.

وقد أكون ـ نظريا ـ ضد التأميم، ولكننى عمليا مع ما فعله عبد الناصر، لسبب شخصى جداً هو أننى لولا هذا الرجل ما كنت قد دخلت مدرسة، أو جلست على قمطر أو عرفت ألف باء.

أنا مع هذا الرجل وأدافع عنه حتى آخر يوم فى عمرى.

ولكننى فزعت جداً من حالة القيادات العاملة، بالصحافة المصرية حينما قلبت فى أرشيف صور جمال عبد الناصر فوجدت أنه لم يتغير منهم إلا من مات حتى الآن.

ومهنة ـ هذا حالها ـ لا يمكن إلا أن تتقدم إلى الخلف.

أيضا منذ أن وضعت قدمى فى هذه المهنة، وأنا أرى أن القانون السرى الذى يحكمها يلخصه مثل شعبى يقول «قيراط حظ ولا فدان شطارة»!

ويفعل هذه الفكرة فإن الإحباط يصيب الكثيرين من أبناء المهنة، ففكرة الحظ والشطارة من أخطر ما يمكن.

الشطارة ترجمتها الفصحى هى الموهبة وحب المهنة، والمفروض أن تكون هى الأساس وليس ضربة الحظ إياها!!

وكأحد العاملين فى مطبخ الصحافة المصرية أرى أن خيوطا غير مرئية هى التى تحرك المهنة، وليس التفاعل اليومى الذاتى للعاملين فيها.

قد تكون توجيهات.. قد تكون لعبة مريبة، قد تكون ما تكون، ولكن ما يحركها يأتى دائما من الخارج وليس من داخل رؤيتها للواقع الاجتماعى!

السادات قال مرة فلتكن الصحافة سلطة.. وأقول ياريت، بمعنى أن تصبح شيئا مستقلا عن أدوات السلطات الأخرى.

وأقول إن الفيصل الآن هل يمكن أن ننتخب رئيس تحريرنا بدلا من أن

تعينه الدولة؟، بمعنى أن يشعر رئيس التحرير أننى كمحرر أجلسته فى مكانه، وصوتى يمكن أن يقيله من مكانه، وبالتالى نتحول إلى مؤسسة حقيقية تمثل ضوءاً كاشفاً وبرج إنذار ومراقبة لهذا المجتمع!!

*** فلنتوقف قليلا أمام هذه الفكرة، فأنا أعلم ـ طبعا أن هناك بعض المطبوعات العالمية التى لها من التراث المهنى، وتراث العمل السياسى الديمقراطى الكثير قد طبقتها، فنحن نرى «الموند» وقد طبقتها مثلا!**

ولكن فى بلد مثل مصر، أعتقد أنه تحت مظلة هذه الدعوة الانتخابية الافتراعية التصويتية سيحدث نوع من أنواع تحويل الصحفى إلى رقم أو «أسطمبة» وسيقضى هذا على التميز الذاتى لكل إنسان، التميز الذى يتحقق بالموهبة، ويتحقق بالدراسة ويتحقق بالعمل الدؤوب.

وعندها ستصبح المسألة مجرد مجموعة من التوازنات الداخلية داخل الدار الصحفية وحرص على الكتل الانتخابية أكبر من الحرص على الأداء المهنى النظيف والكامل أو الأداء السياسى الذى يتوخى المصلحة الوطنية ويضعها فوق أى اعتبار؟

** طيب ما هو الحل..؟ لقد أفضى بنا الوضع الحالى إلى أن أصبحت الصحافة المصرية كلها أوركسترا للتبرير!!

*** «ليكن.. ولكن ما تطرحه عن الانتخابات لرئيس التحرير ليس حلا.**

** أنا لا أطرح حلا، ولكننى أبحث عن حل.

أصبحت الصحف القومية أوركسترا للتبرير، وعلى الجانب الآخر تطرفت صحف المعارضة فى الرفض حتى صار لمجرد الرفض!

أنا يمكن أن أفهم هذا لو كانت مصر بلدا قد شبع فعلا لو كانت قد

أكلت وجبة عظيمة دسمة وتريد أن تهضمها لمدة عشر سنوات، ولكى تهضمها فهى تريد أن تتسلى على طريقة الامبراطورية الرومانية فى سنواتها الأخيرة، وكى نتسلى الآن فنحن نريد صحافة إثارة وتسلية!

ولكن هذا ترف بالنسبة لنا، أنا أفهم أن تكون الصحافة برج إنذار، أن تكون زرقاء اليمامة لمصر ترى أشجار الغضب المتحركة والقادمة من بعيد، وأن تشير للخطأ وقت وقوعه، ولكى يحترم كلامها يجب أن يكون لها سلطة، فعندما تكتب كلمة فى هذا الوطن يجب أن تغير الواقع فى اليوم التالى!

الحرب الأهلية الأمريكية قامت بسبب رواية (كوخ العم توم) لهاريد بيترستون، وقوانين الهجرة أو قوانين الولايات والتنقل من ولاية لأخرى حققتها رواية (عناقيد الغضب) لجون شتاين بك.

أما عندنا فنكتب كما نشاء، والذين يمارسون العمل السياسى يتصرفون كما يشاءون!!

*** الخلل لا يأتى مما وصفت به آراء صحف الحكومة من أنها أوركسترا تبرير للقرار السياسى ولكن الخلل يجىء من صحف المعارضة التى لا تمارس دورها فى التنبيه لمخاطر القرار السياسى رغم أنها غير مقيدة بأى التزام مثل الصحف القومية.. هى فقط منهمكة فى أخبار «الخبص» وقصص الفبركة؟**

** عندنا سباق للإثارة أكثر منه سباق للتناول الموضوعى أو السياسى.

وأنا مستعد أن أجرى معك تجربة، بحيث نؤلف مجموعة من الأخبار المثيرة التى لا أساس لها من الصحة، ونعطيها لصحف المعارضة التى سوف تجعلها مانشيتات اليوم التالى دون أية محاولة للتأكد أو التدقيق!!

وقد جلس الرئيس بنفسه مع رؤساء صحف المعارضة، ولكن ذلك لم يعقبه حوار بين الحزب الوطنى وأحزاب المعارضة!!

*** تجارب الحزب الوطنى ومبادراته تجاه المعارضة استغلتها المعارضة استغلالا يورث المرارة..**

لماذا - دائما - يجب أن تكون المبادرة من جانب الحكومة فى هذا الأمر؟

** فلتكن المبادرة من المعارضة!!

وأنا لم أقل فى أى سطر فى هذا الحوار إن الحكم على خطأ والمعارضة على صواب، بالعكس، أنا أعتقد أن الأزمة المصرية الراهنة هى أزمة معارضة قبل أن تكون أزمة حكم، وصورة هذه الأزمة فى المعارضة متجلية أكثر، ومعبرة عن نفسها أكثر قبل أن تعبر عن نفسها فى الحكم.

المعارضة مسئولة أولا، لأنها ـ كما قلت ـ تتمتع بحرية أكبر، وحرية تصرف أكثر، وليست مسئولة عما آلت إليه الأوضاع، وبالتالى لديها حرية أن تبحث عن طريق الخلاص.

وبالتالى فإن الحوار الغائب بين الحكم والمعارضة مسئوليته تقع على المعارضة أكثر مما تقع على الحكم.

ثم إننى انظر إلى لعبة الحكم والمعارضة فى مصر وأجد أشياء تصل إلى حد اللا معقول!

رؤساء أحزاب المعارضة يذهبون للقاء الرئيس ثم يخرجون والابتسامات تعلو وجوههم ويصرحون بكلمات ممتازة، وبعد يومين أو ثلاثة يبدأ الضرب وتبدأ الحملات من جديد.

وفى حفلات الاستقبال وحفلات العشاء أرى أشياء غريبة جداً، وربما أنا أهتم بالتفاصيل باعتبارى كاتبا للرواية، حيث أجدهم سمنا على عسل مع السلطة، واكتشف تداخلا شديداً فى العلاقات والمصالح والخدمات والطلبات، ثم على صفحات الجرائد أجد معاركا من نوع آخر!!

الشيء الآخر أننا حتى الآن لا نعرف كيف نتحاور ولا كيف نختلف.. وهذه مصيبة!

فيبدو أن ميراثنا الطويل فى الحكم قد علمنا كيف نتفق، لكن أحداً لم يكن معنيا أبدا بأن يعلمنا كيف نختلف!! وآداب الاختلاف، ولا كيف نتحاور وآداب الحوار.

مصر الآن فيها ضجيج ضخم جداً وصخب كبير لكن حينما أحاول تبينه أجده أقرب جداً للمونولوجات، وتعريف كلمة مونولوج هو الكلام منفرداً، أو مناجاة الذات.

أجد كثيراً من التقاطع بين مونولوجات كثيرة فى مصر، ولكننى لا أجد حواراً!

هناك نفوركبير من فكرة الحوار.

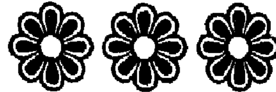
أيضا هناك اختلافات من نوع جديد ـ تاريخياً ـ، فعندما نختلف تكون كل رغبتى أن أضمك لصفى، وليس أن أحترم رغبتك فى الخلاف معى، ولا أناقش هذا الخلاف.

المهمة تصبح أن أجذبك لمعسكرى أو أحولك لايديولوجيتى وهذا ليس خلافا؟

لابد أن يكون فى مناهجنا الدراسية بدءا من التعليم الابتدائى مناهجا تعلم الناس كيف يختلفون وكيف يتحاورون وليس كيف يتفقون.

نتعلم كيف نقول لا دون تجريح شخص ودون كل الأشياء الكئيبة التى تمثل جزءا من واقع العالم الثالث، والتى يمكن أن تجنب بها الأجيال الجديدة كل هذا المستنقع الذى نحاول الفكاك من أوحاله.

يوليو ١٩٨٨



جمال الغيطانى

التجليات الاقتصادية

* أمراء الانفتاح شديدو الشبه بأمراء العصر المملوكى الثانى!

* كتبت استمارة فى حزب التجمع عند نشأته، ولكننى لم أشعر يوما أننى عضو فى هذا الحزب!

* فى عام ١٩٧١ كتبت (ما جرى لأرض الوادى).. وبعدها بسنوات قليلة حقق السادات ما ظننته خيالا روائيا!

* الطبقة الجديدة التى حاولت السيطرة على مقدرات الشعب المصرى بعد الانفتاح كانت تعى خطورة الثقافة وتعتبرها عدوها الأول!

* الفلاح المصرى لم يهجر أرضه حتى أيام الشدة المستنصرية.. ولكن الانفتاحيين ورموزهم السياسية شجعوه تشجيعا منظما على الهجرة منذ السبعينيات!

* طبقة الباشوات قبل ثورة يوليو كانت أكثر أصالة من طبقة الانفتاح لأنها كانت فى موقعها الطبيعى من السياق التاريخى!

* العاملون فى الخارج يعقدون - أحياناً - مؤتمرات لمساعدة مصر.. ولكننى أشعر أنهم يريدون من مصر أن تساعدهم ليزيدوا ثروتهم!

* القوانين الاقتصادية والسياسية السيئة يمكن أن تلغى فى ٢٤ ساعة، ولكن الأخطر هو القيم التى زرعتها هذه القوانين!

* فى السبعينيات كنت أشعر أن رئيس الجمهورية ينافسنى ككاتب ومبدع!

* فى الستينيات والسبعينيات كانت قوى المعارضة تشكل سلطة قمع على الأدب والفن!

* (بريد الأهرام) هو أدق المراصد الإعلامية لفكر ونبض الشعب المصرى!

* التجمع تمثيل لليسار المصرى ولكنه رأس بلا جسد!

* التيار الدينى أخذ أسلوب اليسار وتحرك به فى حلوان ففاز بأصوات العمال فى هذه الدوائر التى كان اليساريون يعتبرونها ملعبهم!

* أشعر أن هناك ضرورة لإيجاد صيغة حزب يسارى جديد!!

* امتناع اليسار عن دخول معارك ضد الأعداء الحقيقيين ليوليو سواء فى الوفد أو التيار الدينى هو لون من ألوان الانتهازية السياسية!

* التيار الدينى لا يعمل بمعزل عن قوى خارج مصر.. حتى فيما اقترفته شركات التوظيف قبل القانون!

* هناك قوى متخلفة فى منطقتنا تسعى للسيطرة على العقل المصرى!

* كل فصائل المعارضة تنافق وتتملق التطرف!

* تحجيم عدد الداخلين إلى الجامعة ليس حلا لأزمة البطالة!

* سلوكيات المهجر هى أخطر ما يفرزه العائدون من الخارج فى وطنهم!

* تحويل سيناء إلى منطقة حرة: جريمة!

* لكل الأشقاء نقول: الدور القيادى الثقافى المصرى لا يورث!

* * *

** هى الشمس إلا أن للشمس غيبة وهذا الذى نعنيه ليس يغيب.

** الموت موتان، موت أعظم وموت أصغر، أما الموت الأعظم فيتمثل فى السكوت على الجور، والتغاضى عن الزيف، وإخماد الضمائر، وغض البصر عن الحق المهضوم، وانشغال عنه بطلب المنصب الزائف والمال المكتنز، كذا الرضا بالأمر الواقع والنأى عن محاولة تغييره والتقاعس عن الجهاد، أما الموت الأصغر فهو بطلان الحواس وتوقف الأنفاس، وهجوع القلب، وبرودة الجسد عند مفارقة الروح ويبوسة الأطراف..

الغيطانى : فى كتاب التجليات

* * *

**جمال الغيطانى

واحد من رموز الجيل الذى يصدق عليه قول محيى الدين ابن عربى!

«يمشون» على الأرض وهم شهداء»!!

جيل تعرض لسجون الستينيات وعاش فى خنادق الاستنزاف، وصمد

لديكتاتورية زعماء ساحات النقد الأدبية التى أبت الاعتراف بهم ومازالت تسميهم (الأدباء الشبان) رغم أن أيهم قد تجاوز الخمسين واشتعل رأسه شيبا.

جيل طحنته أنياب مجتمع الانفتاح الذى لا يقرأ، ولا يعرف قيمة الثقافة ولا يهتم فى كثير أو قليل بإبداعات مصرية تتحدث عنها الرسائل العلمية فى أوروبا وأمريكا بينما لا يجد أصحابها موطئا لأقدامهم فى الساحات المضيئة فى أوطانهم.

تلك الساحات التى تخطر فيها بكل الكبرياء والاستعلاء والغطرسة .. النجوم الزاهرة التى أفرزتها سنوات السبعينيات.

تحت أكبر مساحة من الضوء يقف أمراء التوكيلات الذين يمدون حبالا سرية بينهم وبين المؤسسة الأم فيما وراء البحار، ويقف ملوك الاستيراد الذين كان كل همهم شطب كلمة «صنع فى مصر» من قاموس الحياة اليومية فى هذا البلد، ويقف أباطرة التوظيف الذين يبشروننا بأنهم خضعوا للقانون برغبتهم، ومن أجل خاطر عيون المودعين البؤساء فقط!!

.. ولكننا ـ أبدا ـ لا نجد فى نفس مساحة الضوء مفكرا، أو أديبا أو شاعرا، أو مبدعا، أو أستاذا، أو عالما!!!

وكان جمال الغيطانى واحدا من الجيل الذى عاش ويعيش هذه المحنة، وكان جمال الغيطانى أديباً تؤلف الرسائل العلمية فى جامعات الغرب عن أعماله (وقائع حارة الزعفرانى) و(الزينى بركات) و(أوراق شاب عاش من ألف عام) و(التجليات) بينما ينشغل مجتمع الانفتاح عنه بترتيب الصفقات والسرقات وتسليط الأضواء على نجوم السبعينيات الزاهرة.

كان جمال الغيطانى واحدا من الجيل الذى قدر له أن يحمل بطاقة

(مسجون سياسى) فى الستينيات، و(مراسل عسكرى) فى سنوات الاستنزاف واقتحام القناة. و(مبدع فى الظل) فى سنوات الانفتاح!!

وقبل هذا يحمل بطاقة (أديب شاب) كغيره من الذين حضروا فى الزقازيق عام ١٩٦٩ أكبر تجمع أدبى سياسى ديمقراطى فى تاريخ مصر.. (مؤتمر الأدباء الشبان)، التجمع الذى يصدق على أعضائه قول محيى الدين ابن عربى: «يمشون على الأرض وهم شهداء»!!!

....

وفى ساحة هذا الحوار يطرح جمال الغيطانى شلالا صاخبا من الأفكار والآراء ويرفض أن يغلف هذه الأفكار والآراء أو يسترها بأى غلاف أو ساتر من (الليونة) و(الكياسة) أو (الالتقاء فى منتصف الطريق)!!

تكلم الغيطانى عن الانفتاح وقيمه الاجتماعية والنفسية والسلوكية وتحدث عن شركات توظيف الأموال، وتحدث عن أزمته مع حزب التجمع، وأفصح عن رأيه فى كل القوى الحزبية والسياسية الفاعلة على الساحة، وأبرز ـ بتأكيد خاص ـ تأثير الأوضاع الاقتصادية ـ الاجتماعية السائدة منذ أواسط السبعينيات على الثقافة المصرية، كما أشار لمحاولات بعض القوى الإقليمية وراثة الدور الحضارى المصرى عن طريق ضرب العقل المصرى ومحاصرة رموزه...

....

وفى كل مجموعة من الأفكار كان الغيطانى يبدو كمن يطرح تجليا مفسراً كتلك التجليات التى حفل بها واحد من أهم مؤلفاته الروائية بالغة الدلالة والأهمية.. والتى تشير فى كثير من أجزائها إلى بعض ما جرى فى أرض الوطن.

....

تجلى الانفتاح:

«فلما كان العام ١٩٧١.. استشعرت الخطر» !

*** يا صاحب التجليات.. ردد الجميع الذين جلسوا جلستك التى تجلسها الآن.. أن خللاً ما قد حدث على مستوى سلوك وأداء الشعب، وخللا آخر قد حدث على مستوى سلوك وأداء الحكومة.**

ما هى ملامح هذا الخلل التى ترصدها كأديب درج طويلا على استقصاء أى تغيير يطرأ على ملامح الواقع فى مصر؟

** أنا أرجع ملامح الخلل الموجود فى المجتمع كله، سواء كان اقتصاديا، أو كان خللا فى منظومة القيم (التى تكون عادة نوعاً من التعبير عن الواقع الاقتصادى) إلى ما يسمى بسياسة «الانفتاح الاقتصادى».

وبالتحديد أرجعه إلى عام ١٩٧١ عندما بدأت البوادر الأولى لتنفيذ هذه السياسة، بعدما تهيأت مقاليد السلطة تماما للرئيس أنور السادات.

وأعتقد أننى استشعرت الخطر فى فترة مبكرة، ولحسن الحظ فإن ما نكتبه أدبا يكون مدونا للتاريخ، وكل كلمة نكتبها تطاردنا إلى يوم الحساب.

ومما كتبت.. حين استشعرت الخطر قصة اسمها (ما جرى لأرض الوادى).

ففى عام ١٩٧٥ وقعت حادثة هامة، حين طرد بعض الغرباء مجموعة من العمال (الصعايدة) كانوا يقيمون فى قطعة أرض وعندما أقول (غرباء) فأنا أعنى غير مصريين، وقد اشتروا الأرض ثم طردوا العمال.

ووجدت فى هذا الحادث دلالة خطيرة جداً، فهو أولى إرهاصات السماح والتصريح لغير المصريين بتملك الأراضى والعقارات المصرية.

وهنا أطلقت لخيالى القصصى العنان وكتبت قصة (ما جرى لأرض الوادى) ونشرت هذه القصة فى أول يناير عام ١٩٧٦، وتكلمت فيها عما أسميته (عصر البيع الأعظم لوادى النيل) حيث تبدأ المسائل ببيع الأراضى، ثم العقارات، ثم بيع محافظات بأكملها، حتى وصلت إلى الذروة حين كتبت عن مزاد علنى يعقد لبيع نهر النيل نفسه، ثم رفع اتحاد ملاك مصر الجدد (من الأغراب)، قضية إخلاء على السكان أى على الشعب المصرى.

....

ولم تمض سنوات قليلة إلا وكان الرئيس السادات يعرض مياه النيل على بيجين فتحول الشطح القصصى إلى تاريخ ووقائع تاريخية محددة.

طبعا الملامح كانت قد بدأت فى التيلور منذ عام ١٩٧٤ فيما سمى بورقة أكتوبر، ولكننى أحب أن أعود إلى عام ١٩٧١ ـ فربما تبدو ذاكرة البعض واهنة أو ضعيفة أو تنسى بعض الأشياء ذات الدلالة ـ فبعد مايو ١٩٧١ كان من أول القرارات التى اتخذت تصفية المؤسسات الثقافية (مؤسسة السينما ـ مؤسسة المسرح ـ إغلاق المجلات الثقافية الجادة ذات التاريخ والتى كانت تشكل الوعاء الأسمى للثقافة المصرية مثل مجلة (المجلة) التى كان يرأسها شيخنا الكبير يحيى حقى، ومجلة (الفكر المعاصر) التى كان يرأس تحريرها د. فؤاد زكريا ومجلة الفنون الشعبية ومجلة (السينما) ومجلة (المسرح).

....

إذن كان هناك إدراك من الفئة الجديدة التى بدأت تسيطر على مقدرات المجتمع المصرى لخطورة الثقافة!!

وهذا الإدراك ـ للأسف ـ لا يدركه المثقفون أنفسهم حتى الآن، ولعلك تعلم أن الشيئين الوحيدين اللذين يجب أن تحصل لهما على ترخيص رسمى من وزارة الداخلية فى مصر، أو فى معظم بلاد العالم الثالث، هما المسدس والمطبعة!!

أى إن الكلمة والرصاصة تتساويان من وجهة نظر أجهزة الحكم فى العالم الثالث، ولكن المثقفين ـ أنفسهم ـ لا يعرفون قيمة ما يقومون به!

....

ملامح التغيير بدأت تتحدد فيما بعد حرب أكتوبر، وكان شعورى بهذا التغيير مضاعفاً وقوياً لأننى أعتبر نفسى مشاركا منذ ١٩٦٩ فى الحرب، حيث كنت أقوم بتغطية دؤوبة ومنتظمة لمعارك الجيش المصرى العظيم، سواء فى حرب الاستنزاف أو فى حرب أكتوبر.

وأنا لم أقرأ عن بطولات الجنود والضباط ولم أسمع عنها، ولكننى عاينتها، فقد شاهدتها بأم عينى، ولذلك كانت فجيعتى كبرى فى النتائج السياسية التى أدت إليها حرب أكتوبر.

الأداء العسكرى فى حرب أكتوبر لم يأخذ حقه حتى الآن، لقد عشته وشفته، ولكن ما حدث وما قام به المقاتلون والناس لم يعبر عنه فى الأدب ولا الصحافة.. (وأقول هذا الكلام ولدى رواية عن حرب أكتوبر ومجموعتان من القصص وكتاب نظرى ولكن ما حدث بعد الحرب ـ ربما ـ أجهض الإحساس بهذه التجربة، التى ضوت كسنا البرق فى سماء التاريخ المصرى، ومن هنا شبهتها برصيد ضخم فى البنك صرف فى غير محله.

ولذلك كان شعورى بالصدمة كبيراً جداً بعد الحرب، وقصصى الأدبية تؤكد ذلك، وتعبر عنه!

وفى ظل هذا الإحساس طفت على سطح المجتمع المصرى (سياسة الانفتاح)، وسياسة الانفتاح لها ممثلون.

ـ ومعذرة إذا كنت قاسيا فى التعبير ـ ولكننى أشبه الأمر بعصابة استولت على بلد بأكمله، بلد فيه مصانع وثروات وكميات هائلة من المصاغ والذهب والغذاء.

وبدأ كل فرد من أفراد هذه العصابة يستعد كى يثرى نفسه.

بدأت ـ أيضا ـ عملية تشجيع الأيدى العاملة المصرية للخروج إلى العالم العربى، الهجرة إلى الخارج، فبدأت ظاهرة جديدة تحدث لأول مرة فى مرحلة من مراحل التاريخ المصرى.

فالفلاح المصرى الذى لم يترك أرضه على الإطلاق طوال التاريخ وحتى فى أيام الشدة المستنصرية ـ التى دامت سبع سنوات، والتى أكل الناس فيها بعضهم بعضا، لم يحدث أن فلاحا مصريا هجر الوادى على الإطلاق.

ولكن هذه الهجرة بدأت فى فترة الانفتاح بتشجيع مخطط من السلطة الحاكمة، التى أخذت بسياسة زرع الدافع الفردى، وكان (زرع الدافع الفردى) هو أخطر الأخطار فى مسألة الانفتاح، (أنا.. فحسب).. (أنا ومن بعدى الطوفان).. (لأعمل لنفسى ولو كان ذلك عبوراً فوق جثث الآخرين)!!

كما بدأ زرع قيمة المال كبديل لقيمة العلم، فانقلب سلم القيم.

وسأضرب لك مثلا شخصيا:

أنا ابن أسرة كادحة والدى كان عاملا بسيطا، ولكنه حرص أن يعلمنا وقد كتبت ملحمة حياته فى روايتى (التجليات).

ونتيجة ظروف الأسرة قررت أن أنهى تعليمى فى فترة مبكرة فتخرجت من مدرسة الصنائع واشتغلت كيما أساعد أبى.

أخى كان متفوقا فدخل الفنية العسكرية وأصبح ضابطا مهندساً وعالما مرموقا فى القوات المسلحة وأخوتى الآخرون تخرجوا من الجامعة.

إذن القيمة التى تربينا عليها هى قيمة العلم.

زمان كان أكبر حلم عند الأسرة المصرية أن يأخذ ابنها الشهادة الكبيرة وهى (الدكتوراه) وبالتالى تربى أبناء هذه الأسرة على قيمة العلم.

أنا لا أعرف مثلا ـ أن أدخل مشروعاً تجارياً فليس عندى روح المغامرة وعقلية المستثمر أنا رجل أريد أن أقرأ وبالنسبة لى فإن مفردات حياتى وعملى هى ديكور كى استطيع ـ فى النهاية ـ أن أوفر لنفسى ثلاث أو أربع ساعات لأكتب وأبدع فيهم.

....

مع الانفتاح حل وضع جديد لم يعد للعلم فيه قيمة وسادت فكرة (معك كم.. تساوى كم) ولكن ليس مهما من أين حصلت على هذا (الكم) !!

ولذلك تجد فى طبقة الانفتاحيين أو فى هذه العصابة التى سيطرت على مقدرات الاقتصاد المصرى ـ سلوكيات غريبة جدا.

فأنا ـ مثلا ـ حينما دخلت بيوت عدد من الانفتاحيين وجدت شكلا من أشكال (التلفيق)، مثلا فى الأثاث تجد نجفة كريستال أمريكانى و(بارڤان) (أرابيسك) وصالون (لوى كانز) فرنسى وهكذا، شعرت بلون من اللا أصالة،

وأزعم أن الطبقة الاقطاعية أو طبقة الباشوات التى كانت موجودة قبل ثورة يوليو هى أكثر أصالة من طبقة الانفتاح لأنها كانت فى موقعها من السياق التاريخى، ولهذا نجد ـ مثلا ـ محمد محمود باشا خريج أكسفورد، ونجد ـ حتى ـ اسماعيل صدقى ـ الذى يضربون به المثل فى الرأسمالية الكومبرادورية التابعة والمرتبطة بالرأسماليات الأجنبية المتحكمة، هذا الرجل نجده أبعد نظرا فيما يتعلق بمصلحة البلاد فهو الذى بنى كورنيش الإسكندرية، وهو الذى قام بتعلية خزان أسوان فيما أعتقد.

وأيضا عبود باشا الذى كان يضرب به المثل على أنه مليونير كان مليونيراً واحداً فقط فى مصر، ولكن رصيده فى البنك كان صفراً لأن أمواله كلها كانت تشتغل، وذلك كان داخل البلد وليس خارجها وفى نفس الوقت كانت أعماله هى إنشاء شركة السكر وشركة البوستة الخديوية بما يعنى إنشاء مؤسسات حقيقية داخلة فى صلب الاقتصاد الوطنى.

....

أما الانفتاحيون فقد حصل بعض أبنائهم على شهاداتهم من أكسفورد أيضا ولكنهم كانوا يتاجرون فى المواشى أى أنهم اعتبروا الشهادة لوناً من ألوان الوجاهة الاجتماعية وليست هدفا لتحصيل العلم.

أصبح انتماء الانفتاحى إلى ماله.. إلى فلوسه..

وهنا استدعى مقارنه من التاريخ المصرى فى العصر المملوكى، وأنا أميز فى هذا التاريخ بين العصر المملوكى الأول والعصر المملوكى الثانى، حيث أقارن الانفتاحيين بالعصر المملوكى الثانى، الذى تحولت فيه مصر إلى ولاية عثمانية، وليس العصر المملوكى الأول الذى كانت مصر فيه امبراطورية تحمى الحرمين وتحكم البحرين وتصل حدودها إلى جبال طوروس.

أما فى العصر المملوكى الثانى فكان يجيء إلى مصر والى يعين من الآستانة لمدة سنة أو سنتين وكان كل همه أن يجمع أكبر قدر من الثروة فى أسرع وقت ممكن وليس مهما الأساليب التى جمعها بها، وفى نفس الوقت كان انتماؤه الوحيد هو لهذا المال فإذا خرج إلى تجريدة صحب كل ثروته معه على جياد وبغال لأن وطنه فى كيسه فى فلوسه.

ولذلك تجد أن فلوس الانفتاحيين ليست فى مصر، وأموالهم صدرت إلى الخارج وهربوها إلى الخارج وتحولت مصر إلى ضرع يمتصونه حتى الجفاف وإذا فكر أحدهم فى مشروع استثمارى فإن هدف هذا المشروع يكون كيف ينهب أكبر قدر ممكن من النقود ويحولها للخارج.

وأنا لا أريد أن أكون قاسيا، ولكن أتيح لى أن أتابع بعض مؤشرات المصريين العاملين فى الخارج الذين يعملون فى أمريكا وأوروبا، وأتيح لى أن أحضر اجتماعين فى مثل هذه المؤتمرات وشعرت بشيء خطير جداً، وهو أن هؤلاء الذين جاءوا بهدف أن يساعدوا مصر يطلبون أشياء هى فى جوهرها تجسد أن هدفهم الحقيقى هو أن تساعدهم مصر كيما تزيد ثرواتهم أكثر وأكثر!!

يريدون تسهيلات هائلة هائلة بالإضافة إلى إحساس بالاستعلاء على كل ما هو موجود داخل الوطن.

إذن أخطر قيمة زرعتها مرحلة الانفتاح الاقتصادى هى إلغاء الانتماء وجعل الانتماء إلى القرش وباليته إلى الدولار!!

....

وبالطبع فإن انقلاب سلم القيم هذا أدى إلى تفاصيل كثيرة جداً فى الحياة اليومية وهو ما أرصده منذ سنوات طويلة.

وجود الثروة فى يد من ليس لهم ثقافة أدى إلى آثار خطيرة حتى على السياسة.

وأذكر فى إحدى المرات أثناء ترتيبات الصلح مع اسرائيل أن استمعت إلى مقال كبير يتحدث فى الراديو عن القضية الفلسطينية بالأسلوب الذى يمكن به الكلام عن المواسير والأسمنت والحديد المسلح يعنى لا توجد خلفية ثقافية بالطبيعة، ولا توجد خلفية سياسية بالضرورة.

قيمة عدم الانتماء كانت تلقى تشجيعات ـ حتى ـ من النخبة الحاكمة التى تلقى رموزها خطبها بالانجليزية أو تتباهى ببعض السلوكيات الغربية على أساس أنها لون من التحضر فلافتات المحلات تكتب بكلمات أجنبية وحروف لاتينية مع أن هناك قانون من أيام وزارة عبد الحق عام ١٩٤٨ ـ والذى كان وزيراً للتموين ـ يمنع على أى محل مصرى أن يعلن عن نفسه باسم أجنبى وإذا أعلن فلابد أن يكون حجم الاسم الأجنبى أقل من حجم الاسم العربى ولكننا الآن. نعيش مرحلة الالتصاق بقشور الثقافة الغربية إلى درجة أن بعض المنشآت التى ترفع راية الاسلام أصبحت هى أيضا ترفع لافتات أجنبية مثل (شوبينج سنتر) و(بلازا) وغيرها.

....

وأنا أعتقد أن القوانين الاقتصادية التى ترتب عليها هذا الانقلاب فى المجتمع المصرى يمكن أن تلغى فى ٢٤ ساعة ولكن الأخطر هو القيم التى زرعتها هذه القوانين فى داخل الناس.

هذه القيم هى التى صاحبت ميلاد مجتمع استهلاكى كل ما فيه يحرضك على الاستهلاك وعلى اقتناء الأشياء مثل الموكيت وبعده التليفزيون

الملون ثم الفيديو ثم الثلاجة المستوردة ثم ثلاجة ببابين.. يعنى باب الاستهلاك مفتوح بلا نهاية.

فى الستينيات وفى مرحلة ما سمى بالبناء الاشتراكى كانت الطموحات محدودة يعنى الطموح فى اتجاه العلم موجود أما طموح الثروة فكان محدودا.

وأذكر أن الزعيم جمال عبد الناصر فى خطاب كامل قام بعملية تشهير كبرى بشخص سرق مبلغاً قدره خمسة آلاف، بينما الآن يسرق البعض ملايينا من أمام عيوننا وننظر للأمر كأنه شيء عادى.

وأصبح ـ حتى مثال توفيق عبد الحى مثالا كلاسيكيا متواضعاً جداً لما حدث بعده..

القيم التى تغيرت هى التى سوف نعانى منها ـ فى تقديرى ـ لثلاثة قرون، كى نستطيع إعادة التوازن إلى الحياة الاجتماعية والنفسية فى مصر.

نحن محتاجون إلى أجيال جديدة تنسى بفعل الزمن هذه الفترة الاستثنائية من الفوضى التى حدثت فى التاريخ المصرى.

ولذلك فاننى أتصور أن دور الأدب والفن هو محو آثار السبعينيات أو إزالة آثار رموز هذه المرحلة.

تجلى القهر:

«ومضى أبناء جيل الستينيات يمشون على الأرض وهم شهداء»

*** أستاذ جمال.. عبر هذه الإجابة الطويلة والهامة كنت تجهز المسرح تجهيزا مناسبا لبدء الحوار!!**

وبعد.. فمن الدارج - أيضا - فى الحياة الاجتماعية والثقافية

والمصرية أن نلجأ إلى مجايلات مختلفة، فنقول ـ مثلا جيل ٤٨، وجيل يوليو، وجيل النكسة، وجيل أكتوبر وجيل الانفتاح.

وسوف نتكلم على جيلين (جيل أكتوبر) .. هؤلاء الذين عشت وسطهم، والذين تقول إن حجم إنجازهم فى الحرب لم يقدم بالشكل الكامل فى الصحافة أو الأدب وبين ـ جيل الانفتاح) .

فقد عاد جيل أكتوبر من المعركة بعد النصر ليجد أن ثمار نصره قد دانت لهؤلاء الذين ينتمون إلى طبقة الانفتاحيين الذين، وضعوا الوطن فى حقائبهم كما وضع المماليك ثرواتهم فى أكياسهم.. كيف كانت نتيجة هذا الوضع ؟

** سواء جيل أكتوبر وجيل النكسة وجيل الانفتاح، فإن هذه كلها أسماء ومسميات لجيل واحد هو جيل الستينيات.

حين قامت الثورة كان عمرى سبع سنوات وعمر ابراهيم أصلان ١١ سنة، ويوسف القعيد ثمان سنوات، وكذلك أمل دنقل، وكان عمر عبد الحكيم قاسم ١١ سنة.

فتحنا عيوننا على الثورة، فنحن الأبناء الشرعيون لثورة يوليو، ولولا ثورة يوليو لم نكن لنجد فرصة لنتعلم، لأن هى التى أتاحت لنا فرصة التعليم، وأتاحت لنا فرصة مصادر الثقافة، فى العمل الثقافى الذى تم فى الخمسينيات وفى الستينيات على الخصوص أتاح لنا مصادر الثقافة والتكوين، وهذه نقطة سوف أتحدث عنها بالتفصيل فيما بعد لخطورتها وأهميتها على المدى البعيد، فى عملية الإبداع والكتابة.

ولكن ثورة يوليو ـ بمقدار ما نحن أبناءها بمقدار ما كانت قاسية على أبنائها.

أنا ـ مثلا ـ سجنت أيام عبد الناصر، وفصلت أيام السادات وعندما تتأمل الظروف التي سجنت بسببها ستجد أنها ظروف تافهة جداً.

صحيح أن ثورة يوليو كانت تواجه تحديات، وكان حولها صراعات كثيرة اشتبكت فيها مع العالم، ولكن هذا كله لا يبرر القمع الداخلى الذى تم خلال فترة الستينيات، وحتى أشد المخلصين لعبد الناصر، ولثورة يوليو كانوا يرون أن هناك شرخاً ديمقراطياً لم يكن له مبرر ولم تكن له ضرورة.

إذن فقد عانينا القهر الديمقراطى فى الستينيات، ولكن خلافنا مع عبد الناصر فى الستينيات، كان خلافا مع أب، فأبى يمكن أن ينهرنى أو يزجرنى أو يقسو على، ولكننى فى النهاية أحبه لأننى أعرف أن خلافا لا يمكن أن يكون بينى وبينه على الأهداف النهائية، ولكن الخلاف يكون ـ أحيانا ـ فى التفاصيل.

كانت أيام مليئة بالمشاريع والأحلام، فخريج الجامعة ـ مثلا كان يتخرج وراتبه ١٧ جنيها، ولكن لديه إحساس بأنه من الممكن أن يتزوج ويجد مسكنا فى مبنى بناه، له عبد الناصر شقة بستة جنيهات، وموبيليا غرفة النوم بمائة جنيه، الآن أصبح هذا مستحيلا وهذه نقطة من أخطر العوامل المدمرة حيث لا يشعر الشاب المصرى ـ اليوم ـ أن هناك بابا مفتوحا إلى المستقبل.

كان مرتبى عندما تسلمت الوظيفة كرسام للسجاد فى مؤسسة التعاون الانتاجي ١٩٦٢ هو ١٢ جنيها، وهو مرتب كان يشعرنى بالأمان وقتها، أكثر من دخلى الآن الذى يقترب من ألف جنيه فى الشهر، كان يمكن للإنسان أن يوفى احتياجاته الضرورية بحدود دخله.

كانت مصر مشهورة جداً بأنك لو تملكت قرشين صاغ فمن الممكن أن

تبتاع فطوراً، والآن أصبح، هذا مستحيلا، لأن الضروريات نفسها أصبحت غالية.

ولنعد ـ إذن ـ إلى مسألة الجيل.

هذا الجيل الذى نما وترعرع فى فترة الستينيات فوق تعرضه للقهر، تحمل نتائج نكسة ١٩٦٧ .. لماذا؟

لأننى عندما أقول جيل الستينيات فلا أقصد هؤلاء العشرة أو ١٥ كاتبا الذين يكتبون القصة أو الرواية والذين بدأت أصواتهم تتبلور وتعلو من بداية الستينيات ظهرت أصواتهم بقوة بعد ٦٧، وإنما أنا أقصد جيلا بكامله، بعض أفراد هذا الجيل حاربوا فى اليمن، وجاءت عليهم النكسة فرابطوا فى الخنادق، بعضهم ضل فى سيناء ومات عطشا، والذين نجو استقروا فى الخنادق من ١٩٦٧ إلى ١٩٧٤ عندما سرحت أول دفعة من المجندين بعد الحرب.

إذن هناك أفراد من هذا الجيل قضوا فى الخنادق، وفى الجبال وفى الحرب أكثر من ١١ سنة!

وبالتالى فعندما أتكلم عن جيل فأنا أتكلم عن جيل كامل عانى كل صنوف المعاناة، ثم حدث أن هذا الجيل بعد حرب أكتوبر ظن أنه سوف يقطف ثمار النصر، ولكنها قطفت بواسطة العصابة الانفتاحية التى سيطرت على مقدرات الاقتصاد، ومعظم أفرادها لا عرفوا الحرب، ولا سمعوا صوت مدفع، ولا مرقت شظية بمقربة من أحدهم.

جيل الستينيات بعد ١٩٧٤ وجد نفسه فى وضع لا يسمح له بتلبية ـ حتى ـ احتياجاته الطبيعية، حتى حق الإنسان فى الحب لم يوفره هذا النظام له، لأنه أقر شكل التمليك عموما فى المساكن.

وأى خريج هذا الذى يستطيع أن يدفع مقدماً ثمن شقة تمليك، وأنا

أتكلم هنا عن السواد الأعظم من الشباب، بحيث لو لم يستطع هؤلاء الحصول على شقق تمليك، فلن يتزوجوا حيث لا مكان لإقامة حياة طبيعية، وإقامة أسرة، مع الوضع فى الاعتبار أن النسبة الغالبة من الشباب المصرى تربيتها محافظة، وخاصة الطبقة الوسطى، الشباب منها لا يستطيع أن يحب فى الحرام، مع الوضع فى الاعتبار أنه - حتى - هذا النوع من الانحراف أصبح مكلفاً جداً.

ومن هنا كان اتجاه البعض، هو إذا كنت لا أستطيع أن أحصل على بيت فى الدنيا وزوجة صالحة، فلأحصل عليهم فى الآخرة، وبدأت ظاهرة انحراف الشباب الكثيرين فى الجماعات المتطرفة، وبدأت - حتى - هذه الجماعات تجد حلولا لمثل هذه المشكلة - فيما سمى بالزواج الشرعى الذى لا يتطلب تكاليفاً.. إلخ.

....

هذا الجيل شعر أن المستقبل أمامه مسدود فى ظل سياسة الانفتاح وأن الفرص غير متكافئة، والقيم غير مفهومة.

تريد أن تأخذ دكتوراه؟.. خدها.. ولكن ماذا ستفعل بها، والمرتب الذى يحصل عليه أستاذ جامعى وهو قمة السلم التعليمى وقمة المستوى العلمى لا يكفى إيجاراً لغرفة لمدة أسبوع واحد فى الشهر.

ظهرت ظروف اقتصادية بحيث لا يستطيع الشاب أن يعيش حياته اليومية فى ظلها، فما بالك إذا أراد أن يبنى حياته أو يطور حياته.

كنت أشعر بتناقض ديمقراطى فى الستينيات، ولكننى كنت أشعر بتناقض حياتى فى السبعينيات.

فى السبعينيات شعرت أن مهمتى الرئيسية هى أن أحافظ على ذاتى سليمة

بالحد الأدنى، لأن كل العوامل فى الواقع كانت تتجه إلى التدمير، وكنت أشعر ـ مثلا فى كثير من الأحيان ـ أننى أعود إلى البيت وأغلقه لأصبح وحدى فى العالم أواجه هذا كله بمفردى، وبالرغم من أن الوضع السياسى للمعارضة كان أفضل بكثير فى السبعينيات لأنه كان هناك تحديا أكبر، كانت المسألة هى الحفاظ على السلامة النفسية لعملية الإبداع.

أنا من أسرة كانت تعتبر أن الذهاب للطبيب ترف، ولا أذكر أن أبى ذهب إلى المستشفى طوال حياته، ربما لمرة واحدة حين ظهر فى جسمه ورم فأجرى جراحة فى القصر العينى.

وعندما كنت أسمع أن هناك من ذهب لطبيب نفسى فإننى كنت أعتبر أن هذا نوعاً من الميوعة والرقاعة، فما معنى أن تذهب لطبيب وتدفع أموالا كى تتكلم، ولكن ما رأيك أننى فى عام ١٩٧٨ ـ بقدمى ـ ذهبت إلى طبيب صديق هو الدكتور عادل صادق لأعالج من حالة إحباط واكتئاب ظهرت أعراضها عندى بفظاعة نتيجة الضغوط الرهيبة التى سادت هذه الفترة.

وأبشع الأشياء هو إحساسك بلحظة تاريخية معينة ـ لا تستطيع فيها أن تغير وضعا عاما بنفسك أو بمفردك.

شرح ذلك التجلى:

«وقد عمدوا إلى قمع المواهب بالتزييف والتعتيم»

*** هذا على مستوى اقتصادى فى مجتمع.. ولكننى أيضا أريد أن أركز على تأثيرات هذا الوضع الاقتصادى الحادث فى مرحلة الانفتاح على جيل الستينيات وأجهزته الثقافية، ومن ثم تبين بعض جوانب الصورة الدرامية التى أزلنا الستار عنها فى الإجابة الماضية حين عاد جيل الستينيات من مرحلة الاقتحام والعبور ليجد عصابة الانفتاح وقد استولت على كل البلد؟**

** عمد نظام الانفتاح إلى التخلص أو التعتيم على الكتاب الموجودين فخلق منابرا ثقافية هزيلة مثل مجلة (الجديد) التى رأس تحريرها المرحوم الدكتور رشاد رشدى، بالإضافة إلى حذف كل ما يتعلق بكتاب جيلنا، ولك أن تعلم مثلا أننى عندما حصلت على جائزة الدولة عام ١٩٨٠، ومنحتنى إياها لجنة كانت مكونة من الأساتذة يحيى حقى ونجيب محفوظ ونعمان عاشور وتوفيق الحكيم وإحسان عبد القدوس وعبد التواب يوسف ـ وقد حصلت على هذه الجائزة رغم أننى كنت من الكتاب المعارضين فى ذلك الوقت للسادات. تم حجب اسمى فى خبر الجائزة المنشورة فى صفحة الأدب بجريدة الأخبار التى أعمل بها، وتنبه لذلك موسى صبرى ليلا، فوضع صورتى فى الصفحة الأولى بدون أى تعليق، فاستفز هذا الوضع مصطفى أمين فى اليوم التالى باعتبارى ابناً من أبناء أخبار اليوم فكتب عموداً كاملا عن جمال الغيطانى روى فيه قصة حياتى قائلا: «هذا هو جمال الغيطانى الأديب الذى حصل على جائزة الدولة أمس ونسيت أخبار اليوم أن تذكر اسمه» !!!

كان هذا تعتيم، ولذلك أرجع لصفحات الثقافة فى فترة السبعينيات ولن تجد أسماء أهم الكتاب فى مصر، وكان التعويض عن هذا يأتى من أن أعمالنا كانت تلقى صدى كبيراً فى الخارج لأنها كانت تصل لأوساط بعيدة عن الأسباب التى نعيش فى ظلها.

أما العامل الثانى فى التعويض فكان يأتى من أن القارئ ـ فى تقديرى ـ مازال سليما والدليل هو أن كثيراً من الكتب طبعت مرة واثنين فى ظل هذا التعتيم.

وفوق التعتيم فإننى كنت أشعر أن رئيس الجمهورية منافس لى، ولكن هذه المنافسة غير متكافئة.

فقد وجد من يقول له أنت كاتب مصر الأول، ووجد من يفصل له عباءة راعى الفنون، ووجد من يحمل له قلم التاريخ من البردى، ووجد من يكتب عنه كتابا ويقدمه على أنه كاتب للقصة القصيرة.

وصرخت وشعرت أننا ككتاب للقصة لم يعد لنا مكان في وطننا.

وحتى قيمة العلم نفسها طالتها هذه العملية التزييفية، فنجد زوجة أحد كبار المسئولين تدخل الحكم بالابتدائية، وتنتهى بالماجستير، بينما نعلم ـ جميعا ـ من الذى أعد الرسالة، ومن الذى شارك فى هذه التمثيلية.

إذن سادنى شعور بالغربة، ولم يعد لى مكان فى هذا الوضع أو هذا المنظوم القيمى الجديد.

حقيقة لعبت صحافة المعارضة دوراً أحدث درجة من التوازن، ولكن ليس بنسبة كبيرة خاصة فى المجال الثقافى، لأن الصفحات الثقافية فى صحف المعارضة فى تلك الفترة العصيبة لم تعكس الواقع الثقافى بدقة وأمانة.

* لماذا ؟

** لأن المشرفين عليها، إما أنهم كانوا أقل من المستوى، وإما أن صحافة المعارضة نفسها أهملت الثقافة، وإما كانت هناك حزازات شخصية بين بعض المشرفين على الصفحات الثقافية و(أنا أعنى هنا صحيفة الأهالى بالتحديد)، وبين كثير من الكتاب فمارسوا عليهم نفس الدور الذى كانت تمارسه السلطة، وإذا عدنا إلى الصفحة الثقافية ـ مثلا ـ لجريدة الأهالى فى فترة السبعينات فلن نجد فيها إشارة لكاتب من حوالى ستين كاتبا من ألمع كتاب مصر وهم أيضا أعضاء فى حزب التجمع الذى تصدر عنه الجريدة.

كانت لى استمارة فى حزب التجمع عندما تم إنشاءه ولكننى لم أشعر فى يوم من الأيام أننى عضو فى هذا الحزب.

لا أعرف برنامجه.. ولم يتصل بى أحد من هذا الحزب.

....

هذه قضية كبرى تتصل بوضع المبدع فى إطار علاقته مع السلطة أو المعارضة.

فأحياناً تشكل المعارضة سلطة قمع على الأدب والفن، وإذا كان هذا قد تجلى فى بعض مواقف اليسار نتيجة أسباب خاصة، فإنه يتجلى أكثر من بعض أشكال المعارضة اليمينية المتطرفة التى تريد أن تلغى الأدب والفن كله.. وهى فى ذلك لا تشكل سلطة قمع فحسب ولكنها تشكل سلطة إرهاب.

أريد أن أقول إن الوضع كان صعباً جداً من كافة الأطراف بما استدعى حتمية محاولة الحفاظ على السلامة الشخصية.

وأنا أذكر هنا عبارة صديقنا الأديب على سالم كثيراً ما يرددها، فقد كان يقول إن الذى يستطيع أن ينفذ من هذه المرحلة سليما بنسبة ٣٠٪ من المكن أن يعيش مائة سنة!!!

هذا المناخ العام كان كفيلا بقتل أكبر مواهب أنجبها هذا الوطن، ومع ذلك فقد عبرنا عن هذا الواقع بشجاعة، ولم نفقد القدرة على التعبير لحظة واحدة.. وكتابتنا موجودة ومن يريد أن يقرأها فليفعل، سواء فى الكتابات المباشرة لروايات يوسف القعيد، أو فى إنتاج صنع الله إبراهيم، أو أشعار أمل دنقل الذى كان يحتضر وهو ينظم قصيدة يقول فيها (لا تصالح).

هذا هو جيل الستينيات الذى عانى، والذى كان تعس الحظ والذى يريد بعض الكبار أن ينكروا عليه حتى حق الوجود.

وعندما توليت الإشراف على صفحة الأدب فى الأخبار، بدأت أركز على الجيل الذى كان معتما عليه، الأسماء التى أصبحت كبيرة جداً فى أوروبا

وأمريكا، ولا يعرفها القارئ المصرى، فاغضب ذلك البعض من أساتذتنا وحتى الآن لا يجد بعضهم فرصة إلا ويجرح أو يهاجم جيل الستينيات باعتباره جيل لا وجود له، أو يأتى أستاذ كبير مثل الدكتور لويس عوض ويقدم مفهوما لغوياً مغلوطا، ويقول إن جيل الستينيات ليس مقصودا به جيل الأبنودى ويوسف القعيد وإبراهيم أصلان وصنع الله إبراهيم، ولكن مقصود به جيل الفريد فرج ويوسف إدريس.

موافقون.. فلنكن نحن الموجة الثانية من جيل الستينيات، ولكن المتصور من النقاد الذين ننظر لهم كآباء روحيين لنا ألا يعمدوا إلى حجب هذا الجيل، متصورين أن هذه الأسماء سوف تأخذ مواقعهم أو سوف تحجب الضوء عنهم وهذا طبعا غير صحيح، أو من الناحية العملية التاريخية غير صحيح.

إفصاح عن الحزبية

«بحثت عن مصدر الهجوم.. فوجدته حزبيا!!

*** فى كل ما ذكرت.. كنت إلى حد كبير تتعرض لعلاقة المثقف المصرى بالسلطة فى ظل مناخ اقتصادى ـ اجتماعى معين، وتعبيراته السياسية المختلفة، وهو ذلك المناخ الذى ساد من السبعينيات وإلى الآن.**

ولكن هل تأذن لى فى أن نتوقف طويلا أمام العلاقات ما بين المثقف المصرى وقوى المعارضة فى نفس الفترة وتحت نفس الظروف.

كيف تأثرت مسيرة العقل المصرى والثقافة المصرية بهذه القوى سواء الممثل منها تمثيلا حزبيا أو غير الممثل؟

** هذه القضية تمثل فى رأيى مشكلة وحتى الآن لم تناقش بصراحة.

أنا واحد من الناس تربيت وترعرعت فى أحضان قوى اليسار المصرى، ولكن هناك مشكلة فى هذا أتكلم عنها لأول مرة.

فباستمرار كانت قوى المعارضة سواء فى الستينيات أو فى السبعينيات تريد أن تحتوى المبدع لحسابها، يعنى تكون العلاقة بين المبدع والحزب علاقة تابع يتلقى التعليمات!

مسألة استقلالية المبدع واحترامه لم تترسخ فى مفاهيم أحزاب المعارضة المصرية.

وبالطبع فالمشكلة معقدة جداً لأن الحزب يريد أن يكون الشاعر الكبير تابعا له، ولكن ليس كل ما يفعله الحزب أنا موافق عليه.

*** هل تشعر أن هناك قدراً من الديمقراطية الداخلى فى هذا الحزب الذى قلت إنك وقعت استمارة بالانضمام إليه تسمح لك بأن تنتقد بعض سياساته أو تأخذ هامشا على يمينها أو يسارها فى بعض الأمور؟**

** لا توجد مثل هذه الإمكانية!

ولم أشعر أن هناك قدراً من الديمقراطية داخل هذا الحزب، وبالعكس كنت أشعر ـ باستمرار ـ أنه ليس العوامل السياسية فقط التى تتحكم فى العلاقة بين المبدع والحزب، بل العوامل الشخصية.

يعنى إذا أصبح كاتب مثلى عضواً فى الحزب، وجاء وقت لا تنشر الصحف العامة والقومية إنتاجنا فيها، فمن الطبيعى أن انتظر أن تنشر لى جريدة الحزب (الأهالى) التى كانت قد صدرت فى هذه المرحلة.. ولكنها لم تنشر لى ولا لعشرات المبدعين المجيدين من أعضاء الحزب.

*** لمن نشرت (الأهالى) إذن؟**

** للكثيرين!

*** من أى نوع وبأى مستوى؟**

** أنت تعرف، ولكن على الأقل إذا عدت إلى الجريدة فى عدة سنوات سوف تجد أن أسماء كثيرة جداً ولامعة لم تأخذ موقعها فى جريدة الحزب، بينما أصحاب هذه الأسماء هم أعضاء فى نفس الحزب.

*** ماذا أثارت هذه الصحيفة من قضايا ثقافية هامة لفتت انتباهك؟**

لا ننكر أنها أثارت بعض القضايا العامة، ومنها مثلا ـ قضية التطبيع مع إسرائيل، ولكنها كانت فى معظم هذا النشاط تعكس نشاط اللجنة القومية للدفاع عن الثقافة الوطنية وهى لجنة جبهوية كانت تعمل فى اطار حزب التجمع، وقد شاركت فى أعمال هذه اللجنة وبالرغم من هذا كله فقد استمرت الأزمة بين المبدعين وبين الحزب قائمة وما تزال.

*** هل كان هناك نوع من أنواع النخبوية داخل هذا الحزب، صنفت الناس إلى مستويات سياسية، ومنعت بالتالى إسهامك أو إسهام غيرك من المبدعين فى مناقشة قضايا أساسية، وفى المشاركة فى تشكيل موقف الحزب؟**

**كان هناك لون من الشللية.

واتخذت موقفا سلبيا بالابتعاد، وهو موقف أخذه الكثيرين، فكيف أفسر مثلا حملات ضدى نابعة من الحزب الذى انتمى إليه؟

ثم على المستوى الإنسانى لا تجد هذا الحزب الذى تنتمى إليه فى مناسبات شخصية أنت أحوج ما تكون لأن تجده فيها إلى جوارك.

الانتماء للحزب أصبح لا معنى له إذن.

عموماً بعد اغتيال السادات أشعر أن التحدى الكبير الذى كان يجمع الناس ويدفعهم لأن يتجاوزوا عن أمور لا يرضون عنها فى حزبهم قد ذهب، وبالتالى نشأت هذه الظواهر التى تقتضى إعادة النظر فى تقييم التجربة الحزبية نفسها.

*** هل مازلت تعتقد أن هذا الحزب يمثل تعبيراً سياسياً عن قوى اجتماعية تمثل اليسار المصرى؟**

** ولكنه رأس بلا جسد.

*** ماذا تعنى بهذه الكلمة؟**

** يعنى الحزب فى برنامجه يعبر عن قوى اليسار المصرى، ولكن ما هى قوى اليسار المصرى؟

*** هل قوى اليسار المصرى هى مجموعة المثقفين القابعين فى شارع عبد الخالق ثروت أو شارع كريم الدولة أو بعض الندوات فى الأتيليه والمقاهى؟**

** بالطبع لا..

اليسار المصرى هو قوى الإنتاج من العمال والفلاحين والطلبة والمثقفين وكل الفئات التى تجدها فى التصنيفات الطبقية للمجتمع المصرى.

وفى اعتقادى ـ أن هذه الفئات فى واد والحزب فى واد آخر.

والدليل على ذلك أنك إذا رجعت لتحلل النتائج الانتخابية مثلا فى منطقة عمالية خطيرة جداً مثل حلوان، ستجد أن الذى فاز بها فى الانتخابات البرلمانية السابقة هو الشيخ يوسف البدرى!!!

جماهير اليسار المصرى ـ ياعزيزى ـ ذهبت للتيار الدينى الذى كان أقدر على مخاطبتها من واقع مشاكلها الحقيقية، فهو يتحدث مع الناس حديثا يبدأ من (الليمونة أصبحت بكذا)، من واقع لغة حياتهم اليومية التى يفهمونها.

هذا التيار المتطرف استولى على تكنيك اليسار وأسلوبه واشتغل به، فنجح فى دائرة مثل حلوان كان اليساريون يدعون أنها ملعبهم!!

*** أفعل هذا بوعى؟**

** ربما بوعى، وربما الحاجة العملية اضطرتهم إلى استخدام هذا الأسلوب، ولكن حدث هذا فى وقت مازال فيه اليسار التقليدى القديم غارقا فى التحليلات وفى صراعات مخيفة، وفى الشللية، وكل هذا أدى إلى عزلة حقيقية، لا نستطيع أن ننكرها، على الرغم من أن حزب اليسار ظهر على الساحة المصرية كتجمع لكافة قوى اليسار، وكأول حزب يسارى علنى فى تاريخ النضال المصرى.

لقد انتهى الأمر بهذا الحزب إلى أن فقد نفوذه الشعبى حتى فى الساحة الثقافية التى كان لليسار عليها نفوذ تقليدى.

*** هل تشعر أن هناك ضرورة أن ينشأ حزب آخر لليسار المصرى؟**

** أشعر أن هناك ضرورة لإيجاد صيغة لحزب جديد يستطيع أن يوجد الالتحام ما بين الفكر وبين القاعدة أو جماهيره الحقيقية التى ـ بالتأكيد ـ ليست مع التجمع الآن!

*** بخروج الناصريين (تقريبا) من التجمع هل تعتقد أن هذه الصيغة أصبحت صعبة المنال؟ هل تعتقد أن ذلك يكرس انفراد مجموعة بعينها تنتمى إلى أصول حزبية مخالفة بالمراكز القيادية، وبتقرير السياسات، هل تعتقد أن هذا يزيد صعوبة (تجمع) قوى اليسار، أو تخليق صيغة جديدة توائم ما بين الجماهير والبرنامج أو الفكر؟**

** أنا لست بمنظر (بضم الميم)!

ولكن فى تقديرى، أو طبقا لإحساسى، وقربى من الشارع ـ بحكم نشأتى وحركتى ـ أعتقد أن هناك ضرورة لوجود صيغة حزبية تكون أكثر قدرة على استيعاب الجماهير فى مصر.

صيغة يسارية جديدة تتجاوز وضع الازدواجية فى عمل حزب التجمع السياسى، والذى يتمثل فى صيغة نظرية ممتازة، وأداء عملى فاسد!!!

*** نقطة هامة فى الأداء العملى لهذا الحزب أود مناقشتها معك...**

فهل تعتقد أنه من الحصافة السياسية أن يمتنع التجمع عن الدخول إلى ساحة معاركه الحقيقيه، ويتذرع بأن هذا سيكون استنزافا لقدراته التى يدخرها ويوفرها لمعركته مع السلطة.

** مثل ماذا؟

*** يعنى مثلا كنت أتصور أن معركة فكرية وسياسية يجب أن تنشب بينه وبين الوفد، حول الموقف من ثورة ٢٣ يوليو، ثم إننى كنت أتصور أن معركة حقيقية يمكن أن تنشب بينه وبين الاتجاهات السلفية المتطرفة التى تتناقض فى دعواها السياسية والاجتماعية والفكرية تناقضا جذريا مع أفكار التجمع. ولم يحدث.**

** هذه انتهازية سياسية!!!

فى فترة من الفترات كان التجمع يغازل الجماعات الدينية المتطرفة، وهو يعلم جيداً أنه إذا تمكن هؤلاء فأول من سيتعرض للذبح هم أعضاء التجمع.

مثل هذه المواقف الغريبة هى التى جعلت فكرة الاستقالة من التجمع تراودنى، ولم يكن يمنعنى من الاستقالة إلا مسألة تتعلق بالشرف الشخصى. فلم أكن أريد الاستقالة فى فترة السادات التى كان التجمع محاصراً فيها، وهذا الكلام الذى أقوله فى هذا الحوار لم يكن ممكناً أن أتفوه بحرف منه ضد التجمع لو كان مازال محاصراً أيضاً مسألة الاتجاهات المعادية لثورة يوليو عند الوفد أتفق معك تماما فى ضرورة اتخاذ موقف حاسم بالاشتباك معها.

*** ولكن كيف يمكن فى اعتقادك أن يتخذ التجمع مثل هذا الموقف،**

وهو الذى تقترب فصائله من الوفد فى مناسبات سياسية عديدة حين تجرى «الأهالى» أحاديثها المطولة مع سراج الدين، وتتشابك يد زعيم التجمع مع زعيم الوفد، وحين يحكى شيوخ التجمع - أيضاً - فى حنان عن تنظيماتهم القديمة وقدرتها على الحركة قبل الثورة فى ظل الحكومات الوفدية.

** خالد محيى الدين كشخص هو أصلح قيادة ممكنة لليسار، وهو وجه له تاريخه وثقله، وقد تجاوز فى سلوكه الشخصى حساسيات كثيرة جداً مرتبطة بالفكرة العامة عن اليسار، لكن المشكلة أن الحزب ليس شخصا.

والتجمع بالذات هو (لافتات علنية) و (لافتات تحتية) وتجمعات وشلل، وهذا لا يمكن أن يؤدى إلى حزب، وإذا أدى فسيؤدى إلى كيان هلامى ليس له اتصال بأعضائه حتى، وأنا مثلا، وأعرف عشرات غيرى من أعضاء الحزب لم يتصل بنا أحد من (شلة) الحزب منذ عشر سنوات!!!

أما مسألة أن خالد شبك يده فى يد زعيم الوفد فى مؤتمر الزقازيق، فكل شئ ممكن!

ولكن أنا لا أتصور أن يكون العنصر الرئيسى فى برنامج حزب التجمع الدفاع عن ثورة يوليو، والمكتسبات التى حققها الشعب المصرى من ثورة يوليو، ثم يضع هذا الحزب (ممثلا فى زعيمه) يده فى أيدى قوى أخرى تريد تصفية كل هذه المنجزات، أو تعبر تعبيراً دقيقاً جداً عن الانفتاحيين الذين بدأنا الحوار بالحديث عنهم!

*** أستاذ جمال، كى لا يكون حوارنا كله عن التجمع والأزمات التى تحيط به أو تعتمل داخله، أرى أن ننتقل إلى الطرف النقيض الآخر على ساحة المعارضة المصرية، وهو هذه القوى السلفية، التى قلت إنها**

أصبحت الآن تعمل بتكنيك اليسار، وتستطيع تجميع الجماهير حول أمور حياتية تهمها إلى حد كبير، وبالتالى ربطها بسياساتها، وربطها بحركتها.

فى تصورك ما هو الدور الذى لعبته هذه القوى فى تشكيل المجتمع السياسى فى مصر فى الفترة الحالية وما هو الدور الذى لعبته فى التأثير على العقل والثقافة فى مصر؟

** هذا سؤال مهم جدا...

المعارضة السلفية الدينية تكاد تكون المعارضة الحقيقية فى المجتمع المصرى، لأننى أزعم أو أكاد أقول إنها المعارضة الوحيدة المنظمة والتى توجد فى أشكال كثيرة جداً فى المجتمع تساعدها على العمل.

أشكال كثيرة تبدأ من الشارع والسوق وتنتهى بالمسجد والعيادة والمدرسة.

هذا ـ طبعا ـ بالإضافة إلى استغلال الأزمات الاقتصادية التى يعيشها المجتمع المصرى، والتى تكلمنا عن بعض جوانبها التى تمس الشباب.. وخاصة الإحساس بأن طريق المستقبل مسدود، أو الإحساس بفقدان الأمل، أو الاحساس بانعدام تكافؤ الفرص مع أبناء أمراء ولصوص الانفتاح.

كل هذا يخلق أرضا خصبة لهذا الجماعات!

أما الشيء الآخر فهو أننى أعتقد أن هذه الجماعات لا تعمل بمعزل عن قوى خارج مصر تخطط لها، وأنا ـ مثلا ـ استغرب جدا لأن كل الذين كتبوا عن تجربة شركات توظيف الأموال، برغم أنها شركات لا تمت للإسلام بصلة وتستخدم الإسلام كلافتة، فإنهم لم يتعرضوا لها بالنقد لأنها تدخل فى اطار مخطط مرسوم من الخارج لمصر بالتحديد، وأطرافه تنتهى فى إيران، وجنيف وبعض البلاد العربية.

تتميم عن التطرف:

«واعتقد أن هذه الجماعات المتطرفة

لا تعمل بمعتزل عن قوى خارج مصر»

** أقول مخطط وأنا وأنتم نعرف تأثير (اللعب) فى منطقة الاقتصاد.

فهل نسينا دور (لوبى البازار) أو التجار فى إيران، البازار فى إيران هو الذى أسقط الشاه، البازار فى إيران يعمل منذ سنوات طويلة جداً للسيطرة على الاقتصاد الإيرانى.

وبحكم الظروف الخاصة للمجتمع فى إيران فإن العلاقة العضوية ما بين المؤسسة الشيعية الدينية، وما بين السوق أو ما اصطلح على تسميته باسم البازار هى التى سيطرت على هذا السوق وأسقطت الشاه.. أما عن نشاط القوى المتطرفة الاقتصادية فى مصر فهذا ما خطط له (إذا صحت المعلومات التى سمعتها) فى مؤتمر فى جنيف عقد برئاسة الرئيس الجزائرى السابق أحمد بن بيلا، وفى هذا المؤتمر درست حالة كل بلد على حدة، وبالتحديد مصر.

القوى المتطرفة يهمها جدا أن تستولى على مصر، لأن مصر شاؤوا أو لم يشأوا ـ هى رأس الأمة العربية، والاستيلاء عليها يسهل التغيير فى أطراف كثيرة جدا، ويقال ـ وفقا لهذا المخطط ـ إن أحوال مصر الاقتصادية تمت دراستها ـ ومن هذه الدراسة ولدت شركات توظيف الأموال، وهى شركات يبدو بعضها محترما، ولكن الجميع يجعلون من مدخرات المصريين الذين يعملون فى الخارج هدفا لهم، فهو مورد العملة الرئيسى الذى لا يذهب إلى خزينة الدولة مباشرة مثل دخل قناة السويس أو البترول.

وبالتالى جعلت هذه القوى وشركاتها هدفها هو الاستيلاء على أموال المصريين العاملين بالخارج، وتصديرها مرة أخرى إلى أوروبا وأمريكا للمضاربة

عليها فى البنوك الخاصة التى يسيطر عليها اليهود والصهاينة.. ولا تستغربوا حكاية اليهود والصهاينة..

فهل نحن من السذاجة بحيث أن نتصور أن إحدى الشركات المتخصصة فى المضاربة على الذهب والفضة فى نيويورك تعمل بمعزل عن الصهيونية العالمية؟!

نشاط القوى المتطرفة الاقتصادى عبر الشركات تنطبق عليه كل شروط العمل السرى الاقتصادى، وهذا جديد فى الواقع الاقتصادى المصرى

والسؤال هو كيف سمح لهذه الشركات أن تقوم أولا؟

وكيف سمح لها أن تمارس نشاطها لمدة عشر سنوات؟ وكيف تحولت إلى قوة يدلى أصحابها بالتصريحات؟ بل وصل الأمر بأحدهم فى جريدة (الشعب) منذ أسابيع أن يدلى بحديث ثلاثة أرباعه على رئيس الجمهورية.. هكذا.. رأسا برأس!!!

كانوا يشعرون بالقوة، وبدأوا يشعرون بأنهم يمكن أن يفرضوا شروطهم.

أخطر من ذلك فقد بدأ نشاط بعض هذه الشركات يوجد ما يشبه البديل للنظام القائم، مثلا تعلن إحدى الشركات عن برنامج لمحو أمية مائة ألف مواطن، ولك أن تتخيل اليوم الذى سيتخرج فيه المائة ألف مواطن، وقد محيت أميتهم بواسطة شركات لتوظيف الأموال، وأى نوع من التوجيه أو الولاء سينشأ بينهم وبين هذه الشركة، أو بين هذه الشركة وبينهم!!!

وإحدى هذه الشركات أعلنت عن برنامج للتأمين الصحى، اشترت مستشفى، وأعلنت أنها بثلاثمائة جنيه فقط تؤمن لك وأسرتك علاج على أرقى مستوى، وداخل هذا الإعلان بند خطير جداً يقول إنه سوف يتم صرف تعويض مناسب لكل من يصاب فى عمليات التدريب العسكرى، إذن هذه محاولة للاقتراب من المؤسسة العزيزة الوطنية التى لا تسمح لأى مصرى بالاقتراب منها أو المساس بها وهى القوات المسلحة.

كل هذا يؤدى إلى إيجاد نظام بديل.

بديل للبنوك التى تعطى فائدة أقل من أرباحهم، وبديل للتأمين الصحى وبديل لتجارة اللحوم، وهكذا الهدف النهائى هو تخريب الاقتصاد المصرى القائم وإحلال نظام اقتصادى بديل لا يعلم إلا الله - إلى أين يصب فى النهاية وإن كنت لا أستبعد أن هذه الأطراف كلها تصب فى النهاية فى أيدى مخططين صهاينة.

وكلنا نعلم - مثلا أن إسرائيل تشجع الاتجاهات الدينية المتطرفة داخل الأراضى المحتلة لأنها فى النهاية تلتقى مع هدفها وهو:

إيجاد دول على أساس دينى وطائفى تبرر الوجود الإسرائيلى على أساس دينى وطائفى.

ومنذ عدة سنوات وزع فى القاهرة تقرير للجنرال الاسرائيلى شاحال، وكان مترجما ويوزع كملحق لمجلة الثقافة العالمية الكويتية، وفيه يقول إن هناك مخططا لتقسيم المنطقة، أو تفتيتها كما أراد كيسنجر، وقد يعمل البعض فى هذا المخطط بوعى أو بدون وعى لكنه سيؤدى فى النهاية إلى أن تصبح اسرائيل القوة العظمى فى المنطقة، فعندما تقوم دولة على أساس شيعى وأخرى على أساس مارونى، وثالثة على أساس سنى يصبح وجود دولة يهودية له مبرره وأنا أعتقد أن مصر هى الهدف الرئيسى فى هذا المخطط.

هناك اعتبار آخر يجب ألا نتجاهله ويجب أن نتكلم فيه بدون حساسية، وهو أن هناك قوى معينة فى العالم العربى نزل عليها ثراء نفطى، وتطمح إلى أن ترث الدور الحضارى لمصر وطبعاً لا أريد أن أضع قوسين وأقول إن هذا الدور لا يورث لأنه حصيلة تراكمات آلاف السنين.

ولو تساءلنا من أين اكتسبت مصر دورها الحضارى القومى سنجد أنها:

لم تكتسبه من النفط، وإنما من الثقافة، فحتى العوامل الاقتصادية الداخلية لمصر على مر التاريخ كانت ترافقها دائما عوامل حضارية..

ففى العهد الفرعونى كانت الثقافة هى الأساس فصحيح أن الجيوش القوية كانت تتحرك، ولكن وراءها خلفية حضارية قوية جداً، وكذلك فى العصر المملوكى الأول كانت مصر امبراطورية عمادها الأول هو الفن والثقافة والجوامع وفنون الخط والنقش.

وفى العصر الحديث لم يظهر عندنا نفط وفير كغيرنا من البلدان، ولكن عندنا عقل.. إذن فإن الطامحين لوراثة دور مصر يستهدفون هذا العقل المصرى الذى لا يكون ضربه إلا بتصدير بعض المبادئ المختلفة التى تحكم مجتمعات الثراء المفاجئ والتى وجدت مروجين عديدين لها هذه الأيام، منهم مصريون ذهبوا إلى هذه البلاد وتأثروا بقيمها أو بعض المرتبطين بمصالح مع هذه الأنظمة النفطية، والذين يروج لهم تليفزيون الدولة فى مصر أوسع نطاق ممكن.

يعنى مثلا هناك اليوم دعوة خطيرة لتحريم الفنون فى مصر، تجد من يروجها ويدافع عنها فى التليفزيون، وقد كانت هذه الدعوة تقال فى بعض الصحف محدودة الانتشار أو فى مجتمعات الجماعات المتطرفة، ولكن حينما يردد هذا بعض من يظهرون على شاشة التليفزيون فإن ذلك يعنى أن العقل المصرى والثقافة المصرية مستهدفان بكافة أشكالهما، تفريغ العقل المصرى من الثقافة والإبداع والفن والحضارة أصبح هدفا، وهو هدف يعنى سهولة تطويع هذا العقل وتخريبه بحيث يسهل أن تفرض عليه قيما أشد تخلفا تؤدى إلى إعاقة نمو المجتمع المصرى..

*** هل وجدت فى فصائل المعارضة المصرية من يعى هذا الخطر؟**

** إلى حد بسيط جداً، مثل بعض فصائل اليسار، ولكن فى الإجمال فإن كل الأطراف المعارضة تنافق هذه الاتجاهات إن تصريحا، أو تلميحاً وحتى

وسط صفوف اليسار نجد من ينافق ويسعى للتحالف مع هذه الجماعات وبالطبع فإنك عندما تسعى للتحالف معها فأنت توافق على بعض منطلقاتها الفكرية مثل تحالف حزب العمل والسلفيين.

الآن أصبح حزب العمل سلفياً.. طيب!!

وأنا موافق أن أكون سلفياً بشرط تمتعى بالحرية التى كان يتمتع بها الجاحظ وأبو حيان التوحيدى وكل المفكرين والمبدعين المسلمين العظام الذين عاشوا فى القرن الأول والثانى والثالث والرابع للهجرة.

مستعد لأن ارجع إلي هذه القرون بشرط أن أتمتع بالحرية التى مكنت الجاحظ أن يكتب رسالة مقارنة بين القيان والجوارى !! فهل يستطيعون أن يمنحونا هذه الحرية؟؟

تجلى الحرية:

***ولم أشعر بالتوائم بين الحكم والمحكوم**

كما شعرت به فى السنوات التى تلت موت السادات،

*** مادمت قد ذكرت الحرية فأنا أرى أن حجم الحرية التى يعيش فيها المجتمع المصرى منذ بدايات عصر الرئيس مبارك حتى الآن هو حجم غير مسبوق، ولكن المسألة تتوقف فى النهاية على مدى قدرة كل تيار سياسى على توظيف هذه الحرية لخدمة أهداف وطنية بعينها لصالح الاقتصاد الوطنى أو لصالح العقل المصرى أو لصالح التكوين الصحيح للشخصية المصرية فهل نجحت قوة سياسية مصرية فى استغلال مناخ الحرية فى هذا الاتجاه؟**

** هذا ليس المهم ولكن المهم والخطر أن هناك من استغل مناخ الحرية والأزمات الموجودة فى تحقيق مكاسب سياسية رخيصة..

وأخطر هذه الأمور هى مسألة إحساس الشباب باليأس فهذا الإحساس هو أخطر ما يواجهه المجتمع المصرى اليوم.

في مسألة البطالة أتساءل كم دفعة تخرجت من الجامعات حتى الآن، ولم تعمل.

أليست هذه خامة طبيعية لكل الاتجاهات المتطرفة والمتربصة؟

نحن نقدم لهم بهذا الشكل جيشا للتدريب ولا يؤلمنى شئ قدر أننى كنت أرى فى بعض البلاد العربية خريجين من تخصصات محترمة جداً ككلية الزراعة مثلاً، ومع ذلك يشتغل أيهم جرسونا فى قهوة.

كم صرفت الدولة فى مصر على هذا الشاب حتى يتخرج فى النهاية ويبيع الشاى فى هذا البلد العربى أو ذاك؟؟

هذه هى أخطر أزمات المجتمع المصرى الآن.

وبصراحة أشعر أن ما يضاعف منها هو عدم وجود إحساس بجدية المعالجة من جانب الحكومة، بل بالعكس أتصور أن بعض التصريحات تزيد من حالة اليأس، وعندها يبدأ الشباب بالبحث عن أى حل وهذه هى نقطة أخطر حين يواجه المجتمع المصرى هذا الجيش العرمرم الذى يدفع به كل سنة إلى الطرقات بدون أن يستخدمه استخدامات حقيقية.

وفيما يتعلق بسياسة التعليم، يتردد بين الحين والحين كلام عن تحجيم عدد الداخلين إلى الجامعة.

وفيما أعتقد أن هذا ليس الطريق الصحيح لمعالجة المشكلة لأنه سوف يكون عندك فى منتصف الطريق جيش آخر لم يتم تعليمه، وليس له تخصص ولكن المهم أن تحدد مشاريعك ويتعلم الناس على أساس ما يستفيدون منه فعلا فى عملهم بهذه المشاريع.

وهنا نعود إلى الانفتاح مرة أخرى..

المشاريع الاقتصادية الكبرى التى تمت فى الستينيات كانت تقتضى نوعيات من الخبرة تخرجها المدارس الثانوية الصناعية، وكليات الهندسة

والزراعة، وكانت هذه المشاريع تمتص كل الخريجين لأنها مشاريع ضخمة وكبيرة، أما مشاريع الانفتاح كلها فلا أرى فيها مشروعا واحدا جادا.

كلها أشياء تستهدف الربح السريع، ولذلك فإن أغرب عبارة اسمعها هي: (نخشى أن يهرب المستثمرون).

أين هم هؤلاء المستثمرون؟ أهم من يستثمرون فى المياه الغازية واللبن الزبادى؟!

الصناعة الحقيقية هى شغل ثقيل، وليس افتتاح لمحل جزار أو إنتاج مائة نوع من المياه الغازية فى مجتمع يعانى من الحصول على المواد الأساسية الضرورية.

فى الستينيات كنت تتحرك بهيكل تعليمى يخدم خطة تنمية، وفى الواقع فإن هذه الخطة لم تعد قائمة، وبالتالى يتولد عندنا هذا الجيش من العاطلين الذى يمثل أكبر لغم على سطح الحياة المصرية برغم الحرية التى يتسم بها عهد مبارك.

كنت دائما أرى أننى لم أشهد تواطؤ بين الحاكم والمحكوم كما شعرت به فى السنوات التى أعقبت اغتيال السادات كان عندى إحساس بالفرح الصوفى بهذا المقاتل طاهر اليد ذو القدرة الكبيرة جداً على الصبر على ما يسميه البعض بتجاوزات التجربة الديمقراطية.

ولكن لا يكفى أن يكون رأس الدولة نظيفاً، ويوجد بعض العطب فى الجسم فلابد إذن من مواجهة هذا العطب الذى تمثل أزمة البطالة عنصراً هاماً فيه ولعلها من أخطر ما نواجه.

تجلى الهوامش:

وتذكرت بعض ما نسيت!

*** أستاذ جمال.. فى مساحة حرة ضع هوامشك على هذا الحوار؟**

** حسنا هذه هوامشي:

الهامش الأول:

انتقل نظام الانفتاح من التخريب الفردى إلى نوع من التخريب القومى، اللامبالاة امتدت إلى أخطر وأعز ما نملك، وعندما أعود بالطائرة ليلا من الخارج ألاحظ شيئاً غريباً جداً، وهو أن المدن تقترب من بعضها وتلتحم فى كثير من النقاط، وهذا يعنى أن مساحات المبانى تزيد على الأرض الخضراء.

مثلا طريق مصر / اسكندرية لم يعد«اوتو رود» بين مدينة وأخرى، ولم يصبح طريقا سريعا، ولكنه أصبح كشارع قصر النيل من كثرة البشر، إذن هناك توسع عمرانى على حساب الأرض الزراعية وأنا لا أفهم كيف نصرف الآلاف على استصلاح فدان صحراء فى الوقت الذى نملك فيه فدانا آخر من آلاف السنين وقد يكون من تربة لن تعوض ومع ذلك يجرف ليتحول إلى أرض مبانٍ..

هذا أيضا نتيجة هؤلاء الذين يعودون من البلاد العربية ليبنى كل منهم ـ ولو صرف دم قلبه على الأسمنت ـ لأن الأرض الطينية الرخوة تحتاج إلى أسمنت كثير.

شكل القرية المصرية تغير فالمبنى الذى كان يحتوى البشر ويلمهم أصبح طوب أحمر وخرسانة.

لا بد من تشريع يحدد عقوبة هذه الجريمة ولو بالإعدام، فقد رأينا من قبل حملات رهيبة وقوانين ضد التجريف، ومع ذلك فعينى عينك. ـ القمائن صاعدة تشق عنان السماء.

الهامش الثانى:

الهامش الثانى هو قضية العمالة المهاجرة للخارج، والتى بدأ جزء كبير منها يعود وقد اكتسبت هذه العمالة سلوكيات من المهجر سيكون لها تأثير خطير على سلم القيم فى المجتمع المصرى.

ظاهرة الأب الغائب سواء فى الداخل أو الخارج هى إحدى الظواهر المصاحبة لهذه القضية.

فالأب الغائب فى الخارج هو ممول للأسرة فحسب بينما تأثيره على الأبناء يكاد يكون منعدما، وهناك دراسة هامة للدكتور محمود عبد الفضيل فى هذا السياق.

أما الأب الغائب فى الداخل الذى يشتغل فى عمله صباحا، وبعد الظهر ولا يجد وقتا ليجلس مع أولاده، ونتيجة هذا فإن قرى كاملة فى الصعيد تديرها المرأة وبالطبع هناك قنوات إعلامية ترصد هجرة المجتمع المصرى أخص منها بالذكر بريد الأستاذ عبد الوهاب مطاوع فى الأهرام ونقرأ فيه عجبا عما يحدث فى مصر وهو أدق المراصد لفكر ونبض الشعب المصرى.

الهامش الثالث:

تغير الذوق العام مسألة تتعلق بكل ما حدث فى الانفتاح مثل الألومنيوم الذى يبنى به البعض كيف فى بلد درجة الحرارة فيه تصل إلى ٥٠ درجة، أين الشيش الخشبى القديم؟ لقد كنت فى روما مؤخراً وجدت كل منشآت الحكم، وكأنها فى الجمالية فرئاسة الوزارة والبرلمان والوزارات والأحزاب السياسية والصحف المهمة تقبع فى روما القديمة وروما القديمة هى ذات شوارع أقل جمالا من شوارع الجمالية والدرب الأحمر والقلعة وباب الوزير، ولكن المشكلة أنه ليس لدينا الوعى بقيمة تاريخنا الذى نهدره.

نشأت لدينا فئة انفتاحية لا تعى التاريخ وليست لها ذاكرة حضارية فذاكرتها فى فلوسها أو فى حقيبة أموالها أو فى مخرج المملوك، انتماؤهم لهذا المخرج الذى يهربون به ليشتروا بيوتا فى بالمادياپورك حيث ١٥ ألف مصرى يمتلكون فيلات هناك.. من أين؟

التاريخ لا يعنى شيئاً عند هؤلاء والوطن لا يعنى شيئاً عندهم أيضا! فى الدنيا كلها إذا كان هناك مبنى قديم فيه حجر سقط تتسابق جهات كثيرة لترميمه وإذا تقرر بناء مبنى جديد ليحل محل مبنى قديم فإنهم يحتفظون بالواجهة القديمة.

وأنا بالطبع أحيى جهود اللواء يوسف صبرى أبو طالب محافظ القاهرة الذى ينجز معجزات فى هذا الاطار، ولكن المسألة تحتاج إلى تضافر كل الأجهزة وتحتاج، وهذا هو الأهم الوعى بالتاريخ القومى، أحياؤه والمحافظة عليه بعد أن كان الانفتاحيون يدمرونه!

الهامش الرابع:

يقولون إنهم يريدون تحويل سيناء إلى منطقة مفتوحة وهذه جريمة، لا بد من زيادة الكثافة البشرية، ولا بد من تغير الطبيعة السكانية فيها لا بد أن تزرع لا بد أن ترتبط الأجيال الجديدة بالأرض.

كتب الأستاذ أحمد بهاء الدين هذا الكلام عام ١٩٦٨ ولم يسمعه أحد، وكتب مفكرون كثيرون هذا الكلام بعد الانسحاب الاسرائيلى عام ١٩٨٢ ولكننا فيما يبدو نسيناه الآن.

التعمير فى الجزء الشمالى من سيناء يتم بشكل تلقائى، وهذا جيد ولكن الجزء الجنوبى هو الذى مازال فى حاجة إلى حشد وإلى تكثيف بشرط ألا يتحول إلى منتجع!!

لا يجب أن يمتلىء هذا الجزء بالقرى السياحية التى يذهب المصرى إليها ليقيم ثلاث أو أربع ليال، نحن نريد قرى إنتاجية يقيم فيها المصريون إقامة دائمة.

أما عندما يقول البعض منطقة حرة ويأتون لنا بالشركات المتعددة الجنسية

فمعنى هذا أننا نقيم عازلا بيننا وبين سيناء، وبالتالى نسلمها لإسرائيل، وهذا العازل شبيه بما حدث من ثورة يوليو بعد ١٩٥٢ عندما كان المسافر إلى سيناء يمر على جمرك فى القنطرة شرق وكأنه يدخل إلى أرض أجنبية.

لابد من تغيير الطبيعة السكانية فى سيناء بضخ أعداد كبيرة من الوادى إلى سيناء ولابد من تعميق شعور الانتماء عند بدو سيناء، ولابد أن تنزل مصر بثقلها فى عملية تعمير سيناء تحسبا للمستقبل.

الهامش الخامس:

هناك هامش يرتبط بمسألة الثقافة ولابد من مواجهته، وهو العلاقة مع قوى معينة فى العالم العربى ومسألة محاولة تأثيرها على مصر.

فهناك هوس ظهر أثناء فترة الانفتاح وفترة القطيعة مع العرب اسمه (وراثة الدور الثقافى المصرى) فقد وجدت مع أصدقاء وزملاء كثيرين أنه مطلوب منك أن تقول أنا قومى.. أنا عربى بشرط أن تتخلى عن إحساسك بمصريتك، وأى كلام عن مصر الفرعونية تثور أمامه الحساسيات وتجد من يقول (القطرية) و(الانعزالية).

بينما فيروز تغنى ليلاً ونهاراً لبلد صغير اسمه لبنان، وتتغنى بعظمة لبنان وقوة لبنان ومجد لبنان، ومع ذلك لا تثور هذه الحساسيات العربية عن (القطرية والانعزالية).

نحن محتاجون إلى تعميق الإحساس بالمصرية وتعميق الدور الثقافى المصرى وأعتقد أن هذا بدأ على المستوى الرسمى ولكن بصعوبة لأن هذا الدور الثقافى المصرى ضعف فى السبعينيات نتيجة سيطرة اللاموهوبين على مراكز التأثير فى الحياة الثقافية المصرية وبالتالى طمع بعض الاشقاء العرب الذين يتصورون أن الدور الثقافى يورث.

القرار الوحيد الذى أجمع عليه العرب ليس قطع العلاقات الدبلوماسية مع مصر، ولكنه مقاطعة نجيب محفوظ!

المقصود بهذا هو ضرب رموز الثقافة المصرية لأننى أتساءل ما هى علاقة منع الثلاثية من دخول هذا القطر أو ذاك بكامب دافيد؟

فلنفترض أن نجيب محفوظ له رأى فيما يتعلق بالصلح مع اسرائيل فلنناقشه، أما مقاطعة أعمال كتبها الرجل عام ١٩٣٦.. أى قبل قيام اسرائيل فلا يمكن تفسيره إلا بأنه محاولة لضرب رموز الثقافة المصرية.

وأنا أنبه أن هناك خطرا يأتى ـ أحيانا ـ من الأشقاء يكون أكثر سما من الخطر الذى يأتى من الأعداء.

الهامش الأخير:

فى عهد مبارك أصبحت أشعر أن رئيس الدولة لا ينافسنى وأهم شىء أنه محارب ومقاتل عظيم ولا يقول إنه كاتب ولا ينافسنا!

الدولة كجهاز حكم لم تصبح طرفا فى الحياة الثقافية ينحاز ضد هذه القوة أو تلك وهناك فعلا مناخ مهيأ للعمل الثقافى الجاد.

ولكننا نعانى من أمراض أخرى منها فساد الواقع الأدبى وسوء العلاقة بين المثقفين، ولو تحدثت لك عن تفاصيل ما أقابله فى الواقع الأدبى، وما أعانيه على المستوى الشخصى ستجد أشياء من المستحسن ألا أذكرها وخاصة فى موقعى كمشرف على صفحة الأدب فى جريدة كبرى.

ولكننى أتمسك بالأمل فأرى أن جوهر الثقافة المصرية ـ فى حقيقته ـ مازال سليما ويبشر بإمكانيات فى المستقبل كبيرة جداً، وأخطر ما يواجهه فاروق حسنى الآن فى تصورى هو توفير مصادر الثقافة، ولكن هذا ما لم يتضح حتى الآن فى السياسة الثقافية الجديدة لوزير الثقافة.

أعنى بمصادر الثقافة الآتى: فقد كنت فى الستينيات أقتنى أمهات التراث العربى بملاليم فكتاب (الأغانى) من ١٤ جزءا اشتريته بـ ٢٨٠ قرشا، وكتاب النجوم الزاهرة فى عيون مصر والقاهرة من ١٢ جزءا اشتريته بـ ٢٤٠ قرشا.

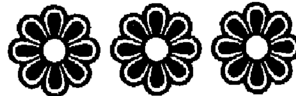
أما الآن فقد أصبح الكتاب مثل قطعة الأثاث أو الموبيليا عند الطبقة الجديدة فكتاب الأغانى يباع الآن بمائة وخمسون جنيها فى طبعة شعبية ويشتريه من لا يقرأ، وقد رأيت عند عم مدبولى الناشر من يشترى كتابا بنفسجيا يتمشى مع لون الموكيت فى منزله.

وحكى لى الصديق محمد المعلم صاحب دار الشروق أنه فى مكتبته بلندن كان بعض الناس يتصلون به ويقولون نريد كتاب طوله ٦٠سم لأن هذا هو طول الرف.

إذن كيف نوصل الكتاب لمن يجب أن يقرأ، والذى يتكون منه ويخرج الأديب الجديد الذى لابد أن يقرأ تراثه العربى والأدب العالمى.

هذا ما أقصده بمصادر الثقافة ولكن واضح من الخطة التى أتابعها حتى الآن أن وصول هذه المصادر إلى مستحقيها غير مطروح.

أكتوبر ١٩٨٨



عبد الرحمن الأبنودى

شهادات قرية مصرية !
عاشت الاشتراكية وعاشت الانفتاح

* من العسير جداً أن يقوم إنسان بدراسة اقتصادية حقيقية للقرية المصرية إلا إذا كان واحداً من دور أرضها!!

* لم تعرف قريتى معنى الإقطاع، ولكنها عرفت - ما اسمه الزراعات، «الدقيقة» !!

* شهدت القرى فى الزمن الناصرى إنجازات اجتماعية وحضارية كبرى فيما كان أبناؤها من المثقفين يعانون الاضطهاد الفكرى بأقصى الوسائل!!

* لم تختل الرابطة بين الشعب وعبد الناصر حتى نكسة ١٩٦٧ ، ومع ذلك فقد قيد عبد الناصر هذا الشعب ولم يتركه يتحرك فى الفعل الثورى أو الأداء الثورى، ليصبح هو الثائر الوحيد.. والمقاتل الوحيد والمنتصر الوحيد!

*كان عبد الناصر يرفض فكرة حمل الناس للسلاح، واشتراكهم فى تحرير الوطن، لأنه يعلم أننا بعد التحرير لن نلقى بالسلاح، وإنما

سوف نجلس إلى القيادة السياسية لتقسيم المستقبل أو لتقسيم مسئوليات المستقبل!! .

* تخلت قريتى عن تحفظها التاريخى تجاه الأفنديات بعدما قامت ثورة يوليو!

* بمجرد أن ضغط السادات على الأزرار ألغيت مرحلة كاملة لأن الشعب لم يكن ممثلا فيها ليحميها.

* كانت الناصرية فى النهاية تبحث عن الولاء، ولم تكن تبحث عن القيادات الحقيقية التى تفرزها الجماهير!

* الظاهرة الناصرية نبيلة جدا فى منطلقاتها، ولكنها أدت إلى كوارث حقيقية فى تطبيقاتها بحكم الوسطاء!

* كانت قريتى تبنى بيتها وتصنع رغيفها بنفسها وتغنى فى أفراحها لنفسها، وتعطى المدينة أفضل ما عندها وأفضل ما فى المدينة إلى أن بدأت الهجرة إلى الخارج!

* توسعت الثورة فى مشروعات التصنيع فاختصرت رحلة الهجرة لفلاح الصعيد!

* ساد لون من السعار لهدم كل القيم الأصيلة - إراديا - فى المجتمع كى تصبح الأمور منطقية ويتفق الشكل مع المضمون فى مجتمع الانفتاح!

* الكهرباء فى مصر ناصرية.. تخدم أهدافا ناصرية.. وهذه الأهداف الناصرية لم يكن فيها تشويه للإنسان كما يدعى البعض هذه الأيام!

* كف الحوار بين الناس فى القرية لأنهم لا يحتاجون إليه، وانتهت الصلة العقلية بين الخلق الذين يسكنون مكانا واحدا!!

* لم تقلم نخلة واحدة فى بلدى منذ ١٢ عاما!!

* القرية - الآن - لا تريد أن تنزل بأثمان الأراضى الزراعية إلى الثمن الحقيقى الذى تستطيع من خلاله أن تتبادل المنفعة!

* العناصر التى لا تشرب الحشيش الآن فى القرية أصبحت عناصراً مستثناه ومعقدة، بعدما أمضت هذه القرية عشرات السنين لا تعرف حالة واحدة من هذا النوع!

* جماعية القيادة فكرة ربما لا يعرفها المصريون.. فإما أن يحكمهم حاكم واحد، وإما يتحولوا إلى ٥٥ مليون حاكم!!

* كل ما يتعلق بالنيل هو صناعة مصرية!

* احترام الرأى الآخر هو درجة من درجات النضج، أما الذهاب إلى الرأى الآخر، والسعى وراءه فهو مرحلة أبعد تتطلب نوعا من النبوة يندر أن يتحقق!!

* نموذج المثقف المصرى الهارب إلى أنظمة أخرى يفتقد المصداقية والطهر ويتحول أفراده إلى خريجى كتاتيب بلداء ولفظيين بعدما يفقدون توهجهم الفنى ولغتهم القديمة المشعة!

* مصر موضوع يومى إذا انقطعت صلتك به بالنظر والمعاينة والمعاناة والفرح يخرج من الضمير إلى الذاكرة!

* لا يحاول أحد المثقفين الهاربين ثم العائدين أن يقنعنى بأن خبز هذا النظام العربى، أو ذاك يمكن أن يطلب قامة مجاهد مصرى فى مواجهة سلطته!

* الأحزاب الثورية المنوط بها هدايتنا وهداية الأمة إلى استعياب فكرة الإيمان بالجماعة لا تقل عن السلطة التى تهاجمها نفوراً أو كراهية للديمقراطية!!

* اختفت الجماهير من حزب التجمع ولم تبق إلا القيادات السياسية!

إذا كانت قيادة حزب التجمع غير مهيأة - أصلا - لأن تلعب دوراً ثورياً، فإن هذا الحزب يصبح حزباً أدبيا أو تشكيلا أدبياً يسارياً!

* التجمع لم يخسر - فقط - جمهوره أو ناسه أو القوى التى كانت متوجهة إليه وراغبة فى أن يقودها.. ولكنه خسر حتى اللعبة اليومية فى السياسية المحترفة التى تمارسها الأحزاب!

* لا يمكن أن تضر جريدة الأهالى وتنهار على هذا النحو إلا إذا كان هناك صراع داخلى وتطلعات انتهازية واضحة داخل الحزب لتحويل الجريدة أيضا إلى جريدة قطاع خاص مثلما تحول الحزب من قبل!!

* أحزابنا قائمة على ارتباط وهمى أو أدبى رومانسى بالجماهير.

* الحزب الثورى الذى يتصارع من الداخل حتى تهرب منه جماهيره الواسعة يعكس فراغا رهيبا فى الانتماء لهذه الجماهير وعيشية فى العلاقة بالشعب وثورته، ويعكس مأساة الانفراد بالقيادة والسيادة غير عابئ بأصوات المحتجين!!

* نشاط حزب التجمع فى كثير من المواقع فى مصر لم يتجاوز الأمسيات الشعرية والغناء الثورى!!

* الصراع حول الجريدة! استنفذ طاقة (التجمع) ولم يحسم الأمر إلا منذ شهور وربما حسم لصالح قوى داخل التجمع ولكنه لم يحسم لصالح جريدة الأهالى!!

* لماذا يخرج المصريون فجأة - ولماذا لا يخرجون متى نتوقع خروجهم - هذه الظاهرة تشبه الظواهر الميتافيزيقية.. وينظر لها المثقف يعجز ويتجاهلها مع أنها مقتل للعمل السياسى فى مصر!!

* الحزب لا يعاملنا كتجمعيين أصلاء، ولكن كتجمعيين مرحليين يتحالف معهم أحياناً ويعاقبهم أحيانا ويضع العراقيل فى طريقهم أحيانا مما يدل على أن فكرة (التجمع) هذه لم تكن إلا فى رؤوسنا نحن أما هم فكان فى رؤوسهم شىء آخر!

* الفلاح المصرى هو حسبة قبلية واجتماعية واقتصادية وسياسية ودينية لا يفهمها مناضلوا هذه الأيام!!

* السادات رجل ذكى كان يفهم مصر أكثر مما يفهمها عبد الناصر أو أى يسارى، وهو يعلم مدى تخلف المجتمع المصرى، ولذا قاد هذا المجتمع ليصبح مجتمعا آخر (عبر التخلف أيضا) فى ساعات!

* ما لا يفهمه اليسار أنه لم يصل إلى قريتى يوما ولو بواسطتى شخصيا!!

* إذا لم يحاول اليسار معرفة قوانين الريف المصرى فلن يحدث علم الإطلاق أن تلتحم (طليعة) الكتب، (بجماهير) الفأس.

* مصر حمت الدين الإسلامى أكثر مما حماه أى قطر عربى آخر.

* الخطأ الأكبر الذى وقع فيه التيار الدينى هو تجاهل الواقع وما حدث فيه من تغيير!

* الجماعات المتطرفة - فى حركتها - لا تنظر حقيقة للناس، وليس

هدفها هو الناس.. وربما كان فى مخططها أن تضحى بكل الناس فى سبيل تحقيق الفكرة!!!

* **القرية المصرية والشعب المصرى مازالا - بين اليمين واليسار فى أمس الاحتياج للصيغة الصحيحة التى تجمع بين التفكير القبلى والتطلع المعاصر!**
* **تقسيم الناس إلى بروليتاريا وبرجوازية صغيرة ومتوسطة وكبيرة يجب أن يوضع فى المتحف!**
* **الوحيدون الذين يريدون أن يصنعوا الثورة الاشتراكية دون أن يغادروا وسط المدينة هم اليساريون المصريون.**

* * *

**** عبد الرحمن الأبنودى**

لم يك غيره يستطيع أن يحمل شهادات القرية المصرية إلى ساحة هذا الحوار فالرجل: (شاهد من أهلها.. يزهو ـ دائما ـ بأنه مرسل من قبل فقراء للإبلاغ عن أحوال بعينها)!

....

ولم يك غيره يستطيع أن يكون عرابنا فى دروب هذه القرية، وساحاتها، وحقولها وبراريها وبيوتها.. وأيضا فى عقول أبنائها وأرواحهم.

فالرجل: (يجسد فى إبداعه.. وفى رأيه.. وحتى فى تكوينه الشخصى والمزاجى تلك القرية بشكل ـ ربما ـ يندر وجوده، كما يندر تكراره).

....

ولم يك غيره يستطيع أن يتخطى كل الخطوط الحمراء، وينحى كل علامات التحذير ويشيح عن كل أجراس التنبيه.. فى حوار واحد، ليقذف بكلمات شديدة الصدق كحم بركان، ويضع مضجعه على موطن الداء فى وطنه أو فى قريته أو فى حزبه. بل وحتى فى نفسه مجتمعين ووحدانا!

فالرجل: (شاعر: يعتنق الكلمة ويحتفظ لها بقداستها وبشرفها، ويؤمن بحكمة مؤداها: (أن الشعر كالصعيدى.. إذا خنته مرة خانك طول العمر) !!

....

ولم يك غيره يستطيع أن يسقط القناع التاريخى عن وجه الفلاح المصرى أمامنا.. ويحل لنا رموز شفرة العلاقة بين الفلاح ووجهه.. بين الفلاح وصوته.. وبين الفلاح وفعله.

فالرجل: (صاحب علاقة عجيبة بالقرية وبناس هذه القرية، وهى علاقة يختلط فيها الخاص بالعام، والحقائق مع الفلكلور، والظواهر الطبيعية مع الخوارق الميتافيزيقية، وهى أيضا علاقة يمكن تلخيصها فى أن القرية حملته سرها، قبل أن يكون بوسطجيها إلى المدنية ينقل آلامها وهمومها ومطالبها أيضاً) !!

....

ودخل عبد الرحمن الأبنودى إلى ساحة حوارنا ببطاقة فيها هذه الصفات جميعا ليطرح رأيه ورؤيته، حلمه وواقعه، وليحكى صورا لمشاهد مثيرة من استقبال القرية لزلزال اشتراكية الستينيات، ومشاهد أخرى ـ لا تقل إثارة ـ عن استقبال ذات القرية لطوفان انفتاح السبعينيات!

ويشرح الأبنودى واقع القرية الاقتصادى والاجتماعى فى ظل هذه التغيرات والتحولات الدراماتيكية، كما يقدم بعض مفاتيح تساعد على فهم

الشخصية المصرية وانساقها المختلفة على نحو ـ ربما ـ يخالف بعض رؤى المثقفين وبعض أفكارهم..

كما يتعرض لواقع الحياة الحزبية فى مصر عبر بوابة أزمة اليسار المصرى وتمزق البدن السياسى لحزبه، وملامح الصراع فى جريدته.

وهو فى هذا ـ أيضا ـ يشير إلى أنه: (شاهد من أهلها) كما يشير إلى أنه قد جاء الوقت لطرح صراع الأفكار والآراء داخل تيار اليسار على الملأ.. حيث لم يعد يجدى إلا مزيد من دفن الرؤوس فى الرمال.. ويشير إلى أن الوحيدين الذين يريدون أن يصنعوا ثورة اشتراكية دون أن يبارحوا وسط المدينة هم اليساريون المصريون!!!

....

وأيضا يطرح الأبنودى رأياً ـ من زاوية فريدة جداً ـ لعلاقة القرية المصرية بالتطرف الدينى، ويفرق بين إقبال هذه القرية على الدين ونفورها من الجماعات الدينية، التى يقول عنها أيضاً: إنها لا تهتم بالناس، وليسوا من أهدافها، وأنها على استعداد للتضحية بكل الناس فى سبيل الفكرة!! فى مشهد عبثى لم يشهد تاريخنا الفكرى مثيلا له.

وفى النهاية يعرض الأبنودى رأيه فى أمر: (مخاطبة الشعب المصرى) من خلال دراسته المطولة التى استمرت عشرين عاماً عن السيرة الهلالية، والتى أطلعته على مداخل كثيرة نفسية وحضارية وسياسية واجتماعية للتخاطب مع الناس فى بر مصر!

....

وفى كل ما طرح عن القرية.. وفى كل ما روى عن ناسها كان الأبنودى

لا يفتأ يردد أنه (شاهد من أهلها) وأنه (مرسل من قبل فقراء للإبلاغ عن أحوال بعينها)!!

....

شهادة الزمن الناصرى:

«ووثقت قريتى فى الأفنديات للمرة الأولى»!

*** الحوار معك.. يختار اليوم زاويته «ليرصد ظواهر وأفكار عميقة الدلالة، بالغة الأهمية اعتملت فى بدن وروح القرية المصرية إزاء كل ما شهدته من تغيرات منذ الثورة وحتى الآن.**

وأرى أن أهل القرية المصرية قد فوجئوا مرتين:

- المرة الأولى حين باغتتهم الاشتراكية دون أن يكونوا مستعدين لها، مدركين لمعناها.

- والمرة الثانية حين باغتهم الانفتاح دون أن يكونوا مستعدين للدفاع عن اشتراكيتهم..!!

كيف كان رد فعل القرية المصرية إزاء أى من التغيرين وكلاهما موقف «جلل» على أى مستوى وطبقا لأى معيار؟

** أنا من قرية مصرية تتفق مع بعض القرى فى الصفات، وتختلف مع بعض القرى فى الصفات.

قرية تختلف مع كل قرى الشمال (التى تنتمى أنت لها) والتى أصابها بعضا عن شرور الاستعمار والعناصر الأجنبية التى انصهرت بوتقتها وتحولت إلى عناصر مصرية تعيش فى إطار الدلتا، بحيث يتطابق هذا مع القانون المعروف

فى العلوم الاجتماعية والذى يقول إن العواصم وما هو قريب منها دائماً مفتوحه ومهيأة لاستقبال كل التأثيرات الخارجية.

أما قرى الجنوب فهى قرى مغلقة على تراثها صنعت حولها صدفة محكمة قادرة على حمايتها من التأثر، حتى من قبل أبنائها الذين يذهبون إلى العواصم ويعودون فى شكل زيارات!

نعم هناك صدفة قوية تحمى القرية، فى داخلها نوع من الغلاف أو الحاجز الرقيق الزجاجى الذى لا تلمحه إلا العين الذكية، فمن كانوا أصدقاء الطفولة، ورفاق الصبا، ولم تكن هناك أية مسافة بينك وبينهم، يقوم بينك وبينهم هذا الحاجز الزجاجى الشفاف (الذى قد لا تراه) لمجرد أنك لبست القميص والبنطلون!!، وعندئذ يلبس لك الصعيدى قناعه التاريخى، والصعيدى ربما كان من أوائل أبناء الأمم التى اخترعت القناع... بمعنى أنه من العسير جداً أن تقيم دراسة اقتصادية حقيقية لقرية مصرية إلا إذا كنت واحداً من دود أرضها!!

حينما نغادر القرية ونعود إليها يصعب علينا اقتحامها مرة أخرى، وإذا دعونا فيها إنسانا ـ نعرف أنه جائع ـ إلى الطعام، يقول لنا إنه شبعان ، وإنه ممتلئ للحافة (ويشير لفمه قائلاً: «حتى هنا» أى إنه لو أخذ لقمه صغيرة فسوف يفرغ كل الطعام الذى فى جوفه).. بينما لا يوجد طعام فى جوفه أصلا.

ويكون هذا الرجل حزينا وأحواله ليست على ما يرام، ويقول لك: (لو زادت عن هذا الحد تمسخ!!) مشيراً إلى إحساسه بحلاوة كل ما حوله!

....

إذن فنحن بإزاء قرية أو قرى هى ـ بالفعل ـ مغلقة على أسرارها، كل من فيها يعرف كل ما فيها وكل من فيها!!

قرى بلا أسرار إلا بالنسبة للغريب.

ومن هنا فإننى أختار هذه القرية (أبنود) لأحدثك عنها، وعن أثر الحدثين المهولين اللذين ذكرتهما.. (الثورة الاشتراكية بتاريخها كله).. و(الانفتاح أو ما أحب أن أسميه بداية فقدان الانتماء للأرض والتخلي عنها والهجرة خارج الوطن).

....

ولندخل إلى قلب الموضوع...

فعندما قامت الثورة فى ١٩٥٢ كنت فى الرابعة عشرة، أى أننى كنت في وقت يسمح لى أن أرى، وأرى بعمق، وقد فوجئت بأن صور أعضاء مجلس الثورة معلقة على ضلف دكاكين قريتى وهذه القرية لم تكن تعلق صور الملك من قبل، وليس لها صلة بأية صورة سياسية أو وطنية، فأنا لم أر يوماً صورة مصطفى كامل أو أحمد عرابى أو سعد زغلول إلا فى كتب المدرسة.

لأن الواقع فى (أبنود) مختلف كثيراً عن القرية، أو صورة القرية التى ترد فى ذهننا لمجرد إثارة قضايا الإقطاع والسياسة!

فنحن قرية لم تعرف ما هو الإقطاع إلا بعد الثورة على شكل كلمة، فالوادى يضيق جداً فى هذه الرقعة من جنوب قنا، والجبال تحاصر الوادى وتضغط الناس فتحشرهم حشرا إلى جوار النهر فى شريط رفيع جداً من الأرض الزراعية، ثم يضيق هذا الشريط بما يحمله من ناس يتزايدون ساعة بعد ساعة.. فالناس فى قريتى منجبون!

ملكية أى عائلة كبيرة (بالمعنى الصعيدى للعائلة الكبيرة) يمكن قطعها فى قفزة واحدة، أى أن الملكية كانت مفتتة بشكل مزرى! ولذلك كان الناس يلجأون هناك ـ وما زالوا ـ إلى ما أسميه بالزراعة (الدقيقة) وهى زراعة أنواع من المحصولات التى لا يمكن أن تتوافر إلا فى مثل هذه المناطق.

بسبب الحرارة وخصوبة الأرض وغيرها، وهى عادة أنواع من الحبوب تستعمل فى الصناعات الطبية كالشمار واليانسون والكراوية والكمون والبذار بشكل عام.

فى قريتى قد تمتلك العائلة قيراطا وسهما من الأرض، ومع ذلك يأكل من ورائهم عشرين إنساناً!! وبالتالى لم يكن هناك مفر من هذه الزراعات الدقيقة، ففى قريتى لا توجد صناعة ولا تجارة والتجارة ـ عندنا ـ نوع من الوسائطية، لمجرد نقل البذور..

إذن فهذه القرية تنقسم إلى:

ـ مزارعين.

ـ تجار حبوب (وحبوب فقط).

ـ وسطاء نقل وكيل ودش (فعندنا مجموعة من المدشات التى نسميها المطاحن، لطحن العدس والفول وغيره، وبعض المعاصر التى تحول هذه النباتات إلى زيت.

*** نعود إلى علاقتهم بالثورة.. فقد كنت تقول إنهم لم يعرفوا الإقطاع إلا كلمة؟**

** نعم لم يعرفوا ما هو الإقطاع ولم يعرفوا ما هو الاستغلال بصورته الحقيقية، بمعنى استغلال صاحب العمل للعمال، ولم يعرفوا شيئا من كل مقولاتنا التى أطلقناها ووضعناها كمبرر لمجىء الثورة!

*** لماذا توحدوا مع هذه الثورة إذن ـ وعلقوا صور أعضاء مجلس قيادة الثورة على ضلف الدكاكين؟**

** قادة هذه الثورة هم مجموعة من الأفنديات!

وقد لاحظت ـ لأول مرة ـ أن قريتى كانت تتخلى عن تحفظها التاريخى تجاه الأفنديات، حين علقت صورهم، واهتمت بأنبائهم فى الراديو (فى هذا الوقت كان فى قريتى ثلاثة أجهزة راديو منهم واحد فى السوق الكبير الدائم حيث كان الناس جميعا يتحلقون حوله لسماع بيانات الثورة).

ولاحظت أن التفافهم حول هؤلاء الأفنديات يزيد بزيادة الإجراءات والقرارات التى تختصر رحلة الحياة لدى الناس فى أبنود وتجعلها أقل مشقة وأقل وعورة.

فقريتى بشكلها ـ الذى وصفت ـ لا يمكن لأبنائها أن يعيشوا فيها، ولا يمكن أن تستوعب كل أبنائها خاصة وهى قرية منجبة ومعطاءة، وبالتالى فهى من أوائل مناطق الطرد السكانى فى صعيد مصر ، وهى لم تكن تطرد السكان بالمعنى الذى تعرفه سوهاج ـ مثلا ـ حين كان بعض أهلها يقبلون العمل كبائعين للأمشاط والنفتالين فى الترام، ولكن عند أبنود ـ ككل القرى المحيطة بمدينة قنا ـ كانت الهجرة، فهى هجرة وليست هجرة، يعنى هجرة (مؤقتة ومشروطة)، فأمامنا على شاطئ البحر الأحمر مدينة القصير، وحول هذه المدينة تتناثر مناجم الفوسفات، وإذا عبرنا البحر سنجد مناجم المنجنيز فى سيناء (أبو زنيمة ـ وأم بجم).. وكان من المعروف أن الهجرة ـ عندنا ـ لا تتعدى القصير، وأبو زنيمة وأم بجم، ومنطقة الجناين فى السويس، وأهل قريتى هم الذين حولوا الصحراء هناك إلى حدائق حتى أصبحنا نطلق على هذه المنطقة ـ رسميا (الجناين)!

إذن فأزمة الزراعة فى أبنود تدفع بالإنسان إلى أن يذهب للمنجم ليلم قرشين، وإذا أكرمه الله، ولم يصب بالربو أو السل يذهب بعد ذلك إلى مدينة

السويس ليعمل فى الميناء حمالا، وعندما تتكون عنده بعض النقود ينزل إلى مدينة السويس ليبيع الخضر والفاكهة للجريج والبريطان وأهالى السويس ـ فى ذلك الوقت ـ وبهذا المال يطلع إلى الصحراء خارج المدينة، ويستولى على أى قطعة أرض، ثم يخلق لها ماء بأية وسيلة، ويغسلها ويحولها إلى رمال مرة أخرى، لأنها أرض ملحية جداً، وبالتالى يلزم إزالة ما بها من ملح وجبس لتصبح قابلة للزراعة، ثم بعد ذلك يزرعونها بالخضار والأشجار.

أى أنهم يعودون فلاحين مرة أخرى!

إذن فرحلة فلاح قريتى تبدأ بالزراعة وتمر عبر الصناعة حتى يصل إلى الزراعة مرة أخرى.

....

وبمجىء الثورة وبداية الاتجاه لفكرة التصنيع، بدأت الرحلة تختصر!

فقد قامت الثورة ببناء عشرات المصانع مثل مصنع الغزل والنسيج فى قنا والسكر فى قوص، والألومنيوم فى نجع حمادى، والسكر ـ أيضا ـ فى نجع حمادى.

ثم توسعت الثورة فى هذه المشروعات، فاختصرت رحلة الفلاح الذى كان يهاجر.

أيضا كانت هذه المصانع تحتاج إلى طرق وسكك حديدية، وكان هؤلاء الناس من قريتى هم الذين يقومون برصف الطرق ومد السكك الحديدية، فبدأوا ـ إذن ـ يشعرون أن هناك تغييراً حقيقياً من خلال رحلاتهم (سواء طالت أو قصرت) وليس من خلال كتب أو كلام.

الناس لا يعرفون أن ثمة تغير ما يحدث فى المجتمع، إلا عندما يترجم هذا التغيير ـ فى النهاية ـ إلى رغيف خبز أو طبق «ادام»!

*** ما هو نوع وعى أهل هذه القرية بالإجراءات الاقتصادية - الاجتماعية التى أفرزها نظام ٢٣ يوليو؟**

** أجلت هذا الكلام فيما كنت أقوم به من عرض، لأنه فى الأصل ـ تاريخياً ـ متأخر فى عمر الثورة.

ولكن رأى هؤلاء البسطاء ـ على أية حال ـ أن أولادهم يذهبون إلى المدارس وأن الوحدات المجمعة بنيت فى القرية، واعتاد الفلاح أن يذهب للطبيب إذا شكى عارضاً مرضياً، ودخلت فئات اجتماعية جديدة إلى القرية حيث أصبح الطبيب ـ مثلا ـ إنساناً من أهاليها أو أعيانها مثله مثل العمدة أو إمام المسجد أو ناظر المدرسة.

وتغير القاموس اليومى لأهالى أبنود ليضم كلمات (الدكتور ـ والوحدة الصحية ـ والمدرسة، وذهبتم إلى المدرسة يا أولاد؟! وجئتم من المدرسة يا أولاد؟!).

وكان تغير لغة قريتى على هذا النحو هو الفضل الكبير للثورة؟

فعندما كنا ـ كمثقفين ـ نعانى اضطهاداً فكرياً شديداً من الثورة، كان أهلنا ـ فى ذات الوقت ـ ضدنا وإذا تحدثنا عن عبد الناصر بسوء كنا نعاقب عقابا مريراً ونشتم ونسب منهم.

وكان لى عم ـ إذا انتقدت نظام عبد الناصر أمامه ـ يقول لى: (لولا عبد الناصر ما كنت لبست قميصا وبنطلونا وتكلمت هذا الكلام الذى يشبه كلام، الجرانين» وعبد الناصر هذا لا جاءنا مثله ولا سنشهد مثله)!!

كان هذا العم فاهما أن عبد الناصر أعتقهم حقيقة من قيود علاقات ولو لم يكن فيها عبودية العمل إلا أن فيها ـ دون شك عبودية اجتماعية.

حدث نوع من (تنفس الصعداء)، ذلك التعبير الذى نستخدمه فى القصص دون أن ندرك معناه.

تخيل.. قرية كاملة تتنفس الصعداء!!

قرية كاملة تخرج من أسر آلاف المنغصات الاجتماعية الصغيرة، وهذه مسألة لا صلة لها بالسياسة، ولكنها مسألة تتعلق بأن أثقالا وأحمالا كثيرة قد رفعت عن أكتاف البسطاء، ومن خلال واقعهم اليومى البسيط.

وشهادة المشاركة:

«كان الشعب مقيداً بالحبال بينما كان عبد الناصر يخوض المعارك بمفرده»

*** ولكننى سأتوقف - قليلا - أمام هذا الوعى الذى نشأ عند الناس بالتغير فى واقعهم اليومى.**

ألم يكن أحد فيهم يستطيع أن يدرك - ولو بحسه الفطرى البسيط - حجم الفجوة الحادثة ما بين التغيير الذى تريد الثورة إحداثه بسياساتها وتوجهاتها، وما بين نفيها لهؤلاء البسطاء عن المشاركة فى أحداث هذا التغيير؟

** أنا مازلت متوقفا عند نقطة أنهم - للمرة الأولى - يثقون فى قيادة من الأفنديات ليست منهم، ولا يعرفون عنها شيئا إلا أنهم يؤيدونها.

....

فلا نستطيع أن نقول إنه فى ١٩٥٦ لم يكن الشعب كله بكامل قطاعاته مع الثورة، ولا نستطيع أن ننكر هذه الوحدة التى حصلت بين عبد الناصر وبين ملايين الكادحين فى مصر، وهذا لم يكن من الممكن أن يحدث، لأن عبد الناصر - مثلا - رجل متقدم فى مواقفه حول التحرر من الاستعمار أو

عدم الانحياز، وبالطبع لا، ولكن هؤلاء تتكون مواقفهم من أمور أبسط من هذا، فالرجل صاح بهم ـ أولاً: «ارفع رأسك يا أخى»، وبالتأكيد فإن الفلاح المصرى ليس من السذاجة لكى يرفع رأسه ـ هكذا ببساطة ـ بعد انحناء لآلاف السنين، بحيث يجزها من يريد الجز.

ولكن المؤكد أن فلاحا مصريا ذكيا التقط الفكرة، ورفع رأسه وانتصر ضد أى وجه من وجوه السلطة، ضد العمدة أو ضد مكاتب المدينة، ونجح.

إذن فقد بدأ القانون يأخذ ملامحا أخرى، وبدأ يتجه نحو الوقوف إلى جوار الفقراء وهذا تحول ليس سهلا بالمرة.

وكما قلنا فإن الفلاح لا يفهم من تفاصيل حياته إلا أن خبزه اليومى ازداد رغيفا، أو أن عدد زجاجات الزيت التى دخلت بيته زاد زجاجة.. حسبة هذا الفلاح فيها (كم بيضة خرجت من البيت للبائع؟)، و(كم من الغلال دخلت إلى هذا البيت؟) وأمور كثيرة من هذا النوع.

ومن هنا فقد أدرك الناس فى قريتى أن التغير الحادث بعد الثورة هو تغير لمصلحتهم وجرى ذلك ـ مثلا ـ بعد الإصلاح الزراعى رغم أنهم لم يستفيدوا به من قريب أو بعيد، فكما قلت لك، لم يكن لدينا اقطاعيات، اللهم إلا أرض الأمير يوسف كمال فى نجع حمادى، ولكن أنا أحدثك عن هذه القرية من قرى قنا والخمسين قرية التى حولها.

لم يحدث ـ على الإطلاق ـ إن كانت فكرة الإصلاح الزراعى تعنى شيئاً لأهل قريتى، وربما ضايقهم التجميع الزراعى، لأن هؤلاء الناس كانوا يفضلون أن يزرعوا القطن على أن يزرعوا القصب.

ومع ذلك فقد قبلوا هذا كله، لأنهم أدركوا أن التغير العام الحادث فى مصلحتهم، أدركوا أن هناك نوعاً من (العدالة) فيما يسمى بالمردود أو المنتوج أو التوزيع، حيث كان الفلاح يستفيد فى النهاية (وطبقا لحسبته التى

ذكرناها) بشكل اقتصادى جيد (ليس بما يوازى تعبه ولكن ـ دون شك بشكل أفضل من ذى قبل).

لم تختل ـ إذن ـ مسيرة الشعب وراء عبد الناصر من ١٩٥٦ حتى النكسة عام ١٩٦٧ ولم تتأثر هذه الرابطة القومية بين الناس وبين قائدها سواء كان منتصراً أو مهزوماً، لأن المهم ـ عندهم ـ أنه كان صادقاً، وكان الرجل فعلا يتحرك باسم الأمة وبتفويض من ناسها.

لكن عبد الناصر ـ من وجهة نظرى بالطبع ـ قيد هذا الشعب، بمعنى أنه لم يشركه فى الأداء الثورى.. فى الخطوة الثورية.. أو فى الفعل الثورى.

كان عبد الناصر هو الثائر الوحيد فى مصر، يثور ضد الاستعمار بمفرده، ويدخل المعارك ضد الاستعمار بمفرده (إذا اعتبرنا أن الجيش ليست له إرادة ذاتيه ولكنه مؤسسة تابعة للقيادة السياسية).

لم يكن الشعب يشارك.

فى ١٩٥٦ تطوعنا ـ جميعا ـ فيما يسمى (كتائب التحرير) ومع ذلك لم نطلق طلقة رصاص واحدة، ولم ندرب تدريباً حقيقياً، ولكن كان صوت عبد الناصر عاليا بما يوحى أثناء تدربنا أمام العدو (أمام قوى الاستعمار والرأى العام العالمى).. إنما ـ فى الواقع الحقيقى ـ كان عبد الناصر يخشى أن نصبح جنوده فعلا، وبالطبع كان مفهومه ينطلق من تكوين عبد الناصر نفسه كبورجوازى صغير، وهو يعلم أننا لو حملنا السلاح وشاركنا فى تحرير هذا الوطن، فلن نلقى السلاح بعد التحرير، وإنما سوف نجلس لمناقشة مستقبل الوطن كذلك، بمعنى آخر سنجلس للقيادة السياسية لتقسيم المستقبل، أو لتقسيم مسئوليات المستقبل.

كنا ـ فى القاهرة ـ نعانى من الرقابة، ومن الأجهزة الحديدية لسلطات

عبد الناصر وكنا نعتقل إذا ارتفع صوتنا عن صوته، أو سبقناه ـ بقليل ـ من التفكير.

أنا أشبه الشعب فى تلك الفترة، بأنه كان إنسانا مكبلا بالحبال على حين يخوض عبد الناصر المعارك ويحقق مساحة مناسبة من الانتصار، ثم يأتى ليحمل الشعب، وينقله بحباله، إلى موقعه الجديد.

فلم يحدث أن تعلم الشعب علم الثورة، أو خطى خطوات الثورة، أو أصبح جزءاً من الفعل الثورى، ولذلك فمن الطبيعى جداً، ما حدث بعد مجىء السادات، لأنه بمجرد أن ضغط السادات عل الأزرار.. ألغيت مرحلة كاملة لأن الشعب لم يكن ممثلا فيها ليحميها.

وبالطبع كان من المستحيل على الشعب أن يحمى مجرد شعارات أو (يفط) كلامية.

*** كان أهل القرية - إذن - متوحدين مع مجمل التغييرات التى حدثت فى الزمن الناصرى رغم أن بعضها لم يعد عليهم مباشرة، ومعظمها لم يشاركوا فيه مشاركة حقيقية.**

فكيف استقبلوا نوع التغيير الذى حدث بعد الانفتاح؟

** لابد كيما نتكلم عن هذا أن نرسم صورة أكثر دقة للمراحل التى مر بها التغيير الاقتصادى والاجتماعى فى زمن عبد الناصر أولا.

ففى ١٩٦١ صدرت القرارات الاشتراكية، وأعلن عن اشتراك العمال والفلاحين فى مجلس الأمة، وإدارة المصانع وغيرها، وبالرغم من هذا، فلم يكن ذلك تمثيلا حقيقياً، فقد كانت فئات الانتهازية هى المسيطرة على منطق وتنفيذ هذه الأفكار الناصرية. وبالتالى حرم الشعب من كثير من عوائدها، إلا أن الشعب كان يأمل ويحلم بتصحيح المسار فى المستقبل وقد

استغلت الناصرية هذا. ليس من خلال قيادتها، ولكن من خلال كوادرها، التى كانت كوادر انتهازية فى معظمها، وخادمة ـ منذ القديم ـ ومغيرة جلبابها مع كل فترة مرحلية أيام عبد الناصر.

وبالطبع فقد كانت الناصرية ـ أيضا ـ تبحث عن الولاء، ولم تكن تبحث عن القيادات الحقيقية التى تفرزها الجماهير، وحتى عندما كانت الجماهير تفرز قيادة حقيقية، كان لابد لهذه القيادة أن تمر فى أنابيب الاختبار والتشكيل كى تتواءم مع منطق الظاهرة الناصرية وهى ظاهرة نبيلة جداً فى منطلقاتها، ولكنها أدت إلى كوارث حقيقية فى التطبيق.

عودة مرة أخرى إلى قريتى.

لا شك أن موت عبد الناصر، كان من أشهر الميتات فى تاريخ قريتى.

وهذا الجزع لم يكن من الممكن أن يحدث إلا بعلاقة حقيقية أقامها الشعب مع عبد الناصر (نتيجة لأعماله طبعا)، وقد جزع عليه الصعيد كما يجزع على رجل من أبنائه فعلا.

كان عبد الناصر قد تحول فعلا إلى جزء من ضمير الإنسان العربى، وعندما تقول جزءاً، فإن ذلك يعنى (قطعة) فعلا وليس بالمعنى المجازى أو الإنشائى الذى نستعمله.

ربما لم يثق الشعب المصرى فى (حاكم)، كما وثق فى عبد الناصر، ولأول مرة يسلم هذا الشعب قياده لحاكم لم يلتق به شخصياً، ولم يجلس معه على «طبلية» أكل، ولا شاركه فى تجارة.

استطاع عبد الناصر أن ينقل كل أهدافه إلى الناس عبر صوته الذى كانت الناس تثق فيه وتحبه.

الصعيد مغرم بمراقبة الأصوات، ويعرف هذه الأصوات جيداً، ويفهم فيها جداً.

صوت عبد الناصر ـ لا شك ـ كان قريباً جداً من قلوب الفقراء فى مصر.

شهادة التحول:

«وعاد الأبناء إلى القرى بعد الحرب ليبدأ عصر جديد».

*** تقول إن الناس أسلموا قيادهم لعبد الناصر، أولم يسلموا قيادهم مرة أخرى للتغيير الدراماتيكى الآخر الذى حدث فى منتصف السبعينيات؟**

** لا أستطيع أن أقول ذلك.

*** أنت نفسك قلت (قبل قليل) إنه كان مجرد زر داس عليه السادات فتغير كل شيء.**

** أيضاً لا أستطيع أن أقول إنهم أسلموا قيادهم، وعندما تكلمت عن الأزرار التى ضغطها السادات، كنت أشير إلى أنه لم يكن هناك سداً منيعاً من الجماهير يمنع السادات أن يحول الوطن إلى الجهة المعاكسة تماماً، ولكن أنا لم أقل إن الجماهير أسلمت قيادها لأنور السادات.

الجماهير مع أنور السادات عادت مرة أخرى إلى شعوب محكومة بحاكم كما كانت على طول الأمد التاريخى الماضى، وبالتالى فإن فترة عبد الناصر هذه توضع بين قوسين، وربما يماثلها ولكن بشكل مخالف العلاقة بين الحاكم والمحكوم أيام محمد على باشا، فقد بنيت مصر فى عهده، وكان لابد من تحطيم هذه التجربة بواسطة الاستعمار، وتحطمت فعلا، وفى عصر عبد الناصر بنيت مصر، وكان لابد من خلق ما يسمى بإسرائيل كقوة ضاربة من قوى الاستعمار لتهشيم هذه التجربة ومنع مصر من الاستقلال الكبير، لأن

مصر بوجودها الجغرافي، وبتكوينها كأمة، وبتاريخها النضالى، وبتشكيلها البدنى والفكرى، هى ـ فعلا ـ شرايين الأمة العربية أو قلبها، فكلمة (قلب الأمة العربية النابض) التى كنا نقولها أحيانا للسخرية هى فى الواقع حقيقة كبيرة، وحقيقة جميلة، وحقيقة مرة فى نفس الوقت.

بمعنى أن مصر عندما تزدهر تستطيع ـ فعلا ـ أن تقود التغيير فى الأمة العربية كلها، وعندما تنتكس فإنها تصبح عبئا على الأمة العربية، وعبئاً على نفسها، وعبئا على التاريخ.

....

لم ينتبه الناس فى قريتى لقضية أنور السادات، إلا بعد حرب أكتوبر، مات عبد الناصر، وجاء حاكم ليحكم مصر، وانصرفت الناس إلى أعمالها فى الحقول وغيرها، ولم تحدث تغييرات حقيقية فى بنية القرية المصرية إلا بعد الحرب.

سعد الناس فى قريتى بالانتصار، لأن أبناءهم كانوا على الجبهة طوال سبع أو ثمان سنوات، والناس كانوا فى حاجة إلى هؤلاء الأبناء، فقد كان بعضهم يغول هذه البيوت الفقيرة التى حدثتك عنها.

الحرب دائماً بالنسبة للناس البسطاء، كانت أمراً بعيداً عن القرى وبعيداً حتى عن المدن، وإنما كانت فعلا يتم فى الصحراء، ولم تكن هناك علاقة حميمة لأهل قريتى بهذه الصحراء، فقط إذا انتصرنا ننتصر فى الصحراء، وفقط إذا انهزمنا ننهزم فى الصحراء، يعنى بعيداً عن مجرى الوادى، وبالتالى لم يكن الناس يعانون معاناة حقيقية من الحرب.

ولم يعيش الناس فى قريتى تجربة الحرب أو انصهروا فيها ليتغيروا ويتقدموا مثل كل الدول التى أفادتها المعارك، فالحرب مفيدة فى أحيان كثيرة، ولا

شك أن دول أوروبا كلها أنضجتها الحرب أكثر مما أنضجتها وسائل الإعلام أو قصائد الشعر أو الوعظ.

وبعد الحرب حدثت ظواهر مخيفة فى هذا المجتمع، وأثرى ناس بسرعة شديدة جداً وأفقر ناس بطريقة مبالغ فيها، وأصبحت القيادة للمبتذلين والجهلاء الذين هم ـ فى العادة ـ الأغنياء الذين يعرفون من أين تؤكل الكتف، وعادة يكون هذا على حساب فقراء الوطن.

بعد حرب ١٩٧٣ ، مات من مات، وعاد الأبناء للقرى، وهنا ذابت مشكلة القرى مع السلطة التى تتمثل فى غياب هؤلاء الأبناء.. وعندئذ ـ فى نظر أهل القرية ـ فلتحكم الحكومة، وليذهبوا هم إلى أعمالهم طالما أنهم يضمنون عشاء فى آخر الليل.

....

وحدث ما يسمى بالانفتاح الاقتصادى.

وكنت قد غادرت قريتى منذ عام ١٩٦٢ ، وعندما كنت أذهب إلى أبنود إنما كنت أفعل وفى ذهنى أشياء بعينها، ثابتة فى ذهنى منذ الطفولة، بمعنى «طوبة» ما فى ركن ما فى شارع ما.. وتجدنى وأنا أدخل أبنود أبحث عن هذه الطوبة (التى أعرفها منذ الطفولة) وهل هى موجودة أو غير موجودة فأجدها موجودة.. وأجد القرية كما هى وكأنى غادرتها بالأمس.

وفى النهاية فإن هذه قرية كانت تغزل ثوبها من صوف الغنم، وتصنع حذائها أيضا، وتصنع لقمتها وتبنى بيتها بنفسها، وحتى أفراحها تقيمها بنفسها، بمعنى أنها كانت تغنى لنفسها.

يعنى كانت هذه القرية فى حالة من الاكتفاء الذاتى، ولم تكن تحتاج إلى المدينة إلا فى بعض المنسوجات، أو فيما يسمى بقطعة الصابون أو كيس

الأرز، وفيما عدا ذلك كانت هذه القرية تعطى للمدينة أفضل ما عندها أو أفضل ما فى المدينة.

....

ثم حدثت قضية الدعوة للهجرة إلى الخارج، وبدأت الدعاية لمغادرة الفلاحين المصريين للقرى ـ والذهاب إلى العراق للزراعة واستلام أرض والإقامة هناك.

وقد رفض ناس محافظة قنا هذا تماما، وكذلك أسيوط.

ولكن كهنة الدعوة للسفر والهجرة استطاعوا ـ فعلا ـ أن يخترقوا القرى عبر أفنديا‌تها من خلال الجورنال والراديو فحدث نوع من التمهيد لهذه (الظاهرة ـ الكارثة).

....

أما الأمر الآخر فى هذا السياق فهو أنه قد تم التقاط بعض عناصر البورجوازية الصغيرة من القرية المصرية (وهم الذين تعلموا ولكنهم لم يكملوا تعليمهم ويعملون فى القرية أعمالا لا يمكن القبض عليها ولمسها باليد، فليسوا مزارعيين ولا تجار وإن كانوا يكسبون من بعض عمليات التوسط والسمسرة، وهم ليسوا موظفين ولكنهم ـ دائما ـ نظيفو الملابس متأنقون ومن سادة القوم، ولا تعرف من أين تأتيهم الأموال إلا من التوسط والسمسرة وتخليص أوراق فى المدينة).

هؤلاء «السماسرة» ـ وهى تسمية غير دقيقة ـ هم الذين بدأوا فى إشاعة الفكرة فى قريتى وتجنيد الناس لها، وطبعا لم يكن من الممكن لأبناء الأسرة المستقرة القديمة الراسخة ذات التاريخ أن ترسل بأبناءها للعمل كعمال فى البلاد العربية وغيرها.

ولكن كان عندنا فئات تعيش على هامش القرية، وهم من يسمون بقبائل الغجر، (وهم أناس أقرب للبدو الرحل)، وهؤلاء الناس ـ أصلا ـ فئات محتقرة

فى المجتمع وغير مسموح لها بالإقامة فى قلب هذا المجتمع أو شراء أرض أو بناء أو أشياء من هذا القبيل.

هم يعيشون على هامش المجتمعات، وكلما امتد العمران، كلما زحفوا ـ هم ـ إلى أطرافه (أطراف الصحراء).

ومعظم هؤلاء الغجر ليس لهم شهادات ميلاد وغير مقيدين فى دفاتر التجنيد وهم خارج التعداد ويحكمهم قانون أخلاقى خاص جداً، لأن من أعمالهم البغاء والسرقة، ولهم لغة خاصة، وهى ليست لغة متكاملة ولكنها أقرب للسيم».

هؤلاء الناس هم أول من استجاب لهذه الدعوة وخرجوا فى رحلات الهجرة الأولى، وظل أهالى القرية ينتظرون عودتهم فعاد هؤلاء المهانون المستذلون كما يعود الأبطال.

عادوا بالأموال والكاسيتات والمراوح والمعاطف الجلد، والساعات ذات «الاستيك» واشتروا أفضل الأراضى فى قلب القرية، بنوا العمارات ذات الطابقين والثلاثة طوابق واعتدوا تماما على العمارة القديمة المتوارثة.

عاد الغجر والحلب ـ إذن ـ ليثبتوا المراوح فى الأسقف، وعادوا ـ أيضا ـ بقيم جديدة تماماً، وهم أول من طرح على القرية فكرة (أنت تساوى ما فى جيبك)، وأصبح الواحد منهم يجلس فى شرفة منزله الأسمنتى فوق.. فوق ويرمى بأغطية زجاجات البيرة (ستلا) على العمدة الجالس على المصطبة الطينية والذى يحك ظهرة فى الجدار الطينى..

إذن فقد بدأ يحدث ـ للمرة الأولى ـ إذلال للقيم التاريخية القديمة المستقرة التى بنيت على أساسها القوانين التى حكمت القرية المصرية، أو هذا التوازن النفسى العادل الذى سمح لها بالبقاء عبر كل تاريخ الإبادة والإهلاك.

....

شهادة الحزن:

«وانزوى الأصلاء والشرفاء وأصبحوا أكثر

الفئات تعاسة فى القرية»!

*** أستاذ عبد الرحمن.. وصلت بنا فى استعراضك لشهادات قرية مصرية.. إلى عودة الأفواج الأولى من المهاجرين.. وبدء التحول.. واهتزاز السلم القيمى لقوانين القرية الخاصة تحت ضغط هذا التحول المخيف..**

لكنك لم تتعرض بعد لتغيير نسق الإنتاج الذى عرفته القرية سابقا، والذى أفضت فى وصفه فى بداية هذا الحوار؟

** قبل هذا - ربما يفيد الاسترسال قليلا - فى وصف ما حدث بإجمالى العلاقات الاجتماعية والقيمية فى هذه القرية.

فقد استمر الخلل فى الشكل، وفى المضمون يتمدد ويحدث آثاره فى كل اتجاه.

على مستوى الشكل اشترى الغجر والحلب العائدون أفضل المواقع فى القرية وهدموها وأعيد بناؤها بالأسمنت ففقدت القرية طابعها القديم.

أما من حيث المضمون فإن هذا الشكل فرض عليه بقيمه الجديدة تغيراً عميقاً.

فلا يمكن لبيت جدتى الطينى أن يحس بالعزة والكرامة فى مواجهة هذا البيت الأسمنتى الأطول من أطول نخلة فى القرية.

وهنا بدأ هذا الاستقرار التاريخى لذلك البيت الطيب البسيط الإنسانى يفقد معناه ومضمونه بل ويحس بالإذلال.

وكان لابد من مقاومة هذا بأن يرسل هذا البيت أحداً من أبنائه إلى

المنطقة التى جاء منها هذا الأسمنت، وهذه البلكونة المذلة وبدأت العدوى تنتشر، ولهذا كله ثمنه فى الغربة فالغربة لها قانونها، وهذه الناس لا تذهب إلى البلاد العربية لتعمل وتقبض أموالا وتعود ولكنها تبيع كل شىء تبيع قيمها وتبيع - ربما - كرامتها، حين تسب أو ينادى عليها «يا ولد» بينما هم فى الأصل ناس عظماء جدا وينتمون إلى قرى كانت مستقرة تاريخيا وهم وارثون للكرامة تاريخيا أيضاً.

هؤلاء الناس حينما عادوا كانوا فاقدين لكل كرامتهم وفاقدين لكل شىء وبالتالى أصبح فى إمكانهم أن يفعلوا كل شىء أيضا فى مواجهة أى وجه بلا خجل، وهذا فى الوقت الذى كان فقدان القدوة يسود المجتمع ككل، وهذا فى الوقت الذى انتشرت فيه أيضا طبقة اللصوص وأصبحوا هم واجهة هذا المجتمع (تجار الفراخ الفاسدة - ومهربو المخدرات - وتجار السلاح).

إذن فقد أصبح هناك لون من ألوان السعار لهدم القيم الأصلية - إراديا - بحيث تصبح الأمور منطقية فى المجتمع - وبحيث يتوافق الشكل مع المضمون.

فإذا كان العالم كله يمشى بقانون اقتصادى معين، وأنت تريد أن تمشى بقانون اقتصادى مختلف، أو بقيم اجتماعية وأخلاقية مختلفة فسوف تصبح كالغراب الذى يحجل وسط العصافير!!

كان لابد إذن - أن يسود الوباء للمجتمع ككل.

ولذلك بعد مدة عندما نزلت إلى هذه القرية لم أجد القرية، وإنما وجدت مخلوقا مشوها لأنه - أيضا - سرعان ما أغلق باب الهجرة فلم تبلط البيوت التى بنيت أو تدهن وإنما ظلت على حالتها الطوبية بمنظر قبيح جداً.

ومن ناحية أخرى فقد جاء هؤلاء المهاجرون العائدون بالثلاجة والغسالة والتليفزيون، ولكن فى نفس الوقت لم يتواءموا اجتماعيا مع هذه الوسائل فبينما تجلس فى صالون أحدهم يدخل عليك دخان الكانون ليعمى عينيك!! وبينما تتفرج على الفيديو تدور المراوح فى السقف كأننا فى مسجد!

لقد ملكوا هذه الأشياء ولكنهم لم يصبحوا منطقيين معها ولم تصبح - حقيقة - جزءا من حياتهم كمثل حال الخليج فى السنوات الأولى من ظهور النفط حين قطع الإنسان صلته بالناقة، وركب المرسيدس، وهو غير مهيأ لها فأصبح - فى هذا نوع من التباهى فى الاستعمال، وفى نفس الوقت نوع من القهر، وفى نفس اللحظة عدم التمنطق مع المخترعات، ولاشك أن هذا يحتاج لوقت طويل.

*** ما تشير إليه - دون شك - يختلف عما يطلقه البعض عن الآثار الضارة للكهرباء فى الريف والتى فى نظرهم أفسدت الفلاح ودللته ودفعته لترك العمل والركون إلى الجلوس أمام الفيديو؟**

** بالطبع لا.. ومن يقولون هذا يبتذلون الكلمات فى الواقع ابتذالا شديداً.

الكهرباء فى مصر ناصرية - كما تعلم - والكهرباء الناصرية كانت لها أهداف ناصرية والأهداف الناصرية لم يكن فيها تشويه للإنسان المصرى، فأنا كحاكم أشوه الإنسان الذى أحكمه عندما أرغب تمرير تشويهى أنا، ولكن لو كنت مخلوقا سوياً فأنا أريد مجتمعى سوياً أيضا حتى أكون منطقيا معه وأنا احكمه..

وهذا ردى على هؤلاء.

ثم أعود لما جرى فى قريتى

حدث خلط وعجين فظهرت القشرة الحضارية المصنوعة من استبعاد الوسائل الحضارية الحقيقية المكتسبة عبر التاريخ والتى هى مستقرة فى القرية التى تعتبر مصبا لحضارات ثلاث (الفرعونية والقبطية والإسلامية) فالمعمار مثلا كان فرعونيا، وإذا كان البناء فى منطقة حارة كمنطقتنا فلابد أن يكون للبيت ديوان ثم حوش ثم كرم للنخل ثم بئر وتكون الجدران عالية مسقوفة بالطين وبجذوع النخيل، وكل هذه الأشياء كانت تجعلك تعيش فى جو رطب وسط لهيب الصيف.

وهكذا أصبح المال الذى أتى للقرية لعنة حتى على المستوى المعيشى فقد فرش العائدون هذا الأسمنت بالكنب والموكيت والحصر البلاستيك التى أتوا بها معهم، ومع ذلك ففى آخر الليل يرش صاحب هذا البيت سطوحه بالماء، وينام فوقه منه للسماء.. بالضبط مثلما كان يفعل قبل بناء البيت، وبالتالى فإن كل هذه المبنى ـ فى الحقيقة ـ لم يكن هو بحاجة إليه، ولم يستعمله الاستعمال الحقيقى، أى لم يتكيف معه!

وإضافة إلى ذلك فقد رهن الناس أراضيهم خلال هذه العملية الكبرى التى كانت تدور رحاها فعندما عاد الفوج الأول من المهاجرين، ورأى الناس ناتج العملية بدأوا يرهنون أراضيهم أو يبيعونها من أجل أن يسافر أبناءهم، وأثرى التجار والوسطاء ثراء كبيراً لأنهم كانوا يأخذون هذه الأرض نظير تسفير الأولاد إلى البلاد العربية.. بالضبط مثل حركة المرابين اليهود القديمة فى الاستيلاء على الأرض الفلسطينية أو مثلما حدث فى مصر من خمسين سنة حين أخذ المرابون الأجانب يشترون الأرض.

وبالطبع ترك كل الذى تكلمنا عنه أثراً فادحا على الإنسان، فالإنسان المصرى البسيط فى هذه القرية هو كنز حضارى وعلمى ويختزن داخله كل

التاريخ القديم، بمعنى أننى أجلس للرجل منهم فأتعلم الكثير من الاقتصاد والاجتماع والفلسفة والتاريخ والأدب (والأدب الشفاهى بالذات) وهؤلاء الناس كانوا منابع للعطاء الأدبى، وبالتالى فإن مخزونهم كان كبيراً جداً من هذه الثروات الأدبية، وهم أنفسهم كانوا مصادر، أو منابع لهذا الإبداع الشعبى الذى إن دل فهو يدل على حضارة الشعب.

توقف هذا تماماً لأن الفلاح أصبح حين يقابلك يفتح أمامك الراديو والتليفزيون والفيديو والكاسيت فى وقت واحد. ليس لشىء إلا إظهاراً لأنه يملك هذه الأجهزة التى ـ ربما ـ لا تملكها أنت فى القاهرة، فهى ـ فقط ـ بالنسبة له مجرد وضع اجتماعى إذن فلابد أن تكون كل هذه الأجهزة مفتوحة، وبالتالى كف الحوار بين الناس فى القرية لأنهم ليسوا فى حاجة إليه، وانتهت الصلة العقلية بين الخلق الذين يسكنون مثل هذه المكان ويتعاونون على الطبيعة وعلى قسوة النهر.

كانت هذه القرية تعيش نوعاً من الجماعية الفريدة، والآن أصبح الرى رياً دائماً فلم يعد هناك خطر من النهر، وأصبحت الأخطار فردية، ومادامت الأخطار فردية، ومادام هذا الخلل الاقتصادى ـ الاجتماعى بلغ هذا الحد، فليواجه كل إنسان الخطر فردياً!

ومن هنا لم يعد الكبير كبيراً، ولم يعد الصغير صغيراً، واختل القانون القديم ولم يطرح قانون بديل له، وإنما طرحت قيم مشوهة، وفظيعة جداً وقاتلة، فانزوى الأصلاء والشرفاء ينعون حظهم، وأصبحوا فعلا هم الفئات التعيسة جداً فى هذه القرية، واختل قانون القرية (المغلقة تاريخيا على نفسها ـ ربما ـ من ٤٠٠٠ سنة) كما اختلت قيمها وموازينها.

وفى الواقع أنت لا تطيق ـ الآن ـ البقاء فى هذه القرية ساعة!

عندما نزلت إليها فى آخر رحلة وجدت أحد أبناء عمومتى (وهو من سنى) يمسك بالطوب، ويضرب «سبايط» البلح فى نخلتهم كى تنزل له بلح.. ووقفت أتأمله عشر دقائق وهو لا يرانى ثم دار بيننا هذا الحوار العجيب.

ـ «إيه يا منصور.. اتجننت!».

ـ «أهلا يا عبد الرحمن».

ـ «أنت راجل كبير... ومخلف ست عيال.. إيه الطوب اللى قاعد تضربه فى السبايط.. داحنا كنا نضرب العيال الصغيرة لما كانت تضرب البلح بالطوب.. لأن أنت لص تضرب سباطة.. البلح تصيب العرجون نفسه ويحدث شلل فى سباطة البلح ككل.. ليه ما تطلعشى تجيب بلح؟»

ـ «خبر إيه يا عبد الرحمن.. أنت مش شايف النخلة واللا إيه»

....

(نظرت للنخلة فوجدت ١٢ دوراً من الجريد بينما النخلة يجب أن تقلم كل سنة ويقطع منها الجريد الجديد، وكان معنى هذا أن النخلة لم تقلم منذ ١٢ سنة!!).

....

وصرخت: «ليه كده يا منصور؟.. ده أنا حافظ النخل ده كله وعارفه نخلة.. نخلة (فى هذه القرية لكل نخلة اسم، فحتى إذا كنت من جنوب البلد فإنك أيضا تعرف اسم آخر نخله فى أقصى شمال البلد).

ولكن منصور أجابنى: «ما هو الناس اللى كانت بتطرح النخل ده وتقلمه راحت الكويت وليبيا والسعودية ودلوقت عندهم عربيات وسواقين ومحدش دلوقتى بيطلع النخل»!

....

وبالتالى فإن محصول هذه القرية من البلح وصل إلى ما تحصل عليه بالطريقة التى اتبعها منصور ابن عمى، فإذا احتاج أحد أهل القرية بلحة ضربها، وهو بلح مـر ليس كالبلـح الذى كـان النخل يطرحـه زمـان لأنـه لا (يدكر) فلابد من تطريح النخل كل عام كى يصبح البلح حلوا انتهى كل هذا وتعيش قريتى الآن فى زمن البلح «الصيص» المر!

لم تعد هذه القرية منتجة، بعد أن كانت من القرى المهمة جداً فى إنتاج البلح، وكنت أعرف أسراً كاملة تعيش على محصول نخلتين ـ فقط ـ من البلح!

كان البلح يجفف على أسطح الدور، وهناك نخلة حمراء ونخلة سوداء، وبلح يؤكل أول العام، وآخر يؤكل فى منتصف العام وثالث يؤكل فى رمضان.

ولم يعد هذا ممكنا الآن ـ ولم تعد هناك نخلة من الممكن أن تصعدها، أضف إلى ذلك أن كروم النخل بأكملها والتى كتبت عنها فى (أحمد سماعين) و(حراجى القط) اجتثت كلها وبنيت بدلا منها عمارات.

اجتث هذا النخل ـ بلا رحمة ـ رغم أننى سأعيش وأنا أعلم أنه لا يوجد بلح آخر فى العالم مثل هذا البلح... فقد كانت كل نخلة هى عالم مستقل بذاته (السكوتى ـ المقرش ـ البصر) وأنواع وفصائل كثيرة.. كثيرة، ولكن النخلات أبيدت بقسوة وفى زمن قصير جداً.

امتد نشاط المال البترولى إلى القرية ودمر أفضل ما فيها...

....

وقد خلق هذا المال نوعاً من السلوك المتعالى والعقد الشديدة جداً، وفقرت

الناس مرة أخرى بعد هوجة الانفتاح، ولكنهم فقراء يملكون سرايات أو بيوتاً أسمنتية تقف الآن كالأشباح المفزعة، ويملكون أوضاعا قديمة، لا يريدون التخلى عنها، كما ارتفع ثمن الأرض الزراعية إلى أقصى حد يتخيله العقل، والقرية ـ الآن ـ لا تريد أن تنزل بأثمان الأرض الزراعية إلى الثمن الحقيقى الذى تستطيع من خلاله أن تتبادل المنفعة.. وبالتالى حدث نوع من التوقف الاقتصادى المميت، أو الشلل نتيجة التشبث بقيم طارئة كاذبه والذل فى مواجهتها.

أصحاب هذه القيم متشبثون بها، والآخرون يعتقدون أن زمام هذه القيم قد يعود مرة أخرى، فقد علمتهم التجربة أن الاستعمار والغزو ليس من الضرورى أن يكون فى شكل جيوش ولا جنود، ولكن من الممكن أن يكون على هيئة قيم أو أوراق مالية... وأن هذا الغزو قد يتكرر مرة ثانية أو ثالثة. بعدما خبروا قسوته فى الانفتاح الأول فى السبعينيات.

....

ما أريد أن أبلغك عنه أننى كتبت عن قريتى هذه عدة أعمال منها (جوابات حراجى القط). وديوان (الأرض والعيال). و(وجوه على الشط). و(أحمد سماعين) ولكن إذا قرأت أعمالى هذه ثم نزلت إلى القرية المصرية ـ الآن ـ فسوف تعتقد أننى أكبر كذاب أنجبته مصر، لأنه لا صلة للقرية التى كتبت عنها بهذه القرية الموجودة الآن والمعلق عليها لافتة اسمها (أبنود) !!

شهادة الشخصية المصرية:

«مصر ليست هبة النيل.. ولكن النيل هبة المصريين!»

*** «أفرز الوضع الاقتصادى - الاجتماعى فى الستينيات تعبيرات**

سياسية عنه، كما أفرز الوضع الاقتصادى - الاجتماعى فى السبعينيات تعبيرات سياسية عنه.

وقد حكيت لى كيف استقبلت القرية التعبيرات السياسية الأولى، ولكنك لم تحك كيف استقبلت ذات القرية التعبيرات الثانية؟

** حالة من اليأس!! وهى حالة تتعلق بتركيب الشخصية المصرية وعلاقتها مع الحكم على النحو التالى:

ففى السبعينيات عشنا خللا اقتصاديا مميتا، مع فقدان القدوة، مع فساد للإدارة السياسية، مع سقوط كثير من رموز الثورة نفسها، مع ارتداد النظام لما هو أبشع من أيام الملكية؟

كل هذا أدى لحالة من اليأس شديدة، وكان لابد من الانصراف عنها إلى ما يشبه الغيبويات، ومن هنا اتجه البعض للتطرف، و«الدروشة» وبالفعل فإن رقعة الدروشة كبيرة جدا فى قريتى الآن، وكما اتجه البعض إلى المخدرات بطريقة غير مسبوقة، وأذكر أنه خلال ٢٣ عاما عشتها فى القرية، كان هناك رجل واحد يشرب الحشيش، وكانت كل القرية تعلم أنه يشرب الحشيش وتشير إليه بالاصبع، أما الآن فإن العناصر التى لا تشرب الحشيش أصبحت من العناصر المستثناة والمعقدة!!

أما العناصر التى مازالت على قيد اليقين أو على قيد الوعى فهى عناصر قليلة جداً.

وفى هذا الإطار تجدر بالإشارة إلى أن الفلاح المصرى بطبيعة شخصيته ليس عنصراً قيادياً وهذا شيء أحب أن أتوقف عنده قليلا، فالشعب المصرى ليس شعباً ثائراً ولكنه شعب متحضر، شعب ولد ليرعى حضارة على ضفاف

هذا النهر العظيم، وهو بهذا المعنى التاريخى أول من بنى الأبنية العظيمة، وأول من هندس وخلق الهندسة، وأول من اكتشف الطب بمعناه المعاصر الذى نعرفه، وأول من صنع الآنية وتحاور مع المعادن وأول من قاس النيل وكبح جماع النهر، وابتكر الهندسة المائية على هذا النحو، وأول من صنع الطرق.. يعنى هذا الشعب منذ سبعة آلاف سنة، هو شعب متحضر، ولا يمكن لشعب حارس حضارة أن يترك له هذه الحضارة ويحترف الحرب، أو يمكن الأعداء من أن يهدموها، إذن فهو ينتظر مرور الأعصار ـ تاريخياً ـ منكبا على ضفة النهر وهو يعلم أنه لو ترك هذه النباتة وذهب إلى الحرب وعاد، فلن يجد لا النباتة ولا الأرض، ويصبح عليه أن يعيد صياغة الأرض من جديد، وبالتالى تمر عليه فترات من الظلم المهلك (من مستعمرين إلى صعاليك.. الخ) ويضرب بالأحذية وبالأقدام، ولكنه لا ينتهى، وإنما يظل منكبا لحراسه هذا الشيء الذى هو فى عمر الحضارة وعمر الزمن أبعد كثيراً من هذه اللحظة التى يهان فيها.

وسوف يعيش هذا الشعب فى ظل حاكم صالح كما يعيش فى ظل حاكم فاسد، ولن يشارك إلا بقدر ما يأمره هذا الحاكم بالمشاركة، ولذلك دائما ما يدعو شعبنا للقائد الصالح فى المساجد! وعندما يطلب منه القائد أن يشارك يذهب للمشاركة، فيقول له احفر قناة السويس فيحفرها، ويسوقه حاكم آخر لبناء الهرم فيبنيه، ويحول مجرى النيل، فالمجرى الحالى ليس المجرى القديم للنيل، وقد شق الفلاحون هذا المجرى الجديد، مصر ليست هبة النيل، ولكن النيل هو هبة المصريين فى مصر، وكل ما يتعلق بالنيل هو صناعة مصرية.

إذن فما يعنى المصريون هو صناعة وحراسة الحضارة.

الشعب لا يهمه الصلح مع إسرائيل أو عدم الصلح معها، لأنه لم يعاد

إسرائيل ولن يصادق إسرائيل إلا بمقدار ما يدور فى ذهن الحاكم أو بمقدار أوامره (دعك منا نحن المثقفون). وإذا سقت هذا الفلاح لإنجاز شيء فسوف يذهب معك، وإذا أمرته أن يبنى غابة مصانع فسوف يبنيها فى أقل وقت ممكن، وقد عشنا ورأينا كيف فعل المصريون فى السد العالى، وإذا طلبت من أبناء الشعب المصرى أيضا أن يذهبوا إلى آبار البترول فى قلب الصحراء المهلكة المحرقة فسوف يذهبون، فهو أكبر شعب يحتمل، وهو بهذا المعنى أول من اخترع الصبر.

ولذلك فإن الفلاح المصرى قد يصبر على ثأره العمر كله، ولكنه فى النهاية يأخذ هذا الثأر، والشعب المصرى ينتقم للإهانة صحيح أنه لا يترك زرعته ويقوم لرد الإهانة، ولكنه يعرف متى سوف تتوافر الظروف له كى يرد هذه الإهانة، ومن هذا الجانب فإننى أقول إن منطقنا ـ نحن المثقفين ـ مختلف عن المنطق السائد لدى شعبنا.

وحينما أقول (الشعب المصرى) فأنا أستبعد المثقفين تماما وحينما انظر إلى هذا الشعب المصرى أشعر أنه ليس من حقى، وليس من العدل أن يقبع هذا الشعب العظيم فى انتظار حكم بتقييمه من أى إنسان مهما كانت ثقافته..

الشعب المصرى صبور ومتحضر ومحب للحياة وللعمل وللبناء وللخلق، وهو فعلا عبقرى وتتفتح قدراته فى وجود الحاكم النظيف الشريف ذو الأهداف النبيلة، وينغلق جداً مع الحاكم الظالم. وعناصر الشخصية المصرية السابقة تجعل من الشعب المصرى انعكاسا للسلطة السياسية، ولكن فقط فى عصر عبد الناصر حاولت السلطة السياسية أن تكون انعكاسا لظروف المجتمع. وفى كل الحالات فإن دراسة علاقة الشعب بالسلطة تستوجب دراسة تفصيلية لسمات الهوية القومية لدى الشعب، كما تستوجب دراسة تفصيلية لآليات

هذه السلطة فى التعامل مع الجماهير، وأولها فكرة سيادة القيادة الجماعية من عدمها لدى هذه السلطة.. وفكرة الديمقراطية.. وفكرة علاقة المثقف بالسلطة وفكرة التنظيمات الحزبية وشبه الحزبية التى تنظم قوى السلطة والمعارضة.

(القيادة للجميع) فكرة ربما لا يعرفها المصريون أو يصعب تحقيقها بينهم، فإما أن يحكمهم حاكم، وإما أن يتحولوا إلى ٥٥ مليون حاكم.

فقد وضعت الحواجز بيننا وبين الحكم، وهذا يعكس (أزمة ديمقراطية) وعدم استيعاب من الدولة الفكرة الديمقراطية، فالإيمان بالحوار يتطلب نوعاً من الوعى والإنسانية، لا أظن أنه يتأتى لسلطة العالم الثالث التى سمعت عن الديمقراطية بالتلقين وليس بالتأمل والاستخلاص والتبنى.

إن احترام الرأى الآخر هو درجة من درجات النضج، أما السعى إلى الرأى الآخر، والسعى وراءه فهو مرحلة أبعد تتطلب نوعا من النقاء والنبوة يندر أن يتحقق مع أنموذج السلطة فى العالم الثالث اليوم.

وأما الشاعر الجماهيرى فى بلادنا فهو إما أن يصمت حين يبنى الجدار الخرسانى بينه وبين أمته أو يتحول إلى شاعر سرى أو يؤجر نفسه مفروشا لبعض الأنظمة التى تعارض نظامه أى التى قد تتفق مع الشاعر فى جوانب هامشية، فيقود الصراع (الصوتى) ضد حكامه، بينما هو يبيع ذاته للآخرين، فيستباح ويجامل، ثم لا يكتشف أنه يكذب، وأنه يبيع أشياءه أو يخلع ملابسه قطعة ـ قطعة!!

وأنموذج المثقف المصرى الهارب إلى أنظمة أخرى هو أنموذج ماثل للعيان أمامنا فى مصر بعد الفترة الساداتية.

لقد فقد هؤلاء المثقفين مصداقيتهم وطهرهم، وأصبحوا (أذكياء مبررون)

بل وفقدوا ـ حتى توهجهم الفنى ولغتهم القديمة المشعة، وأصبحوا مثل خريجى الكتاتيب القديمة فأصيبوا بالبطء واللفظية والبلادة.

فمصر ـ وهذه هبة من الله ولعنة ـ موضوع يومى، وإذا انقطعت صلتك به (بالنظر والمعايشة.. بالكره والحب.. بالمعاناة والفرحة) فإنها تخرج من الضمير إلى الذاكرة.

والذاكرة ليست كافية لأن تجعل من المبدع نبياً، أو حتى منظراً، أو خطيباً، ولذلك فهم ليسوا أصحاب حق فى هذا التعالى الذى يغزوننا به وكأنهم المستعمر، بينما نجدهم ـ فى الحقيقة ـ ذيولا لوزير أو خفير.. يجرون خلفه وقد غاضت دماء وجوههم دون إحساس بحرج منا معتمدين على صمتنا بسبب الاتفاق القديم الذى أخلوا ـ هم ـ بشروطه يوم غادروا أو يوم عادوا.

انظر إلى عيون الشعراء الذين أكلوا خبز الأنظمة الأخرى، وقد اختلطت فيها الهزيمة بالذلة والمسكنة ولتحاول ـ عبثا ـ أن تبحث فيها عن بريق الفرسان القدماء، ولا تحاول إقناعى بأن خبز هذا النظام العربى أو ذاك، يمكن يصلب قامة مجاهد مصرى فى مواجهة سلطته..

إنها أمور مريبة وغريبة والأغرب إننا صامتون بينما بدأوا ـ هم ـ فى فتح النار.

نحن لم نطفئ أسماءهم ولكنهم باعوا بريقها ببريق آخر كاذب وعليهم أن يتحملوا، وأن يدفعوا ثمن أكلهم خبز الأنظمة الأخرى والصمت يليق بهم لو يعرفون .

وفكرة الإيمان بالجماعة ليست بعيدة عن الحكومات ـ فقط ـ فلا شك

أن أحزابنا الثورية المنوط بها هدايتنا وهداية الأمة لا تقل نفوراً ولا كراهية للديمقراطية.

ولا يظهر ذلك إلا فى اللحظات الحاسمة، ففى الظلمة حين تقسوا الأمور يحتاجون إليك ويقربونك إليهم بل يضعونك فى أول الصفوف ذلك لأن الرصاص يحصد ـ دائما ـ الصفوف الأولى، وحين تنقشع الظلمة ـ قليلا، وحين تحدث تلك الانفراجات المرحلية يتخلصون منك أول ما يتخلصون لاقتسام الغنائم ولتبرئة أنفسهم أمام السلطة من تهمة التطرف.

هم يتبرأون منك فى السر والعلن ليحولوا الأحزاب إلى: (قطاع خاص)، وهذه صورة من صور الإنفراد بالسلطة وقمع الديمقراطية التى تمارسها السلطات الشاذة، ولو صعد هؤلاء إلى السلطة-ربما ـ لعاملونا بأسوأ مما تعاملنا الحكومات الحالية.

وأنا أقول: (لو صعدوا) إلى السلطة، ولا أقول: (لو استولوا فى فعل ثورى) الذى يعنى أن يخرج الحزب من حركة الجماهير ونضالها ملتحما بها.. قائداً لها، ومخططا لها ومنفذا، بينما أحزابنا قائمة على ارتباط وهمى أو أدبى رومانسى بالجماهير وليس ارتباطا واقعيا عمليا يؤدى إلى نتائج محددة ملموسة، فهى أحزاب أفراد، وليست أحزاب كتل، وقيادتها للنضال فى بلادها هو تصور وهمى لا يغادر عقول أصحابه إلى أرض الواقع ولا يراه إلا من يتصوره.

إن الإيمان بالديمقراطية يتطلب رغبة فى المعرفة.. أولا لقص العزلة بين الطليعى وشعبه، وهو يتطلب صبرا على هذه المعرفة، أما الإيمان بأنك (أبو العريف) وأن الآخرين جاهلون فمرده إلى أنك لا تريد المعرفة أو لأنك تتآمر ـ بإدراك أو بغير إدراك ـ على الآخرين لترث مكانك الهزيل على عرش هزيل يطير مع أول هبة رياح جماهيرية حقيقية.

إن الحزب الذى يتصارع من الداخل حتى تهرب منه جماهيره الواسعة يعكس فراغا رهيباً فى الانتماء لهذه الجماهير، وعبثية فى العلاقة بالشعب وثورته ويعكس مأساة الانفراد بالقيادة والسيادة غير عابئ بأصوات المحتجين، ويعكس عدم الإيمان بأحقية الآخر فى التواجد مهما كانت قيمته والحاجة إليه.

هم ينظرون للحكم على أنه تركة خاصة ويجب أن تستمر كذلك ولهذا تنفض الجماهير.

فليس للجماهير مثل هذه القدرة العبثية والنزوة الفكرية.

الجماهير لا تتبع إلا أفكاراً محددة تتفق وأمورها وهمومها.

الشعب المصرى وارث حقيقى لفكرة تالية الملوك، ويجلس قيادة الثورة فى النهاية وبعد تصفيته فرداً فرداً، وجزءا جزءاً وعنصراً عنصراً، أصبح نظام حكم لعبد الناصر، وأصبح كل من كانوا عبد الناصر ظلالا لهذه الشخصية، لأن مصر ـ فى الواقع ـ لا يمكن أن تتبع مجموعة.

إذا لم يكن الحاكم إلهاً فإن مصر تصنع منه إلها، ودائما كان الملك عند الفراعنة يجىء ملكا فحسب، فيصر الشعب على أنه الإله، فيؤلهه.. فإذا ما تأله الإله، وآمن بأنه إله، وحكم على أنه إله ثاروا عليه، وجاءوا بملك آخر، ويلعبون نفس اللعبة معه، وتكشط المسلات والجدارات القديمة للحاكم القديم، ويوضع بدلا منها الصور الجديدة للحاكم الجديد بأمجاد لم يحققها ـ فعلا ـ وليس له بها أية صلة..

وإذا نظرت فى عصرنا الحديث، نجد أنه منذ يوليو فإن ذلك أيضا يحدث من المصريين، وهذا هو سبب الاضطراب فى التاريخ، وتشوش النماذج واختلاط الصور والوجوه.

طوال فترة عبد الناصر ـ مثلا ـ كان الشعب مع عبد الناصر كى يكون زعيمه الأوحد، وكان عبد الناصر هو الرمز وهو الرئيس وهو الملك.. وهو كل شيء.

وبعد عبد الناصر جاء السادات وبصناعة محلية بحتة وبأنموذج قديم جداً فى التاريخ وبجوقية منشدة، ورائعة العزف والغناء والاحتفالية استطاعوا أن يجعلوا من السادات هذه الشخصية التى عرفناها..

....

مصر لا تعرف سوى عبادة الفرد، وهى أول من اخترعها.

شهادة التجمع:

«وأصبح التجمع، قيادة بلا جماهير»

*** فى كلامك عن القيادة الجماعية، وفى كلامك عن الديمقراطية كنت تشير إلى أن المفهوم الذى ساد تفكير الأحزاب كان هو نفس المفهوم الذى يسود تفكير السلطة.**

وإشارتك إلى هذا تردنا إلى ما بدأنا به أصلا حين ذكرنا كيف استقبلت القرية نظاما اقتصاديا - اجتماعيا بتعبيراته السياسية فى الستينيات، ثم كيف استقبلت ذات القرية نظاما اقتصاديا - اجتماعيا مغايراً بتعبيراته السياسية فى السبعينيات.

ولكنك لم تتعرض للتفاصيل أبداً، ولم تشر إلى التشكيلات الحزبية التى تتكلم عن الثورة كثيراً أو عن الجماهير كثيرا وعن الاشتراكية كثيرا، وأعنى بها تلك الدعوات التى حملها حزب التجمع.. ونوع استقبال القرية لها؟

ثم كيف استقبلت أنت علاقتك بهذا الحزب كمثقف وكيف أدرتها أو أدارها الحزب نفسه معك؟

** أولا: استبعد قريتى من هذا الأمر فهى لم تسمع بهذه التشكيلات، الحزبية لا من قريب، ولا من بعيد، ولم تحاول أن تعرف - حتى كيف يفكرون.

ونحن نعرف أن الأحزاب يجب أن تنزل لهؤلاء الناس، وأن يكون لها طلائعها أو جنودها أو «بوسطجييها» الذين يذهبون إلى أقصى مواقع العمل فى أقصى أنحاء الأرض المصرية، وهذا لم يحدث على الإطلاق، فقد انحسر دور هذه الأحزاب عن الجماهير فى ظل هذه الفكرة الوهمية عن الجماهير والتى حدثتك عنها قليلا.

نعم ذهب أعضاء هذا الحزب إلى أماكن كثيرة وشاركنا فى كثير من البقع الانتخابية العلنية والساخنة، ولكن ذلك لم يتعد الأمسيات الشعرية والغناء الثورى.. أما العمل السياسى الحقيقى، ودور المثقف الحقيقى الذى لا يتعيش من قلمه ككاتب قصة أو شاعر أو مقال ليس المثقف - بالمعنى اللينينى - الذى يكون طبيباً أو مدرساً يتبنى أفكار هذه الطبقة التحتية ويحاول إزاحة هذا الوعى الكاذب للطبقة التحتية ويرد لها وعيها الغائب المفقود، وينخرط فى صفوف حزب له صفوفه وله تشكيلاته.. وله تشعباته وخريطته.

هذه الفكرة لم تحدث.. ولم يحاول أحد أن يقترب من تحقيقها.

* لماذا؟

** لأن معناها أن ترتطم رموز هذا الحزب بالسلطة - حقيقة - ولا يصبح هناك مجال للعبث أو المزايدة.

**** وهل عند هؤلاء الذين يتكلمون فى المجتمع - كثيراً - عن الارتطام بالسلطة، والصدام مع قناعاتها، موانع أو كوابح تمنعهم من تبنى مثل**

هذا المفهوم ليصبح ما يقولونه على الورق وفى الميكروفونات، هو نفس ما ينفذونه فى الواقع؟

** حين أنشئ حزب التجمع قامت إليه جماهير غفيرة من كافة أنحاء مصر، وربما كان جنوده أكثر عدداً من كل الأحزاب المطروحة على الساحة.. أما الآن فاختفت الجماهير ولا يوجد إلا القيادات السياسية.

*** أين ذهبت الجماهير؟**

** هذه علامة استفهام كبيرة جداً.. ثم لماذا ـ ومنذ وقت مبكر جداً انسحبت هذه الجماهير من الحزب؟ .

طبعا أنا لا أتجاهل ماصنعته السلطة من إرهاب وتخويف وقطع معايش لهؤلاء الناس ولكن كل حزب قوى فى العالم معرض لهذا، وكل حزب حقيقى يجب أن يعلم أنه وجنوده سوف يدفعون ثمنا غالياً على حساب أعمارهم وحياتهم وأمنهم، فهى معركة شرسة بالقع (طبقة فى مواجهة طبقة) وليس فيها هزار... فالأمر لن يحل بالقصائد ولا بالمقالات الأدبية إطلاقا، ولكنه صراع وصراع حقيقى، فالثورات التى قامت فى العالم هى دماء فى الشوارع وناس فى السجون ودبابات ورصاص وشهداء.

ونحن نرى هذه القصة فى كل بلاد الدنيا.

فإذا كانت قيادة حزب التجمع ـ أصلا ـ غير مهيأة لأن تلعب هذا الدور، فهذا الحزب، فى الواقع ـ يصبح حزباً أدبياً، أو تشكيلا أدبياً يسارياً...

....

أما عن دورى فى هذا الحزب وعلاقتى به.

فأنا ـ أولا ـ لم أُسَمِّ التجمع بأنه (حزب) فدائما أقول: «التجمع» وأعنى الكلمة التى تشير إلى أنه تجمع لكافة أو لمعظم المثقفين الشرفاء، وفى ظروف

معينة ومحددة يصبح عدم الارتباط بهذا البدن التجمعى الكبير لقوى مختلفة شريفة ووطنية هو لون من الخيانة.

وثانيا: عندما قابلت السادات عام ١٩٧٦ ثارت ضجة كبرى فى أوساط اليسار عن علاقتى بالسلطة.

وأى شاعر له محبة أو له رقعة فى قلوب الناس، من حق هؤلاء الناس أن يتساءلوا عن توجهاته ـ بصوت زاعق ـ كما يحدث معى فى كثير من الأحيان، ولكن هذا ـ أبداً ـ لم يزعجنى. ولكن ما يزعجنى أن بعض قوى اليسار تلعب معى نفس الدور الذى كانت تلعبه بعض قوى الأمن فى تشويهى، ليصبح كل همى أن أنزل إلى مقاهى المثقفين وأعيد رسم وجهى.

ولذا كان يجب أن أعلن للسادات (عمليا)، لأننى أعلمته (صوتيا) وأصر هو مع ذلك على قيام العلاقة، فكان لابد أن أعلنه (علميا) إلى أى تيار أنتمى.

وهنا خرجت من بيتى وذهبت إلى التجمع، ولم أجد أحدا هناك ينتظر هذا أو يتوقعه وبالفعل ذهبت ـ فى هذه الظروف الصعبة وانتميت لهذا التجمع.. وأذكر أن صلاح عيسى هاجمنى بشدة يومها، إذ سألنى كيف ألتحق بحزب لم أعرف خطه السياسى، ولم أقرأ لائحته ولم أناقشه ولم أحاول تعديل الصيغة كى تصبح ملائمة لى وله، وأذكر أننى أجبته ونحن نازلين من قاعة الشعب باللجنة المركزية: يا صلاح-أنا لم أدخل حزبا ولكننى دخلت تجمعا وطنيا. والتجمع ـ بهذا المعنى ـ ليس حزبا وقد تكون بداخله تنويعات حزبية، ولكن فى المجمل هو ليس حزبا.

**** رسمت صورة للتجمع بأنه أصبح - فى النهاية - مكانا لقيادات سياسية دون وجود جماهير، وأود أن نضع بعض الرتوش على صورة**

يرسمها بعض أعضاء الحزب لهذه القيادة بأنها أصبحت تمثل مجموعة حزبية بعينها، دون مجموعات أخرى تشكل بين الحزب وهيكله؟

** قيادة التجمع قيادة شريفة بالفعل، وهى من أكثر القيادات السياسية ـ المطروحة على الساحة ـ نقاء ـ ولكن هذا ليس الموضوع الأهم، فأخطر الظواهر هى أن التجمع لم يخسر ـ فقط جمهوره أو ناسه أو القوى التى كانت متوجهة إليه وراغبه فيه، وراغبة فى أن يقودها، بل خسر ـ حتى ـ اللعبة اليومية فى السياسة المحترفة التى تمارسها الأحزاب!!!

ولا شك أن التجمع أصبح فى ذيل الأحزاب حتى على مستوى الصراع الحزبى الفوقى.

كما لم يوفق التجمع فى أن يغزو هذه القوى بجماهيره، ولم يوفق ـ منفرداً ـ فى أن يتبوأ له مكاناً متميزا بين الأحزاب سواء على مستوى التعامل مع الدولة، أو على مستوى ـ حتى ـ التعامل مع الأحزاب.

ظل هذا الحزب نشازاً، وظلت السلطة ـ دائما ـ قادرة على تشويه مواقفه، وظلت الجماهير تبتعد عنه شيئاً فشيئاً، ودمرت جريدته وانهارت على النحو الذى رأيناه ولا يمكن أن يحدث هذا إلا إذا كان هناك صراع داخلى وتطلعات انتهازية واضحة لتحويل الجريدة إلى (قطاع خاص) مثلما تحول الحزب من قبل.

وقد آن الآوان لطرح الصراعات الحزبية السرية والخفية فى تيار اليسار، لأن إخفاء رأس اليسار فى الرمال لا يجدى، لأن الصراعات تأكل بدن هذا اليسار.

....

وجودنا ـ الآن ـ فى التجمع هو من قبيل الوقوف فى الساحة حتى آخر قتيل.

وعدم الاستقالة هو من قبيل الحرص على عدم تعريض الحزب للمتاجرة باستقالاتنا.

أى أننا موجودون فى هذا الحزب وغير موجودين فى نفس الوقت... لأننى أعتقد أنه ربما تأتى ظروف عصيبة تمر على الأمة فيجد اليسار نفسه مخطئاً ـ مرة أخرى ـ فى حق جنوده المخلصين، وفى هذه الحالة سوف يجدنا أيضا واقفين معه.

فهذه ـ إذن ليست فرصة للفرار من الحزب، وإن كانوا ـ هم ـ يعتقدون ذلك، فهم يرون أن للفنانين لونا من الميوعة السياسية، فأحيانا يقتربون من الحزب، وأحيانا يهربون منه.

يقولون هذا، بينما أشهد أن وجهة نظرى لم تحترم أبداً فى حزبى هذا..

شهادة الأهالى:

«الجريدة ليست معبرة ـ عن قوى اليسار!»

*** فاجأتنى فى الحلقة الماضية بكل هذا الذى قلت عن التجمع وعن علاقة القرية بتيار اليسار، وعن علاقتك (شخصيا) كمبدع ومثقف بالتجمع (حزيك) ..**

ولكن جانباً هاماً من الموضوع لم يظهر فى شهادتك عن «التجمع» وهو جريدة الحزب (الأهالى) التى تعد التعبير الأوضح (على الأقل أمام الناس) عن حزب اليسار فى مصر وعن أفكاره أو أهدافه.

كيف تأثرت هذه الصحيفة بما حكيت أنه يجرى داخل التجمع.. وهل وصلت هذه الصحيفة للناس؟

** الصراع حول الجريدة استنفد طاقة الحزب.

ولم يحسم الأمر إلا منذ شهر مضى، وربما حسم لصالح قوى داخل التجمع، ولكن لم يحسم لصالح الجريدة!

ثم إن الجريدة بكل الأحوال ـ ليست معبرة، لا عن قوى اليسار (التى أنا واحد منها) ولا عن القوى الشعبية الجماهيرية الحقيقية..

وقد ارتكبت هذه الجريدة (الأهالى) فى الماضى: الكثير من الأخطاء القاتلة فى حق اليسار تتحملها نحن ـ بحكم تواجدنا معه فى ساحة واحدة حتى بعد أن انفض «الارتباط» بيننا وبين الحزب.. وفى نفس الوقت فإن هذه

الأخطاء القاتلة باعدت بين الجريدة وبين الجماهير، وربما كانت (الأهالى) هى الجريدة الوحيدة التى لا تشترى ولا يزيد توزيعها منذ سنوات ليست بالقليلة.

والأمر لا ينفصل بين حال الجريدة وحال الحزب.

فخلال اعتماد التجمع (كحزب) من خلال التجمعيين، فإن بعض هؤلاء التجمعيين ربما كانوا يعنون حزبا آخر تنامت قواه حتى تمكن من ابتلاع التجمع.

ولم يبق من هذا التجمع سوى لافتة.. (التجمع)..

وعبر كل هذا الزمان ـ منذ أن ظهر الحزب ـ لم تقم دراسة واحدة جادة للواقع المصرى.. أو واقع القرية المصرية (وهى موضوعنا الذى نتحدث عنه فى هذا الحوار).. ولم تجرا دراسة جادة ـ مثلاً ـ عن المسألة الزراعية.

وحتى القوى التى عملت بصدق وإخلاص مثل جماعة د. على نويجى فى كفر الشيخ ومجموعات أخرى، فقد ظلت منفية داخل الحزب وتعامل نفس المعاملة التى نتعاملها نحن ليس كتجمعيين أصلاء، ولكن كتجمعيين مرحليين يتحالف معهم الحزب أحيانا، ويعاقبهم أحيانا، ويضع العراقيل فى طريقهم أحيانا، مما يدل على أن فكرة (التجمع) هذه لم تكن إلا فى رؤوسنا نحن.. أما هم فكان فى رؤوسهم شيئا آخر.

وإذا كنا نذكر هذا الكلام فى معرض الحديث عن القرية المصرية وعلاقتها بكل ما كنا نتكلم فيه.. فتعال نتحدث حديثا جاداً عن القرية المصرية ـ وصلتها بالسياسة.. وعن كيفية قيادة الفلاحين المصريين وهم ـ كما نعلم ـ تركيبة خاصة جداً، وطبقة عقد الزمان والتاريخ موضوعاتها وشخصياتها بحيث أصبحت لا تعرف إذا ما كان هذا الفلاح الواقف

أمامك.. هو هذا الفلاح الواقف أمامك.. أو أنه يخفى فلاحاً آخر لا تعرف عنه شيئا.

ولكى نحل المعادلة بين (الفلاح ووجهه) بين (الفلاح وصوته) بين (الفلاح وفعله) فلا بد أن نفهم من هو هذا الفلاح.

الفلاح المصرى لا يمكن أن يكون بهذا اللفظ البسيط: (الفلاح المصرى) هذه لفظة زائفة شديدة الزيف تخفى عجزا وكسلا فكريين وبلادة فى الرؤية.

الفلاح المصرى هو حسبة قبلية واجتماعية واقتصادية وسياسية ودينية.. وإذا لم تحلل هذه العناصر وتردها لأصولها التاريخية وتتبع مسارتها إلى أن تصل إلى آخر فرع فى الشجرة حيث تخرج هذه الثمرة (الفلاح المصرى) فلن تستطيع أن تعرف نوع هذه الثمرة.

الصعيد المصرى ـ مثلا ـ تتابعت عليه مجموعات وملوفانات من الهجرات من الجزيرة العربية ومن اليمن حتى قبل انهيار سد مأرب، وقبل الإسلام بقرون طويلة.. وهذه الهجرات أتت كأسراب الجراد وتقابلت واحتلت أماكن فى صعيد مصر. وحمت عصبيتها بالسلاح وبالقوة، لاحتلال الأماكن والوضع الاجتماعى.. ولم يتقاتل قحطان وعدنان فى الجزيرة العربية كما تقاتلا فى مصر.

هل يعلم اليسار المصرى هذا؟

هل يعرف أن صعيد مصر يتقاسمه الحجازيون واليمنيون.. وهل نجرؤ على أن نتصارح بهذا، وهل يعرف أن هذه القبائل لها بطون وأفخاذ وأذرع وتفريعات صغيرة، وأن كل إنسان فى هذه المناطق ـ يمشى حسب قانون القبيلة حتى اليوم؟

هل يعرف اليسار المصرى أن الصعيد يمشى على خريطة قبائل، وأن لهذه القبائل أهداف ومعتقدات وثأرات، وحسابات لاصلة لها بالسياسة، وإنما لها صلة بما قبل الإسلام ـ ربما ـ بخمسة أو سبعة قرون؟.

هؤلاء الناس ـ إذن ـ لن تستطيع أن تجعلها تخلع رداء القبيلة ليتحول الفرد فيها إلى مواطن (مجرد مواطن) ويلتف حولك، ويمشى خلفك بالخطب فهو لا يمشي وراءك إلا بالوعى بهذه الحالات التاريخية المعقدة جداً، ولذلك فمنذ زمن طويل يترك أهالى القبيلة أمر هذه القبيلة لرئيس القبيلة.

وكانت الانتخابات تتم فى مجلس الشيوخ ومجلس النواب فيما قبل الثورة على أساس قبلى بحيث يؤخذ من كل قبيلة رجلها (الأشراف ـ الحمدات ـ الجبلان ـ الهواره ......الخ) وطالما أنك أخذت رجل هذه القبيلة، فإن القبيلة مع نظام الحكم السائد أياً كان..

فقط مطلوب من رجل القبيلة هذا أن يصارع جيدا ويقاتل جيدا أثناء الانتخابات، وإلا سيذهب مقعد البرلمان لرجل من قبيلة أخرى، ومعه سينتقل مشروع رصف الطريق من المناطق المحيطة بإقامة قبيلته إلى المناطق المحيطة بقبيلة أخرى.

أما التبنى الحقيقى لفكرة السياسة فهو قضية غير موجودة.

ولذلك نتعجب طويلا ونقف كثيرا عاجزين أمام هذا (الصبر) وهذه (السلبية) للإنسان المصرى، وعدم مشاركته الحقيقية فى العمل السياسى ـ ويعجز المثقفون أمام تفسير الظواهر.

لماذا يهب الشعب المصرى فجأة ـ مثلا ـ بدون مبرر، أو اتفاق، أو موعد، على حين أنك حينما تنتظره ليخرج لا يخرج؟

وهذه الظاهرة ـ حتى الآن ـ تشبه الظواهر المتيافيزيقية ـ ينظر لها المثقف بعجز وبتجاهلها مع أنها مقتل للعمل السياسى فى مصر.

الفلاح المصرى ـ كما قلت لك ـ كيان متحضر مرت عليه ظروف من الإبادة والإهلاك والإفناء، ولكنه ظل صامداً يحرس هذه النباتة على شاطئ النيل.

أنت تضربه ـ مثلا ـ فيؤجل ثأره إلى أن يتم عملة الحضارى، فهو حارس حضارة النيل منذ القديم، وللنيل طريقته فى التطبيع فقد طبع أسلوب حياة هذه القبائل، ولكنه لم يطبع عقلها وأفكارها، وتوجهاتها وأهدافها الأصلية.

ألم يفكر أحد أبداً فى تاريخ المعارك الطاحنة التى دارت بين سكان الضفة الشرقية والضفة الغربية للنيل، أو بين سكان الشمال والجنوب فى صعيد مصر؟

وقد يبدو وأننى أتكلم عن مجتمع آخر فى أفريقيا مثلا.. ولكن هذه حقيقة لابد أن تفهمها فهماً جيداً، كما يجب أن نفهم أن الفلاح المصرى لم ينفلت من قانون القبلى طوال تاريخه سوى فى فترة واحدة هى فترة حكم جمال عبد الناصر.. فلقد صدقت الجماهير صوت هذا الرجل وتوجهاته وآمنت به.

فلأول مرة يبدأ الفقراء فى التمرد على زعماء القبيلة لينتموا إلى بدن واحد ثقة فى هذا الرجل الذى خرج من الصعيد، ولكن عبد الناصر فوت هذه الفرصة. فقد كان يلتف حول الجماهير، ويحقق ما يريده هو، ولم يجعل من الجماهير كيانه الثورى. أو جيشه الخاص يهتف به أو يصيح عليه فيخرج خلفه، وقد كانت الجماهير تخرج خلف عبد الناصر.. دون أن يطلب منها

عبد الناصر، وحتى عندما كانت تخرج خلفه، فإنه كان يحول هذا إلى لعبة سياسية.

وبموت عبد الناصر انسحبت الجماهير بهدوء إلى داخل قمقمها القبلى، واستطاع السادات أن يلغيها.

والسادات كان رجلا ذكياً ويفهم مصر أكثر مما فهمها عبد الناصر، وأكثر مما يفهمها أى يسارى فى هذه النقطة بالذات.

فالسادات كان يعلم مدى تخلف الواقع المصرى لأنه فلاح ـ بالفعل ـ ولأنه يعلم ما هى القوى الحقيقية.. والأفكار الحقيقية التى تحكم الريف المصرى.. ولذلك استطاع أن يقود مصر (عبر التخلف) ويحول المجتمع إلى مجتمع آخر، فهو يعلم أن القانون القبلى قائم، والتخلف موجود، ولهذا استطاع أن يعيد مصر لما قبل الظرف الاستثنائى (لقيادة عبد الناصر) فى خمس دقائق.

....

وما لا يفهمه اليسار أنه لم يصل إلى قريتى فى يوم من الأيام.. ولا بواسطة عبد الرحمن الأبنودى، لأن قرية عبد الرحمن الأبنودى يحكمها قانون خاص.. وإذا لم يستوعب اليسار فكرة القبيلة التى هى منهج وتوجه وعقيدة ووجهة نظر، ورؤية لدى القوى الحقيقية صاحبة الحق فى التغيير والمنوط بها صنع الثورة، أو وقود الثورة كما نسميها بسرعة أو ببلاهة.

إذا لم يكتشف هذا ـ بالفعل ـ أو تكتشف طريقة للخروج بهذه الجماهير من هذا القانون نحو قانون يتبنونه بشكل جماعى، ويرون فيه أفضلية على قانونهم الذى حماهم عبر عصور الإبادة والظلم والموت والهلاك، إذا لم يحدث

هذا فلن يحدث ـ على الإطلاق أن تلتحم (طليعة) الكتب (بجماهير) الفأس.

شهادة التطرف:

«وظل الفلاح فى قريتى يفرق بين دينه وبين الجماعات المتطرفة».

*** ومع هذا الانسحاب - الذى وصفته - لقوى اليسار من ساحات وجود الناس واهتماماتهم، فإن الجماعات الدينية كانت قوة جديدة تدعى - ضمن ما تدعى - أنها وريثة التخاطب مع الجماهير، وأن لها هذا (التوكيل التجارى) فى التعبير عن الجماهير أو مخاطبتها.**

لماذا نجحت هذه الجماعات.. حين فشل غيرها؟.

** لاحظ أن التكوينات الدينية كانت موجودة منذ قديم الزمان فى القرية المصرية. وإن كانت تأخذ صوراً فنية ـ إن جاز التعبير ـ سواء كانت هذه الصور مسرحية أو غنائية. كما كانت تأخذ شكلا اجتماعياً يمارس أنشطة من السلوكيات الطيبة بين الناس.

فهناك ـ كما تعلم ـ مجموعات من الفرق أو الطرق الصوفية وهى تكوينات جاهزة تمارس ـ دائما فعلها بين الجماهير، مثل الشاذلية (نسبة إلى سيدى أبو الحسن الشاذلى) أو الرفاعية (نسبة إلى سيدى أحمد الرفاعى).

والكثير من هذه الطرق الصوفية كانت تمارس المدائح والأذكار والغناء الدينى، وفى نفس الوقت تجمع أموالا قليلة لتسهم فى تسفير جثة ميت، أو فى الوقوف إلى جانب أسرة منكوبة...الخ.

ولم تتجاوز هذه التشكيلات ـ فى يوم من الأيام ـ هذا الدور، ولكنها كأبنية فكرية واجتماعية كانت ترتبط بداخل كل الواقع التحتى والقبلى للريف المصرى ومكانتها فيه ثابتة، فهذه التشكيلات هى جزء لا يتجزأ من التقسيمات القبلية لأنها فرق ـ أيضا ـ وشيع أيضا.

فالشاذلية غير الرفاعية وإن كانت (فى السلوك النهائى) تمارس بلع الأمواس وخرم الأصداغ بالسيخ، ووقوف عدة رجال أشداء على جسم رجل راقد يضع سيفا على صدره، وكذلك بالنسبة للرفاعية وهم حواة الثعابين والعقارب، ويمارسون مهمات طبية مختلفة.

وعندما كان الناس يقيمون مناسبة، كانوا يحضرون هؤلاء المحترفين المنتمين إلى فرق دينية طلبا لنيل البركة.. ومازال هذا يمارس حتى الآن.

....

الدين هو شيء أساسى فى القرية المصرية، وهو شيء أساسى ليس لأننا مصريون ولكن لأننا عرب.

وقد حمت مصر الدين الإسلامى أكثر مما حماه أى قطر عربى آخر، ليس فقط لأننا مصريون.. بل لأننا عرب.

ونحن عرب عباقرة لأن عقولنا مصرية!!

ونحن عرب بالتعقيدات الاجتماعية وبالانتماءات الحقيقية وبمصادر النزوح الأول من الجزيرة إلى وادى النيل..

الدين إذن شيء أساسى فى القرية المصرية.. أما إذا كنت تتكلم عن التشكيلات الدينية السياسية فهذا موضوع آخر.

....

ففى فترة الناصرية، لم يستطع الاخوان المسلمون أن يحققوا أية مكانة داخل القرية المصرية، ولكنهم حققوا بعض الأماكن داخل المدن الصعيدية، وكنا (ونحن شباب) نذهب لنلعب، البنج بونج، فى أنديتهم ونحضر الأمسيات التى نتعلم فيها شيئا من الخطابة.

ولكن ـ فى الواقع الحقيقى ـ فقد ظلت القرية المصرية بمنأى عن كل

هـذا، كما ظلت بمنأى عـن التأثيـرات الفكرية الأخـرى للتقدميين أو للشيوعيين.

وفى فترة الناصرية ـ أيضا بدأ الناس الانتمـاء لعبد الناصـر، ولـم يعـرفوا ما هى (الناصرية) التى تقال ـ على طريقة الناصريين ـ هذه الأيام.

....

ومع فترة السادات.. ومع انهيار المشروع القومى.. وانهيار الفكرة الأصلية للتوجه، حدث فراغ فظيع ومرعب فى الذات المصرية والروح المصرية، وكان لابد لهذا الفراغ أن يتم ملؤه.

ولم يتقدم اليسار ليملأ هذا الفراغ، أو ليقص المسافة بين الإنسان وبين هلعه من غياب الهدف القومى الواحد.

فغير صحيح أن الناس كفرت بعبد الناصر بعد حرب ١٩٦٧ كما أن عدد الشهداء لم يمثل ـ فعلا ـ للشعب المصرى أى إحساس بفقدان صلتهم بعبد الناصر على الإطلاق.

كل ما حدث أن السادات انتقى الرموز القبلية القديمة وكون بها تشكيلات فى المجالس السياسية والشعبية، بالإضافة إلى رموز اقتصادية فى المدن الكبيرة، تمثل الطبقات الاقتصادية حتى ـ ولو ـ فكرياً.

ومن هنا عادت الرموز القديمة الملكية والاقطاعية، بالإضافة لرموز الفكر الرأسمالى القديمة والجديدة لتتبوأ مكانتها السياسية والاجتماعية.

وكان السادات يعرف ماذا يفعل.

ومن هنا فإن السرعة التى تم بها هذا الأمر أحدثت هذه الهوة الرهيبة داخل روح وفكر الإنسان المصرى البسيط الذى لم يكن أمامه سوى الارتداد للدين.

....

وبالنسبة للدين، فطول عمر الفلاح المصرى يصلى ويصوم، ويزكى (وهو الفقير).. وهذه الفكرة هى ونسه.. بحثا عن الآخرة، حيث إنه قد عرف ـ من قبل ـ أنه لن يأخذ حقا فى هذه الدنيا، وبالتالى اتجه إلى الآخرة. وكانت فكرة الدين هى رداءه الملائم.

ومن هنا نشطت الجماعات الإسلامية واستطاعت أن تنتخب بعض الشباب الذين كنا نؤمل فيه أملاً كبيراً، واستطاعت ـ فى ثوان ـ أن تجعله يكفر بكل التجربة الناصرية.. وتجعله.. يكفر بكل معانى القومية والوطنية، وأن يرتد إلى أفكار سلفية للبحث عن فكرة (النقاء العربى الأول) وصياغة المجتمع ـ من أول وجديد ـ على أساس الفكرة الإسلامية. حيث إن كل مشروع آخر فشل ـ فى نظرهم ـ طوال هذه المسيرة الطويلة، وهذا هو الخطأ الذى وقعت فيه الجماعات الإسلامية، وهو تجاهل الواقع وما حدث فيه من تغيير، فحتى الرجل الذى سافر وهاجر وأحضر الفيديو والثلاجة. انتقل ـ بالفعل ـ إلى مرحلة فكرية ثانية، بالرغم من سلبية الأمركله، إلا أنه انتقل فكريا ـ فعلا ـ ولن يستطيع أن يكفر بالثلاجة بحثاً عن الجرة، ولا بالبيت ـ الذى بناه بعرق عمره بالأسمنت ـ لكى يعود إلى الخيمة.

ومن هنا ظلت الجماهير ـ ككتل ـ يشتد عندها الإقبال الدينى، ولكنها لا تتورط مع الجماعات الإسلامية.

وظلت الناس حذرة منهم لأن حركتهم مليئة بالأخطاء أصلاً ـ حتى على مستوى السلوك اليومى، فهم يحملون الدين ما لا يحتمل، ويخنقون الناس فى حركتهم اليومية.

الذى حدث أن بعض العناصر دخلت التشكيلات الدينية فعلا، ولكن القوى الاجتماعية لم تكن معهم، ولم يستطيعوا السيطرة عليها تماما مثل اليسار، وإن كانوا هم أنجح من اليسار قليلا، إذ نجحوا فى المروق إلى القرية أو كسر أسوارها وتجنيد بعض الناس فيها.

ولكن تجنيد بعض الناس لا يكفى لتغيير المجتمع.. خاصة وأن هذا المجتمع متوجس منهم.. وحتى فى أبعد الأماكن وفى أصغر القرى يحمل المجتمع توجسه الخاص من هذه الجماعات الإسلامية ويفرق بين دينه ودينهم.. وإذا ضيقوا عليه الخناق فى المسجد فهو يذهب ليصلى.. فى الحقل.

والجماعات الإسلامية ـ فى حركتها لا تنظر ـ حقيقة إلى الناس، وليس هدفها الناس وربما كان فى مخططها أن تضحى بكل الناس فى سبيل تحقيق الفكرة.

وهذه مسألة عبثية، ربما يمكن أن تصبح فكرة فنية، ولذلك تجدهم يمارسون سلوكيات عجيبة جداً مثل: (ممنوع الأذان على هذه الطريقة ـ أو ممنوع فتح راديو).

وهم يدخلون فى معارك مع الناس بأكملهم، إذن كيف يمكن إذا كان الناس هم هدفك فى النهاية، وأنت تسعى أن تقيم العدل بين هؤلاء الناس لهؤلاء الناس، كيف يمكن أن تعاديهم إلى هذا الحد، وأنت مازلت على الشاطئ ولم تخض معركتك الحقيقية؟

هذا ـ بالطبع ـ إلى جانب عدم وجود استراتيجية واضحة ومحددة عندهم، فليس لديهم إيديولوجية بالمعنى العلمى للكلمة، ولا يوجد هدف حقيقى، وفكرة (العودة للنقاء العربى الأول) هى فكرة فنية، حققتها أنا والجماهير من قبل من خلال بثى للسيرة الهلالية فى الراديو.

فقد أصبحت الجماهير كلها فى القرى والمدن والاحياء الفقيرة تسمع بثى لهذه السيرة، وكأنها تستمع لعمل مقدس، وهو كذلك فعلا لأنه يحمل قداسة دينية ما، لأن فن السيرة هو فن دينى يتلمس خطى ابن هشام وغيره فى السيرة النبوية.

وبشكل عام فقد ارتبط الناس بها لأن لديهم هذا الحس التاريخى الدينى الجاهز.

ومن هذا كله أريد أن أقول إن نزول الجماعات الدينية إلى الريف ومعها الدين، فى صورة أشخاص عصبيى السلوك، عاليّ الصوت، متشددى القوانين، لا يعنى ـ أبداً ـ أن القرية المصرية معهم.

فالشعب المصرى مازال ـ بين اليمين واليسار ـ فى أمس الاحتياج للصيغة الصحيحة التى تجمع بين تفكيره ـ القبلى وتطلعه المعاصر، وإيمانه بأن هذا الشكل للتعبير عنه هو اطار يسمح باستيعابه، ورؤية ترى معه همومه الخاصة، والقوة التى تحقق كل هذا يجب أن تكون مزيجاً من كل القوى الموجودة فى مصر الآن من علمانية إلى دينية إلى واعية بخريطة هذا التقسيم القبلى، والعليمة ـ كما قلنا ـ بعدد البيضات التى تخرج من بيت الفلاح للسوق، وعدد زجاجات الزيت التى تدخل إلى ذات البيت... بالإضافة إلى وضع المرأة المصرية فى القرية وعلاقتها بالرجل، وكل هذه الأشياء.

وإذا لم يتكون هذا الفهم فى شكل قوى حقيقية مستنيرة فإن الشعب المصرى سيظل يمارس لعبته الخالدة، والتى نطلق عليها فى النهاية ـ بابتذال وغباء ـ كلمة السلبية.

شهادة الهلالية:

«حكاية النضال من وسط المدينة»!

*** من خلال تقصيك وتتبعك لهذه الملحمة الكبرى وأعنى (السيرة الهلالية) ما الذى استشعرته ـ أيضا ـ من عناصر ينبغى أن تكون هى المدخل فى مخاطبة الشعب المصرى سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وثقافيا وحضاريا؟**

** هذا سؤال كبير.. وأرجو أن أوفق فى الإجابة عليه، وأرجو أن يعتبر

كلامى هو أقوالى النهائية فى أمر(مخاطبة الشعب المصرى) لأننى واثق أن هذا هو آخر ما توصلت إليه ـ ليس من خلال الكتابة فقط ـ ولكن قبل ذلك من خلال ممارسة لواقع البشر فى رحلة جمع هذه المادة (السيرة الهلالية).

فقد دخلت أكثر من ٤٠٠ قرية وعاشرت ناسها، كبيراً أو صغيراً وفقيراً وبدوياً وغجرياً وفلاحياً إلى جانب أن مسألة بث هذه السيرة للناس، أطلعتنى على حجم البشر الذى اهتم، ومن خلال خطاباتهم (التى أريها لك الآن) والتى لا تقل عن خمسة آلاف خطاب، كتبها أناس لم يكتبوا لراديو الحكومة من قبل... وربما لم يكتبوا من قبل إلا لأهلهم وفى أمور محدودة، ومنها خطابات موقعة كالآتى: (من فلان الفلانى ـ كاتبه فلان الفلانى) ومنها خطابات موقع عليها أكثر من ٢٠٠ إمضاء من أهالى بعض القرى.

هذا العمل الفنى الرهيب هو مدرسة حقيقية أكدت كل الأفكار السابقة عن نظريتى حول التقسيمات والتنزيعات الطبقية غير التقليدية للشعب المصرى.

فلن ندخل للناس ـ أبدا ـ من بوابة التقسيم إلى بروليتاريا وبورجوازية صغيرة ومتوسطة وكبيرة، فهذه التقسيمات علينا أن نلملم أوراقها، ونركنها فى متحف تاريخى... لأننا إذا كنا نريد بالفعل ـ أن نعيد تصنيف الناس وفهمهم، فعلينا أن ننزل إلى جذورهم القبلية.

....

هذا العمل العبقرى (السيرة الهلالية) أولا أنجزه إنسان مصر، وهو الإنسان الذى نتحدث عنه من بداية الحوار سواء فى قريتى أو قريتك... إذن فهو من أصلح المواد التى. يمكن أن تعطينا الإجابة عن كثير من الأسئلة المحيرة التى تواجهنا بشأن هذا الإنسان.

هذا العمل ـ أيضا ـ لم يكتبه شاعر شعبى واستطاع أن ينفذ به إلى أمته،

ولكن صنعته الأمة وجندت رجالاً مثل د. عبد الحميد يونس ـ رحمه الله ـ أو مثلي لجمعه والحفاظ عليه.

وهذا العمل ـ فى أساسه ـ صراع بين قحطان وعدنان (بين الحجازيين واليمنيين)، فإن يتبنى فلاح مصر هذا الصراع إلى حد القداسة فهو أمر ملفت، فأنت تعلم أن الشاعر الشعبى لو أعاد صياغة الأشياء ـ ليس كما وردت ـ من قبل على لسان الشعراء السابقين فمن الممكن أن يعاقب من قبل الجمهور عقاباً شديداً، وتصبح هناك مناطقا بأكملها لا يستطيع أن ينزل إليها أو يذوق خبزها أو ماءها.

فهناك سيف مسلط على هذا الشاعر ليحتفظ بالتحليلات التاريخية الموجودة داخل هذه الملحمة كما هى، أى كما ورثها الناس واستقرت فى الذهن والضمير الجماعيين.

ثم إن هناك ملحوظة هامة فهذا الصراع بين اليمنيين والحجازيين يختفى فى فترات ظهور العدو الخارجى حيث يلتحم البدنان، وينسى كل منهما صراعاتهما وتناقضاتهما الرئيسية كى تصبح تناقضات ثانوية، وباختفاء الخطر، ويزاول العدو الخارجى يعود الصراع لكى يصبح صراعا رئيسيا بين القوتين.

وقد قلت لك إن الحجازيين واليمنيين يقتسمون الصعيد، وهى فكرة تبدو بلهاء للمثقفين، ولكن اعتبرنى أصرخ بها بأعلى صوتى لأنبه لها.

فالقبائل التى أتحدث عنها لا تعرف أنها يمنية أو حجازية، فلقد نسيت الحوادث الأولى، والهجرات الأولى، ولقد فات زمان طويل جداً على هذه الوقائع ومع ذلك فكل فترة تنفجر «الهواره» ضد قبيلة أو أخرى ـ مثلا ـ ويقع عشرات القتلى.

وهناك ثأرات فى صعيد مصر لا تعرف بداياتها الحقيقية، ولا يعلم الناس لماذا يحصدون بالعشرات من جرائها، ولكن الشعوب ليست بلهاء ـ كما تعلم

- ولكن نحن الذين ننظر إلى هذا ببلاهة... وإنما بالبحث التاريخي وتعقب الوقائع يجب أن نعلم لماذا يحدث ذلك.

ونحن - في هذا - بلهاء أشبه بمديرى المديريات والمحافظين الذين يجمعون رؤوس هذه القبائل ويذبحون عجلا ويشربون الشاى ويقرأون الفاتحة، وبعد شهر واحد تقع واقعة جديدة ويسقط عشرات القتلى... دون أن يعلم الجميع (لماذا؟).

لدرجة أنه قد صدرت قوانين لمنع كل الكرنفالات الشعبية مثل الاحتفال بمولد سيدى «عبد الرحيم» ومولد سيدى «أبو الحجاج» لأن معظم القتلى يقعون فى هذه التجمعات الكبيرة جداً، وحرمنا من أشياء جميلة جداً (على المستوى الفنى كانت تحدث بالرغم من وقوع القتلى فى هذا المولد)، وكل هذا ناتج من عدم فهمنا لشعبنا الذى ننتمى إليه وجهلنا بأصوله وبالقوانين التى تحركه وتوجهاته الحقيقية.

الملحمة هى هذا الصراع الدائم بين هذه القبائل، ولذلك تجد الناس يحفظون السيرة الهلالية، بينما لا يحفظون الظاهر بيبرس أو سيف بن ذى يزن أو الزير سالم.. فكل هذه الأشياء سقطت وتآكلت واندثرت من الواقع، إلا هذه الملحمة فقد ظلت على هذه الدرجة من الحدة والحيوية والاندلاع والاستمرار، ولها شعراؤها الذين يصرف الفلاحون قروشهم القليلة للإبقاء على حياتهم لإذكاء هذه الروح.

يجب أن نعرف لماذا أضعت من عمرى عشرين عاما فى جمع هذه السيرة، فلم أكن أبلها ولم أك هاربا من مواجهة نفسى كشاعر، أو لدى أوقات فراغ فهذه هى أحلى سنين العمر... ولكن كان يجب أن أعلم... فقط... يجب أن أعلم.

....

إذن لو أردنا أن نخاطب الجماهير (على الأقل سكان الوادى) فيجب أن نعرف توجهاتهم الفكرية وتناقضاتهم الرئيسية والثانوية، ليس كما قال لينين.. ولكن كما قال النيل المصرى وساكن ضفاف هذا النيل.

يجب أن نخلع روابط العنق المكوية، وأن يزحف المثقفون، مثلما زحفت أنا عشرين عاما لأجمع السيرة وسط البراغيث أو فى العراء وأصاب بالدوسنتاريا وأجبر على احتساء ٣٠٠ كوب شاى فى اليوم لكى يعرفوا شعبهم.

ونحن نعرف كيف أن عظمة غاندى هى فى أنه تعلم ما هو شعبه الذى يسكن بلداً مترامى الأطراف.

ونحن نعرف أن ماوتسى تونج لم يعرف شعبه إلا من خلال المسيرة الطويلة.

ونحن نعرف أن لينين كان يعرف عدد الخيول فى اسطبلات الاتحاد السوفيتى (إلى هذا الحد يعرف بلده).

....

أما الوحيدون الذين يريدون أن يصنعوا الثورة الاشتراكية دون أن يغادروا وسط المدينة فهم اليساريون المصريون!!

نوفمبر ١٩٨٨



خالد محيى الدين

تجمع .. وتجمعيون
وحكايات يسارية !

* التجمع هو الحزب المعارض الوحيد الذى وقف مع الحكومة فى قضية شركات توظيف الأموال!

* التأميم ليس مطروحا الآن.. ولكنه غير مرفوض فى قضايا معينة إذا اقتضت الظروف!

* القطاع الخاص ساق ضعيفة.. والاقتصاد المصرى يحتاج إلى ساقين!

* لست من الناس الذين يرون فى ظروف مصر والعالم الثالث أن الرأسمالية إذا أعطيت الفرصة ستستطيع أن تقوم بالتنمية!!

* لن تستطيع الرأسمالية أن تلعب دوراً فى مصر إلا بحماية الدولة.. وما دامت الدولة تسندها فيجب أن تستجيب للمتطلبات الاجتماعية للمجتمع الذى تمثله هذه الدولة.

* لظروف الاقتصادية لمصر اليوم تقنعنا بأنه لو كان للدولة دور أكبر فى التنمية لاختفت الكثير من المشاكل التى تواجهنا.

* لو قرأتم برنامج التجمع فلن تجدونا ضد الاقتصاد المختلط ولا - حتى - ضد الانفتاح!

* دخول رأس المال الأجنبى يحتاج إلى حكم قوى يستند إلى أغلبية حقيقية ولو كان حكما اشتراكيا ١٠٠٪.

* مشاركة خبراء التجمع فى المؤتمر الاقتصادى ١٩٨٢كان لها تأثير فى القرارات التى صدرت.. ولكن التنفيذ شىء آخر!

* التعبير فى اطار التنمية يعنى نصف تنمية ونصف تعمير أما صرف معظم القروض على البيئة والتعمير فقد أتعبنا تماما!

* الحكومة تعطى إعفاءات ضريبية لكافة أنواع الاستثمار الجديد تقدر بـ ٦ آلاف مليون جنيه ثم تعانى عجزاً سنوياً فى الميزانية يقدر بـ ٦ آلاف مليون جنيه!!

* التحرك الجماهيرى لحزبنا يكون فى قضية الإنسان العادى وليس فى قضية الديون!

* لا اعتقد أن التيار الدينى قوى!

* نضال التجمع لحل الأزمة الاقتصادية هو نضال لصالحه.. وغير صحيح ما يعتقده البعض من أن استفحال الأزمة الاقتصادية، يؤدى إلى الاشتراكية.

* قبولنا أن نحل الأزمة الاقتصادية فى اطار النظام الرأسمالى القائم هو تنازل سياسى كبير من جانبنا!

* ليس مطروحا - الآن - التحول نحو الاشتراكية، ولكن المطروح هو التنمية الاقتصادية والاستقلال الاقتصادى، وتحقيق نوع من التوازن الاجتماعى الذى لا تحدث تنمية مستقلة بدونه!

* ارتفاع الأسعار فى مصر ليس قضية مستهلكين وتجار، فالغلاء عندنا هو قضية (تضخم) !

* إذا لم يكن الناس قادرين على المعيشة فكيف تطلب منهم أن يزيدوا الإنتاج؟!

* المواطن المصرى يعمل فى القطاع العام بنصف الأجر، والنصف الآخر فى الوظيفة الإضافية، وهذا يؤثر ـ أيضا ـ على العمل الحزبى!!

* الأداة الإعلامية للوفد أفضل من الأداة الإعلامية للتجمع لأن (الوفد) يخاطب الطبقات القادرة على قراءة الصحف، ثم إن مستوى جريدته المهنى أفضل!!

* كل صحف الأحزاب العقائدية ـ عادة ـ ماتكون متخلفة.

* الناس تحب أن تسمعنا وتحضر اجتماعاتنا بالآلاف، ولكنها لاتعطينا أصواتها فى الانتخابات لأسباب أخرى!

* أحمد الخواجة هو قائد جماهيرى فى نقابة المحامين لأن القيادات لا تتكون إلا من حيث تتاح لها فرصة النضال!

* هدفنا هو (ترشيد المشروع السياسى) بالضبط مثل (ترشيد المشروع الاقتصادى) !

* العنف هو استخدام السلاح والطوبة، أما الامتناع السلمى عن العمل أو التظاهر السلمى فليسا كذلك!

* حاولت عبثا أن أفهم د. يحيى الجمل طبيعة العمل اليومى فى الحزب، ولكنه كان دائما يرى أن (نفس) الحزب ماركسى!

* لم يحدث فى الأهالى خروج عن خط الحزب فهذه كلمة كبيرة، ولكن ربما حدث عدم مراعاة للطبيعة التجمعية أو التوازن التجمعى.

* أما مئات الرسائل قلت لقيادة «الأهالى» الناس تريد صلاح عيسى فلتحاولوا إعادته للكتابة!

* وقفت مع فؤاد سراج الدين فى قضية الديمقراطية والإصلاح الدستورى ولكن إذا طرحت ثورة يوليو فإننا نختلف ونختلف!

* أقول لأدباء التجمع الذين أثاروا مسألة الديمقراطية الداخلية إننا ما أصدرنا قراراً إلا بشكل شبه إجماعى ونادراً ما نصدر قراراً بالأغلبية.

* برنامج التجمع هو الناصرية الجديدة!

* الغيرة التنظيمية فى تيار اليسار تجعل البعض يعتقدون أن قيادة ما يمكن أن تكون أفضل من قيادة أخرى!

* الحزب الوطنى أخذ نصيبه من الفاعليات (بالسلطة) وليس (بالانتخابات)!

* ليس لدينا شركات توظيف أموال ولا شركات مقاولات تصرف على الحزب، وننفق على تفريخ الكوادر من اشتراكات الأعضاء ومن التبرعات!

* اعتقد أن مصر لن تخرج من أزمتها إلا بنوع من الناصرية المعدلة!

* * *

** خالد محيى الدين

ثائر مخضرم!

تقوده الخطى ـ اليوم ـ إلى هذه المناظرة كيما يسجل بكلماته فصلا هاما فى ساحة حوار، أردناه جميعا، أن يكون (قوميا).

وتدفعه الرؤى، وتتدافع ـ عنده ـ الآراء، ليرسم بهم بعض ملامح صورة العقل اليسارى فى مصر، أو بعض ملامح صورة الحركة اليسارية فى مصر..

وفى حديث (الهموم) يؤكد الثائر المخضرم أن هذه الهموم ليست (تباريحا لجريح) أو شجونا لحزب، «فهم» الحزب هو «هم» الوطن، وشجون الفرد.. هى شجون الأمة...

وفى حديث (الأمل) يحلق الثائر المخضرم (الذى عرفت مصر اسمه منذ ستة وثلاثين عاما) فى أفق ديمقرطى رحب، وسماء خيال سياسى أكثر رحابة، فيؤكد أن الخلاص الوطنى هو مهمة الجميع، وأن حزبه لم يتأخر لحظة واحدة عن المشاركة فى أى جهد من أجل مصر.

....

وحديث خالد يبدأ وينتهى بهذا الالتزام القومى والانضباط الوطنى، فيدحض ترهات وأوهاما كثيرة تسود تفكير من لا يعى معنى الالتزام القومى، وتربك أداء من لا يدرك معنى الانضباط الوطنى...

فالبعض فى مصر (بحسابات خائبة وتضاعيف لهذه الحسابات أشد خيبة) يرى أن القسمة السياسية لا تكون حول اختيارات فكرية وسياسية لحل مشاكل الوطن، ولكنها يجب أن تكون فى الوطن ذاته!!

وهؤلاء يريدون مصر أن تكون مصرين أو ثلاثة أو أربعة أمصار، ولا يفهمون أن تتعدد الرؤى والسبل، بينما يبقى الوطن واحداً.

فلم يع الكثيرون ـ بعد ـ أن مبارك قد علم ـ من شاء أن يتعلم ـ أن قوى المعارضة هى جزء من النظام السياسى المصرى، وليست نظاما مستقلا بذاته، يواجه نظام الحكومة ويحترب معه.

ولم يفهم الكثيرون ـ بعد ـ أن مبارك قد بصر ـ من شاء أن يتبصر ـ بأن

قيادات المعارضة هى قيادات وطنية ومصرية، يجب أن تشارك فى مواجهة مشاكل الوطن المزمنة والحالية، حيث لا يمكن (ولو من الناحية العملية) أن ينفرد الحزب الوطنى وحكومته بحل مشاكل البلد.. وحيث لا يمكن (ولو من الناحية المصلحية) أن تقع كل هذه المشاكل فى قربازه، وفى قربازه وحده، وهو عن أغلبها غير مسئول!!

....

وفى ساحة الحوار يتعرض خالد محيى الدين لعناصر الخيار اليسارى فى مصر وما جد عليها من أفكار، ويشرح مدى الديمقراطية الداخلية فى حزبه، ويسلط الضوء على بعض الإسهامات القومية للتجمع فى قضايا ومناسبات مختلفة.

كما يرد على بعض الاتهامات التى وجهتها رموز ثقافية وأدبية يسارية كبرى عبر هذه الحوارات من قبل لحزب التجمع، ويفصح عن حقيقة التحالف التكتيكى مع فؤاد سراج الدين حول الديمقراطية وحدود هذا التحالف، ويتعرض لقضية الأهالى بكل ما يجرى فيها، وكل ما دار حولها، ويبين حدود الاتفاق والاختلاف بين فصائل حزبه، وكيف أن المحاسبة الحزبية أو السياسية تكون على أساس البرنامج فقط.. كما يروى فصولا عن موقف الناصريين من التجمع، وموقف التجمع من الناصريين.

....

ويمضى الثائر المخضرم ليتحدث حديث (الهموم) و (الآمال).. (الفرد) و(الأمة).. (الحزب).. و (النظام).

....

حكاية مشروع:

«ترشيد الاقتصاد الرأسمالى هدفنا التكتيكى» !

*** هل ترى أن (تاريخ الصلاحية) لبعض عناصر مشروع اليسار المصرى(إجمالا) وبعض عناصر مشروع حزب التجمع ، (تخصيصا) قد انتهى.. فيما يتعلق بالجوانب الاقتصادية والاجتماعية؟**

** كيف..؟ وفى أية قضية تقصد؟

*** هناك أمثلة متعددة ولنأخذ منها قضية (التأميم) على سبيل المثال؟**

** التأميم (فى ظروف مصر الحاضرة أو فى المستقبل المنظور) ليس شعاراً مطروحا.

ولذلك فإن حزب التجمع سواء فى برنامجه المرحلى أو الاستراتيجى لم يطرح التأميم (الآن).. ولكنه يريد أن يحافظ على القطاع العام، ويضمن له دوراً قيادياً فى التنمية بالإضافة إلى القطاع الخاص.

معركة التجمع الرئيسية هى إنقاذ مصر فى أزمتها الاقتصادية، وحل أزمة اعتماد الاقتصاد المصرى المتزايد على الخارج، بما يعنى تحقيق الاستقلال الاقتصادى وتحقيق حرية الإرادة الاقتصادية.

وفى هذا الاطار، فإن التأميم غير مطروح حالياً، ولكنه غير مرفوض فى قضايا معينة، وإذا ما اقتضت الظروف.

....

فما يجرى الآن مع شركات توظيف الأموال، هو شكل من أشكال التأميم (ولو لصالح الجمعيات العمومية للشركات)، وهو لون من ألوان تدخل

الدولة، أو تحقيق دور متزايد للبنك المركزى أو الجهاز المصرفى التابع للدولة فى السيطرة على أنواع ـ بعينها من النشاط المالى والاقتصادى.

وعلى هذا النحو، فأنا لا أستطيع أن أقول إن شعار التأميم (أى ملكية الشعب لوسائل الانتاج وأدواته) قد أصبح شعاراً بائداً، ولكن ـ لظرف معين ـ قد يستوجب الموقف عدم رفع هذا الشعار.

وأمامنا مثل على ذلك فى الاتحاد السوفيتى كان ذلك قبل انهيار الكتلة الشرقية، فنتيجة أزمة فى الإدارة يعطون مساحة أكبر للقطاع الخاص فى مرحلة من المراحل، وهذا لا يعنى التخلى عن الهدف الاشتراكى بحال!

ومن هنا أقول إن فكر اليسار للخروج بالمجتمع الاشتراكى لم ينته، إنما ليس بالضرورة، أن يكون هذا الخروج بنفس الصورة التى سادت فى مرحلة أو زمان معينين.

....

هناك أزمة هيكلية فى الاقتصاد المصرى الآن، ولابد من إعادة بنائه، وهناك اعتماد اقتصادى على الخارج يستوجب إعادة تحديد وطرح مفهوم الاستقلال الاقتصادى والتنمية الاقتصادية.

فنحن نريد أن نبنى تنمية مستقلة، وثبت بالتجربة أن الدولة وحدها، لا تستطيع أن تضمن تحقيق الهدف إلا بإشراك القطاع الخاص، كما أن القول بأن القطاع الخاص بمفرده يستطيع لعب هذا الدور هو أمر مرفوض، فالقطاع الخاص وحدة هو: (ساق ضعيفة ـ Weakleg) والاقتصاد لا يمشى إلا على ساقين!

وهذا ليس رأينا وحدنا، ولكنه ـ حتى ـ رأى الخبراء الأمريكيين الذين

جاءوا لينشئوا البنوك فى مصر، ويتعاملوا مع القطاع الخاص والقطاع العام.. فقد اشترط هؤلاء أن يضع القطاع العام بعض أمواله فى تلك البنوك، ولما تساءل الدكتور عبد العزيز حجازى (رئيس الوزراء وقتها): أليس القطاع الخاص كافيا؟، فأجابوه: القطاع الخاص ـ وحده ـ هو ساق ضعيفة.

ولو أضفنا على كل ذلك أننا نعيش فى عالم تعقدت تراكيبه الاقتصادية بين وجود للشركات العملاقة، واحتكارات للرأسمالية العالمية، فإن قدرة القطاع الخاص على الحركة تجاه القيام بتنمية حقيقية، مع حماية الاستقلال الوطنى، هو أمر مشكوك فيه جداً، وأغلب الظن أن هذا القطاع سيفضى بنا إلى أن تكون جزءا تابعا للرأسمالية العالمية، والجزء الأضعف دون شك.

إذن، فأنا لست من الناس الذين يرون (فى ظروف مصر أو العالم الثالث) أن الرأسمالية إذا أعطيت الفرصة ستستطيع القيام بالتنمية.

والتجربة أمامنا فى كوريا.. وفى البرازيل، فقد حدثت تنمية ـ بالفعل ـ فى كل منهما، ونحن نتحدث عنها كثيراً، ولكننا لا نذكر شيئا عن المشاكل الضخمة والهائلة التى تواجه أياً من التجربتين.

وعلى هذا الأساس فإن الرأسمالية يمكن أن تلعب دوراً فى مصر، ولكن مع حماية الدولة ووجودها، وبدون حماية الدولة أو دور رئيس لها فإن هذه الرأسمالية لن تستطيع أداء أى دور، ومن جهة أخرى فمادامت الدولة ستسندها، فلابد أن تراعى الرأسمالية تحقيق المتطلبات الاجتماعية للدولة، لأن هذه الدولة تمثل جموع المصريين، ومن ثم يتحقق التوازن الاجتماعى المطلوب خلال العملية الاقتصادية كلها.

وهكذا فإن طرح اليسار لفكرة السيطرة على الفائض القومى وتوجيهه لخدمة المجتمع، وفكرة دور الدولة القائد فى التنمية، لا يمثل تخلفا على

الإطلاق.. بالعكس.. فأنا أعتبر أن الظروف الاقتصادية لمصر اليوم تقنعنا بأنه لوكان للدولة دور أكبر فى التنمية، لاختفت الكثير من المشاكل التى نعانيها الآن.

*** هذه عبارات ومفاهيم عامة.. فإذا ما ترجمناها إلى عناصر تفصيلية، فما هى العناصر الجديدة التى يمكن أن تحويها رؤية اليسار المصرى الآن، مع الوضع فى الاعتبار المتغيرات الاقتصادية - الاجتماعية التى شهدها مجتمعنا، ومع الاعتراف بأن الاقتصاد فى العالم كله يميل إلى لون من ألوان (الاقتصاد المختلط) ؟**

** مسألة الاقتصاد المختلط ليست جديدة علينا، ولو قرأتم برنامج التجمع فلن تجدوه ضد الاقتصاد المختلط، ولن تجدوه ـ حتى ـ ضد الانفتاح!

ولكن كانت لنا شروط فى مسألة قبول رؤوس الأموال الأجنبية فنحن لسنا ضد المبدأ، ولكن على أن يجىء قبول رؤوس الأموال فى إطار الخطة.

فالباب المفتوح لا يعنى أن تجىء رؤوس الأموال عندما ترى وبالطريق الذى ترى، ولكن الباب المفتوح يعنى أن تجىء رؤوس الأموال بدعوة وأن نعرض عليها خطة، ومشروعات (وبالطبع لابد أن تكون هذه المشروعات مربحة، فرأس المال لن يجىء إلا إذا ضمن المكسب).

كما أن أحد شروط تدفق رأس المال على بلد مثلنا، وهو وجود اقتصاد قوى، وحكم قوى يستند إلى أغلبية حقيقية، وإلى قوى حقيقية، وسوف يقدم رأس المال على المجىء إلى البلد الذى يتوافر هذا الشرط فيه (حتى لوكان يحكم حكما اشتراكيا١٠٠٪).

وكذلك فإن الإداوة الحسنة لهذه العملية الاقتصادية الكبيرة، تعنى ـ أول ما تعنى ـ وجود فكر يدبر ويخطط، من أجل جذب رؤوس الأموال إلى الصناعات الكبيرة الجديدة التى تحتاج إلى تكنولوجى وخبرة، ليست متوافرة

لدينا (وعلى سبيل المثال فإننا لو أنشأنا ـ بمفردنا ـ صناعة البتروكيماويات فى مصر، فإننا سنتعب جداً، لأن لهذه الصناعة منتجات جانبية BYPRODUCTS كثيرة جداً، وقد لا نستطيع أن نستغلها الاستغلال الأمثل، أما لو أقمنا هذه الصناعة بالاتفاق مع إحدى المؤسسات الدولية الكبيرة، فإننا قد نستطيع التفاهم معها عن الاتفاق على أن نصدر لها هذه المنتجات الجانبية أو بعضها.

وفوق هذا فإننا ـ بالطبيعة والضرورة معا ـ لسنا ضد رأس المال الذى يجيئنى وينمى قدراتى التصديرية، أما أن يجىء رأس المال لمشروع استهلاك داخلى ثم أعطيه العائد بالدولار فإننى أكون الخاسر، وكذلك عندما يجىء رأس المال ليمتلك العقارات والعمارات فهذا لا يعد استثمارا، ولا يرتبط بالتنمية من أى نحو.

كما أن جذب رؤوس الأموال، لإنشاء صناعة تقلل الاستيراد من الخارج هو شرط يدخل فى إطار الحسبة الواجبة تجاه دخول رأس المال الأجنبى.

ثم ـ فى النهاية ـ التنسيق وفق أولويات الخطة، بحيث لا يدخل الجميع فى مجالات واحدة، مثل البنوك وشركات السياحة، والمستشفيات الاستثمارية وشركات المياه الغازية التى تكاثرت وتوالدت دون داع، ولم تحسب حسبتها بشكل صحيح!

....

إذن عندما يكون هناك تخطيط (والتخطيط هو تحديد الأولوية)، فسنتجنب الكثير مما عانيناه بسبب فتح الباب على مصراعيه، كما أن هذا التخطيط سيستوجب الدخول مع رأس المال الأجنبى، برأسمال مصرى، والاختلاط يحدث من هنا، وستكون هذه صيغة أفضل لأننا سنتجنب انحراف رأس المال الأجنبى بوضع مصالح الدولة معه والدفاع عنها.

هذا عن التخطيط.

وعن التخطيط أيضا أقول، إن النجاح فيه يعنى تحقيق الأهداف، فكيف نطلب من رأس المال الأجنبى المجيء للمشاركة فى مشروعات خطة لا تحقق أهدافها، وقد حدث هذا فى الخطة الأولى التى استهدفت عدم الاعتماد على الخارج، وإلغاء الاستيراد بدون تحويل عملة، وتشغيل ملايين العاطلين، ولم تحقق شيئاً من هذا.

*** أستاذ خالد.. لابد أن نعترف أن هذا كله تحقق بنسب ما؟**

** بالطبع لابد أن يتحقق بنسب ما.. ولكنه ـ فى النهاية ـ ليس بحجم الأهداف التى تم وضعها.

*** وهل هناك أية خطة تنمية فى تاريخ مصر، حققت أهدافها كاملة..١٠٠ ٪ وغير منقوصة؟**

** نعم .. الخطة التى وضعها جمال عبد الناصر عام ١٩٦٢ حققت أهدافها إلى حد ما.

*** انظر ـ حضرتك ـ لقد قلت: (إلى حد ما) أيضا؟**

** النسبة وقتها كانت أكبر، ولم يحدث أن كان من نتائج خطة ١٩٦٢ تحقيق عكس أهدافها، أما خطة ١٩٨٢ فقد قالت إن من أهدافها تشغيل ١ ـ ٢ مليون عاطل، فزادت البطالة بعدها!!

وتستطيع أن ترد على كلامى قائلا، إنه لولا وضع الخطة بعد المؤتمر الاقتصادى ١٩٨٢ ، لكانت النتائج أفدح.. هذا صحيح تماما.

*** هل تشعر أن إسهام خبراء التجمع فى المؤتمر الاقتصادى عام ١٩٨٢ كان له تأثير على ذلك النهج الذى نهجته الدولة بالعودة إلى الالتزام بخطط خمسية تنموية؟**

** كان لهذا الإسهام تأثير فى القرارات التى صدرت، بمعنى التأكيد على أن الخلل فى الاقتصاد المصرى هو خلل هيكلى، والمطلوب هو التنمية، ونمو القطاعات السلعية إلى آخر هذا الكلام.

ولكن عندما نصل إلى التطبيق نجد أن القطاعات السلعية - نسبيا - لم تحقق القدر الواجب من النمو، ولذلك ظل الإنتاج السلعى (صناعى - زراعى) متخلفا عن الواقع والدليل على ذلك أن أغلب القروض التى تجيئنا يتم استغلالها استهلاكيا، أو نضعها (وهذا هو الخطأ الكبير) فى مشروعات البنية والتعمير!!

أزمة مصر الكبرى بعد حرب ١٩٧٣ هى هذا الخلل، وكان المفروض أن نصلح البنية وننطلق فى التعمير تدريجيا، فقد تعب الاقتصاد المصرى الآن بسبب الاندفاع بكل الطاقة تجاه البنية والتعمير.

كنا نطالب بنصف (تنمية)، ونصف (تعمير)، أو نطالب بالتعمير فى إطار التنمية، بحيث نزيد من قدرة اقتصادنا وننجح فى رد بعض الديون، إما أن نصرف النسبة الغالبة على ما يسمى مشروعات البنية، ونهمل الإنتاج، فإن ذلك يوصلنا إلى وضع مأزوم فى عملية رد الديون، ونضطر - باستمرار - إلى الاستدانة، بل ونستدين لنستهلك!!

أقول إننا عندما شاركنا فى مؤتمر كالمؤتمر الاقتصادى، لم تكن لدينا أوهام بأن كلامنا سيؤخذ به كاملا، ولكننا كنا نحاول أن نقول إن هناك رأياً آخر، ولابد للدولة أن تعرفه وتفهم عناصره.

*** ولكن مع تسليمنا بأهمية هذا الرأى الآخر، بل وتسليمنا - أيضا - بوجاهة ما طرحه خبراء التجمع فى بعض هذه الأمور، فإننى ألحظ أن المرتكز الدعائى للحزب يقوم على هذه الصيغة التى سأشرحها حالاً.**

(أنا حزب ليس فى الحكم.. وبالتالى فلست مطالبا إلا بتقديم

مقترحات وأفكار نظرية، ثم أمارس الحل السهل، وهو الضغط على الحكومة من هذا الموقع المريح، وأطالبها بأن تجد هى سبيلا للحل، بينما هى فى وضع من الصعب جداً عليها أو على غيرها أن يتحرك فيه بطريقة أفضل مما يحدث الآن!!!).

ففى موضوع الديون مثلا تقرر - حضرتك - أن الحكومة مضطرة إلى مزيد من الاستدانة ومع ذلك فإن القوى الواقعة خارج الحكم (ومنهم التجمع) تندفع بحرارة فى حشد الجماهير وإثارتها حول هذا الموضوع ونقد الحكومة وإحراجها، ماحلا لها الحشد والإثارة والنقد والإحراج، وكأن هذا هو الهدف الأسمى، أو كأن الحكومة ليست (مضطرة) كما ذكرت أنت بنفسك؟

** التحرك الجماهيرى للحزب يكون فى قضية الإنسان العادى، وليس فى قضية الديون.

فأنا أصنع حشداً من أجل توازن الأسعار مع الأجور مثلا، وهذه قضية أساسية يمثل التحرك فيها أحد الحقوق المعروفة فى الدنيا بأسرها.

أما قضية الديون، فأنا لا أحشد من أجلها، ولكننى أكثر من الضغط (الكتابى) بشأنها، حتى أستطيع أن أقنع الرأى العام باتجاهاتى.

وعلى عكس الفرضية التى ينطلق منها سؤالك، فأنا أعتبر أن نضال التجمع لحل الأزمة الاقتصادية هو نضال لصالحه، وهذا غير ما يعتقد البعض من أن استفحال الأزمة الاقتصادية يؤدى إلى الاشتراكية.. وهو أمر غير صحيح، فعندما تستفحل الأزمة الاقتصادية، تتحطم معنويات الناس، وتصبح قدرتهم أقل على النضال، ولم يحدث أن الثورات أو التغييرات الكبرى كانت تقوم فى أوقات الضيق.

*** نقطة نظام يا أستاذ خالد.. فأنا أستطيع أن أعدد عشرات الأمثلة أمامك لقيام الثورات كمرحلة أخيرة تتلو مقدمات سخط متنوعة الحدة والمدى؟**

** أنا أقصد أوقات الضيق، وليس أوقات المجاعة.

إذن ففكرة أننا نسعى إلى أن تسوء الأوضاع حتى نستطيع التغيير هى فكرة غير صحيحة، فنحن (نزن) فى بيانات التجمع ونشراته وجريدته لحل الأزمة الاقتصادية، لأن رأينا هو أن حل الأزمة الاقتصادية سيكون لصالح جماهير المطحونين أولا، فالقلة القادرة، تستطيع أن تحل مشاكلها فى أية أزمة (تهرب أموالها ـ تسافر وتشترى السلع الممنوعة ـ تهرب هى شخصيا بعد تجاوزات قانونية).

أما ٩٠٪ من الشعب فلا يستطيع أن يحل مشاكله.

ونحن نعتبر أن قبولنا لحل الأزمة الاقتصادية فى إطار النظام الرأسمالى القائم، هو تنازل سياسى كبير جداً من جانبنا، وقد أحدث لنا أزمة داخل تيار اليسار، حيث تقول بعض الجماعات: (ما لنا نحن ومال إنعاش النظام الرأسمالى؟!).

ولكننا ـ فى الواقع ـ لا ننعش النظام الرأسمالى، بل نريد أن نرشد الأداء الاقتصادى فى إطار النظام الرأسمالى القائم.

فليس مطروحا ـ الآن ـ التحول نحو الاشتراكية، ولكن المطروح هو التنمية المستقلة، والاستقلال الاقتصادى، وتحقيق نوع من التوازن الاجتماعى الذى لا تحدث تنمية مستقلة بدونه.

فلا يمكن للتنمية أن تحدث بدون التوازن الاجتماعى، حيث لا توجد تنمية لغرض النمو!

حكاية جماهير:

*** «الحقن المهدئة تمنع تواصلنا مع الناس» !**

*** فى هذا، اسمح لى أن أقرر أنكم تخاطبون مركزية القرار، ولا تخاطبون العمل الجماهيرى.**

بمعنى أنكم تتكلمون فى قضية مثل الأسعار عن مسئولية الدولة، دون أن تنظموا - مثلا - قيام جمعية للمستهلكين ؟

** رأينا أن قضية ارتفاع الأسعار فى مصر ليست قضية مستهلكين وتجار.

الغلاء فى مصر هو قضية تضخم، وهو يعنى انخفاض قيمة العملة المصرية فى بلدها، ولذلك فإن الغلاء يشمل كل شىء.

الغلاء ـ فى معناه الأصلى ـ هو نقص سلعة وارتفاع سعرها بالتالى، والحل هو زيادة الإنتاج فتحل المشكلة.

أما فى مصر فإن الغلاء (بمعنى التضخم) شامل لكل الخدمات والسلع، فهو قضية سياسية ـ بالدرجة الأولى ـ تتعلق بالسياسات الاقتصادية.

ونحن نناضل ـ أولا ـ كى نقنع المواطن المصرى بهذا.

وذلك لا يمنع أن نشارك فى قرى ومدن، من خلال جمعيات مستهلكين أو ربات بيوت غير أنه ليست لدينا أوهام بأن مثل هذا الأسلوب يمكن أن يحل.

*** هل لكم سوابق فى مثل هذا اللون من الحلول ؟**

** طبعا.. فقد أنشأنا فى كثير من المحافظات جمعيات فئوية، ولكنها لم تنجح كثيرا.

*** لماذا ؟**

** لأن الأسعار ستبقى مرتفعة رغم كل هذه المحاولات، فالمشكلة فى

أولا، ثم فى انعدام خبرة الذين أنشأوا هذه الجمعيات الفئوية، ثم فى اضطرارهم للشراء بسعر السوق، واضطرارهم ثانية للبيع بأقل من سعر الجزار مثلا.

وعلى أية حال فإن دعوات المقاطعة التى قامت بها ربات البيوت فى المعادى لم توقف ارتفاع أسعار اللحوم.

ولكننا نرى فى تجارب البلاد الأخرى، وحتى فى البلاد الاشتراكية، أن هناك (كور) لأسعار عدد معين من السلع، ويجب أن يظل هذا الكور ثابتا إلى حد ما، ففى المجر - مثلا - ترتفع أسعار اللحم والملابس، ولكننا نجد أن أسعار اللبن والخبز والبيض والمواصلات والعلاج لا ترتفع إلا بنسب بسيطة جداً.

لذلك فنحن نطالب الدولة فى مصر بأن تضع مثل هذا (الكور) لمجموعة من السلع التى أسميناها (أساسية) وهى الزيت والفول والعدس والأرز والسكر والشاى والخبز، بالإضافة إلى عدد بسيط من الخدمات.

وبغير هذا فلا يمكن للأمر أن يستقيم فى بلدنا، فكيف نطلب من الناس أن ينتجوا ويزيدوا الإنتاج، وهم غير قادرين على الحياة، أو على إعاشة أبنائهم؟!

ونتيجة لوضع الأسعار المخيف، فإن الواحد من البسطاء، يعمل فى الحكومة بنصف مخ، ويفكر بنصف مخه الآخر فى العمل الإضافى، وبالتالى فلا يمكن أن نطلب منه زيادة الإنتاج.

وهذا الوضع يؤثر - أيضا - على العمل الحزبى، فهناك قيادات نقابية وسياسية هامة تخرج من عملها الأصلى، لتجرى إلى عملها الإضافى بعد الظهر، فمن أين - إذن - يأتى العمل السياسى؟!

....

أريد أن أقول إن قضية الأسعار والغلاء هى قضية خاصة بالسياسة العامة، وقد قررت الحكومة سياستها، وقلنا - نحن - رأينا، وكان اختيار الحكومة السياسى هو ألا تغير.

فالحكومة تعطى - وما زلنا نكرر - إعفاءات ضريبية لما يسمى (الاستثمار الجديد) تصل - طبقا لتقدير خبراء التجمع - إلى ستة آلاف مليون جنيه سنويا، ثم يحدث عندنا عجز سنوى قدره ستة آلاف مليون جنيه أيضا!!

هذا اختيار سياسى، فالدولة ترى تشجيع الاستثمار وفقا للقانون رقم ٤٣ لسنة ١٩٧٤ المعروف بقانون حرية استثمار رأس المال العربى والأجنبى، ثم تعديله سنة ١٩٧٧ ، وهذا اختيار سياسى، وبالتالى فالحل سياسى أيضا.

*** بعيداً عن وضع العقدة أمام المنشار، فإن التراجع التكتيكى الذى أشرت إليه - سيادتك - من قبل أى (ترشيد النظام الرأسمالى) كان نقطة جديرة جداً بأن يقترب التجمع من الحكومة أو تقترب الحكومة من التجمع. بحيث يوجد حلا (سياسيا) قوميا لمثل المعضلات الاقتصادية العويصة التى تواجهنا؟!**

** رد فعل الحكومة هو أنها تهتم برأى التجمع، وخاصة اقتصاديا، وتلك حقيقة لا سبيل إلى نكرانها!

فليس على الساحة الفكرية الاقتصادية اليوم سوى مشروع الخطة الخمسية للحكومة وتقديم التجمع لمشروعات الخطة الأولى والثانية.

وأحيانا «تسمع الحكومة الكلام»! وتعدل من بعض الأمور داخل إطار سياسة الحكومة، ولكن دون تغيير فى جوهر السياسات.

ونحن فاهمون متفهمون لذلك!

فلو غيروا جوهر سياساتهم سنصبح نحن وهم.. واحداً!

إذن ـ أكرر ـ القضية سياسية، وهى قضية اختيار اجتماعى وسوف يكتشف الناس فى يوم من الأيام، ألا طريق سوى هذا الذى نقترحه، غير أن وقت هذا الطريق طويل فما زال عند الناس أمل فى جدوى سياسات الحكومة التى تعطى منحا وتبنى مساكن، ولن يزول أمل الناس إلا عندما يتحققون من أن هذه المنح والمساكن لن تحل المشكلة الاقتصادية ما لم يتغير جوهر السياسات.

*** إلى أى حد يمكن أن تعتقد أن الناس يتجاوبون مع دعاوى التجمع أو يعرفونها أصلا ؟**

** الاعلام الرسمى أقوى منا!

فالإنسان يتكون من مصالح مادية يومية + فكر.

وهذه المصالح فى يد حزب الحكومة، فهو ليس حزبا له قواعد جماهيرية، ويقنع الناس بسياسته، ولكنه فقط يحاول أن يغسل مخ الناس بالأمل المطروح!

لابد أن يتأثر المواطن المصرى، بالتدفق الإعلامى الذى يلقى على أذنيه وأمام عينيه (٢٤ ساعة إذاعية + ١٢ ساعة تليفزيونية + جرائد قومية تصدر يوميا).

*** أستاذ خالد.. أنت تتكلم عن الكم.. ولكن التأثير يكون بالمصداقية فإذا صدق الإنسان المواطن المصرى أجهزة الإعلام الرسمية.. فهو يصدقها لأنها صادقة.. وليس لأنها كثيرة!**

** المعادلة هنا تتأثر بعوامل إضافية، فالذى يساعد المواطن على التأثر بإعلام الحكومة، هو قيامها من وقت لآخر بصرف منحه أو طرح آلاف الشقق الجديدة، وهذه كلها حقن مسكنة تساعد الناس على التصديق، وهى

لا تحل ولكنها تؤجل، وأنا أعتبر أن بقاءنا كحزب يناضل فى مثل هذه الظروف انتصار كبير.

....

ثم استطرادا مع فكرة (تجاوب الجماهير مع التجمع)، لابد أن نتعرض لنظرة هذه الجماهير لمدى فاعلية الأحزاب القائمة فى التغيير.

فهناك قناعة عند الشعب المصرى بأن تغييراً ما لن يحدث من خلال صناديق الانتخابات، وبالتالى فإن الأحزاب القائمة لن تغير.

وليس معنى كلامى انتفاء المسئولية على الأحزاب، ولكننا ـ فى حزب التجمع ـ نعرف أن المدى طويل يحتاج إلى نفس طويل، ونحن نعمل ليلا ونهارا عسى أن نستطيع ـ يوما ـ أن نصنع شيئا.

*** معك فى هذا ـ مائة بالمائة؟**

** أرجو أن تكتب حكاية المائة بالمائة هذه (يضحك).

*** سأكتبها.. فليس بينى وبين القراء حجاب!!**

وأعود إلى مجرى الحوار فأقول:

كنت تتكلم عن وسائل إعلام حزبية وقومية، وتعرضت لما أسميته بغسيل المخ الذى تقوم به الجرائد القومية للناس.. ومع ذلك فإن وسائل الإعلام الحزبية ـ على قلة ـ إمكانياتها ـ تؤثر تأثيراً ملموساً ـ وهذه حقيقة لا ينكرها أحد ـ وما أسأل عنه ـ داخل إطار المعارضة ـ لماذا تبدو الأداة الإعلامية للتجمع أضعف من الأداة الإعلامية للوفد مع أن الاثنتين تعملان فى ظل نفس الظروف؟

** لأن الوفد يخاطب الطبقة التى تستطيع شراء الجرائد.

★ أى طبقة هى؟

★★ الطبقة الوسطى فحديث جورنال الوفد موجه ـ فى معظمه إلى الطبقات القادرة ثم هو بصراحة أفضل مهنيا وصحفيا!

ولذلك فإن رأينا فى التجمع كان أن القضية ليست فقط الرأى السليم، ولكن القضية هى كيف تعرض هذا الرأى السليم صحفيا فتأتى بنتيجة..

وعلى العموم فإن كل صحف الأحزاب العقائدية اشتهرت تاريخياً بأنها متخلفة فنياً حيث يتغلب فيها الفكر السياسى على العرض الصحفى..

والوفد كما قلت فيها جهد صحفى وإخراجى أفضل من الأهالى فضلا عن صدور الوفد يوميا حقق لها قراء مستديمين.

ومن هنا فأنا أرى بكل هذه المستويات أن موقف الأهالى الآن إيجابى وهو قد لا يعجبنى تماما ولكنه إيجابى فى التحليل الأخير..

★ لن أطيل فى هذه النقطة الآن، ولكن على أية حال ـ فإن المنابر الإعلامية لحزب لا تشمل فقط جريدته المطبوعة ذات الرخصة ولكنها تضم الندوات والاجتماعات والبيانات؟

★★ وهذه العناصر فى حزبنا إيجابية.

والشىء الغريب أن اجتماعاتنا الحزبية تلقى إقبالا هائلا يؤكد أن الناس تحب أن تسمعنا ولكنهم لا يعطونا أصواتهم فى الانتخابات وهذا موضوع آخر.

المهم أننا لا نشعر أن بيننا وبين الناس حاجزا ما إنما قد نقول كلاما يشعر الناس أنه صعب التحقيق، وهذه مسألة ثانية.

★ وسأكلمك عن مسألة ثالثة!

فأنا أشعر أحيانا بحكم اتصالى بناس من نوعيات مختلفة (سواء فى

قريتى أو فى أوساط المثقفين بالمدينة) أن الناس ترتبط أحيانا بالقيادة السياسية التاريخية للتجمع كجزء من ثورة يوليو ولكن ليس بالضرورة أن تكون باقى الكوادر السياسية للتجمع هى كوادر جماهيرية فهم فقط - فى نظر الناس - مجموعة مثقفين متفاوتى المستوى والقبول.

** ليسوا جميعا مثقفين!!

فعندنا قيادات جيدة جدا فى أماكنها، ولكن هذه القيادات مضطهدة ومطاردة فإذا كان أحد قيادات التجمع يعمل مدرسا فلا يمكن أن يترقى ناظراً.

وذات مرة نجح أحد العمد فى بلد بجانبنا فتعبوه جداً حتى اعتمدوه كعمدة. ثم أجبروه بعد ذلك على أن يدخل الحزب الوطنى وسألنى فقلت له انضم، ولا تعرض نفسك لكل هذا العذاب..

ثم إن القيادة الجماهيرية تتكون أصلا بتراكم تاريخى فى ظل مناخ ديمقراطى ومع احترامى الكامل للرأى القائل بأننا نعيش عصرا ذهبيا للديمقراطية فإنى أرى أن ما يحدث هو (تجربة) فيها السلبى والإيجابى، وعيلنا أن ننمى الإيجابى، ونقلل من السلبى حتى نصل إلى الهدف الحقيقى وهو : ترشيد المشروع السياسى مثلما نهدف إلى ترشيد المشروع الاقتصادى أما الكلام عن أننا نعيش عصرا ذهبيا للديمقراطية فهو غير صحيح، فعندى مثلا ـ ١٥ عضواً كتبوا بيانات يطالبون فيها بصرف منحة فتم اعتقالهم بقانون الطوارئ ثم أفرجت المحكمة عنهم بعد ذلك.. أى أن هناك نظرية تطبيق مؤداها: «اضرب المربوط ليخاف السائب» فكيف يمكن بناء قيادة جماهيرية فى مثل هذا الجو.

*** يظل استخدام قانون الطوارئ فى مثل هذه الأمور، هو استخدام إزاء (حالات) تهدد الاستقرار، أما استخدامه الواسع والأهم فكان فى مواجهة الإرهاب وشركات توظيف الأموال (كظواهر) تهدد الاستقرار.**

** الاستخدام هو الاستخدام سواء فى حالات أو ظواهر.

وبالطبع هناك قيادات لا تقدر السلطات الأمنية المحلية فى الأرياف عليها مثل مفتش تعليم مثلا، ولكن عندما تكون قيادة عمالية مثلا فهى تتعرض لخراب البيوت!

فالطبقية واردة فى هذا الأمر أيضا.

واتصالا بإجابتى السابقة فإن كل أمناء الحزب فى المحافظات هم شخصيات جماهيرية لكن القضية هى أنك كى تبنى قواعد جماهيرية (بخدمات + نضالات مشتركة) فسوف تواجه بأنه ممنوع أن تجمع الناس كى يوقعوا عريضة وممنوع من عمل مسيرة أو اعتصام، وهذا كله من وجهة نظرى نضال ديمقراطى بينما تعتبره الحكومة نضالا عنيفا!!

بينما العنف هو استخدام السلاح والطوبة أما الامتناع السلمى عن العمل، أو التظاهر السلمى فليسا كذلك.. وكل بلاد العالم تعترف بذلك، فقد كنت فى فرنسا ووجدت عمال البريد مضربين، والممرضين أيضا لمدة ٣ أسابيع ومع ذلك فقد كانت الحياة تمضى ولم تنقلب الدنيا.

*** أنا أضع تحفظا - دائما - على هذه المقارنات جوهره الاختلاف فى مرحلة النمو بيننا وبين هذه المجتمعات؟**

** البلاد التى تريد أن تنمو لا يعمل الناس بها فى المطلق ولكنهم يعملون فى ظل ما يتصورونه حداً أدنى.

ولا يوجد من يرغب فى الإضراب لذاته، كما أن هناك مقاييس نسبية للأسباب التى من أجلها يضرب الناس.

فالموظف فى أوروبا أو العامل يأخذ مرتباً كبيراً جداً بالمقاييس المصرية، ولكنه يجد هذا المرتب بالنسبة للأسعار والآمال هناك، أقل مما ينبغى..

ومقياس الأسعار والآمال لو طبق فى مصر سيصبح الإضراب سلوكاً عاماً، ولكننا نتكلم فقط عن إضراب بسبب منحة أو وجبة أو غيرها من المسائل الأساسية والتى تكون أساسية بمقدار مرحلة النمو التى نمر بها!

وأنت سيد العارفين وتعلم أن الأسعار فى مصر أصبحت تماثل الأسعار فى أوروبا ولكن هناك تفاوتا كبيرا فى الأجور فنحن إذن أمام كارثة لأننا نطالب الناس بالإنتاج فى ظروف يستحيل فيها الإنتاج ثم نمنعهم من الاعتراض السلمى بأية وسيلة!

وتعال نتأمل أساس نجاح التجربة اليابانية (وهى تجربة رأسمالية) فالمؤسسة هناك ولتكن ميتسوبيشى مثلا مسؤلة عن كل عامل من عمالها فإذا كانت زوجته مريضة يترك خبرا وهو داخل إلى المصنع فيذهب أطباء المؤسسة لعلاج زوجته وبالمقابل عندما تريد ميتسوبيشى تخفيض عدد العاملين فيها فإنها لا تفعل وإنما تخفض أجور الموجودين ويقبل الجميع بهذا فى عقد غير مكتوب ينظم العلاقة فى هذا اللون من ألوان الإقطاع الصناعى.

....

إن كلامى لا يعنى أن التجمع خال من الأخطاء فهو مليء بالأخطاء، ولكن لم يفعل أحد مثلنا فى مناقشة أخطائنا، أو أمورنا علناً.

ولابد أن نعرف أننا نواجه لونين من العوائق، منها العوائق الذاتية التى نطرحها للنقاش بكل حرية، ومنها العوائق الموضوعية مثل التدخل فى عملية الانتخابات أو فى فرز أصوات الناخبين.

حكاية عوائق:

«وعلى خلاف الكثيرين فإننى أرى أن التيار الدينى ليس قويا!»

*** سنفصل - الآن - العوائق الذاتية والعوائق الموضوعية، وبالنسبة**

للعوائق الموضوعية فإننى أرى على المستوى الاجتماعى - ودعنا من المستوى السياسى - أن هناك قوى اجتماعية تقف بمواجهة مشروع التجمع الآن وهى قوى تختلف عن القوى التقليدية التى يواجهها اليسار المصرى منذ فترة طويلة (وأعنى القوى الدينية، وقوى الرأسمالية الجديدة) ؟

** إذا لم يبذل التجمع جهدا كافيا لتوضيح موقفه أمام الشعب فلن يكسب هذه القوى أبداً.

١ـ بالنسبة للرأسمالية، فإن الرأسمالية القديمة (زراعية أو صناعية) كانت تفهمنا أكثر لأنها رأسمالية عاقلة وتفهم، ولكن الرأسمالية الانفتاحية الجديدة هى التى تعارضنا، لأنها تدرك أن وجودنا يعرقل نموها ونهبها.

وبالتالى فإن التجمع يمكن أن يتعامل مع الرأسمالية القديمة لأنها تمثل (نظام) أما الرأسمالية الناهبة فهى أمر آخر، ولذلك أنا لا أعول أبداً على إقناعها ولكننى أحاول أن أقنع الناس الذين يتأثرون بها دون أن أكون مقصراً فى تعبئة القوى التى تقف معى أصلا.

٢ـ وبالنسبة للتيار الدينى، فأنا على خلاف الكثيرين لا أعتقد أنه قوى، بل إن قوته التى يتوهمها البعض تأتى من أننا غير قادرين على أن نزيل من عند الجمهور الذى يسمعنا تأثير التهمة التى توجه لنا وهى الكفر والإلحاد ومعاداة الدين!

وأنا أعتقد أن اليسار كله، وليس التجمع فقط لم ينجح حتى الآن غير بطرق بدائية فى مواجهة هذا الأمر.

وهذه المواجهة تحتاج إلى ممارسة وخطة طويلة المدى، لإقناع الناس ـ

جديا ـ إن حزب التجمع واليسار غير معاديين للدين، وهو أمر نسى اليسار أن يضمه فى جدول أعماله من زمن طويل!!

*** العالم كله ـ الآن ـ يعرف الماركسيات المؤمنة؟**

** ومع ذلك فهناك من يستنكر أن ألقب (بالحاج) خالد ويقول عنى إننى كافر فماذا أفعل؟ على أية حال عندما جاء التيار الدينى (على هذه الأرضية) أصبح لوحده فى الساحة.

ومع ذلك فإذا نجح هذا التيار فى جرجرتنا إلى معركة حول الشريعة والفقه فهو يكسبنا، أما عندما نجرجره إلى معركة حول مشكلات الشعب المصرى الاجتماعية والسياسية فإننا نكسب.

كما أننى لم أنته بعد من معركة إزالة تأثير الصورة التى حشرت عسفا فى ذهن الناس عن إلحاد اليسار (وهذا عائق ذاتى).

*** وعلى الجانب الآخر فإننى لا أرد قوة التيار إلى عوامل ذاتية فيه فقط.. ولكن أيضا إلى قدرته على البحث عن مساحات الالتقاء بينه وبين السلطة فى مواجهة اليسار، وهو الأمر الذى لم ينجح اليسار فيه بالبحث عن مساحات الالتقاء بينه وبين السلطة فى مواجهة تيار التطرف الدينى؟**

** غير صحيح إطلاقا.. وهذه هى براهينى:

١ ـ عندما حدث التطرف العنيف فى اغتيال السادات كان أول ما فكرت فيه أن موقفى سيكون مع الحكومة، ولكن الخلاف كان أن الحكومة وضعت التطرف كقضية أولى بينما عندنا لم يكن التطرف هو القضية الأولى، وإنما الأزمة الاقتصادية هى القضية الأولى وهى المؤدية للتطرف، ومن ثم كان مطلبى من الحكومة أن تحل الأزمة الاقتصادية كى تعالج التطرف.

٢ ـ ثم فى أزمة الفتنة الطائفية كان التجمع أول حزب دعا الحكومة إلى تشكيل مجلس قومي للوحدة الوطنية، أى أننا حتى فى أيام السادات وفى عز معركتنا مع الحكومة، اعتبرنا أن شرخا فى الوحدة الوطنية من شأنه أن يعيد مصر مئات السنين إلى الوراء.

٣ ـ فى قضية شركات توظيف الأموال، كل أحزاب المعارضة التى كنا متحالفين معها ضد قانون الطوارئ، أخذت موقفا مع الشركات بينما كانت الحكومة والتجمع ـ فقط ـ فى جانب واحد، وحدث ذلك دون إعلان لمجرد أن وجدنا أرضية مشتركة نتكلم فيها مع الحكومة.

....

ومن جانب آخر فإن الحكومة لا تنسق مع التيار الدينى، ولكن هذا التيار يستغل ـ أحيانا ـ وجود مساحة ما يلتقى فيها مع الحكومة فى ظرف معين ضدنا.

بالإضافة إلى أن الحكومة عندها تصور سياسى (طبقى) مؤداه أن التيار الدينى ـ مهما اختلف معها ـ فهو فى نفس (النظام) أى أنها تستطيع أن تتعامل معه.

أما نحن فأناس نريد (التغيير)، وصحيح أننا نحافظ على النظام السياسى الدستورى، ولكن أولوياتنا فيها تغيير، ونحن لا ننكرها، ومن هنا فإن الحكومة لا تطمئن كثيراً إلى العمل معنا إلا فى حدود ضيقة.

إذن فما يعتور العلاقة بيننا وبين الحكومة هو أزمة، ولكنها أزمة (حكومية) بدليل أننا ـ باستمرار ـ نطرح مشاريع للتعاون الديمقراطى، أو للتعاون الوطنى من أجل مواجهة الأزمة.

*** ألا يحدث أى نوع من أنواع الاستجابة الحكومية لطروحكم هذه؟**

** والله.. ليس منفيا.. ولكنه ضئيل!

لأن حزب التجمع له اختيار واضح، أما الجماعات الإسلامية فهى تقول ـ بنفسها ـ «ليس بيننا وبين الحكومة خلاف سوى تطبيــق الشريعـــة» إذن لو طبقت الحكومة الشريعة فإن أعضاء هذه الجماعات سينضمون للحزب الوطنى.

أما نحن فلا نعتبر أن تطبيق الشريعة هو القضية، لأن الشريعة ليست موضع خلاف، فموقفنا (مثل الحكومة) أن تطبق الشريعة الإسلامية من خلال قوانين مدنية يتساوى أمامها المسلم والمسيحى.. وبالتالى فليست هذه هى الأزمة، وإنما نحن فنرى أن مشكلة مصر هى اقتصادية واجتماعية وديمقراطية، وأطرافها مترابطة، وفى اعتقادى أن عدم ازدهار الديمقراطية يرجع ـ إلى حد ما ـ إلى سوء الأوضاع الاقتصادية، وسوء الأوضاع الاقتصادية لن يحل دون مشاركة الناس فى الأعباء، ولكى يتحمل الناس الأعباء لابد أن يشاركوا فى التخطيط، وهذا هو الكلام الذى قلناه للجزائريين، فلو كان الناس يشاركون فى أى قرار ما كان الذى حدث يمكن أن يحدث.

وضمن استعراضنا للعوائق الموضوعية التى تواجه حزب اليسار ـ أيضا ـ فإننا مازلنا نواجه نظام (الحزب الحاكم) وليس (حزب الأغلبية) فالحزب الوطنى عنده إمكانيات هائلة فالمحافظ معه ورئيس المدينة معه، وهذه كلها إمكانيات فالناس تأتى للحزب تحت تأثير الإمكانيات (الإعلام + المال + الخدمات) وأنا لا أملك أى شىء منها.

ومع ذلك فإن هناك من يجيئون لعضوية حزبى رغم كل هذا، وأنا أعتبر

هذا انتصاراً هائلاً للتجمع، يفصح عن أن الشعب المصرى فيه قوى كامنة هائلة، وأن جزءاً منها يقف إلى جوار المعارضة، رغم الإمكانيات المهولة التى يملكها الحزب الحاكم.

حكاية تجمعية!

«نقد للهيكل.. ونقد للأداء»!

*** أستاذ خالد.. استعرضت معى فى مناطق سابقة من هذا الحوار بعض جوانب العوائق الموضوعية التى تعترض التجمع، ولكنك مررت بسرعة على العوائق الذاتية.. فهل لنا فى بعض الإيضاح؟**

** الحقيقة أن العوائق الذاتية والموضوعية تتداخل تأثيراتها إلى حد كبير.

ومع ذلك فإن حزب التجمع ـ حتى الآن ـ رغم كل أهدافه الجيدة وكلامه الجماهيرى، فإنه لم يبذل الجهد الكافى ليعبئ القوى، وهذا يعود لأسباب داخله.

فقد شغلتنا المعارك السياسية الكبرى عن المعارك البنائية، والهيكلية الداخلية والصلة بالناس!!

انهمكنا فى معارك كامب دافيد، والانفتاح، ثم الديمقراطية ١٩٨١ وشغلتنا هذه المعارك الكبرى عن المعارك الصغرى التى تثبت فيها وجودنا فى كل مكان.

والآن عندما يتفرغ الأعضاء للعملية البنائية فى الحزب فإننى أرى نتائج باهرة لقيادات تجمعية ـ رغم كل الضغوط ـ فى أماكنها بالمراكز والأقسام، ويلتف الناس حولهم، ويذهبون إليهم عندما يحتاجون أى شىء.

إذن هناك تقصير منا لأننا لم نوجه جهدنا الأكبر لعملية البناء الحزبى، والبناء الجماهيرى والقيادة فى المرحلة الماضية.

ولعل عدم انطلاقنا فى مواجهة المشاكل الجماهيرية الصغيرة كان يعود إلى أن لدينا كادراً محدوداً، فلكى أفرخ عددا من القيادات، فإننى أحتاج إلى إمكانيات ونقود، وليس عندنا ـ مثلا ـ شركات توظيف أموال ولا شركات مقاولات تصرف علينا، فنحن نصرف من تبرعات الأعضاء واشتراكاتهم، وليس عندنا ـ حتى ـ مطبعة، فكل ما لدينا هو مطبعة صغيرة نحاول تشغيلها ببعض أعضاء الحزب.

والخلاصة أن لدينا موارداً قليلة بينما العمل الحزبى يحتاج إلى إمكانيات.

فأنت ـ مثلا ـ ترى أن الحزب الوطنى فى مركز كفر شكر له عشرون عضوا متفرغا بينما نحن لدينا واحد فقط!!

*** هنا سنعود لقصة هل كان البدء للبيضة أم للفرخة!!**

فالحزب الوطنى سيقول - ومعه حق - إنه أخذ نصيبه من الفاعليات والإمكانيات لأن الجمهور أعطاه النسبة الغالبة من الأصوات فى الانتخابات؟

** غير صحيح... فقد أخذ الحزب الوطنى هذا النصيب (بالسلطة) وليس (بالانتخابات)، فلو لم يكن فى الحكم، ورئيس الوزراء هو الذى ينتصر له، ما كان قد أخذ هذا النصيب، فنحن نفهم أيضا، وعندنا تقرير، ونعرف أن الوطنى كان من الممكن أن يأخذ الأغلبية، ولكن ليس كل هذه الأغلبية!

ولو كان الحزب الوطنى سمح للأحزاب الأخرى أن تتواجد إلى جانبه وبالذات فى الأقاليم لتغير الوضع تماما، ولكنهم حرصوا بعد ١٩٧٩ أن

يأخذوا أكثر من ٨٥٪ من التواجد، وتركوا للأحزاب الأخرى أن تتقاسم الباقى شكليا.

ومع أن إمكانياتى تظل محدودة، ومع أن لدى واحداً فقط فى كفر شكر، وواحدا فقط فى بنها، إلا أن أياً منهما يستطيع أن يبنى بناء حزبياً متساويا مع الحزب الوطنى مع وجود جهاز الدولة وراءه.

ثم إن جهاز الدولة والحزب الوطنى يذهب إليهم الناس كى يرشحوا منهم، بينما نحن مضطرون إلى البحث عن رجالنا واكتشافهم.

وأنا راض بهذه القسمة غير العادلة شريطة ضمان نزاهة صندوق الانتخاب!

*** هذا نقد فى (الأداء).. ولكننى أبحث عن نقد فى (الهيكل) فهناك عناصر تمثل التجمع ـ فى النهاية ـ وهذه العناصر لم تمتزج بعضها ببعض امتزاجا كاملا بعد، ومازلت أشعر إزاء التجمع أن هناك مجموعة تمثل القوميين، ومجموعة أخرى تمثل الناصريين، ومجموعة ثالثة تمثل الشيوعيين.. دون أن أحس أنهم يمثلون بدنا سياسياً واحداً؟**

** هذا لن ينته فى التجمع!

ولكنى أقول إن التجمع استطاع فى كل القضايا الكثيرة أن يحسم وحدته.

وهنا نأتى للنقطة التى أثارها بعض أدباء التجمع فى حواراتهم معك وهى نقطة الديمقراطية الداخلية.. فلا يمكن أن يصدر قرار إلا بشكل شبه إجماعى، ونادراً ما نصدر قراراً بالأغلبية، وبالذات فى القضايا الكبيرة.

*** قضايا كبيرة من أية شاكلة مثلا؟**

** مثل الموقف من القضية الوطنية، أو الموقف من القضية الفلسطينية، أو الموقف من قضية الديمقراطية أو الأزمة الاقتصادية.

وفى قضية الحرب الإيرانية ـ العراقية مثلا، كنا ضد بدايات الحرب، ولكن لدينا تياراً قومياً عربياً يمثل نسبة ١٠ ٪ من الحزب (أى أنه ليس كبيراً)، ومع ذلك فقد أصدرنا بياناً متوازناً، وعالجنا الأزمة واضعين فى اعتبارنا أن لدينا تياراً قومياً!

ومع ذلك فلا أعتقد أن هذه المشاكل الكبرى كانت صعبة الحل، قدر صعوبة المسائل التنظيمية، فالخلافات السياسية يسهل حلها، أما القضايا التنظيمية فيصعب حلها.

*** أستاذ خالد.. جريدة (الأهالى) هل هى قضية سياسية أو قضية تنظيمية ؟**

** سياسية وتنظيمية!

فأنا أرى أن هناك قضية سياسية وصحفية فى الأهالى يمكن ترجمتها إلى أن الجورنال لم يك مقبولا لبعض الناس، كما كانت موضوعاته ثقيلة لا يقبلها بعض القراء، وبالطبع فإن هناك مدرسة صحفية ترى أن المواد الثقيلة والدراسات هى الأفضل، ولكن الناس ـ بصراحة ـ كانوا غير متقبلين لهذا الأسلوب. أما الآن فإن القراء يرتاحون للأهالى، وإن كان بعض أعضاء الحزب يرونها أهدأ مما يجب.

*** حينما تم التغيير داخل الأهالى بتعيين السيد محمود المراغى، بدا للجميع (سواء داخل الحزب أو خارجه) أن هذا التغيير، هو نتيجة لصراع بين قوى سياسية وليس نتيجة لتراجع مستوى الأداء المهنى أو السياسة فى الأهالى ؟**

** مستوى الأداء المهنى ومستوى الأداء السياسى هو السبب..

ففى مرحلة معينة كان يمكن أن يكون أسلوب الأهالى الصحفى القديم

مفيداً، وفى مرحلة أخرى كان يجب أن يتغير، ولكن الأهالى لم تغير من أسلوبها بنفسها لتتناسب مقتضيات المرحلة الجديدة، وخاصة بعد الانتخابات الأخيرة، مما استوجب أن نقوم بتغيير الأهالى لأن طريقة الخطاب فى هذه الصحيفة كانت قد باتت تحتاج إلى تغيير يتلاءم مع الأهداف.

ولذلك عندما ناقشنا التغيير فى الأهالى، أخذنا وقتاً طويلاً جداً، وهو أمر لم يحدث فى جريدة قومية أو معارضة فمكثنا ٦ أشهر نتنافس، ووقف كل طرف يشرح رأيه لمدة أربع ساعات أمام اللجنة المركزية!

وبالمناسبة فما حدث فى الأهالى، واستوجب التغيير ليس خروجا على خط الحزب (فهذه كلمة كبيرة)، ولكننى أرى أنهم فى تعبيرهم لم يراعوا الطبيعة التجمعية، ولم يراعوا التوازن التجمعى.

وهناك رأى آخر يقول إن الأسلوب السابق كان أفضل ١٠٠٪، ويرى أن التعبير الحالى أصبح هادئاً أكثر من اللازم، ولكن هذا فى النهاية نتيجة لاختلاف زاوية الرؤية ومعيارنا ـ فى النهاية ـ هو قارئ الأهالى!!

وقد نستمر فى أسلوبنا الجديد ثم نكتشف أنه خطأ فنعود للتغيير، لأن التجربة السياسية هى أولا وأخيراً (تجربة).

ولابد أن يضع الجميع فى اعتبارهم أنهم يخاطبون جمهوراً متغير المزاج، فأنا اليوم عندما أتكلم عن الانفتاح يجب أن أدرك أن جزءاً هاماً من الطبقة العاملة أصبح يعمل فى مشروعات الانفتاح، ويجب أن نراعى فى أسلوب كلامنا هذا التغير العام.

وكدليل على ما أقول فإن مئات الرسائل تصل للأهالى وتسأل أين صلاح عيسى؟ وأنا أكلمه فى الأمر فعلا، ولكنه لا يريد أن يكتب، وهذا يؤكد أن

المزاج العام يتغير صعوداً أو هبوطاً، ويجب أن نراعى هذا حتى نقدم توليفة ترضى الصيغة التجمعية وترضى هذا المزاج العام.

ولهذا فقد قلت لقيادات الأهالى الحالية، إذا كانت الناس تريد صلاح عيسى فلتعيدوه!!

*** هذه الصيغة التجمعية، وهذه الديمقراطية الداخلية للحزب (التى سمحت لقيادة الأهالى السابقة أن تقف أمام لجنة الحزب المركزية وتتكلم لساعات أربع) لم تمنع قيادة الأهالى القديمة (حسين عبد الرازق وصلاح عيسى) من أن تذهب إلى نقابة الصحفيين وتتحدث إلى الناس، وتصف ما حدث بأنه تغيير سياسى؟**

** وفى نظر مجموعة الأهالى (القديمة)، أن التغيير قد تم لصالح اتجاه سياسى وقد ذكر هذا بالفعل فى ورقة تغيير الأهالى، فهناك من رأوا أن التغيير سياسى وهناك من رأوا أن التغيير سياسى وصحفى.

*** وهل كانت الأسباب التى ذكرتها قيادة الأهالى القديمة، أمام نقابة الصحفيين هى نفس الأسباب التى ذكرتها أمام اللجنة المركزية للحزب؟**

** نعم.. وهذه وجهة نظر، وعموما ليس هناك تغيير يحدث فى أى شىء إلا وله صبغة سياسية.

*** ولكن هناك ضوابط تنظيمية تعرفها أحزاب العالم كله.. فهل يعرفها التجمع على ضوء ما رأينا من قيادة الأهالى السابقة؟**

** الالتزام بجسم الحزب والالتصاق به هو أمر آخر غير عملية التغيير فى الأهالى فصلاح عيسى – مثلا – قال ما قاله فى اللجنة المركزية ونقابة الصحفيين وورقته إلى الحزب وفى دائرة الحوار، لكنه لم يهاجم الحزب ولم

يعتبر أن ما جرى جريمة فقد تمسك بأن يبقى فى الحزب ويشرف على كل كتاب الأهالى.. وهكذا حسين عبد الرازق.

....

ولكن إذا تكلمنا عن الالتزام الحزبى، فإن هذا ما يثيره كلام عبد الرحمن الأبنودى وجمال الغيطانى ويوسف القعيد فى حواراتهم معك.

هؤلاء الأدباء ليسوا جزءاً من بدن الحزب، فيوسف القعيد علاقته محدودة جداً بالتجمع ولا يحضر ليشارك فى اجتماعات الأدباء والفنانين إلا لماما.

أما جمال الغيطانى فقد انضم للتجمع، وسكن فى قسم الصحافة، وانضم إلى مكتب الأدباء والفنانين والكتاب التابع للجنة المركزية، وهو من مسئولية الزميلة فريدة النقاش ومن أعضائه: د. طاهر مكى وبهجت عثمان وصلاح أبو سيف ويوسف القعيد وعبد الغنى أبو العينين، ويوسف شاهين وجميل راتب، وعبد المحسن بدر وغيرهم.

وعند تأسيس لجنة الدفاع عن الثقافة القومية بعد كامب دافيد، ضمينا جمال الغيطانى لها أيضا، ولم يحضر اجتماعات هذه المستويات واللجان إلا نادراً بينما حرص آخرون على المشاركة فعلا.

وأنا أعرف أن صاحب الرأى والانتماء هو الذى يحرص على المشاركة، ومع ذلك لم أسمع منه أى اعتراض، ولم أتلق منه أية رسالة. وأنا عندما أتلقى رسالة من عضو فى حزبى أقلب الدنيا لأعرف سبب مشكلته.

عموما فقد رشحناه عام ١٩٨١ فى النقابة ووقفنا معه بقوة، وكذلك ذهب إلى مؤتمر فى روما وثارت ضده حملة كبيرة، لأن هذا المؤتمر شارك فيه ناس من إسرائيل (مع العرب التقدميين) وحدثت معركة ضده سببها أنه فى نظر البعض ـ مع التطبيع ومع كامب دافيد، ولكننى أصدرت رسالة إلى

الصحف العربية أدافع فيها عن جمال الغيطانى (حيث لم تكن لدينا وقتها صحيفة).

ثم عيناه عضواً فى مجلس تحرير مجلة (أدب ونقد) وظل فى المسئولية إلى أن كلفته الأخبار بالإشراف على صفحتها الأدبية.

أما ما يقوله الغيطانى عن الانتهازية السياسية، تعليقا على وقوفى مع فؤاد سراج الدين فإننى أقف فى قضية محددة، فعندما نتكلم عن الديمقراطية والإصلاح الدستورى فى إطار قرارات ٥ فبراير، فأنا أقف معه، أما عندما تكون ثورة يوليو هى المطروحة فإننا نختلف.. ونختلف.

أما كلام الغيطانى عن أننا نمالئ التيارات الدينية فهو كلام غريب جداً، فلا توجد جريدة تهاجم جوهر فكرة الجماعات الإسلامية (ايديولوجيا) سوى الأهالى.. وهذه هى الحقيقة...

ولكن هذا لا يعنى ألا أقف مع الجماعات الإسلامية إذا تعرضت فصائل منها للتعذيب، فالتعذيب ليس قضية خاصة بالجماعات الإسلامية، ولكنه قضية كل سجناء الرأى.

أنا لا يمكن أن أكون مع التيار الدينى أو إمالته، فى منطقة (التخلف ـ أو الإرهاب واستخدام القوة) فإننى كحزب أقرب للحكومة من التيار الدينى، والحكومة تفهم هذا تماما.

ثم ـ حتى ـ لو كنت قد قررت أن أدخل الانتخابات مع فؤاد سراج الدين فهذه قضية انتخابية ولا تعنى ـ بالمرة ـ أننا لا نعى أو ندرك الاختلافات والخلافات الأخرى بيننا وبين الوفد.

*** نتوقف هنا ـ قليلا ـ فالتحالفات الانتخابية تتم وفقا لبرنامج (حد**

أقصى - حد أدنى) فما هى عناصر هذا البرنامج التى يمكن أن تجمعك بالوفد، ولو فى قضية انتخابية؟

** البرنامج هو (٥ فبراير) وهو الديمقراطية، وهو تحرك إزاء قضية انتخابية، كى نواجه الانتخابات القائمة ونسبة الـ ٨٪، يعنى قضية تكتيكية بحتة. وقد يستكبر بعض الناس هذا الأسلوب علينا، ولكن فى السياسة ليس هناك استكبار!!

فمن يوصلنى إلى غرضى - مع عدم تنازلى عن استقلال حزبى - ألجأ إليه فوراً.

وهذا - عموما - هو مجمل ردى على الأستاذ جمال الغيطانى فى إطار الكلام عن الالتزام الحزبى والتنظيمى، وعلى أية حال فقد كان كلام الأستاذ الغيطانى حسنا فى المجمل أما كلام عبد الرحمن الأبنودى فكان رهيبا.

....

كلام الأبنودى عن أن هناك مجموعة مسيطرة داخل الحزب، مردود عليه بأن كل أحزاب العالم لابد أن تكون فيها جماعات تحاول أن تسيطر، ونحن نحاول باستمرار - أن نجعل فى حزبنا ما يسمى (التيار الرئيسى).

*** وفقا لأى عوامل يمكن لهذا الذى تسميه (التيار الرئيسى) أن يسيطر؟**

** وفقا لعامل النشاط فى العمل اليومى، فالتيار الرئيسى هو الذى تكون قياداته هى القيادات النشطة الفعالة، ونتيجة أنها فعالة يختارها الناس أصلا، وكل مستويات حزبنا بالانتخابات سواء فى اللجنة المركزية أو المحافظات.

بل إننى سأحكى لك قصة تؤكد ما أقول، فأمام أزمة الاتفاق الأردنى - الفلسطينى، كان هناك تيار قوى جداً فى الحزب يريد أن يرفضه، ولكنى

وقفت ضد الحزب كله، وقلت لهم إذا رفضنا هذا الاتفاق، فإن معنى ذلك أننا نعتبر أنفسنا ـ ضمنا ـ ضد منظمة التحرير (التى ترى الحل السياسى بهذا الطريق).

وقال البعض فى الحزب إن هذا خيانة فقلت: من الذى يقرر ما إذا كان هذا خيانة؟ الفلسطينيون فقط ـ هم أصحاب الحق فى تقرير ذلك.

وقلت لهم أيضا: لابد أن نحدد دورنا، وقد قلنا فى البرنامج: (نحن نقبل ما تقبله منظمة التحرير) فإما أن نغير البرنامج ونتحول إلى حزب رفض كفاح مسلح، وأما (حيث إننا لم نفعل) نتمسك بالخيار الذى طرحته أنا..

ودارت مناقشات حول هذا الموضوع لمدة أربع ساعات فى المؤتمر القومى إذن فقد فرضت الأغلبية رأيها بعد هذه المناقشة، ولم ينصع الحزب لرأى مجموعة بعينها..

وما أقصد أن أقوله إن الإدعاء بأن هناك تياراً يمكن أن يوجه داخل الحزب فذلك يكون بمدى نشاطه فى الحزب؟ وأيضا فقد يظهر تيار تجد أفكاره استجابة أكبر وهذا موضوع آخر.

*** وما هو التيار الذى يوجه الآن فى التجمع؟..**

** لا يوجد تيار يوجه الآن. ولا فى تاريخ التجمع، ولكن هناك عناصر تلعب دوراً مهما فى إدارة العمل اليومى.

أما أن يأخذ الحزب قراراً سياسياً متأثراً بتيار داخله، فهذا لم يحدث فى تاريخ التجمع، ولكن هناك مجموعات تلعب دوراً رئيسياً فى عمليات الإدارة اليومية للحزب، ومن هنا فإن دورها يبدو أكبر من حجمه الحقيقى.

*** هذا مثل مجموعة الأهالى القديمة مثلا؟**

** بالضبط.

* وما هو التيار الذى تمثله هذه المجموعة؟

** مجموعة الأهالى كانت تمثل فى النهاية فريق عمل يدير العمل بطريقة معينة ويوجد من يتعاون معها، ويوجد من لا يحب التعاون معها.

* أهى مجموعة سياسية مثلا؟

** لا.. بدليل أن عناصرها مختلفة.. يعنى صلاح عيسى غير حسين عبد الرازق.

* كيف.. وما الذى يمثله كل منهما؟

** صلاح مثلا - ضد المؤتمر الدولى، وشروط التفاوض ولكن حسين ليس ضد التفاوض.

* أنا أتكلم عن المجموعة السياسية التى يمثلها كل منهما..

** هما يمثلان اتجاها تجمعيا.. بمعنى أنهما مؤمنان ببرنامج التجمع فمالى أنا ومال اتجاه أى منهما؟ فأنا عندى مثلا فى الحزب بعض من يرون سيادة الرأسمالية الوطنية، ولكن ذلك لا يعنينى طالما أنهم يقبلون فى النهاية ببرنامج التجمع..

* أفهم هذا.. ولكننى أسأل عن مجموعتهم السياسية الأصلية؟

** والله.. ماركسيون..

* أى ماركسيين.. هل تقصد الحزب الشيوعى المصرى مثلا؟

لا.. هذه مسألة لا أعرفها ولو عرفتها فيتحتم على الحزب أن يفصلهما، وعلى أية حال فقد حكمت المحكمة بأن حسين عبد الرازق ليس عضواً فى الحزب الشيوعى المصرى أما صلاح عيسى فمؤكد أنه ليس من هذا الحزب فهو يمثل خطاً سياسياً آخر تماما..

وأعود لأقول بصراحة إننى لا أعتقد أن المشكلة الرئيسية فى التجمع هى مشكلة الخلاف السياسى بين التيارات.

فالقضية الرئيسية هى القضية التنظيمية فهناك عناصر فعالة ونشطة من الاتجاه الماركسى تلعب دوراً رئيسيا أكبر فى إدارة العمل اليومى بحكم أنها تعطى حياتها كاملة للعمل السياسى..

وقد كنت أناقش هذا الكلام مع د. يحيى الجمل، فقد ظل يقول: «إن نفس (بفتح الفاء) العمل فى الحزب ماركسى جداً»، فأقول له: «يا دكتور أنت مشارك فى وضع البرنامج السياسى للتجمع وأنت رئيس اللجنة السياسية وتعرف أننا لا نأخذ قراراً إلا بالأغلبية العظمى أو بالإجماع. ويجيبنى د. الجمل: «لعمرى لم يكن الخلاف بينى وبين التجمع خلافا سياسيا، وقد ذكرت هذا فى البيان الذى أصدرته عند خروجى من التجمع، فالخلاف فى نظره هو النفس (بفتح الفاء) الذى يراه ماركسياً».

وهناك قلت له: «أنا أعمل بمن يجيئنى والذين يجيئونى هم الماركسيون وهم المستعدون للتفرغ، ولو كان هناك غيرهم فليأتنى بهم أحد وأنا أجعلهم يتصدون للعمل فى الحزب».

*** كان عندكم الناصريون ولكن سعى الكثيرون إلى إبعادهم؟**

** كان هناك ناصريون فعلا ولكنهم كانوا متأثرين أكثر بتيار وأفكار اليسار وأيضا كان بعضهم في التجمع بمنطق (قدم هنا وقدم هناك) أى أن وجودهم فى التجمع مؤقت لحين ظهور تنظيمهم!

ولكننى قلت لهم فى الحزب إن هذا يحتاج إلى وجود جهاز مباحث حتى أعرف هذا الأمر أو أتأكد منه.

وعموماً فمن الطبيعى أن الحزب الاشتراكى العربى الناصرى إذا قام

فسوف يذهب إليه بعض الناصريين من التجمع، وهناك أيضا مجموعة أخرى قالت إنها ستبقى فى التجمع حتى ولو قام الحزب الناصرى..

بالضبط مثلما سيحدث إذا قام ـ جدلا ـ حزب ماركسى فسوف تذهب إليه مجموعة من الماركسيين أعضاء التجمع، وستتمسك مجموعة ماركسية أخرى بالبقاء فى التجمع..

حكاية ناصرية:

برنامج التجمع هو الناصرية الجديدة:

*** هل تعتقد أن الممارسات داخل التجمع دفعت ـ أحياناً بعض الناصريين إلى التفكير فى ظهور حزب لهم لأنهم لم يمثلوا فى التجمع وفقا لحجم تيارهم الجماهيرى؟**

** لا من البداية وقبل قيام التجمع وهم يفكرون فى قيام حزب ناصرى مستقل، ولكن عندما تضاءلت فرص قيام حزبهم فإن جزءاً كبيراً منهم دخل التجمع.

وعندما بدأت بوادر ظهور حزب لهم من جديد ذهب بعضهم إلى هذا الحزب، أما معظمهم فيقولون إنهم سيبقون فى التجمع حتى لو ظهر الحزب الناصرى، ثم إن الذين سيذهبون إلى الحزب الناصرى لن يمثلوا للتجمع أى خطر فقد تم حسابهم بالعدد..

* كم مثلا؟

** نسبة غير كبيرة

** **يعنى كم مثلا؟**

** يتركزون فى محافظتين أو ثلاث وعددهم لا يتجاوز أصابع اليد فى

عدد آخر من المحافظات، وبأية حال فلا يمثلوا انقساما داخل الحزب، وسوف يمثلون خروج كتلة فقط!

*** ولكن بعض الدوائر الناصرية ترى أن الخروج من التجمع (بغض النظر عن قيام حزبهم) سيكون بالدرجة الأولى لأنهم لم يمثلوا تمثيلا عادلا فى التجمع؟**

** غير صحيح «فتفكيرهم فى قيام حزبهم لقيام منبر اليسار، وعندما جاءنا كمال أحمد ليشارك فى مناقشاتنا ـ وقتها ـ كان موافقا على صيغة ظهورنا السياسى، وهو الذى اخترع اسم: (التجمع الوطنى التقدمى الوحدوى) كى يبقى تجمعا وليس حزبا ويحافظ فيه كل فصيل على فكره الإيديولوجى.

*** وكيف كان إسهام الناصريين فى التجمع؟**

** كان كبيراً جداً فى البداية، وكانت بعض قيادات المحافظات الكبيرة من الناصريين!

*** أقصد إسهام (فكرى) وإسهام (عملى)؟**

** برنامج التجمع كله قائم على الدفاع عن ثورة يوليو ومنجزاتها، وهو برنامج ثورة يوليو، ولكن فى عصر الديمقراطية ومواجهة الانفتاح أى أنه لا يعنى فكر يوليو القديم ولكنه يعنى يوليو متطورة بحيث يحافظ على المكاسب الاشتراكية ويراعى ظروف عالم اليوم.

وأنا ممن يعتقدون أن مصر لن تخرج من أزمتها إلا بنوع من الناصرية المعدلة.

*** رؤية ناصرية جديدة ما هى العناصر التى يجب أن تحملها؟**

** لابد أن تكون ـ أولا ـ ديمقراطية، ثم تعترف بأخطاء التجربة الماضية اقتصادية كانت أو اجتماعية، وتعترف أيضا بأن نظرية التحالف السياسية تحتاج لإعادة نظر كما أن الأهداف السياسية العامة تقتضى إعادة نظر فنحن فى عالم تفاهم، واعتماد متبادل وليس عالم استقطاب.

وأنا اعتبر أن برنامج التجمع هو الناصرية الجديدة.

*** ولماذا لم يتوحد الناصريون (ككتلة) مع هذا البرنامج الذى تعتبره (الناصرية الجديدة) ؟**

** بل ولم يتوحد الماركسيون أيضا، فهذه هى طبيعة الأمور.

ولكن ما أجزم به أنه لا يوجد حزب يناضل ليخدم الاشتراكية مثل حزب التجمع!

ولكن الخبرة التنظيمية تجعل بعض المجموعات تتصور أن قيادة ما يمكن أن تكون أفضل من قيادة أخرى، وهذا صحيح ولكن أحداً من هؤلاء لم يدخل التجمع حاملا رؤية واضحة للتغيير.

وأسأل الناصريين، هل الأفضل أن يبدأوا من خلال تنظيم جديد تماماً أو يبدأوا من خلال تنظيم قائم ويتطوروا به؟!

وعلى أية حال فقد دعونا الناصريين أن يدخلوا التجمع إلى أن يقوم حزبهم فرفضوا قائلين إنهم يفضلون البقاء فيه وهو تحت التأسيس.

وأنا ليس عندى أية حساسية لدخول أحد أو خروج أحد، فالذى لن أغيره هو البرنامج فأنا أعتبر أن البرنامج هو الذى ارتضته الفصائل كلها، وهو محكنا عندما نختلف بحيث يبقى لكل منا نظرته الإيديولوجية، فعندنا الدكتور خلف الله ـ مثلا ـ وهو رجل قومى ويؤمن بالشعب العربى الواحد والأمة الواحدة،

وقد قبل برنامج التجمع فى الوحدة العربية لأنه أقرب البرامج إلى فكره، كذلك الماركسيون فنحن فى الحزب لا نتكلم عن ديكتاتورية البروليتاريا، أو دور الطبقة العاملة الطليعى، ومع ذلك فإن الماركسى يرى أن برنامج التجمع هو أقرب البرامج إلى فكره والذى يحقق أهدافه بعيدة المدى.

ومن هنا أرى أن برنامج التجمع هو عمل عبقرى، وحتى البرنامج المرحلى لإنقاذ مصر هو عمل عبقرى حيث وافقت عليه كل الاتجاهات واجتمعت.

فالجانب السياسى - إذن - هو أنجح الجوانب عندنا والدليل على ذلك أننا (بالرغم من كل ما مررنا به) الحزب الوحيد الذى لم يحدث فيه انقسام.

وهذا يدل على أننا - من الناحية السياسية - نحل المشاكل السياسية ونحترم الديمقراطية الداخلية، وليس هناك قرار يتخذ فى غيبة الآخرين.

فمن يقول - إذن - بعدم وجود ديمقراطية داخلية فى التجمع يطعننا فى أعز ما نملك!

نحن متعددو الاتجاهات، وإذا لم تكن قراراتنا تصدر بالديمقراطية لا نستطيع أن نبقى ثانية واحدة فأعداؤنا كثيرون، ولا يحمى الحزب منهم - حتى الآن - سوى ديمقراطيته الداخلية.

وأقول هذا الكلام عن الديمقراطية الداخلية بالذات لعبد الرحمن الأبنودى وأيضا لجمال الغيطانى ويوسف القعيد.

*** دعنى أقرر يا أستاذ خالد أن هؤلاء الأدباء هم زهور جيل الستينيات الأدبى، وربما لا يعرف بعض الجمهور عن التجمع سواهم فكيف تراهم ليسوا جزءا من البدن السياسى للحزب كما قلت قبل قليل؟**

** لقد تكلمت من قبل عن يوسف القعيد وجمـال الغيطانى، أما عبد

الرحمن الأبنودى فقد جاء إلى التجمع بعدما قابل السادات، وثارت وقتها ضجة كبرى فى أوساط اليسار عن علاقته بالسلطة.

وقد رحبنا به، وأذكر أننا فى ٢٨ سبتمبر ١٩٧٧ أقمنا احتفالا فى ميدان المحطة بحلوان، ورفض عدد من المنتمين إلى اليسار بل وبعض أعضاء لجنة الحزب فى القاهرة وفى حلوان أن يلقى الأبنودى شعراً فى هذا الاحتفال، متهمين إياه بالارتباط بالسادات وبالسلطة، وقلت وأيدنى فى ذلك حسين عبد الرازق أمين القاهرة: إن الحزب إذا عجز عن تقديم أحد أعضائه ـ وهو شاعر بحجم ووزن الأبنودى ـ فى احتفالاته فإنه من الأفضل أن نلغى هذا الحزب.. وصممنا أن يلقى كلمته.

ولما وقف ليلقى كلمته قاطعه بعض الناس وحاولوا منعه من الاستمرار، ولكن قيادة الحزب وقفت معه وساندته.

وقد ظلت العلاقة بينه ـ كأحد مثقفينا البارزين ـ وبين الحزب تسير فى أفضل صورة وقد كنا ندعوه للمشاركة فى اجتماعاتنا واحتفالاتنا، ولم يكن هذا يحدث وقت الخطر أيام السادات فقط بل إن دوره برز أكثر فى عهد مبارك وبعدما تحسن الجو.

وفى كل مرة كان يلقى فيها شعره، ويقول كلامه لم يقف أحد من الحزب ليعترض على ما يقول الأبنودى.. بل إنه ألقى شعراً مرة فى احتفال لحزب التجمع يخالف خط الحزب وهو قصيدة (المتهم خالد).

فقد كنا ضد الاغتيال السياسى وحاسبنا عدداً كبيراً من الناس الذين مجدوا خالد الإسلامبولى، وكنا ولا نزال ضد الاغتيال الفردى، وإلا سنقبل ـ إذن ـ أن يتم اغتيالنا.

وهذا ـ أيضاً ـ مثل الموقف من ثورة مصر، فأنا مع المتهمين وسأتضامن معهم، ولكن لا أستطيع أن أعلن إقرارى لما قاموا به من عمل.

وأنا مختلف مع الأخوة الناصريين ومع شباب التجمع فى هذا.

....

وأعود للأبنودى.

فإذا كانت لديه وجهة نظر أخرى لا يعبر عنها شعرا فمجالها الحزب، ولكننى لم أسمع عنه أو منه أنه حضر مستوى حزبى أو مكتب أدباء ليعبر عن وجهة نظره إذن فالأبنودى (وأيضا الغيطانى والقعيد) ليسوا فى جسم الحزب، وإذا لم يكونوا فى جسم الحزب فمن أين لهم أن يعرفوا مدى الديمقراطية الداخلية فى الحزب؟

عليهم ـ إذا أرادوا ـ أن يلتصقوا بجسم الحزب، وأن يناضلوا داخله لتغيير ما يريدون تغييره.

ولكنهم ـ على أية حال ـ فنانون، لا نعول كثيراً على حضورهم هذا، ويكفينا التزامهم بالخط العام.

ومع ذلك فلا يوجد شاعران نشرت لهم الأهالى شعرهما فى صفحات كاملة سوى الأبنودى ومحمود درويش، ولكن ربما يكون للأبنودى خلاف شخصى مع الأهالى.. وهذا موضوع آخر فهذه مسائل لا أستطيع منعها كما لا أعتقد ـ فى النهاية ـ أن الجريدة تحولت إلى قطاع خاص كما يقول، فلو كانت قطاعا خاصًا لما عقدنا اجتماعا فى الحزب ولما غيرنا قيادتها.

....

أما أن يقول الأبنودى إن الموقف فى الأهالى قد حسم لصالح قوى فى التجمع وليس لصالح الأهالى نفسها فهذه وجهة نظر وما يعنينى هو رأى اللجنة المركزية التى صوتت لإجراء التغيير، والورقة التى أصدرناها فى هذا الموضوع تقول إننا نريد أن نحول الأهالى إلى جريدة تعبر عن مجمل اتجاه الحزب وليس معنى هذا أنها لم تكن تعبر، ولكن نقصد أن تعبر بطريقة أفضل.

فلنجرب اتجاها جديداً بعدما جربنا اتجاها ـ آخر ـ قديما لمدة ٦ سنوات.

*** هل معنى ذلك أن قيادة الأهالى الجديدة (المتمثلة فى محمود المراغى) تنوى أن تتربع فى مكانها لست سنوات هى الأخرى؟؟**

** بالقطع لا.

فقد جربنا، ونريد على ضوء التجربة أن نضع نظاما فى اللائحة الجديدة يؤكد أن البقاء فى مثل هذه الأماكن يكون لفترات أقل.

ولكن المشكلة هى: من ذا الذى يرضى بالتفرغ مستقبليا كصحفى فى الأهالى فقط، فالصحف القومية مستقبلها أفضل مهنيا ماليا، وبالتالى فإن قيادة الأهالى الحالية عندما أعلنت تفرغها الكامل لجريدة الحزب كان، هذا موضع تقدير كامل.

*** وهل تفرغ محمود المراغى فعلا؟**

** نعم سيتفرغ.. هو ـ تقريبا ـ متفرغ.

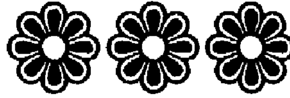
*** ماذا تعنى (تقريبا) فهو إما متفرغ أو غير متفرغ؟**

** هو متفرغ.

*** وهل رئاسة تحريره لمجلة العاشر من رمضان تدخل فى إطار التفرغ؟.. وهل أموره الأخرى فى الصحف العربية تدخل فى إطار التفرغ.**

** سوف يترك مجلة العاشر من رمضان.. وقد وعد بذلك.. نعم سيتركها.

ديسمبر ١٩٨٨



أسامة أنور عكاشة

(فى المشمش) !

* مصر حساسة جداً - عبر التاريخ - تجاه أى شىء يمكن أن يقف عائقاً بينها وبين مجال أمنها القومى الحيوى فى الشرق.

* رأسمالية عبود وياسين شىء.. ورأسمالية الهبش والسمسرة شىء آخر!

* تيار السلفية يضم عناصر هدفها الأوحد هو «الانتقام» وعناصر هدفها الأوحد هو «المال» وعناصر هدفها الأوحد هو «القيم الثابتة» !

* نجوم الانفتاح الزاهرة قضت على فكرة المثل الأعلى الكلاسيكى!

* افتقاد الإحساس بالعدل سبب أساسى للتطرف!

* من يتكلم الآن عن أن الدين هو دعوة للعدل الاجتماعى يجد نفسه متهما بأنه من المرجفين الذين يحاولون إتمام زواج غير شرعى بين الاشتراكية والإسلام!

* الانفتاح كان انقلابا ولم يكن تحولا!

* السلفيون لا يحاولون إرجاع الدين لمفاهيم صدر الإسلام العظيمة.. ولكنهم يحاولون إعادته لعصر الباب العالى وخليفة استانبول!

* كنت أتمنى أن يوفر الحزبيون جهدهم الذى يهدرونه فى الصراخ على صفحات جرائدهم لمحاولة بناء تنظيم حزبى حقيقى وسط الناس!

* آثر اليساريون فى مصر أن «يقزموا» أنفسهم فى حزب ضيق عليهم وضيق على نفسه!

* مع تقديرى لكل التجمعيين.. أرى أنهم أسرى لحالة «شيزوفرينيا» سياسية!

* الوفد - الآن - يحاول استغلال العلامة التجارية القديمة لاسمه، وكأنه حزب للشيعة يرفع راية على!!

* التشابه بين صيغة الاتحاد الاشتراكى وصيغة التجمع يكمن فى «لم» الشامى على المغربى!

* اليسار المصرى هو يسار صالونات!

* أرثوذكس النظرية الماركسية فى مصر يرون فى جورباتشوف أنه سادات موسكو!

* سراج الدين قضى على الوفد قبل الثورة وجعل من عودته فى السبعينيات نكتة!

* ليس هناك ما يجمع الاخوان ومصر الفتاة سوى الأصول الفاشية!

* المثقف المصرى اكتفى بالتقوقع والانعزال والفرجة، ولم يعد باقيا أمامه سوى حرية «الثرثرة»!

* أنصاف الموهوبين فى كل مجال يعوضون نقص موهبتهم بقدرتهم على

التسلق الاجتماعى!

*** هناك حلف مقدس بين البيروقراطية والفساد!**

* * *

**** أسامة أنور عكاشة..**

جبرتى الدراما المصرية، الذى يحمل تاريخ الوطن على كاهله.. ثم يفرشه ساحة تتكاثف فى خلفيتها الألوان والخطوط.. الظلال.. والبريق.. وفوق هذه الأرضية يحرك شخوصه المخلوقة بعناية لتأخذ من أرضيته وتعطيها، ولينبض التاريخ بنبض رؤية جديدة وتغلغل روح جديدة!

وهكذا فعل معنا فى هذا الحوار!

فرش تاريخ المرحلة ساحة تتكاثف فى خلفيتها ألوان الاقتصاد وخطوط السياسة.. ظلال الاستنتاج، وبريق التحليل.

ثم حرك فوق هذه الأرضية شخوصا اسميناها (النجوم الزاهرة لعصر الانفتاح) أولها (المتطرف) وثانيها (الانفتاحى) وثالثها (الحزبى) ورابعها (المثقف) وخامسها (البيروقراطى) وسادسها (الحرفى)!

تكلم عن العناصر التى تحرك تيار السلفية فى مصر، وحدد أهدافها فى (الانتقام) و (المال) و (القيم الثابتة)!

وقال إن رأسمالية اليوم ليس لها إلا أهداف ثلاثة هى: (الهبش) و(السمسرة) و (الوساطة).

وقال إن «أرثوذكس» النظرية الماركسية فى مصر يرون فى جورباتشوف أنه سادات موسكو!!

وقال: إن فؤاد سراج الدين قضى على الوفد قبل الثورة، ثم جعل من عودته فى السبعينيات نكتة!

وقال: إن الأصول الفاشية هى التى تجمع الاخوان ومصر الفتاة..

وقال: إن هناك حلفا مقدسا بين البيروقراطية والفساد!

وقال أيضا: إن أنصاف الموهوبين فى كل مجال يعوضون نقص موهبتهم بقدرتهم عل التسلق الاجتماعى!

وفى كل ما قال كان التاريخ فى كلماته ينبض بنبض رؤية جديدة.. ويتنفس أنفاس روح جديدة!

....

تحجيم مصر:

فى المشمش!

*** فى منتصف السبعينيات حدث تحول فى مصر (أصفه دائما بأنه دراماتيكى) وإذا كنت - أنا - أصفه كذلك، فمن باب أولى أن تصفه أنت لى؟!!**

** اختلف فى اللفظ، فهو ليس تحولا، ولكنه انقلاباً (وبالذات على المستوى الاقتصادى الاجتماعى). التحول يحدث بإيقاع تاريخى ابطأ من كل ما حدث، والتحول ـ عادة ـ ما تكون له مقدمات وتباشير، وبعدها يتحول المجتمع، أو تتحول السياسة، أو يتحول الفن.

ولكن ما حدث فى مصر كان انقلابا نقلها على الطرف الآخر المعاكس بزاوية ١٨٠ درجة! هذا التحول لم يكن دراماتيكيا ولكنه كان تراجيديا!

فى عام ١٩٧٥ كنت فى الرابعة والثلاثين من عمرى، أى أننى كنت فى الفترة التى يصعب فيها على أى إنسان أن يصبح إنسانا آخرا سارت مصر

حتى أعقاب حرب أكتوبر بنفس نمطها ونفس شكلها، ونفس كيانها السياسى والاقتصادى والاجتماعى، ثم هجمت علينا فترة، تطعن كلها ـ بعنف ـ فى الفترة السابقة، وتبشر الناس بأنهم كانوا مخدوعين طول السنوات المنقضية، وأنهم عاشوا ـ من قبل ـ فى ظل نظام فاسد ومهزوم سقط بهم إلى الهاوية، وألقى بمصائرهم فى داهية!!

وبالطبع كان هناك نوع من الدهشة، والاستنكار، أو محاولة استيعاب ماكان يحدث، وكان الجميع يحللون، هل المسألة هى مجرد انقلاب حاكم على النظام الذى أفرزه؟ وبحث آخرون عن جوانب كثيرة فى شخصية الرئيس السادات ولكن ـ الحقيقة ـ أن المسألة كانت أكبر بكثير، ولا أحب أن أدخل فى نظرية التآمر ولكننى أعتقد أن التحولات المفاجئة التى حدثت بعد حرب خالدة صنعها أبناء الوطن وقواتهم المسلحة الباسلة كانت نتيجة لأوضاع نضجت، فالقيادة الوطنية الكاريزمية التى يمكن أن تجمع الناس حولها، اختفت، ولم يكن بعدها وجود لكوادر فكرية حقيقية للنظام، أو مؤسسات فكرية حقيقية أنشأها نظام عبد الناصر، فخلا الميدان ـ تماماً ـ للردة، أو لما أريد بمصر، وأنا أضع تحت هذا التعبير (المبنى المجهول) ألف خط.

(ما أريد بمصر) هو مسألة تاريخية، خاصة إذا سلمنا بمنطق التآمر، فهو تآمر عبر التاريخ، وليس ابناً لليوم، ولكن من الممكن أن نرجعه إلى زمن عودة جيوش محمد على من حرب المورة، فقد رأت الدول الأوروبية المؤشر والنذير المصرى، وصدر حكم دولى أن تبقى مصر فى حدودها، بينما مصر بحكم تركيبها السكانى، وبحكم عوامل أخرى عديدة هى أحوج ما تكون إلى تطبيق ما نصفه بالمجال الحيوى، وأنا اعتذر عن هذا التعبير الذى يكاد يكون نازيا فى الأساس، ولكنه انعكاس لحقيقة أن مصر ـ لا تستطيع ـ بحال من الأحوال

أن تنكمش داخل حدودها، وليس هذا تبريرا لنزعات استعمارية، أو دعوة لأشياء من هذا القبيل، ولكنه نوع من التسليم بضرورة جغرافية فهناك مساحة من الأرض الصحراوية، فيها شريط ودلتا مزروعة يعيش عليها شعب وصل تعداده اليوم لما يفوق الخمسين مليونا، وهذا الشعب ليس عنده موارد تكفيه، ومن هنا كان لا بد أن يتجه النشاط البشرى المصرى إلى المنطقة من حوله. وبعد هذا جاء مستجد هو اسرائيل التى رأت أنها لا بد أن تنتشر فيما حولها، ثم كان الصدام (القدرى بيننا وبينهم).

مصر حساسة جدا تجاه أى شيء يمكن أن يقف عائقا بينها وبين مجالها الحيوى فى الشرق، ومن هنا دخلنا حرب ١٩٤٨ دفاعا عن الامتداد الطبيعى للنشاط المصرى، ومن هنا اعتقد أن هذا الإحساس سيبقى، رغم أن مصر كانت أول دولة عربية تقيم السلام مع إسرائيل بشكل تعاهدى وتعاقدى وما حدث بعد ١٩٧٧ كان أن فقدت مصر خياراتها بالنسبة للمجال الحيوى وانكفأت على الداخل لكى تواجه الانفجارات المحتومة.

وفى البداية كانت أبواق الدعاية رددت أن الانفتاح سيأتى بالمن والسلوى، وأن أمريكا ستغرقنا بالدولارات، وتصور الناس أننا سندخل الجنة بعد النار والعذاب، وبنوا آمالا كبيرة جداً على انتهاء عصر الانغلاق!

(عصر الانغلاق) قد نختلف معه كثيراً، ولكننا نسلم بحقيقة أساسية فيه هى أن مصر كانت محمية من موجة الغلاء العالمى، ومن تأثيرات السوق، فصحيح أن مصر كانت منغلقة على نفسها، ولكننى أعتقد أن الاقتصاد المصرى كان قد بدأ ـ إلى حد ما ـ يقف على قدميه دون أن يستند على رأسماليات خارجية، ولم يكن هذا متحققا كنتيجة. على مستوى المعيشة اليومية للناس ـ بشكل جوهرى ـ ولكننا أحسسناه بعد مرور كل هذا الوقت، ونستطيع أن نقيسه وأن نجرى المقارنة!

كانت هناك بوادر صحية اقتصادية ـ بالفعل ـ والقطاع العام ـ رغم كل الذين هاجموه ـ هو الذى حمى مصر فى الأوقات العصيبة، وهو الذى حمى مصر في ١٩٧٣.

القطاع العام ـ بكل أمراضه التى ولدت معه البيروقراطية وسوء الإدارة ـ هو الذى حمى مصر ـ وكان يمثل علامة صحة، ولو كان قد أتيح لهذا القطاع أن ينفذ الخطتين الخمسيتين الثانية والثالثة، لكان أملنا كبيرا فى أن نقترب من تجربة الهند (ولا نقول يوغوسلافيا).

ولكن ذلك كله توقف، وتبعثرت أوراق اللعبة، وضربت كل رموز النظام الاقتصادى القديم، ليأتى الانفتاح حاملا لافتات «سفن» و «سبورت» وليأتى أيضا بمحلات السوبر ماركت التى نمت نمواً سرطانيا، فى أرجاء مصر كلها حاملة معها كل مظاهر التضخم، لم نعد فى غرفة معقمة تحمينا من موجات التضخم فى العالم كله، وكانت الكارثة التى أجزم أن الرأسمالية ـ بمعناها الطبيعى ـ لم تقدنا إليها.

فقبل عام ٥٢ كان لدينا ما يمكن تسميته بالرأسمالية الوطنية التى بنت مصانع، وأقامت مشروعات إنتاجية، وكان لها رموز مثل ياسين فى الزجاج وعبود فى صناعات أخرى.

أما اليوم فلدينا رأسمالية «الهبش» و«السمسرة» و«الوساطة» وهى القيم التى أصبحت عصب حركة «السوق» فى مصر!

وأؤكد كذلك أن هذه القوى هى ـ بالمصلحة ـ مع تحجيم مصر، وأؤكد لك أيضا أن حقائق التاريخ تؤكد أن هذا مستحيل.

*** أستاذ أسامة.. حددت ـ الآن ـ الأرضية الدرامية، والتى ستحرك**

عليها شخوص هذا الحوار، واسمح لى أن استخدم دارمية - أيضا - فاطرح عليك بعض نماذج النجوم الزاهرة فى تلك الفترة التى بدأت من منتصف السبعينيات وحتى الآن.

** أسمح لك.

*** أولهم المتطرف؟**

المتطرف:

عودة التاريخ للوراء

فى المشمش!

** المتطرف هو مشكلة المشاكل الآن! هو إفراز للمرحلة - التى كنا نتحدث عنها - وأحد نجومها. المشكلة الاقتصادية لم تعد على مستوى الدولة. ولم تعد مشكلة تدبير موارد، أو تدبير عملة، أو تدبير ميزانيات لمشاريع، ولكنها أصبحت داخل كل بيت، فغول التضخم أكل العملة المصرية وبعثر أشلاءها فى كل مكان.

ظهر الناس انكشف تحت ضغط عامل الخوف من الجوع، وهذا يهدد البيوت بشكل مباشر وخطير، بحيث أصبحت مشكلة رجل البيت أن يدبر الخبز، فوجئت الأجيال الجديدة بالإحباط على كل مستوى، وهناك بعض التفسيرات للجوء البنت للحجاب تقول إنها استخدمت الحجاب للحد من ضغط المشكلة الاقتصادية عليها وللتغلب على عجزها من شراء الملابس والذهاب للكوافير!

أنا ميال للتحليل الاقتصادى لظاهرة التطرف، ولكننى لا أستطيع أن أنكر أنه منذ ١٩٦٧ حدث نوع من الإحباط المعدى، الذى تورثه الجيل الجديد،

وقد استطاعت حرب ١٩٦٧ أن تزيل الآثار العسكرية للعدوان، ولكنها لم تتغير بعد مرارات وعقد ١٩٦٧.

وجد الشعب نفسه فى حيرة خاصة مع التطورات المتلاحقة التى أعقبت الهزيمة من حرب استنزاف إلى موت عبد الناصر، وتخلخلت القيم، ومن هنا كان اللجوء إلى القيمة المجردة أو (الله) هو وحده الذى يستطيع أن ينير لنا الطريق وسط الظلمات التى نتخبط فيها.

جزء من الاتجاهات السلفية كانوا رجالاً كباراً هدفهم الانتقام مما حدث لهم فيها قبل، وجزء آخر فهم اللعبة بطريقة صحيحة، وبدأ يلعبها على مستوى الفلوس! وبدأنا نرى تفرقة بين الإسلام (الثورى) والإسلام (الثروى)!!

أصحاب الإسلام الثروى، كانوا يمثلون رؤوس أموال جاءت من الخارج لتمول قادة الجماعات المتطرفة هنا، وأصبح هؤلاء الناس هم الرموز الاقتصادية للاتجاه الإسلامى فى مصر، الذى استغل ـ بدوره ـ هؤلاء الأوغاد المحبطين فى كل بيت والذين كنا نتكلم عنهم قبل قليل.

محبطون لديهم رغبة فى العدالة، ولا يجدون طريقا لها، لا يوجد لديهم «قرشين» يواجهون به أنياب غول ينهش بيوتهم، وكل هذا كان لابد أن يخلق شخصية الإرهابى أو المتطرف الذى نراه اليوم.

*** ما هو مستقبل هذا التيار فى مصر؟**

** نظرتى للتاريخ تفاؤلية دائما، لأننى مؤمن بأن الرجوع للوراء صعب، إننا سننجذب للامام حتى ولو رغما عنه ـ القرن الواحد والعشرون لن يسمح لأحد أن يتخلف، والتطرف ظاهرة ليست أصيلة، فى المجتمع المصرى ولا

تضرب بجذورها فى أعماقه، وأصحاب هذا الاتجاه ليس لديهم برنامج وحتى ولو نجحوا ـ جدلا ـ فى الوصول إلى الحكم فلن يستمروا وهذا ـ أيضـا ـ ما سيحدث فى إيران، فقط اختفت الشخصية التى كانت تجمع حولها كل خيوط اللعبة، وسينفرط كل شيء، وأنا أذكر إيران باعتبارها أحد المثل التى كانت تخايل المتطرفين، وتراودهم بسببها أوهام أن يتكرر حكم آيات الله الإيرانى على أيدى أمراء الجماعات فى مصر، ولن يحدث، ويقينى هذا ليس من باب التمنى ولكنه من باب الإيمان بأن مثل هذه التصورات هى ضد التاريخ، ولا يستطيع أحد أن يحيد عجلة التاريخ إلى الوراء أو يتصدى لها.

*** ثانى النجوم الزاهرة هو «الانفتاحى»؟**

** هذا هو أهم النماذج.

الانفتاحى:

استباحة هيبة الحكومة

فى المشمش!

والانفتاحى هو النجم السعيد فى هذا العصر، وهو الرجل الذى فاز بزبدة كل شيء وفى اعتقادى أن نموذج الانفتاحى لا يختلف عن شخصية النصاب المصرى العادى الذى يتمتع بالذكاء، وإن حرم من كل المقومات الأخرى كالتعليم والمكانة الاجتماعية المعتبرة.

نصاب زمان كان يبيع الساعات (الفالصو) فى العتبة على أنها ذهبية، وفجأة وجد نفسه في منتصف السبعينيات أمام بوابة مغارة على بابا، وسمع أفراد العصابة يقولون: «افتح ياسمسم» وهنا استبيح الاقتصاد المصرى، واستبيحت هيبة الحكومة كجهاز مراقب ومسيطر ومؤمن (بكسر الميم

المشددة) للاقتصاد، وتحت دعوى الانفتاح أصبحت البنوك مغارات يتم فيها وعبرها استنزاف الموارد والمدخرات وغرفها فى جيوب الانفتاحيين الذين يعرفون من أين تؤكل الكتف.

من يمكن أن يرد إلى ذهنك إذا ذكرت كلمة (نجم الانفتاح) ؟

سيرد إلى ذهنك توفيق عبد الحى، وهدى عبد المنعم، وملوك شركات توظيف الأموال، الانفتاحى هو المسخ الذى خلقه عهد السادات الذى يصفه هؤلاء الانفتاحيون بأنه العصر الذى إن لم يغتن فيه أحد فلن يغتنى طوال العمر!!

*** ما هو تأثير وجود مثل هذا النمط على فكرة المثل الأعلى الكلاسيكى عند الناس ؟**

** قضى عليها قضاء مبرما، فإحدى مشاكل مصر اليوم وبخاصة عند الأجيال الجديدة هى افتقاد المثل والقدوة، ووجود الشخص الذى يثير أحلام الشباب وأمنياتهم أن يكونوا مثله، والذى مازال يملك القدرة على الحلم، يحلم ـ الآن ـ بأن يصبح مثل توفيق عبد الحى، أو رشاد عثمان!! فهذه الأجيال الجديدة من الشباب يتكون وعيها الآن، وأى من أفرادها يفتح الجريدة يرى هذه النجوم الانفتاحية الزاهرة تملأ السمع والبصر، ويجد أخاه الأكبر ـ مثلا ـ لا يستطيع الزواج ولا يجد شقة وينفعص ـ يوميا ـ فى المواصلات.. فماذا أمامه؟

ليس أمامه سوى أن ينام ويحلم ويتخيل نفسه مليونيراً انفتاحياً!!

*** هناك ظاهرة تحيرنى فى هذا النموذج (من الناحية الدرامية أيضا)**

وهى لماذا يسحب هذا النموذج ـ بالذات ـ على نفسه غطاء وثيرا من التدين ؟

** الارتباط ليس موجوداً بين الدين وبين هؤلاء، ولكن الارتباط موجود بين التخفى بالدين وبين هؤلاء! يفسرون النصوص وفق ماشاءوا، ويرفع كل منهم لافتة مكتوب عليها (هذا من فضل ربى) ومن يسأل أكثر من هذا يكون مجاوزاً لحدود الحرمات، ويكون حاقداً وناقماً، ثم إن الانفتاحيين احترفوا مواساة الفقراء بنصوص دينية أيضا حيث الفقراء لهم ملكوت السماء، والفقير لابد أن يقنع بفقره لأن هذه هى قسمة الله التى قسمها له، وكلما رضى بالمقسوم كان جزاؤه عظيما فى الآخرة.

*** ألم ترتسم أبدا فى الذهن الجماعى أو المخيلة الجماعية لهذا المجتمع الذى نعيش فيه فكرة مؤداها أن الدين (فى معظم جوانبه) أو (فى كل جوانبه) هو دعوة للعدل الاجتماعى بالدرجة الأولى وهو ثورة اجتماعية بالدرجة الأولى ؟**

** من يتفوه بهذا ـ الآن ـ يتهم بأنه من المرجفين الذين يحاولون إتمام زواج غير شرعى بين الاشتراكية والإسلام، وربما جاءت هذه الفكرة الخرقاء من أيام التطبيق الاشتراكى فى مصر، حين كنا نحاول إفهام الناس ألا عداء بين الإسلام وبين نظريات العدل الاجتماعى، وأن الإسلام ـ بالتالى ـ هو الوعاء الأكبر الذى خرجت كل هذه الدعوات منه (والاشتراكيون أنت إمامهم لولا دعاوى القوم والغلواء) ولكن الأمر اختلف الآن، وظهرت طبقة عريضة تهاجم الفترة الاشتراكية فى مصر بعنف شديد، بما فيها هذه الأفكار المعتدلة، وبما يحقق لأصحاب هذا الموقف هجوما أشد على الستينيات، ولكن عبر رأس جسر يلبسونها ثوب الدين بكل أسف، هم فقط يحاولون تثبيت

مقولة الاقتصاد الحرفى فى ذهن الناس، ويستخدمون كل تأثيراتهم على الناس فى تحقيق هذه الدعوة، وعلى المتضرر أن يراجع الصور اللامعة فى هوجة توظيف الأموال، والتى كانت الرموز الدينية ـ بكل أسف ـ طرفاً مباشراً فيها عبر التليفزيون وعلى أوراق الصحف، وبسلوك إعلانى مباشر لا تأتيه الموضوعية من بين يديه أو خلفه!!

*** إذن فهم يستخدمون الدين ضد نفسه أو ضد طبيعته أو ضد حقيقته؟**

** نعم، فقد سلمنا معا أن الدين هو دعوة تقدمية بالأساس، ولكن ما يحدث الآن هو دعوة رجعية حتى النجاح وهى محاولة لإرجاع الدين ليس لمفاهيم صدر الإسلام (الخلفاء الراشدون وعمر بن عبد العزيز) ولكن لعصر الباب العالى والخليفة العثمانى فى استانبول.

التاريخ الإسلامى يجترئ اليوم بواسطة هؤلاء المتطرفين لصالح الرجعية، وليس لصالح العنصر أو الجوهر التقدمى للإسلام، الإسلام دعوة تقدمية، وهو ثورة ضد الظلم الاجتماعى، ومع ذلك فهو يتخذه ـ للأسف ـ هؤلاء الانفتاحيون المتظاهرون بالدين كوسيلة لتحقيق عكس أهدافه كدعوة سماوية تبتغى العدل.

والعدل بالدرجة الأولى..

الحزبى:

«أحزاب» تنشأ من وسط الناس

فى المشمش!

*** النموذج الذى نطرحه الآن هو «الحزبى» فانظر ماذا ترى؟**

** الحزبى فى مصر (منذ تجربة المنابر وحتى الآن) نوعان:

ـ **الحزبى الحكومى**: الذى بدأ فى هيئة التحرير ثم الاتحاد القومى ثم الاتحاد الاشتراكى فحزب مصر وأخيراً الحزب الوطنى الديمقراطى، وهذا الشخص لا صلة له بالحزبية بأى صورة من صورها، وهو ـ فقط ـ رجل الحكومة الذى يتعلق بأذيال الحكم، والذى يسعى إلى أن يأكل قطعة من الكعكة مهما بلغ صغرها، هو المستفيد وهو المنتفع بالحكم أو بمؤسسات الحكم.

التجربة المصرية بعد ١٩٥٢ لرفضها الشكل الحزبى ـ حاولت ـ أن توجد أى وعاء من الأوعية ليكون بديلا لتجربة الأحزاب فكان هذا الخليط الذى عشنا فيه، والذى يعتبر فى اعتقادى من أكبر سلبيات التجربة الناصرية، فكرة الوعاء الذى يجتمع فيه الشامى والمغربى شديدة الشبه بأكلة «التورلى» حين تجتمع عناصرها فى «الحلة البرستو»! ليس هناك طعم مميز لشىء وليس هناك نكهة خاصة لأى شىء، ولا نستطيع أن نتناول مثل هذا الوعاء بأى ألوان التحليل السياسى.

أما الحزب الآخر الذى أراد التعبير عن الرأى الآخر فقد سقط فى الواقع فى مأزق كبير، فقد نبت فى حضن الحكومة، ولم يظهر كحزب جماهيرى بدا ـ فعلا ـ من وسط الناس وربى كوادره وسط الناس، وطرح برنامجه لهؤلاء الناس.

المسألة كانت فوقية قلبنا فيها كل شىء كما هى العادة فى تجاربنا السياسية، الأحزاب ـ عندنا ـ ولدت فى حضن السلطة، أو على الأقل بسماح من السلطة مهما بلغت حدة هذه الأحزاب وعصبيتها فى معاداة الحكومة فيما بعد، والسبب فى هذا أن الأحزاب الموجودة تضم حزبين هما

ورثة لأحزاب أخرى تحت الأرض أو لتجارب حزبية مبتورة لم تتم، ولو خصص هؤلاء جزءاً من جهدهم الذى يبذلونه فى الصراخ على صفحات جرائدهم لمحاولة بناء تنظيم حزبى حقيقى وسط الناس لاختلف أمرهم تماما، إنما للأسف الشديد هم جرائد لها أحزاب وليس العكس!

الحزبى ـ عندنا ـ كيان مائع ومن ثم لا نستطيع أن نفسر أحزابنا تفسيراً دقيقاً يسمح بفارق كالموجود بين الحزب الجمهورى، والحزب الديمقراطى، أو بين حزب العمال وحزب المحافظين أو بين الاشتراكيين الفرنسيين والشيوعيين الفرنسيين أى ليس عندنا التقسيمات الكلاسيكية للحياة الحزبية.

*** ربما ليست عندنا التقسيمات الكلاسيكية للحياة الحزبية، ولكن عندنا ـ فى الواقع ـ شيئا آخر، وهو «التيارات» الفكرية واعتقد أن الوضع الحزبى ترك آثاره السلبية بالضرورة على هذه التيارات.. فطالما كانت هذه التيارات خارج اطار الأحزاب، كانت تفرز إفرازها الجديد، وتتطور فى كل يوم وتعيد صياغة نفسها وصياغة أفكارها، أما عندما حشرت حشراً فى حيز (الحزبية) فتغيرت المسألة.. على أى نحو ترى هذا التغيير؟**

** مناضلو العقائد القديمة، الذين لهم عقائد ممتدة، ولم يندرجوا فى وقت من الأوقات ضمن تشكيلات السلطة يمثلهم الشيوعيون وأصحاب التيارات السلفية، أما عن الشيوعيين فهم مأساة، فالمفروض أنهم متمسكون بعقيدتهم جداً جداً، وعندهم لون من الكهنوت الغريب، والالتصاق بالمبادئ حتى دون مراعاة التطورات والجدليات التى تحدث حول النظرية حتى فى الوطن الأم!

ورغم هذا فوجئنا بهم ـ مثلا ـ فى الستينيات يحلون أنفسهم، واعتقد أن هذه هى الصفقة الأولى لأى حزب شيوعى فى أى مكان فى العالم، والتى

بموجبها يحل الحزب نفسه كى يندمج فى الاتحاد الاشتراكى، وبالطبع لم يكن هذا الحزب الذى حل نفسه هو الحزب الماركسى الوحيد على الساحة، ولكن كانت هناك تشكيلات حزبية ماركسية أخرى رفضت.

أريد أن أقول إن اليسار المصرى - إجمالا - رغم ملاحقات الحكومة ورغم مسار النضال الطويل الذى عاشه، آثر أن يقزم نفسه - فى النهاية - فى حزب ضيق عليه، وضيق على نفسه، ومع احترامى وتقديرى لكل السادة الموجودين بحزب التجمع فأنا أعتقد أنهم قد وقعوا فى نوع من «الشيزوفرينيا» السياسية حين أرادوا أن يوائموا أنفسهم مع نظام يرفضونه، وهذه مسألة مذهلة جداً، ومحيرة جداً، وحقيقية جداً.

ماذا يريدون بالضبط؟ أيتوقعون أن يسمح لهم النظام الذى يقفون ضده بأن يكبروا لدرجة أن يهددوه ويأخذوا منه الحكم؟ لا استطاعوا أن يحافظوا على تاريخهم أو تراثهم النضالى، ولا ظلوا معارضين بمعنى المعارضة، لقد ظلت مسألة العلنية والاعتراف بهم كحزب تؤرقهم جداً وتصوروا أنهم عندما يكون لديهم حزب رسمى ومعلن، فإن ذلك سيوفر عليهم كل المتاعب!

*** «حزب رسمى ومعلن» هذه مسألة تثير فى الذهن سؤالا آخر.. فقد كنت تتكلم منذ قليل عن الاتحاد الاشتراكى (بوصفه التنظيم الأخير للفترة الناصرية) باعتبار أنه قد جمع الشامى على المغربى، ولكننى لا أجد فرقا كبيراً ما بين صيغة الاتحاد الاشتراكى، وصيغة التجمع التى جمعت - أيضا - الشامى على المغربى؟**

** بالضبط.. جمعوا الشامى على المغربى؟ ولكن الشامى كان مسيطراً بصورة أكبر (يضحك)! وعلى أية حال فتكوين التجمع هو جزء من «الشيزوفرينيا» ففى البداية جمعوا القوميين العرب والناصريين وجماعة

«حديتو» وجماعة «حشم» وهذه الفصائل كلها، وفى البداية كنا نقول إن هذا فرز يسارى، ولكننا وجدنا هذا الوضع يستمر ووجدنا من يقول لنا إن صيغة التجمع هى ما زالت منبراً لليسار كما بدأت، بمعنى إطار عريض يندرج تحته كل أهل اليسار، وإنها صيغة يجب المحافظة عليها لأنها دستورية فلا يستطيع الماركسيون اليوم أن يطردوا بقية الناصريين الموجودين ويعلنوا أن حزبهم هو حزب للماركسيين فقط، وإلا كانت هذه مخالفة للدستور، تعطى لجنة الأحزاب فرصة لأن تنظر فى المسائل من جديد.

المهم أننى أضحيت أرى اليسار متمسكا بالعلنية، ومعتبراً أنها المكسب العظيم الذى وصلوا إليه وفى مقابلها يتخلون ـ كل يوم ـ عن أهم بنود تراثهم النضالى، ورضاهم بصيغة التجمع تشبه ـ إلى حد كبير ـ حلهم للحزب فى الستينيات والانضمام للاتحاد الاشتراكى، حالة «شيزوفرينيا» تجسد مأساة اليسار المصرى، الذى ـ فى كل تاريخه ـ هو يسار «صالونات» وتجمع لأناس ينشئون لأنفسهم ما يشبه المحافل الماسونية بدلا من أن يناضلوا نضالا حقيقيا، وأنا لا أعرف أين مردود نضال هذا الحزب الذى يدعيه على أرض مصر منذ أن ظهرت فى مصر كلمة (يسار) ؟! منذ كوربيل، أن العمال الذين اندمجوا فى هذا التيار لا تساوى أعدادهم، حجم ادعاء هذا الحزب بأنه يمثلهم.

«حديتو» و «حشم» ومليون تنظيم وتنظيم وحركات وجرائد وأدبيات منشورة وغير منشورة، وفى الوقت نفسه، فإن الحصيلة على أرض الواقع ضئيلة جداً ولا تعطيهم ـ حتى ـ شرعية التحدث باسمها، وهذه ـ للأسف الشديد ـ أزمة اليسار فى مصر، أضف على هذا أنهم غير قادرين على التفاعل مع حركة اليسار فى العالم كله، ويسيرون معها بحيث يكون التغيير

الذى يحدث فى مصر أو العالم يكون موضع جدل ونقاش هنا، كيما يواكبوا على الأقل عصرهم وما يدور فيه.

ولكننا للأسف نجدهم يبحثون عن الحل السهل، ونجد فيهم من يصف جورباتشوف بأنه حرس قديم، ويعتبرون أنفسهم ارثوذوكس النظرية، التى يحمونها من تحريفات وتخريجات المنحرفين والتحريفيين أمثال جورباتشوف، وهذا وضع غريب جداً يحاولون فيه أن يكونوا ملكيين أكثر من الملك وفاقدين للقدرة على التحاور - حتى - مع النظرية الأم، أو مع الذى يحدث فى الوطن الذى يعتبرونه وطن الاشتراكية الأم، تخلف من البداية.. وتعثر حتى اليوم!!

*** وماذا عن السلوك الحزبى فى تيارات أخرى غير اليسار؟**

** أنا لست منظما حزبيا، وانتقدت اليسار رغم تعاطفى مع اتجاهه العام، ومع فكرة العدالة الاجتماعية عموما كمصرى يشعر أنها الخلاص الحقيقى لمصر، ولكن إذا نظرنا - مثلا - لحزب الوفد سنجد أنه نكتة، فهو حزب يتوقف على شخص - أعطاه الله العمر المديد - فؤاد سراج الدين، ولكن بمجرد رحيل سراج الدين سيصبح من الصعب تصور كيف سيكون هناك وفد، لأن هذا الحزب ليس له من اسمه نصيب، فاسم الوفد له رنين كبير جداً فى الذاكرة المصرية.

وفد سعد زغلول، وتوكيلات الأمة التى أعطتها إلى زعيم الأمة كى يطالب بالاستقلال، أنا أعتبر ما يحدث الآن هو لون من ألوان السطو على اسم عزيز وغال فى التاريخ المصرى (عندما كانت مصر كلها وفدية.. وكان قلب مصر ينبض بالوفد). ولكن كل هذا انتهى.. انقطاع تاريخى أنهى كل شىء

والذى يفعلونه اليوم فى الوفد برفع اسم الوفد القديم أو علامته التجارية، هو مثل ما يفعله الشيعة حين يرفعون راية على!

الوفد اليوم ليس له من تراث الوفد القديم أى شيء حتى الشخصية الفلكلورية الموجودة (فؤاد سراج الدين) فإن دورها انتهى أيام الوفد القديم، وأنا أعتقد أن فؤاد سراج الدين هو أحد الذين قضوا على حزب الوفد قبل الثورة بسنوات حين سيطر على مصطفى النحاس (آخر الزعماء التاريخيين للوفد) ثم انحرف بالوفد إلى أفكار إقطاعية واستطاع أن يفرغ حزب الوفد من كل رموزه الوطنية والشعبية، إذن فإن فؤاد سراج الدين وليس ثورة يوليو هو الذى قضى على الوفد.

* **وماذا عن الباقين؟**

** التحالف.. قصة غريبة جداً. فقد آثر أنصار مصر الفتاة، وبعض بقايا الحزب الوطنى القديم، أن ينظموا معا فى الحزب الاشتراكى، أو حزب العمل الاشتراكى ثم وقع هذا الحزب تحت سيطرة الاخوان، وربما لا يجمع هذه الفصائل سوى الأصول الفاشية أياً كان لون (قمصانها) وهذا ـ بالطبع ـ ليس التراث العظيم الذى يمكن أن يفخر به أى حزب، أو يسعى لبعثه وإحيائه اليوم.

وهؤلاء يهاجموننى بشدة ـ هذه الأيام ـ وأحد مفكريهم كتب فى مقالا فادحا وفاحشا، ولكن هذا لن يرهبنى، ومازلت أقول، وسوف أقول إن الاخوان المسلمين، إذا كانوا قد عانوا من الإرهاب فهم صانعوه وهم أول من أشعل فتيله فى مصرا وطوال عمرهم، ولهم تنظيم سرى، حتى من قبل الثورة وكل هذه حقائق تاريخية لا يجوز الجدال فيها، أما اليوم فهم يحاولون أن ينظفوا تاريخهم ويتهمون غيرهم، بأنهم ظلموهم، ولكن هذا ألا يعنيهم من أنهم

كانوا فى الأصل تنظيما إرهابيا فاشستيا، وهم يعتمدون ـ اليوم ـ على جانب آخر، وقد لا يكون لهم ـ اليوم ـ جهاز سرى، لأن الجماعات المتطرفة التى خرجت من ردائهم أصبحت تقوم بدور الجهاز السرى وزيادة، أما هم فأصبحوا رموزا ورؤساء للتكتلات الاقتصادية، التى تستطيع أن تكون عند اللزوم سندهم للوصول إلى الحكم وهم يخططون لهذا، ودعنا لا نهرب من الحقائق.

المثقف:

«معرفة المثقف بالواقع»

فى المشمش!

*** ونأتى إلى نجم جديد من النجوم الزاهرة التى بزغت فى سماء حددت فى بداية الحوار عناصرها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.. وهذا النجم الجديد هو (المثقف) ؟**

** المثقف فى مصر، هو الوجه المريض للمثقف كما يجب أن يكون! فإذا كانت كلمة المثقف لها دلالتان ـ كما يقول البعض ـ هما المثقف الثورى، والمثقف المنعزل، فإننى أرفض هذا، وأقول إن المثقف ـ أساسا ـ هو الإنسان الذى يفهم مشاكل وطنه جيداً، والذى يربطها بمشاكل العالم، ومشاكل العصر، والذى بناء على هذا الفهم يفعل شيئا أو يدلى بدلوه فى حل هذه المشاكل.. وهذا اعتبره تفسيراً أو تعريفاً مبسطاً جداً للمثقف، الإنسان الفاهم العارف، الذى يشارك فى حل مشاكل وطنه.

وللأسف الشديد، فإن المثقف فى مصر غارق فى أدبياته العجيبة، وفى الشكوى مما آل إليه الوضع، وفى الثرثرة حول ما حدث وما يحدث، ولا يفعل أكثر من هذا، كلمة المثقف أصبحت تحتاج إلى فرز.

*** أوافقك على تعريفك.. ولكن فى المجال الزمنى الذى نناقشه أى زمن من التحول من منتصف السبعينيات حتى الآن.. ما الذى حدث للمثقف ؟**

** اعتقد أن ما حدث للمثقف فى مصر من منتصف السبعينيات هو نوع من التقوقع والانعزال والاكتفاء بالفرجة، المثقف فى مصر فقد أو أفقد القدرة على الفعل، وأفقد مكانته فى السلم الاجتماعى، فلم يعد باقيا أمامه إلا حرية الثرثرة، باستثناء شريحة جادة من الفنانين والعلماء وأساتذة الجامعة تحاول أن تستنقذ ما يمكن إنقاذه.

*** (صحوة المجتمعات المدنية) فى مصر والتى تمارس فيها هذه الشرائح المثقفة عملها سواء كانوا فنانين أو علماء أو كانوا أساتذة جامعة، هذه الصحوة لا أراها تصيب جوهر قضايا مصر، ولكنها تنزلق إلى مسائل فرعية بل وسخيفة تستدرجها إليها الأحزاب، وصحفها ثم تصبح جزءاً من لعبة «البراديفين» مع السلطة الوطنية، وهذا الأسلوب قد ينجح ـ أحيانا ـ فى تحقيق نجاحات مرحلية جداً، ولكنه لا يطرح قضية عامة، بما يدفعنى ـ مرة أخرى ـ أن أسألك عن مدى تعبير هذا المثقف عن واقعه بدقة، والتصاقه بواقعه بدقة، بل وأسألك عن مدى معرفته بعناصر هذا الواقع ؟**

** لا أستطيع أن أنكر أنه يعرف عناصر الواقع لأنه جزء من كينونته كمثقف، وإلا فقد الصفة، ولكننا ندين عجزه أو تقاعسه عن الفعل، أزمة المثقف الحقيقية هى التعبير الخاطئ أو التعبير الجبان أو ما يمكن أن تسميه تخلفا عن مواجهة حاسمة مع معطيات الواقع حوله، والمثقف فى مصر يرى أن طالعه يشير إلى حقيقة محتومة هى الصراع مع السلطة، وهذه المعركة

كانت تسفر دائما عن هزيمة المثقف!! وهذا ليس تلمسا للأعذار لصالح المثقف بقدر ما هو مظهر للصورة الكلية، ومن هنا فأنا أدين المثقف المصرى لإلقاء سلاحه، والتقوقع.

*** برغم اتساع الشريحة الاجتماعية التى تمثل المثقفين فى مصر يوماً بعد يوم وسنة وراء أخرى، إلا أننى ألمس حقيقة مهمة جداً وهى أن إحساس البسطاء من أبناء الشعب بهؤلاء المثقفين قليل جداً؟**

** هذا يعيدنا لحدوتة المثقف الثورى، المثقف الحقيقى هو الذى يعمل وسط الناس، وقد يكون ـ هناك ـ فنان أو كاتب أو عالم أو طبيب ممن يمارسون عملهم كمثقفين، وهنا يجب أن نفرق بين العمل كمثقف، والعمل فى مهنة لها طابع ثقافى أو شرط ثقافى.

المهنة يجب أن يكون لها صلة بالناس ـ بشكل ما ـ كيما تكون مساهمة فى تغييرهم بالشكل الذى يؤمن بها صاحبها (المثقف)!!

*** أحد العناصر التى تعوق هذا فى نظرى هو وجود شريحة كبيرة من أنصاف الموهوبين فى هذا المجال على وجه التحديد، وأعتقد أن هؤلاء هم الذين يعوقون اللحمة (بضم اللام) ما بين الجماهير، وما بين المثقف الحقيقى، بل ويعوقون تأثير هذا المثقف الحقيقى فى أى مجال من مجالات تحركه وسط الناس؟**

** أنصاف الموهوبين هم كارثة مصر الحقيقية اليوم، وهم يبرزون لأن صوتهم أعلى، ولأنهم يعوضون نقص الموهبة بالتسلق الاجتماعى، وتصدر المناصب، فهم ـ دائما ـ أعلى صوتا، وهم ـ دائما ـ أوثق علاقة بمنابر القيادة فى كل مجال، وبالتالى لديهم قدرة حقيقية وخطيرة على ضرب الموهوبين الحقيقيين أو ضرب المثقفين الجادين ـ بالفعل ـ وهذه ظاهرة ستجدها فى كوادرنا على مستوى الصحافة، وعلى مستوى الأدب، وعلى مستوى الفنون جميعها.. حيث أنصاف الموهوبين يدعون قيادة المسيرة!

البيروقراطى:

«الحلف غير المقدس بين

البيروقراطية و الفساد»!

فى المشمش

*** ونأتى إلى آخر النجوم الزاهرة (البيروقراطى)؟**

** البيروقراطى شخصية مصرية قديمة، وهناك من يقولون إن الإدارة الانجليزية ورثتها لنا من أيام الاحتلال، ولكننى أعتقد أنها أبعد من هذا، فهى تراث فرعونى، وهى ليست مرضا اجتماعيا مصريا، بقدر ما هى مرض إجماعى موجود فى بلاد كثيرة جداً، والكارثة أن توجد البيروقراطية فى بلد متخلف.

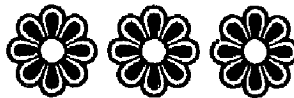
ولكن ما حدث من ١٩٧٥ للبيروقراطى أن أتيحت له فرص كثيرة للكسب، بل أصبح أحد وجوه الفساد فى مصر بشكل أو بآخر، بينهما حلف مقدس، فالبيروقراطى الذى يملك التمرير والمنع فى يده مفتاح كنز اسمه تسيير الصفقات، وتسهيل الأمور، ومن هنا لا نجد قضية فساد إلا والإدارة البيروقراطية ضالعة فيها على أى مستوى.

*** أستاذ أسامة.. ضع عنوانا لهذه الدراما الصحفية؟**

** بل ضعه أنت.

*** نعم سأضعه.. وليكن «فى المشمش»!**

يوليو ١٩٨٩



الرسام/حجازى

(عسكر.. ومثقفون .. وحرامية) !

* نحن نفكر فى قتل وقت الفراغ وليس فى «استثمار وقت الفراغ»

* العالم المتقدم اعتمد على فكرة الاختلاف، والعالم الثالث اعتبر الاختلاف جريمة ونقيصة وعملا مشينا!

* مطلوب أن تكون الأمة مزاجا واحدا وإلا تنقسم إلى مزاج للشعب، ومزاج للسلطة!

* نربى أطفالنا على أن يسمعوا الكلام لا أن يفهموا الكلام!

* حكام العالم الثالث يقبلون الشرعية ويستولون على السلطة.. وبمجرد امتلاكهم لكرسى الحكم يقعون فى غرام الشرعية من جديد.

* كل دعايات الحكم فى دول العالم الثالث تقوم على أنها تعيش أروع أيام حياتها، وأن أمنها مستتب.. بما يجمد الواقع ويمنع التغيير!

* القنوات الشرعية تغلق تماما حين يتم إعلاء قيم منحطة وإسقاط قيم فاضلة!

* السلطة تطلب زيادة الإنتاج وتقليل النسل.. فيزيد الناس النسل ويقللون الإنتاج لأن هناك مزاجين فى المجتمع!

* السلطة هى: المثقفون والشرطة!

* بكى الناس فى جنازة عبد الناصر، ولكنهم لم يدافعوا عنه لأنه لم يصل إلى هؤلاء الناس!

* مثقفونا احترفوا التعاطف عن بعد مع الجماهير!

* وجود التيارات الدينية فى المجتمع مشروع أكثر من اليسار!

* غياب الجماهير فى العالم الثالث هو عمل سلطوى بحت الغرض منه هو منع هذه الجماهير من الفعل أو العمل!

* لماذا يتلكأ العدل ويتباطأ أمام الحرامى الكبير بينما يسرع ويتصارم أمام الحرامى الصغير؟!

* حين تعتقد السلطة أنها سمحت لصحف المعارضة بالصدور.. فإن هذه الصحف تعد غير مسئولة عما يصدر عنها وحتى إشعار آخر!!

* المثقفون يعتمدون على دفاتر الموتى القديمة فى تفسيرهم للحاضر!

* أنظمة العالم الثالث مغرمة بالعدد، وليس عندها الغرام نفسه لقيمة الفرد داخل هذا العدد!

* فكرة الحكم الوطنى فشلت فى «تمدين» الريف وانهزمت أمام «ترييف» المدن!!

* ديكتاتوريات العالم الثالث تقاوم انتهاء عمرها الافتراضى مثل المرأة العجوز التى تقاوم الشيخوخة!!

* لم يجتهد أى حاكم لإحلال بديل فكرى محل الخرافة فى ذهن الجماهير!

* * *

** حجازى..

واحد من سادة التلخيص.

قادر ــ هو ــ على «اختزال أحزان وآمال وملامح أمة كاملة فى خطوط يرسمها بريشته.. ومساحات يخلقها بفرشاته.

قادر ــ هو ــ على انتزاع ضحكات مصرية مجلجلة.. فى زمن أوحشه صوت الضحك؟

قادر ــ هو ــ على تمرير جوانب رأيه السياسى وملامح فلسفته الساخرة.. عبر أخطر مساحات الفعل البشرى: (الانتقاض من الآخر) والتى يفصل النبل فيها عن الخسة شعرة لا أكثر.. وما نحسبه قد مال لغير النبل مرة واحدة.

قادر ــ هو ــ على أن يجعل من رسومه عادة يومية لدى شعب من القراء، يحرص على مطالعة ملامحه فى هذه الرسوم كما يحرص على النظر فى المرآة كل صباح!

قادر ــ هو ــ على أن يكون تحريضيا ومقاوما وباسلا.. دون خطب يلقيها على أسماعنا.. دون لافتات يرفعها فوق رؤوسنا!

....

رسام الكاريكاتير هو العملة الصحفية النادرة، وقد لا تكتشف الصحيفة رساماً واحداً معتبراً إلا كل جيل كامل.. ومع ذلك فقد هلت الخمسينيات على مصر بكتيبة كاملة من الرسامين كان حجازى أحد أبرز رموزها.

كانت رسومه تعكس هموم الناس الحقيقيين فى مصر، هؤلاء الذين نشأ بينهم فى طنطا ابنا لأحد سائقى القطارات.

كانت رسومه تنقل آلام الناس الحقيقيين فى مصر هؤلاء الذين اخترق القطار عالمهم، فأقاموا بيوتهم على ضفتي شريطه.. بالضبط كما اخترق النيل دنياهم فأقاموا ملايين البيوت والعشش والإخصاص على شاطئيه.

رسومه ـ فى أبسط تعبير عنها ـ هى: وثائق التاريخ السياسى والاجتماعى والصحفى لحقبة كاملة من عمر الوطن.. ورسومه ـ فى أدق تعبير عنها ـ هى : «فلكلور» معاصرا!

وحين يدخل حجازى إلى ساحة هذا الحوار فإنه يمارس إحدى قدراته الهائلة وهى (الأداء بالكلمة) وليس (الأداء بالخط).

وبالكلمة تعرض حجازى لمحنة العالم الثالث، ولفوارق الزمن التى تعيشها سلطته ومثقفوه وجماهيره، ودخل لقضية الديمقراطية عبر عدة بوابات تمثلها أيضا عناصر (السلطة والمثقفين والجماهير) كما تعرض لأسباب موجة المد الدينى، ولأسباب عجز التيار اليسارى وللمراجعات السياسية والفلسفية التى تقوم بها أنظمة كثيرة فى عالم اليوم، قضايا الانفتاح الاقتصادى والإنتاج والقيم الجديدة والفساد.

وفى كل ما قال كانت حروفه وخطوطه وثائق للتأريخ الاجتماعى والسياسى والصحفى فى أبسط أوصافها.. وكانت حروفه كما كانت خطوطه ـ أيضا ـ فلكلورا معاصرا.. فى أدق أوصافها!!

الوقت!

«متقدمون (استثمروا) وقتهم ومتخلفون قتلوه»..

«الوقت وعمر الجماعة.. والوقت وعمر الفرد»!

*** أستاذ حجازى .. تصيخ أنت السمع كثيرا، وتمعن أنت النظر كثيراً -**

وترسم كثيراً، وتصمت كثيراً أيضا.. ولعل كل هذا يتيح لك قدراً من «الفرجة» لا يتحصل عليه أحدنا بسهولة.. فما القضية الحاكمة فى كل ما يدور أمامك ويجرى من حولك فى أرض الوطن ؟

** هناك - بالطبع - من احترفوا الكلام عن الانفتاح الاقتصادى، أو سلبيات ٢٣ يوليو، وهناك - بالقطع - من انقسموا حول هذه القضايا وتخندقوا وتعسكروا فى صراع أرادوه «أبديا»!

ولكننى أرى أن كل هذه الأمور هى تفصيلا فى جوهر أساسى، هو الذى أحب أن أتكلم فيه، وهو: (لماذا تخلف جزء من العالم، ولماذا تقدم جزء آخر؟)!

قيمة (الوقت) أو (إدارة الوقت) هى جزء أساسى من الفكر الاقتصادى، (كيف تدير وقتك كفرد؟) و(كيف تدير الأمة وقتها؟).. هذه - بالضبط - هى فكرة الاقتصاد، وفكرة التقدم.

فى بلادنا السعيدة، وفى مجتمعاتنا الأنيسة، جبلنا على مبدأ غريب، واعتدناه، واستمرأناه، وهو أننا (نقتل) أوقات الفراغ ولا (نستثمرها).

بل إن الداء قد استفحل لدرجة أننا قتلنا الوقت كله وليس وقت الفراغ فقط! العالم المتقدم هو الذى استطاع أن يستثمر وقته، والعالم المتخلف هو الذى لم يتمكن من هذا!!

وفى هذا الإطار تتبادر إلى ذهنى فكرة أخرى عن الوقت، فالديمقراطية هى التى تساعد على استثمار الوقت، بل وتوظيفه لصالح الفرد ولصالح المجتمع. فلو فككت غطاء ساعتك ستجد تروسا من أحجام (مختلفة) وتسير فى اتجاهات (متناقضة أو متعاكسة)، ولكنها تحرك العقارب لقدام!! إذن فالاختلاف، وارد. ومهم فى تحقيق فكرة التقدم، فقد اعتمد العالم المتقدم

فكرة الاختلاف، أما العالم المتخلف فقد اعتبر الاختلاف جريمة أو نقيصة أو عملا مشينا.. أو (تجاوزا)!!

ونعود لفكرة الوقت فأقول إن الإنسان كمشروع فردى، يولد وحده ويموت وحده ومع ذلك - وفى نفس الوقت - فإن لديه ميلا جارفا للانضمام الجماعى، فعمر الإنسان الفرد ليس طويلا، ولكن عمر الجماعة أو الأمة ممتد وأبدى.

وإهدار (وقت) الجماعة، هو إهدار (عمرها) وهو أيضا إهدار لعمر الأفراد الذين يكونون قوامها، والذى يهدر وقت وعمر الجماعة أو الفرد هو النظام الذى يحكمهم بطريقة غير ديمقراطية، كما أن الذى يستثمر وقت وعمر الجماعة أو الفرد هو النظام الذى يحكمهم بطريقة ديمقراطية.

فلو افترضنا أن هناك نظاما يقوم بتعذيب المعارضين فإن هذا النظام يكون قد أهدر طاقته فى تعذيب أولئك المعارضين، كما أن المعارضين يكونون قد أهدروا طاقتهم فى تحمل طغيان ذلك النظام! هذا وقت مهدر من عمر الأمة ذاتها.

فكم من الزمن تستغرق عمليات مراقبة المعارضين وترصدهم والتصنت عليهم وسجنهم أو تعذيبهم، هذا - كله - إهدار من الزمن أو من الوقت، سلطة تهدر وقتها، وتهدر وقت المواطن الذى تحكمه! هذا إذا اعتبرنا المواطن شيئا والسلطة شيئا آخر.

فطغيان السلطة على الفرد، وإهدار زمنها وزمانه هو ظاهرة ترتبط بوجود مزاجين فى المجتمع: (مزاج السلطة) و(مزاج المواطن). مطلوب أن يكون للأمة مزاج واحد، وهذا يعنى أن توضع القوانين وتسن للحاكم والمحكوم معاً. فلو كانت هناك قوانين وأعراف للحكام، وقوانين وأعراف للمحكومين لأصبح

الشعب وحده والسلطة وحدها، وهذا ـ بالضبط ـ ما يحدث فى البلاد المتخلفة، وهو ما يقترب بها إلى حكم شيخ القبيلة!

ففى العصور السحيقة، كانت الجماعة محتاجة إلى سلطة ما لتحكم أمورهم، وتنظم شئون حياتهم، وظهرت سلطة شيخ القبيلة، الذى تم اختياره لأنه كبير فى السن، ومهاب، ومحنك.

وفعل (يحكم) كان يعنى عند شيخ القبيلة (فى البداية) أن يسمع للآخرين ويزن وجهات النظر المتنوعة ثم يصدر حكمه بعد ذلك.

وأعتقد أن الملل قد داخل شيوخ القبائل جيلا بعد جيل وامتلأت نفوسهم وأرواحهم بالزهق فبدأوا ـ واحداً بعد الآخر ـ يحكمون دون حيثيات، وعندما يبدأ الحاكم فى الحكم دون حيثيات، هو (يأمر) ولا (يحكم) الحكم هو أن نعتمد على حيثيات أو دستور، أما الأمر فهو إبلاغ شفاهى أو مكتوب برغبة الحاكم الواجبة الطاعة والنفاذ من قبل المحكوم!

وهكذا فإن شيخ القبيلة الممسك بميزان الحكم، بدأ يهمس لنفسه: (لماذا لا يميل لصالحى بدلا من صالح الجماعة؟!). الميل والهوى أخذا السلطة منذ زمن بعيد لتنحاز إلى نفسها وتميل إلى تسخير فكرة الجماعة لصالحها الشخصى، واشتغلت الجماعة من زمان لصالح شيخ القبيلة فكان هذا ضد (الزمن) وضد (الوقت) وضد (التقدم) وضد فكرة (أن تتحرك عقارب الساعة لقدام)، وهنا ظهرت فكرة أن السلطة بعدت عن الناس، وأن السلطة شيء والإنسان أو الناس شيء آخر، وأن مصالح هذا الطرف، غير مصالح ذلك الطرف.

مجموعة الأفراد الذين اشتغلوا لصالح شيخ القبيلة لم يهدروا عمرهم فقط، ولكنهم لم يعيشوا عمرهم إطلاقا «ماتوا» ولكنهم حتى لم يموتوا فى سبيل

قضية كبرى، بل ماتوا فى سبيل ميل الميزان لصالح السلطة التى يمثلها شيخ القبيلة.

وبالتوازى مع هذا الوضع، ظهرت فكرة سيادة إنسان على آخر، وسيادة الإنسان على الكون، فكرة نبيلة وحقيقية، ولابد ـ بالفعل ـ أن يتسيد الإنسان الكون وفقا ـ حتى ـ لتعاليم الأديان.

ولكن فى سلة التاريخ نشأت فكرة أخرى خاطئة ومنحطة عبر مفهوم السيادة هذا.. فبالنسبة لى كفرد، فإننى كيما أصدق أننى سيد، لابد أن يكون لى عبد! لا أستطيع أن أصدق أننى سيد طالما يقف إلى جوارى سيد آخر، والأسهل أن أصدق أننى سيد طالما يقف إلى جوارى عبد !!

إذن فمن بدء فكرة سيادة الإنسان على الكون ظهرت فكرة سيادة الإنسان على الآخر.. وظلت الفكرة قائمة إلى أن عشنا وشفنا أمما تتسيد على أمم أخرى وطبقات تتسيد على طبقات أخرى.

فكرة السيادة على الكون ـ إذن ـ بدأت بطريقة خاطئة، ووصلت بطريقة خاطئة وتكرست بطريقة خاطئة، اليوم يقف الطفل فى المدرسة ليقول مثلا: (زامبيانتى) أعظم أمة فى الدنيا، ماذا تعنى أعظم أمة؟!

هو لم يدرك أنها أعظم أمة، والكتب لم تقل له هذا الكلام، ولكن الذين لقنوه هذه المعانى قصدوا زرع فكرة التسيد والعنصرية فى مخ الطفل وقلبه. هذه الأفكار قد تزرع فى نفس طفل أن يكره جاراً هو شقيق، أو يصاحب جاراً هو عدو، طالما أن كل الاعتبارات الموضوعية قد أغفلت، وبقيت المعايير السيادية والعنصرية. سقطت الاعتبارات الموضوعية التى كانت تدفع الشعوب إلى الامتداد جغرافيا للصديق، وهجرات الجوع التى قد تدفع أمة فقيرة إلى الرحيل لمنطقة غنية وذلك قبل الحدود، وقبل الأمم المتحدة وقبل الزعماء الذين يعادون أنظمة أو أمما أو شعوبا لأسباب عنصرية وسيادية.

إذن نحن نربى أطفالنا بشكل خاطئ يصل بهم فى النهاية سواء داخل مجتمعهم أو خارجه إلى نموذج العلاقة الذى شرحناه عن شيخ القبيلة، نحن نربى أطفالنا على طريقة (اسمع كلام شيخ القبيلة.. ولا تسمع كلام نفسك!). والذى حدث من يومها وحتى الآن أن برامج الأطفال أصبحت تردد نفس المعنى، وأشهر شعار يطلق فى هذه البرامج أن الطفل المحبوب هو الذى «يسمع الكلام» و«يشرب الحليب»! يقولون: (يسمع الكلام) ولا يقولون: (يفهم الكلام)! ومتى سمعت الكلام، فقد وصلت لمرحلة الخضوع للسلطة سواء كانت سلطة الأم والأب أو النظام أو الرئيس المباشر، أو رئيس القلم. عندما تسمع الكلام، ولا تفهم الكلام فقد وصلت إلى مرحلة الخضوع الذى يريده شيخ القبيلة والذى لا يرغب أبدا فى أن تفهم الكلام، أو تناقش الكلام، أو تصبح بنى آدم جاداً ولك دور، من يومها وحتى الآن، يتم تطويع الإنسان لكى يسمع الكلام، وهذه ـ بالضبط ـ هى فكرة المجتمعات المتخلفة.

وبافتراض أنك مرؤوس واكتشفت خللا ما فى العمل وذهبت إلى رئيسك لتقول له: «يا فندم أنا اكتشفت خطأً كبيراً فى الأرشيف فى عمليات التخزين والجدولة»، عندها تحمر عينا رئيسك هذا ويمسك بخناقك صائحا: (كيف يا أفندى تقول كلاما كهذا؟ المفروض أن تسمع الكلام.. لا أن تناقش الكلام)!

نعم.. فى المجتمعات المتخلفة عليك أن تسمع الكلام وفقط، المجتمعات الأخرى التى حققت تقدما كبيراً وأصابت نمواً هائلا، بينها وبين المجتمعات المتخلفة ليس فقط (كلمة تقدم) ولكن (كلمة وقت) فنحن نقول إن شعوبا معينة قد سبقتنا بكذا قرن، أى أنهم سبقونا بوقت، وهذا الوقت هو حاصل طرح الوقت الذى نهدره فى مجتمعاتنا المتخلفة ونهدره من عمر الأفراد الذين يعيشون معنا من إجمالى الزمن الذى عشناه.

الديمقراطية والاختلاف عاملان يصنعان التقدم ويوظفان الوقت لخدمة الفرد والجماعة، ولكن طرق الحكم فى العالم الثالث لا تقتل الوقت بالاستبداد فحسب، ولكنها تقتل فكرة (الابتكار) داخل الزمن ذاته، فالمجتمعات المتخلفة مغرمة جداً بالشرعية! وفى كل دول العالم الثالث يقلب الحكام الشرعية ويستولون على الحكم.

ولكن بمجرد استيلائهم على السلطة فإنهم يقعون فى غرام الشرعية من جديد! غرام كامل، ويقولون بصرامة: لا يجب أن (يخرج) أى إنسان على الشرعية.

يقولون هذا وهم الذين (خرجوا) على الشرعية من قبل! ويقولون أيضا إن (خروجهم) كان (الخروج الأخير) كما كان (الخروج الصحيح)! ولا يجب أن يخرج إنسان بعد ذلك أبدا عن الشرعية ولا يجب أن يفكر إنسان فى ذلك أيضا.

مع أن فكرة الابتكار هى ـ فى أبسط تعبير عنها ـ خروج عن القوالب وخروج عن الشرعية، والذى يميز المجتمع المتقدم، أن الوضع الحالى إذا لم يعجبك فلابد أن تخرج عليه وتغيره، أما إذا أعجبك الوضع الحالى ورأيت أن كل شيء جميل، وأن الأمن مستتب فلن يحدث تقدم، فلكى يحدث تقدم لابد أن تكون لك ملاحظات على هذا الوضع القائم، وإذا لم تقل إن هذا الوضع لا يعجبك فلن تتقدم.

وإذا قلت إن الأمن مستتب، وأن هذا الراديو هو آخر الراديوهات فى الوجود فلن يحدث تقدم فى العلم أو فى المجتمع أو فى صناعة الراديوهات، التقدم معناه نقد الحاضر، أو إعادة تفسيره، بما يعنى أن لك ملاحظات عليه، ولكن كل بلدان العالم المتخلف تدعونا دعوة صريحة لأن نردد أن العهد القائم هو أروع أيام حياتنا، وأن الزمن مستتب، وأننا لا يمكن ولا يجب أن نتحرك

لننقد هذا «الوجود» الرائع الذى حققوه، وواقع الأمر أن هذا الوجود ليس رائعا أو جميلا، هذا الوجود هو إيمان بعدم التقدم، والاستقرار فى مواقع ثابتة وإجبار المجتمع على الثبات من حوله.

المهمة بالنسبة لهم، هو الحفاظ على الوضع الراهن، والحفاظ على الوضع الراهن معناه عدم التقدم واستتباب الأمن، فكرة التقدم معناها النقد.. معناها النقد.. معناها النقد.

الشرعية

«الشرعية معناها إعلاء القيم النبيلة على القيم المنحطة»..

«الشرعية معناها ألا يوجد مكيالان للحساب؟!»

*** ولكن المجتمعات المتقدمة أو التى تصفها بأنها كذلك، تمارس هذا اللون من ألوان نقد الزمن الحاضر، والرغبة فى الابتكار والخروج على ما هو موجود من خلال الشرعية بالفعل وليس بأشكال فوضوية، منفلتة عن الشرعية؟**

** السلطات فى البلاد المتخلفة تعلن ـ عادة ـ أن هناك قنوات شرعية، ثم تغلقها، وبعد ذلك تقمع الخارجين على الشرعية!! هذه هى المراحل التى تعارفت وتصالحت السلطات فى العالم الثالث عليها، هى تعلن أن هناك قنوات شرعية، ولكنها تغلقها واقعيا، تغلقها بتزوير الانتخابات، وتغلقها بإعلاء فضائل منحطة على القيم النبيلة، وعند ذلك لا يجد الناس سوى الخروج على الشرعية، فتقمعهم! الشرعية تعنى ألا يعين أحد اللصوص فى منصب كبير، والشرعية تعنى إذا اكتشفنا لصا أن نحاسبه بسرعة، والشرعية تعنى ألا يوجد مكيالان للحساب، فلا تتم محاسبتى بسرعة وتنشر الصحف اسمى لأننى صغير بينما لو هناك مسئول ـ فى نفس الوقت ـ اقترف نفس جريمتى، فإن

اسمه لا يذكر، وأيضا لا يحاكم وتذوب فكرة التحقيق معه، إلا أن يمل المواطن ويزهق من فكرة ملاحقة هذا الخارج عن القانون.

وحكاية المكيالين هذه تؤدى إلى ألا يتحرك المجتمع، وأن يصاب ـ باستمرار ـ بإحباط، فلا توجد دول رفعت شعارات الديمقراطية والحرية ومحاربة الفساد أكثر من دول العالم الثالث، ولكن هذه الدول تحارب الفساد، بفكرة العدل البطيء، التى تعنى الظلم فى حقيقة الأمر، وهى تحارب الفساد (بالنسبة للكبار) ببطء رهيب جداً جداً إلى أن تموت الفكرة، وهى ـ أيضا ـ تحارب الفساد (بالنسبة للصغار) بعنف وشراسة وفورية، وهكذا يشعر الناس ـ إطلاقا ـ فى هذه الدول بأن هناك شيئا اسمه (سلطة) وأن هناك شيئا اسمه (شعب).

ولا تعنى السلطة فى ذهن شعوب هذه البلاد، أنها مكونة من خبراء أجانب أو ناس من الخارج، ولكنها تعنى أناسا من هذه الشعوب نفسها، أصبحوا فى السلطة، وأحاطوا أنفسهم بدوائر من الفساد، تحجب عنهم كل هذه الحقائق، وتكرس وضع أن يكون هناك مزاجان فى المجتمع. ولا يمكن ـ وأكرر ـ ولا يمكن أن يحدث تقدم إلا عندما يكون هناك مزاج واحد فى المجتمع، فإذا ساد مزاج واحد يمكن أن نصل لفكرة الإصلاح للجميع.

أما الآن فإن الحكومة (بمزاجها) تدعو إلى زيادة الإنتاج وتقليل النسل، والشعب (بمزاجه) يقلل الإنتاج ويزيد النسل.

مزاجان مختلفان.. هؤلاء ناس.. وأولئك ناس آخرون!

*** حجازى.. السلطة عندك هى (الحكم) أو (الحكم والمعارضة) ؟**

** السلطة هى ما لا يتصل بالناس مباشرة! السلطة هى المثقفون والشرطة!!

*** أسأل أين تضع أحزاب المعارضة فى دول العالم الثالث.. مع الحكم أم مع الجماهير؟**

** لم تصل السلطة ولا المثقفون للجماهير، جسم مصر بعيد جداً جداً عن هؤلاء وأولئك.

*** أعندما تتكلم عن المعارضة تقول: (المثقفون) ؟**

** نعم.

*** اتفقنا ولنجعل من هذا رمزا كوديا طوال الحوار حتى نوحد المصطلحات ؟**

** كلمة (معارضة) ككيان لم توجد بعد، لأن هذا الكيان لم يولد بعد، ولو يوجد فى مصر إلا السلطة الغريبة عن الناس، كل أفكار عبد الناصر التقدمية وتنظيمه السياسى لم تجد من يدافع عنها عندما جاء السادات، وهذا يعنى انعدام وصول أفكار عبد الناصر إلى الناس، وأنا هنا لا أتكلم عن الإنجازات، فقد أنجز عبد الناصر كثيراً، وبنى السد العالى، وقاوم الاستعمار العالمى مقاومة رهيبة، وحقق مداً ثورياً فى العالم كله، ولكننى أقصد بوصوله للناس أن يجد من يدافع عن أفكاره عندما يسقط أو عندما يموت.

عندما جاء السادات وقلب حسبة عبد الناصر وغيرها، لم يطلع له أحد ليدافع عن أفكار عبد الناصر هذه، عبد الناصر لم يصل إلى الناس ولم يعتمد على الناس، وقد بكى هؤلاء الناس فى جنازته ولكنهم لم يدافعوا عنه، بينما الأصل أنه من غير الممكن أن يبكى إنسان على أبيه ولا يدافع عن ترابه!

إذا بكيت على أبيك فقط دون أن تدافع عن ترابه، فالمعنى الوحيد هنا أن أباك لم يفلح فى تربيتك، وهنا يقتصر موقفك على المسألة العاطفية (أبوك

حبيبك مات.. وتذرف دموعا.. وتشق ثيابا.. ولكنك لا تدافع عن المعنى أو القيمة أو الفكرة التى يمثلها أبوك)!!

*** مادمت تطرح الموضوع على هذا النحو، فاسمح لى أن أسألك ليس فقط عن مسئولية السلطة (كما اعتدنا جميعا أن نتكلم عن مسئولية السلطة فى العالم الثالث) ولكن سأسألك عن مسئولية الجماهير، وأعنى مسئولية الجماهير تجاه الحقائق البسيطة، وليست القضايا الكبرى أو المعقدة، ألا تشعر أن هذه الجماهير الآن غائبة عن الساحة بالفعل المؤثر، بالفعل الرشيد معا؟**

** تغييب الجماهير هو عمل سلطوى بحت، يمارس من زمن طويل جداً، تغييب الجماهير معناه: أن الحقائق لا تصل إليهم بالكامل بحيث يتحقق احتمال (تحركهم) وأكثر الأشياء التى يخاف منها الحاكم فى العالم الثالث هو تحرك الجماهير.

إذا تساءلت عن سبب معظم ديون العالم الثالث، ستجده بسيطا وهو أن أى ديكتاتور لا يمكن أن يسمح بحركة الجماهير حركة فعلية حقيقية.

لو صاح الديكتاتور فى أحد مواطنيه: (زود الإنتاج، واشتغل بجد) ثم زاد هذا المواطن من إنتاجه، فلابد أن يسأل بعد زيادة الإنتاج عن حقوقه نفسها فيطلب تمثيلا نقابيا صحيحاً ويطلب تمثيلاً نيابياً صحيحاً.

واجبات.. تقابلها.. حقوق! وهكذا أدركت السلطة فى العالم الثالث أن مواطنيها إذا اشتغلوا، سوف يطالبون بحقوقهم، ولهذا فإن هذه السلطة لا يمكن أن توصل مواطنيها إلى حالة (العمل)! لماذا؟ لأن (مرحلة العمل) هى (مرحلة الحركة).

ولهذا تستدين معظم سلطات العالم الثالث وتريق ماء وجهها أمام العالم،

لكيلا يعمل مواطنوها، هذه السلطات لا تؤمن إطلاقاً بفكرة العمل، لأن فكرة العمل تعنى التغيير، وهو ليس تغيير المجتمع وتقدمه، ولكنه تغيير الصيغة الاجتماعية الحادثة، وإعادة ترتيبها من أول وجديد.

هذه السلطات تطالب مواطنيها بالعمل فى الخطب، ولكنهم لا يقصدون ولا يعنون العمل أبداً، فالعمل حركة، والحركة تغيير، والتغيير يهز كراسى الحكام ويغير الصيغة كلها إلى عمل نقابى حقيقى وعمل برلمانى حقيقى:

ـ أوصلونا أن نذهب إلى العمل كى لا نعمل.

ـ وأن نذهب إلى الجامعة كى لا نتعلم.

ـ وأن نذهب إلى النادى كى لا نلعب.

ـ وأن نذهب إلى سول كى نُهزم.

كل المسائل أصبحت شكلية، ولو جاء أناس من كوكب آخر ليرصدونا، سيقولون إن شكلنا متقدم فعلا، فلدينا سيارات ومياه وأكواب وعمارات وطرق شكلنا مثل العالم المتقدم، وشكلنا متحضر.

ولكننا ـ أبداً ـ لسنا متحضرين من الداخل.. نحن لم ننتج أدوات حضارتنا، وبالتالى فلسنا متحضرين، الحضارة هى إنتاج أدواتها ونحن لم نصل ـ بعد ـ لمنطقة العمل، ولكننا وصلنا لأن نجلس محاطين بتليفزيون يابانى وعربة أمريكية وراديو انجليزى وملابس إيطالية، ولا يوجد معنا شىء هنا! نحن الوحيدون المصنوعون محليا!

*** مزيد من التفصيل فى صياغتنا لجوانب التأثير المختلفة على أطراف اللعبة السياسية والاجتماعية فى العالم الثالث.. وقد طرحت ثلاثة عناصر تشكل قوام هذه اللعبة فقلت: (السلطة)، وقلت: (المثقفون)، وقلت: (الجماهير).. وعندما أطلب منك مزيداً من التفصيل، فإننى أعنى أن نضع أيدينا على فوارق (الزمن) عند كل عنصر من هؤلاء، وقد**

كلمتنى عن فوارق الزمن عند السلطة.. فماذا عن فوارق الزمن عند المثقفين ؟

** فارق الزمن الرئيسى عند المثقفين، أن معظم هؤلاء المثقفين اعتمدوا ـ أساسا ـ على فكرة لوى العنق إلى الوراء، وأن هذا (الوراء) هو المنهل!!

والترجمة الثقافية لهذا الموقف هى أن المثقف يفنى نفسه قراءة وفهما لكتب الموتى فحسب! عندما تقرأ ارسطو ـ اليوم ـ وتتلو على كل من تقابل أن قواعد المسرح هى كذا وهى كيت.. فهذا موت! وعندما تقتصر على قراءة قواعد النظم الاقتصادية والاجتماعية السابقة... فهذا موت! هذا يعنى أن المثقفين يعتمدون على دفاتر الموتى القديمة فى تفسيرهم للحاضر.

الثقافة الحقيقية هى دراية المثقف بما يجرى الآن! أما معرفة التاريخ فهذا موضوع آخر، ولابد أن يكون جزءاً من معرفتك، ولكن بعد المعرفة والدراية الأولى وهى الدراية بما يجرى الآن، هذه هى الأولوية الأولى فى كون المثقف مثقفا، ومعرفة التاريخ هى الأولوية الثانية فى إطار المعرفة، وهى لابد أن تكون موجودة شريطة ألا نحكم الحاضر بمقاييس الماضى.

من إهدار الوقت أن يكتب كاتب مسرحية اليوم، فنأتى بقواعد أرسطو لنحكم على عمله وفقا لها، الحكم لا يكون إلا بمقاييس الزمن، وقد تغير الزمن، وكل الفلسفات الكبرى تراجع نفسها الآن وفقا لمقاييس الزمن الجديد، روسيا تراجع نفسها ليس فقط أيام جورباتشوف ولكنها تراجع نفسها من أيام ستالين!

والرأسماليات تراجع نفسها بأن تدخل أفكاراً وتطبيقات اشتراكية صغيرة داخل النسيج الرأسمالى (كما تفعل بريطانيا فى التأمين الصحى مثلا).

أما المثقفون فى العالم الثالث، فتسألهم سؤالا، فيجرون إلى دفاتر الموتى القديمة ليفروها ويجيبون!

فكرة إدارك العصر الذى نعيشه غير موجودة، وهناك مثلا من مثقفى العالم الثالث من يقولون بأنهم مترفعون عن قراءة الجرائد والثقافة (اليومية الإخبارية) وانهم منصرفون إلى قراءة الثقافة الرفيعة، هذه الثقافة الرفيعة التى يتكلمون عنها (بمعنى من المعانى ليست كذلك) هل يقرأون لشعراء اليونان مثلا؟!

شعراء اليونان هؤلاء هم مجموعة من العميان كانوا يسيرون فى الشوارع ويقولون شعرا يعنى «شعر عامى» وليس شيئا رفيعا، ولكنهم كانوا يقولون عصرهم على أية حال.

افرض معى أن دماراً قد حدث فى الكون، أليس من الممكن أن يتبقى ضمن حفريات القرن العشرين شريط لعلى حميدة أو أحمد عدوية!!

احترام التراث الإنسانى واجب، ولكن قبله احترام العصر الذى نعيشه وقراءته قراءة حقيقية ومتابعته وإدراكه، وبعد ذلك تأتى المعرفة بالتراث كأحد روافد ثقافتنا.

من ينفق عمره الآن فى قراءة (أفلاطون) لا يستطيع الإدعاء بأنه مثقف، هو ـ فقط ـ مدرك أو ملم، ولكن المثقف هو الذى يدرى بثقافة الزمن الذى يعيشه.

*** أتعتقد أيضا أن مثقفى الأحزاب السياسية فى هذه البلاد يفتقرون إلى القدرة على قراءة الواقع، ويفتقرون إلى القدرة على قراءة الحاضر؟**

** الزمن تأخر عندنا كنتيجة لهذا الذى تطرحه بالضبط!

*** أكلمك على مستوى الثقافة السياسية وليس الثقافة الأدبية.. هل تعتقد أن مثقفى الأحزاب السياسية قرأوا واقعهم جيدا؟**

** لم يحدث!

فهناك فرق بين أن يقرأ أحد المثقفين (جسر على نهر المسيسبى) بينما لا يعرف شيئا عن الجسر الواقع على ناصية شارعه!

هذه قراءة خاطئة، لابد أن تدرك زمنك وبيئتك، وأن تبدأ بهذه البيئة حتى لو أنفقت عمرك فى قراءة هذه البيئة من حولك، لابد أن تبدأ من الدوائر التى تحيط وجودك الصحيح، وأن تقرأ كيما تعرف ـ بداية ـ من أنت، ثم تتلفت لترى الوجود من حولك.. لكن مثقفينا يتلفتون فى البداية!!

ولهذا ترى كل هذا الركام الذى نعيش فيه، فنجد عمارات ذات طرز أمريكية وغربية فى مصر لا تناسبنا ولا تناسب طقسنا ولا تناسب مزاجنا.. لماذا؟ لأن مثقفينا لم يحترموا بيئتهم ولم يقرأوها قراءة صحيحة.

المراجعة:

«جار السوء.. يرحل أو يموت»

«فكرة التعبير عن الجماهير هى من أفكار الصفوة»

*** كنا نتحدث عن عناصر اللعبة السياسية فى دول العالم الثالث، وحددتها فى: (سلطة - مثقفون - جماهير) .. وكلمتنى عن فوارق الزمن عند السلطة والمثقفين.. فمن أين تأتى فوارق الزمن عند الجماهير؟**

** فرق الزمن عند الجماهير يأتى من الاتكالية والخرافات.

*** اعمل معروف.. لا تكن رفيقا بالجماهير؟**

** هذه شهادة غير وارد فيها الترفق، هناك خرافات عديدة فى ذهن الجمهور، ولم يعتن أحد من الذين حكموا أن يجد لها بديلا وكيف يعتنون؟ وهم لم يحكموا أصلا وإنما اكتفوا بإصدار الأوامر!!

لا يمكن أن تزيح خرافة من ذهن الجمهور إلا بإحلال آخر، لابد أن يصدق الجمهور شيئا آخر غير هذه الخرافة.

نحن ـ حتى الآن ـ نضع الأحجبة، ونعتقد أن الله يكفينا شر الحاكم الظالم، ونردد: (اسكت على جار السوء.. يا يرحل.. يا يموت..)!!

كلها أفكار اتكالية نرددها ثم نترك فكرة التغيير للزمن، للظروف، وهذا يعنى عبثية محاسبة الجمهور على أسباب عدم تحركه حركة صحيحة فى اتجاه التقدم طالما لم نضعه ـ ابتداء ـ على طريق هذا التقدم.

ويهم السلطة فى العالم الثالث أن تترك الجمهور غارقا حتى أذنيه فى هذه الخرافات، ولا تضعه على الطريق الصحيح أو طريق المعرفة.. بحيث إذا ما حدث سخط سيصبح سخطا غير منظم!

كل هذا يؤدى إلى إرجاء التقدم، وكل هذا يجعل الجماهير فى العالم الثالث تنتظر أن (يتغير) الحاكم لا أن تقوم هى بتغييره!!

الجماهير لم تشارك فى السلطة حتى الآن فى العالم الثالث، وحكام شعوب العالم الثالث ـ بمن فيهم عبد الناصر ـ كانوا ينظرون للشعوب على أنها (عدد) وليست (جماهير)!

كل أنظمة العالم الثالث مغرمة بجمع الأعداد، بحيث تقول مثلا ـ إن ٩٠٪ من الشعب ذهب للانتخابات، و٩٥٪ من الناس سجلوا أنفسهم فى نظام البطاقات الجديد!

مغرمون بالأعداد جدا!

لكن ليس لديهم الغرام نفسه لقيمة الفرد داخل العدد، بينما لا يمكن أن يحدث تقدم إلا بقيمة الفرد داخل العدد إذا اعتمدت سلطة على العدد فقط،

وكتبت وقرأت أعدادا على الورق، وصدقتها، فإن هذه الأعداد تسقط ورقيا أيضا كما بنيت ورقيا وصدقوها ورقيا!!

وعندما تسقط الأسس الورقية والعددية لأنظمة العالم الثالث تجد هذه الأنظمة نفسها محتاجة إلى الجماهير لتسندها فيطلع الناس الذين لم يصدق أحدهم ـ من قبل كل الأسس الورقية والعددية، ليسندوا نظامهم، وهذا هو حسن الناس الذى يتجلى فى لحظات خطرة، وفى لحظات (أن تكون الأمة أو لا تكون).

هذه لحظات لا تفكر فيها الجماهير وهى لحظات قريبة من الوجد والإحساس، وليس التفكير أو التوظيف أو التجنيد، تخرج الجماهير وتسند أنظمتها وفور أن تشد الأنظمة قامتها تهجم على هذه الجماهير لتفترسها!!

ولعبة الجماهير تثير فى الذاكرة خواطر عديدة، فقد تنزل الجماهير للشارع وتسقط نظاما معينا وتطالب بفرد ما ليحكمها، ويأتى الفرد ليحكم ولكن هاجسا أساسيا يظل يعربد فى صدره وهو: (لابد أن تعود الجماهير إلى بيوتها فورا، لأنهم أسقطوا من كان يحكم قبلى، ومن الممكن أن يسقطونى). وهنا يدير النظام ظهره للجماهير، ويفترى عليها ويعود ليمارس غرامه بالعدد ويتخذ ما يشاء من الإجراءات الورقية والشكلية التى لا تؤدى إلى تقدم المجتمع، ولكنها تسهم فى التثبيت (ليس تثبيت المجتمع ولكن تثبيت فكرة النظام)!

*** استمرارا لمراجعتنا التى نقوم بها الآن فإن عنصرا مهما يطرح نفسه على الساحة فى دول العالم الثالث هو عنصر القوى الثورية التقدمية التى تفصح عن نفسها ـ أحيانا ـ فى شكل التنظيمات أو الأحزاب اليسارية التى تتكلم كثيراً جداً عن تعبيرها عن الجماهير وقيادتها للجماهير وانطلاقها بالجماهير لتحقيق أهداف بعينها كيف ترى صورة هؤلاء؟**

** أساسا فكرة (التعبير عن الجماهير) هى مثل فكرة الصفوة بالضبط لا يمكن أن ينوب أحد عن الجماهير، وقد ثبت فشل هذه الفكرة لأن الإنسان لا يمكن أن يعبر إلا عن نفسه وهذا إن استطاع، أما فكرة (النيابة عن الجماهير) أو (التعاطف مع الجماهير) فهى فكرة غير مضبوطة وإلا فكيف يتعاطف ساكن الشقة المكيفة وسائق العربة الفارهة مع إنسان لا يجد قوت يومه فى الأرياف؟!

ثم ما الذى جاء بواحد لينوب عن واحد لم يقل له تعال وعبر عنى؟

الفلاح - فى ظل ظرف تاريخى معين - قد لا يصيب قدراً معتبراً من التقدم، وإذا زرت المتحف الزراعى ستجد أن الأدوات الزراعية التى يستخدمها الفلاح المصرى هى نفسها منذ أيام الفراعنة، وحتى الآن، ولم تنجح سلطة أو جماعة أو حزب فى تحقيق التقدم لهم، وكل ما حدث هو أن بعض المثقفين سطروا مقالات من قبيل التعبير عن الجماهير والتعاطف معها، وقالوا فيها نحن ضد الذين يكتبون عن المهاجرين من الريف كمجرمين يشوهون جمال المدينة ويزحمونها، وقالوا إن فكرة الحكم الوطنى فشلت فى تمدين الريف، وهنا بدأ الريفيون «يريفون» المدن انتقاما من فشل الحكم الوطنى فى تمدينهم.

وبصرف النظر عن صحة هذه المقولة أو عدم صحتها، فإنها تعكس موقف هؤلاء المثقفين الثوريين الذين يدعون التعبير عن الجماهير، هم فقط حاولوا أن «يفسروا» ولكنهم لم يحاولوا «تحريك الجماهير»، هم فقط ادعوا (التعبير عن الجماهير) أو (التعاطف مع الجماهير) ولكنهم كانوا منفصلين بدنيا ونفسيا ووجدانيا عن هذه الجماهير، لكى ينوب أحد عن الجماهير فلابد أن يكون لديه صك بهذا أو توكيل، بالضبط مثل الفرد حين يريد التعبير عن شخص آخر فيحصل على توكيل من الشهر العقارى، وهؤلاء الثوريون يمكن للواحد منهم أن يعبر عن نفسه ويقول رأيه فى كل قضية، ولكن كحزب

لا يستطيع أى حزب أن يدعى أنه ينوب عن الفلاحين إلا إذا كان معه مستند يثبت هذا.

فى فترة تكوين الوعى السياسى عندى لم يكن هناك من يدعى أنه (المعبر) عن الجماهير فقد كنت واحداً من هذه الجماهير أقرأ روز اليوسف وأتعلم من مقالات إحسان ورسوم عبد السميع وتتكون فى نفسى حقائق أدركها، وألمسها وأحسها بنفسى مثل حقيقة (أن الملك فاسد) وحقيقة (أن الملك لابد أن يتغير)، وحقيقة (لابد من إحلال نظام ما بدلا من هذا النظام) وحقيقة (لابد من تغيير هذه الحسبة الظالمة الحادثة فى مصر).

ثم تتضافر عوامل كثيرة فى إضافة لمسات أخرى فى تكوين الوعى، (دون وجود من يدعى أنه المعبر أيضا) منها أن الصين فيها تيار اسمه الماوية، ومنها روسيا تهاجم بلداً اشتراكياً آخر بالدبابات فى قلب عاصمتها، وأن روسيا الاشتراكية معادية للصين الاشتراكية أيضا، وأن البانيا متعاطفة مع الصين.

وكثرت نوافذ المعرفة وتنوعت التيارات، وانفتح الراديو على كل المحطات، ولم تعد المسألة أن نحسب ما إذا كان موقعنا فى اليمين بالضبط أو اليسار بالضبط فقد أصبح هناك أكثر من يمين، وأصبح هناك أكثر من يسار.

أصبح مطلوبا من المثقف الثورى دقة رهيبة عالية .ومرونة ذهنية تسمح له بمراجعة نفسه بدلا من الاندماج وراء فكرة مستحيلة مثل (التعبير عن الجماهير).

كيف تراجع أنظمة ـ بأكملها ـ نفسها اليوم، بينما يظل واحد يسارى متخشبا، ولم يفتح نوافذ عقله حتى اليوم، لقد فتح شباكا واحدا على فكرة أنه مع الاشتراكية العالية وضد الامبرالالية العالية أيضاً.

وتظل باقى النوافذ مغلقة وفى هذا الوضع لا يستطيع ذلك المثقف الثورى

أن يراجع نفسه أو يحاسب نفسه أو يقول (ربما) فهو قد فقد رؤية أنه صاحب اتجاه (ربما) كان صحيح و(ربما) كان خاطئا، وأصبح يتعامل فى ظل الفكرة الواحدة التى يؤمن بها فى ظل كلمة (أكيد).

وكلمة (أكيد) وكلمة (يجب) هما كلمتان احترفتهما السلطة وجزء من هؤلاء المثقفين الثوريين!

(يجب) و(أكيد) تعنيان أن الحزبى أو السلطوى الذى يرددهما لا يتشاور مع الآخرين، وهو يعتقد أنه صحيح ١٠٠٪ وهذه بداية أن يتحول الإنسان إلى دكتاتور يرى الشعب مرة، ويرى نفسه عشرات المرات، ويصدق أشياء ليست أكيدة، ويقفل كل النوافذ المفتوحة أمام (ربما)!

هذا (التأكد) الديكتاتورى هو ما يجعل المثقف الثورى والحزبى يعتقد أنه معبر عن الجماهير! وهذا (التأكد) خرافة فى عالم تتغير حقائقه فى أعشار الثانيه، فأنا اليوم لا أستطيع أن أقول إن عملية نقل القلب تتم بشكل صحيح! ولكن المضبوط أن أقول إن عملية نقل القلب تتم اليوم بنجاح (ما)!

لو تأكدنا لأنتهى العالم، ففكرة العالم هى دراما الصراع بين الخير والشر، وهى دراما (احتمالية) ولو (تأكدنا) فقد يدفع ذلك بعضنا لليأس والتساؤل عن الأسباب التى يصارعون من أجلها!

وفكرة الصراع بين الخير والشر هى اجتهادات وفكرة الصراع بين السلطة والناس هى اجتهادات، فقد تمارس السلطة الشر اجتهادا.

فمثلا ثورة الجزائر قالت إنها كى تحقق الاستقلال ضحت بمليون شهيد. ولكن فى لحظة ما تبدو السلطة الثورية فى الجزائر على استعداد للتضحية بمليون شهيد آخر فى الشوارع كى تستمر هى فى الحكم.

التنوير

«التنوير طالع من المجتمع وليس هابطا فوقه»

«التنوير هو الذى يعدل فيه المجتمع مسار السلطة وليس العكس»

*** بين (السلطة) و(المثقفين) و(الجماهير) تنشأ وظيفة سياسية ووظيفة اجتماعية لما يسمى بآلة الصحافة ويرى الكثيرون أن الصحافة هى الجسر الذى يمكن أن يربط بين الثلاثة عناصر.**

إلى أى حد يمكن أن تقوم الصحافة بمثل هذا الدور فى دول العالم الثالث؟

** أولا ـ الصحافة يمكن أن تقوم بدور، عندما لا تكون هناك أمية!!

الراديو أو التليفزيون هو صاحب الدور فى بلاد من شاكلتنا، الصحافة فى بلدان العالم الثالث تخاطب (المتنور) فقط.

*** وهل تعتقد أن الصحافة أدت دوراً تنويرياً حتى لبعض المجموعات الخاصة داخل قطاعات السلطة أو المثقفين أو الجماهير!**

** الصحافة لا تستطيع أن تقوم بدور حيادى لأنها أساسا تابعة للسلطة فى كل بلاد العالم الثالث، هى تابعة للسلطة بشكل ما أو مراقبة من السلطة بشكل ما، ومع ذلك فقد تقوم بدورها التنويرى بشكل استثنائى يرتبط بشخصية الكاتب نفسه.

فأحمد بهاء الدين ـ مثلا ـ قام بدوره التنويرى فى كل عصر، وفى كل وقت، ولكنه كان استثناء وسط القاعدة الصحفية.

وحينما أقول إن الصحافة تابعة فى دول العالم الثالث فذلك لا يلغى دورها ولكن يظل هذا الدور مقيدا، ولا يمثل حالة من حالات (حرية الكلام)

حرية الكلام تعنى أن يستطيع الطالب فى الجامعة أن يتكلم لا أن تستطيع الجرائد وحدها الكلام.

التنوير أن أنا وأنت وأى طالب يستطيع أن يكتب على الحائط منتقدا وضعا لا يراه صائبا، أو أن جماعة ما فى طنطا تصدر نشرة صغيرة بالاستنسل وتوزع فى هذا المحيط.

إذن فالتنوير هو أن نقوم بتنوير المحيط حولنا، التنوير دوائر، وليس هناك مصدر مركزى للتنوير.. وإذا كان هناك مصدر مركزى للتنوير فمعنى هذا الاتصال بالناس الذين يعيشون داخل هذا المجتمع.

هذه هى الحلقات التنويرية الحقيقية التى تخلق ـ أول ما تخلق ـ الديمقراطية، ومصدر هذه الحلقات هو المجتمع وليس السلطة، مصدر التنوير هو المجتمع وليس الجرائد.

الصحف فكرة تتعلق بالأنباء، وبالناس الذين يكتبون لغة جميلة ويجيدون عجن العجين بشكل معين، أما التنوير فهو أن يعلم الناس ويفهم الناس لأن كلمة (تنوير) يتبعها بالضرورة كلمة (تثوير) فالإنسان يتنور كى يتحرك كى يثور كى يغير.

مرة أخرى التنوير صادر من المجتمع وليس صادراً من فكرة السلطة.

....

لا يمكن أن تكون الديمقراطية منحة من السلطة ولكن يمكن أن يكون مطلب المجتمع وهو وجوب الديمقراطية، فالتنوير يطلع من قلب المجتمع ولا يهبط عليه بالباراشوت.

الفوقية والسلطوية هى آفة التربية بالنسبة للأسرة.. وآفة الحكم فى العالم

الثالث، والتنوير الحقيقى هو الذى يحدث من داخل المجتمع ليقلب السلطة أو يعدل مسارها.

*** هل تعتقد أن صحف المعارضة تقوم بوظيفتها التنويرية فى العالم الثالث؟**

** بالطبع لا.. صحف المعارضة مولودة حديثا وصدرت بفكرة أن السلطة سمحت لها وبمجرد أن تعتقد السلطة أنها سمحت لهذه الصحف بالصدور، فإن هذه الصحف تعد غير مسئولة عما يصدر عنها إلى حين إشعار آخر.

*** اسمح لى أن نناقش هذا الكلام مناقشة مستفيضة.**

فآليات السلطة فى العالم الثالث، أو فى أى شكل من أشكال النظم السياسية تقوم على فكرة أن الدولة تميل الميزان (الذى تكلمت عنه) لصالح الجماهير، عندما تكتشف أن إمالة الميزان هذه هى تلبية لحاجات طبيعية لهذه الجماهير تكفل وجود السلطة على النحو الذى توجد فيه.

وإذا عدنا لمصر سنجد أن نكسة ١٩٦٧ فتحت جميع العيون على قضية غياب الديمقراطية أو غياب حرية التعبير، ومن هنا بدأت عدة محاولات من عام ١٩٦٨، واحدة وراء الأخرى فى هذا الاتجاه، وبنسب قد يرضى عنها البعض أو لا يرضى إلا أنها متحققة بشكل ما.

إذن ففكرة سماح السلطة لصحف المعارضة ليست مزاجية، ولكنه سماح يمثل استجابة للجماهير ويكفل بقاء السلطة فى مواقعها فنداء الجماهير منذ ١٩٦٧ هو نداء الديمقراطية وهو نداء حرية التعبير، وبالتالى فالفكرة التى تتكلم عنها عن عدم قيام صحف المعارضة بدورها نتيجة أنها جاءت بسماح من السلطة هى فكرة غير دقيقة، فالطبيعى أن هناك

سلطة ستسمح، لأن هذه الأحزاب لن تأتى من الفراغ الكونى أو تتحقق فى المطلق، ولكن السؤال هنا.. هل السلطة (سمحت) بمنطق الاستجابة لحركة الجماهير ولمطلبها، أم أنها (سمحت) لمجرد نزوة سياسية أو اجتماعية جاءتها فجأة.

** فى تصورى لم يحدث تحرك من رأى عام ضاغط أدى إلى ظهور صحف المعارضة، وفى تصورى أنه لا يوجد رأى عام ضاغط فى مصر يمكن أن يجبر السلطة على فعل ما، ولكن السلطة سمحت بأحزاب المعارضة لتوازنات تراها هى.

فهذا عصر سقطت فيه كل الصيغ الديكتاتورية فى العالم وانتهى عمر الديكتاتورية الافتراضى، ومع ذلك ظلت بعض جيوب الديكتاتورية تقاوم مثل بينوشية وغيرها، ولكنها كانت تقاوم مثل السيدة العجوز التى تقاوم الشيخوخة، وهنا أرادت السلطة أن تقوم بتحديث صيغة الحكم تمشيا مع هذه الصرعة العالمية فأنشأت الأحزاب بإشارة منها وليس بسبب وجود رأى عام ضاغط، هذه نقطة.

أما وقد وجدت هذه الأحزاب فلا يجب محاسبتها دون محاسبة الحزب الحاكم فأنا أرى أن ممارسات الحزب الحاكم أكثر سوءا من ممارسات أحزاب المعارضة بشكل غير تفصيلى.. وهذه نقطة ثانية.

ثم لا يجب أن نحمل صحف المعارضة بمجرد ظهورها آمالات وتصورات أكبر منها لمجرد أنها ظهرت.. فالمحاسبة لا تكون إلا بعد مرحلة نضج.

....

الحزب الحاكم موجود فى الحكم منذ سنوات مديدة، فكيف لا يحاسب كما نحاسب أحزاب المعارضة، ولماذا نكيل بمكيالين دائما.

ماذا فعل الحزب الحاكم فى أية دولة نامية، ماذا فعل منذ التحرر الوطنى حتى الآن؟

كل حكام العالم الثالث الذين يؤخرون فكرة التقدم طردوا المستعمر بشكل ما، وكلهم أبطال وطنيون حتى بورقيبة، فكيف ساهموا فى تخلف مجتمعاتهم.

لماذا لا نحاكم الأحزاب الحاكمة كما نحاسب أحزاب المعارضة وهذه نقطة أخيرة!!

*** نأتى إلى نقطة مهمة فى هذا المشهد الكبير الذى ترسم صورته عنصراً عنصراً منذ بدأت حوارك عن دول العالم الثالث، وهو أن هناك موجة من المد الدينى تمثل فى نظر قطاع من الجماهير، وقطاع من المثقفين وقطاع من أجهزة الحكم فى العالم الثالث طريقا للخلاص، هل تعتقد فى هذا ولماذا كان هذا التيار هو الطريق إلى الخلاص فى نظرك؟**

** تصورى أن فكرة تقليد الغرب أو الحضارة الغربية قد فشلت لأننا لم نعرف كيف نقلد الغرب، حققنا أشكال التقدم ولكننا لم نحقق التقدم ذاته، ففشلت الفكرة.

وفشلت ـ حتى ـ فكرة المستبد العادل التى صاغها محمد عبده زمان.

وفشلت صيغ كثيرة للحكم عندنا وحتى صيغتا الرأسمالية والاشتراكية، رأى الناس أنهما تراجع الفرضيات الأساسية لهما.. وهنا شعر الناس الاخلاص سوى بالاتجاه إلى الله سبحانه وتعالى.

هذه هى صيغة تفكير الفرد وكفره بفكرة تقليد الغرب التى فشلت كصيغة فى بناد تقدم حقيقى فى هذه المنطقة.

أما أن تستغل جهة ما هذه الفكرة عند الأفراد استغلالا ما وتتجه بها اتجاها ما فهذا موضوع آخر.

الشبان الصغار (حتى الذين انضموا للوفد) لم يقرأوا مانفيستو الوفد، ولكن تم استغلال مشاعر معينة لديهم وتجنيدهم وتجييشهم، والشبان الصغار الذى انضموا للرايخ الثالث تم استغلال مشاعر معينة عندهم وتجنيدهم لصالح هتلر، وهكذا حدث أيضا فى الجماعات الإسلامية.

ملح الأرض يتم تجنيدهم ذهابا وإيابا وتستغل مشاعرهم البسيطة أسوأ استغلال سواء تم تجنيدهم لصالح هتلر أو موسولينى أو الجماعات الإسلامية أو ـ حتى ـ جيفارا!!

أى شاب يجب أن ينضم لشىء، وأن يشعر أن له اختيارا وأنه مهم.

ونظراً لأن جميع أشكال السلطة فى العالم الثالث تمنع الشباب من الاشتغال بالسياسة وتمنعهم من تعليق مجلات الحائط.. الخ، فإن هذا الشباب يكون جاهزا للانضمام لمن يسمح له بهذه الممنوعات التى تشكل بالنسبة له احتياجا حيويا.

فى هذا السن لابد أن (ينضم) الشاب لشىء، وإذا لم ينضم لجماعة، فليست هناك أية موجبات لأن ندعوه بعد ذلك للانتماء حتى للوطن.

فمتى ينتمى الشباب؟ أبعد أن يفرغ من محتواه السياسى؟

....

الاشتغال بالسياسة هو الاشتغال بالوطن.

فهل يمكن أن ينتمى إنسان بعد أن ربيناه على أن الانتماء عيب.. وأن أى كلمة فى السياسة هى عيب!!

يقولون للشاب زد الإنتاج، كيف.. أبعد أن تم تحطيمه كفكر وليس هذا فقط، ولكنه يتخرج ليبقى سنوات دون عمل، ودون أن يجد مكانا ليعيش فيه

ولو حتى حجر الانتماء يعنى الانتماء لمكان قبل الانتماء لفكره، فكيف ينتمى الشاب لوطن لا يجد فيه مكانا، وطن كله (ساكن) ولا توجد فيه شقة خالية؟

بعد المكان تأتى الفكرة فلا يمكن أن تنتمى لفكرة وأنت معلق فى الهواء.

هذا سبب أول!

ثم إن الحضارة الأوروبية ـ فيما يبدو ـ وصلت إلى قمة الازدهار ودخلت فى مرحلة الانكسار أى حققت مداها حيث تقدمت بالإنسان وسحقته فى نفس الوقت.

ومن هنا فإن الإنسان يبدو وكأنه كفر بهذه الحضارة، وبهذا التقدم ولابد فى هذا السياق فى مراجعة نسب الانتحار المتزايدة فى اليابان وأمريكا.

ومن هنا بدأ المد الدينى فى العالم عموما، ولكن المد الدينى عندنا يعنى أموراً مختلفة، فهو يعنى الخلاص من الصيغ التى فشلت فى تقليد الغرب وضرورة ظهور صيغة بديلة.

وهذا سبب ثان.

*** بهذا المعنى فإن الحركات الدينية هى عنصر إيجابى جداً. بل وعنصر مطلوب أيضا، ولكننى أتكلم عن التعبيرات السياسية عن هذه الحركة الدينية.. أتكلم عن التيار الفكرى الاجتهادى والإنسانى الذى تمثله، وليس ما يدعيه البعض من أنه يمثل تياراً إلهيا؟**

** هناك حركات تكفر (بكسر الفاء والتشديد) ما هو حادث الآن، بالضبط مثل الهيبيز عندما ظهروا فى أوروبا وكانت حركة تعنى الاحتجاج على ما يحدث.. وليس التبشير بفكر جديد.

ماركوز قال إن هؤلاء العيال والطلبة والشبان هم الثورة الجديدة، ولكننى أرى أنهم يمثلون احتجاجا سلبيا معنا أن ما يحدث خطأ ولكنهم لا يملكون الجواب الصحيح على الأسئلة التى يطرحها الواقع.

*** برغم هذا فإن حركات الشباب فى أوروبا منذ الستينات والتى بلغت ذروتها ١٩٦٨ (عام الشباب فى العالم) كانت تصدر مجلات (وبعضها مجلات كاريكاتورية) مثل هاتويف ومادو صحف ثورة الطلاب فى فرنسا وفيها ما يمثل نظريات كاملة تقريبا فى نقد العمارة ونقد الفلسفة ونقد الأنظمة السياسية ونقد الموسيقى.. وطرح بدائل محددة فى هذا السياق..**

ولكننى لا أرى فى الحركات الدينية - وبالذات عندنا - أى تشابه مع هؤلاء؟

** مقارنتى فى إطار مصدر الحركات الدينية وحركات الشباب والمصدر واحد هو (اليأس من شىء)، هم يئسوا من صيغة الحضارة الأوروبية، ونحن يئسنا من فشلنا فى تقليد صيغة الحضارة الأوروبية يعنى المصدر واحد وهو (اليأس)، ولكن إذا تكلمنا عن قصور رؤية التغيير فهذا موضوع آخر، والحركات الدينية وبالذات فى مصر لديها قصور رؤية هائل للتغير، هم لا يطرحون منهجا، وإذا طرحوا يقولون (الإسلام هو الحل).

لا يطرحون إيجابيات الإسلام الحقيقية، فالإسلام يقول إن من غير الممكن أن تكون مسلماً وجارك يبيت جوعانا.

هم لا يطرحون هذا، ولا يطرحون أيضا متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً، لا يتكلمون عن (الحرية).. ولا يتكلمون عن (العدالة) الاجتماعية، فقط يتكلمون عن (المرأة).

*** على أية حال فقد وجدت هذه القوى المفتاح لأن تدخل إلى**

الساحة وتطرح رؤيتها (التى قد لا توافق على تطبيقاتها وتفاصيلها).. ولكن لماذا لم تتمكن قوى أخرى أو تستطيع قوى أخرى أن تدك هذا المفتاح وتستخدمه فى الدخول إلى الساحة وطرح رؤى مغايرة.. بينما هى كثيرة الكلام عن التقدم، وكثيرة الكلام عن العدل وكثيرة الكلام عن كل شىء.

** اليسار جديد.. وحديث السن.. أما فكرة الإسلام فمتغلغلة فى النفوس.

*** أنا أرجو ألا تكلمنى عن (فكرة الإسلام) ولكن أنا هنا أتكلم عن (التنظيمات).. فإذا تكلمنا عن التنظيمات فإن التنظيمات الإسلامية والتنظيمات اليسارية المعاصرة هم من عمر واحد تقريبا؟**

** الإخوان المسلمون دخلوا فى تجربة طويلة تعرضوا فيها لأنواع شديدة من العذاب.. وبالإضافة إلى ذلك فهم يقولون إنهم يستمدون شرعية وجودهم من الله سبحانه وتعالى وليس من فلسفة وضعية، وبالتالى فإن وجودهم مشروع داخل المجتمع أكثر من اليسار.. اليسار يتم تشويهه من أيام هنرى كورييل وحتى اليوم ولا يوجد من يحميه، وتنظيمات المسلمين تجتمع فى الجوامع يحميها ما تشهره من شعارات دينية لها طابع شعبى ويحميها أمام الناس ما تردده من آيات وأحاديث.

أما تنظيمات اليسار فتجتمع كخلايا فى شقق، ولا يحميها (شعبيا) شىء.

اجتماعات اليسار محظورة، واجتماعات المتطرفين مباحة ومباركة! ومن هنا كان لابد لليمين أو الحركات الإسلامية أن تقوى على حساب اليسار.

أما قصور اليسار فى الوصول إلى الناس فهذا موضوع آخر.. فمثقفو

اليسار ـ كانوا من النوع الذى تكلمنا عنه والذى يحب تفسير الواقع الجديد على ضوء الدفاتر القديمة.

نبيل الهلالى مثلا رجل عظيم جدا، وهو أشبه بالرمز ودافع عن حقوق عمال كثيرين جدا، ولكنه سقط فى الانتخابات البرلمانية وسقط فى حلوان تحديدا.

والمعنى أن هذا المكان لم يشعر بوجود نبيل الهلالى يمكن أن يكون قد دافع عن أفراد، ولكن وجوده ككل لم يصل.

قصور اليسار عن الوصول إلى الناس هو جزء من مرض المثقفين وليس جزءاً من مرض اليسار.. المثقفون عندنا يريدون التعبير عن أناس لا يرونهم، ولا يعرفونهم لديهم فى أخيلتهم صور للفلاح المظلوم أو العامل المكلوم، وعلى أساسها يتصرفون دونما تحقق حول ارتباط هذه الصور بالواقع أم لا.

ربما تجد مثقفا يساريا لا يعرف أن فلاح اليوم قد يقتنى فيديو أو تليفزيون، أو أن محاربا ذهب إلى اليمن فى سبيل إعلاء فكرة الشعب على فكرة الإمامة، وعاد ليبنى منزلا بالطوب الأحمر.. وأن كليهما أحدث خللا اجتماعيا معتبرا فى القرية بما بنى وبما اقتنى!!

المثقف اليسارى متعاطف بشكل كتابى أو ثقافى وليس بشكل فيه متابعة لما يجرى فى المجتمع.

ولقد رأيت ورأى الكثيرون من اليساريين وأشعر أنهم لا يعرفون التحدث إلا فى ذواتهم ولا يجدون أحداً خارجهم ليحدثوه سواى!!

وبالدرجة الأولى لا يعرفون ولا يجيدون التحدث إلى الناس الذين يدعون أنهم يدافعون عنهم.. مرض المثقفين الحقيقى هو (التعاطف عن بعد)!!

البورتريه:

الغابة والسعادة

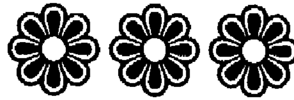
والانقاذ والموعد

*** نأتى - إذن - إلى نهاية حوارنا وأطلب إليك فيه أن ترسم بالكلمة بورتريها دقيقا فيه كل المنمنمات التى عرفناها عنك.. بورتريه لمصر ١٩٨٩؟**

** غابة جميلة فيها أسود سعداء جداً، وغزالات سعيدات وهن يؤكلن (بضم الياء) وناس يتفرجون من الشبابيك وهم سعداء أيضا، وعيال يمسكون بالونات وسعداء أيضا، وموائد أولها فول وآخرها لحوم ولكنهم سعداء أيضا، لكن سيدات المعادى يقاطعن اللحم وهن سعداء أيضا، وسيدات أخريات فى التليفزيون يقدمن طريقة تفصيل فساتين سهرة للناس للذين لا يجدون قوت يومهم وسعداء أيضا.. وناس يسرقون فلوسا وسعداء أيضا.. وناس ليس لديهم فلوسا وسعداء أيضا.

والجميع يحمدون ربنا على هذا الوجود الإنسانى الجميل الذى قد يتم إنقاذهم منه.. لا يعرفون متى.. ولا يعرفون كيف!!!

ابريل ١٩٨٩



رجاء النقاش

(جماهير وطليعة) !

* لم يحدث أن عانى المثقف المصرى ظروفا أسوأ مما عاناه فى السبعينات منذ هزيمة الثورة العرابية !

* شخصية مبارك مليئة بالحيوية والقدرة على المبادرة وعلى الحزب الوطنى أن يتعلم منه.

* لابد أن تسبق الاقتصاد نظرة فلسفية واجتماعية وإنسانية تحدد لهذا الاقتصاد هدفه !

* الاقتصاديون المتخصصون هم أصحاب السلطة الاقتصادية.. أما ذوو الفكر والفلسفة فإنهم منفيون عن مواقع اتخاذ القرار.

* تدخلت الدولة فى قضية شركات توظيف الأموال.. بعد أن كادت كارثة «المناخ» التى حدثت فى الكويت أن تتكرر عندنا !

* ليست الديمقراطية هى أن نقول ما نريده.. ولكن الديمقراطية هى أن يكون للقول تأثير ونتيجة.

* قبل أن نسأل: ما هى قيم الانفتاح؟ لابد أن نعرف أن القيم ليست

مفاهيم مجردة أو أخلاقية يأخذ بها الناس داخل أحد المجتمعات حينما يريدون ويرفضونها وقتما يرغبون!

* أخطر ما حدث فى مصر هو سقوط الوظيفة الحكومية عند الذين حصلوا عليها.. أو الذين لم يتمكنوا من ذلك!

* الكسب المادى أصبح أول أهداف المصريين لإقامة مشروع الحياة العادى.. الذى كان يمكن إقامته فى الستينيات بمرتب الوظيفة الحكومية فقط!

* الإنسان الطبيعى فى مجتمع اليوم هو من يملك ثروة كبيرة أو صغيرة!

* لا أذكر أن أحداً شطب لى سطرا فى الثمانينات.. ولا أذكر أيضاً أن أحداً ناقشنى فيما كتبت!

* الشباب وقع فى أسر فكرة التحرر من وطنه التى تعنى - أول ما تعنى - الهجرة وتكوين الثروة!

* بعض الذين حصلوا على المال فى عصر الانفتاح ليسوا أصحاب الخبرة أو الكفاءة أو التعليم.. وإنما حصلوا عليه كنتيجة لصفقات مفاجئة أو تجارة المخدرات أو تجارة العملة.. أو علاقة مع ثرى عربى أو الفهلوة والشطارة وأحيانا سوء الخلق.. وأحيانا أخرى التحايل على القانون والنظام!

* نسبة عدد المصريين العاملين فى الخارج مخيفة.. ونسبة الفشل الحكومى فى إحصاء هذا العدد مخجلة!

* ما من فكرة أو مشروع نفذته ثورة يوليو إلا وطرحته مجلة «الرسالة» قبل الثورة بسنوات!

* فى عصر السادات حدثت أكبر هجرة ثقافية فى تاريخ مصر كله!

* المثقف فى السبعينيات لم يجد جمهوراً يؤثر فيه.. ولا منبراً يعبر منه ولا مشروعاً يدافع عنه.

* لابد من اللقاء بين صاحب الفكر وصاحب القرار لخلق الحيوية المطلوبة من الحركة الفكرية!

* الأحزاب القائمة لا تمثل الآراء أو القوى السياسية الحقيقية فى مصر بما فى ذلك الحزب الوطنى!

* أى دراسة صادقة لحزب التجمع تقول إن تياراته الثلاثة لم تمتزج ببعضها أبداً.

* أى مراقب لا يستطيع أن يعرف ما هى القضية أو المشروع الأساسى الذى يدافع عنه الوفد!

* سادت فكرة المنافسة التدميرية فى كل القطاعات ومنها قطاع الثقافة!

* من المستحيل أن يوجد شىء يجمع بين مجموعة مصر الفتاة ومجموعة الإخوان المسلمين داخل حزب العمل!

* أحزابنا تذكرنى بقصيدة مسرحية لسميح القاسم اسمها «قراقاش»!

* المشروع الذى يمكن للطليعة المصرية أن تواجه به التطرف هو الديمقراطية بمعناها السياسى والاجتماعى معا.

* التطرف هو التيار الفكرى الوحيد الذى لا يأخذ إذنا من السلطة فى تحركه، وبالتالى يتمتع.بحرية لا تتمتع بها التيارات الأخرى!

* الرأسماليـة المصرية الوطنيـة لـم تجـد ازدهارهـا الحقيقى إلا أيـام عبد الناصر!!

* الانفتاح الاقتصادى ارتبط بانغلاق ثقافى!

* هناك مبدعون حقيقيون ظهروا فى السبعينيات والثمانينيات ولكنهم متشائمون مكتئبون حزانى حتى فى أدبهم!

* * *

** رجاء النقاش..

واحد ممن تطمئن الساحة الفكرية والثقافية وترتاح كثيراً حين يعود إليها، مصدراً أحكامه القاطعة والعادلة ـ معا ـ فى إبداعات يفور بها وجدان الأمة، أو أفكار يصوغها عقل الوطن.

وهو ـ أيضا ـ واحد ممن تعودوا النظر إلى هذه الإبداعات، أو تلك الأفكار، فى إطارها الصحيح، الذى يربطها بملامح الزمن الذى ظهرت فيه وانتظمت فى حدوده.

واحد ممن تعودوا وضع هذه الإبداعات، وتلك الأفكار فوق الخلفية الصحيحة، التى تمثلها حقائق الظرف الاقتصادى والاجتماعى والسياسى المحيطة بإبداع المبدعين، وتفكير المفكرين.

ثم إنه واحد ممن خبروا جماعة المثقفين المصريين، وعرفوا فصائلها وشمائلها، وفضائلها ورذائلها، من المقهى إلى الأوبرا ومن مطبوعات الاستنسل الباسلة، إلى مطبوعات النفط الباهظة.

وهو فوق ذلك ـ واحد ممن عاشوا تجربة الهجرة المنفى ثم العودة (المعركة) فشهد ـ بالتجربة الشخصية ـ أحداث فصول تتابعت فى قصة واحدة من أخطر وأكبر الظواهر السياسية والاجتماعية والثقافية التى شهدتها مصر، كما كابد فى اطارها كل سلبياتها حين شغب عليه البعض عند شواطئ الخليج أو على ضفاف النيل!

ولم يقتصر الأمر على المشاهدة، أو المكابدة، ولكنه امتد أيضا بتضعيفاته وتداعياته ليحرمه من ممارسة دور التنبيه في ساحة الحركة الثقافية التي اعتاد ممارسة دور التنبيه فيها!

وبعد العودة يدخل رجاء النقاش إلى ساحة هذا الحوار اليوم فلا يفتأ يمارس دوره المعتاد، ويطبق عناصره المزمنة التي لطالما طبقها على الإبداع والأدب، ولكنه يفعل هذه المرة في ساحة السياسة والاقتصاد.

يطرح رأيه ورؤيته حول ملامح وظواهر وقيم عصر الانفتاح ثم يتدارس معنا تأثيراتها على الثقافة والأدب، والسياسة والأحزاب والصحافة والإعلام.

وهو - أيضا - يناقش من زاوية جديدة تماما للأسباب والمبررات التي دفعت شركات توظيف الأموال لإنشاء دور النشر وتمويل المسارح.

ثم يحدد الآليات التي تربط حركة فكرة الطليعة، بجماهير الناس، بمؤسسات التعبير السياسي عن أيهما أو كلاهما.

وكذلك يبين - من وجهة نظره - أسباب عجز الأحزاب القائمة عن التعبير الصادق عن الواقع، وانكفائها على نفسها في ظل فرضيات نظرية قامت بموجبها، تعزلها عن الجماهير، وتمنع إحساس هذه الجماهير بما يدور في أروقتها، أو يكتب في وثائقها.

....

أربعة : ظواهر!

*** مازال الاقتصاديون المصريون، مولعين بالنظريات المدرسية، والحجج الأكاديمية، غير مبالين - في أغلب الأحيان - بتقصي أحوال الناس ونفوسهم، فضلا عن مزاجهم وغير مبالين - في أغلب الأحيان أيضا - بمدى ملاءمة أفكارهم أو قراراتهم أو سياساتهم للمناخ العام..**

ولعل أحد (زاويا) هذا المناخ العام المهم، هى طبيعة وحجم التأثيرات الاجتماعية والاقتصادية الحادة فى مصر على مسيرة الأدب والثقافة.. فانظر ماذا ترى؟!

** واحد مثلى، يشتغل ـ أساساً ـ بالثقافة والأدب والفن والنقد، ولكن هذا لا يمنعنى أن أكون مواطنا فى هذا المجتمع، أرى الظواهر التى تؤثر فى نفسى وفى نفوس الآخرين وأتعرف عليها وأتلمسها.

وأنا ـ أيضا ـ واحد ممن يحاولون البحث عن العلل، وتفسير الأمور.

ـ لماذا جرى.. ما جرى؟

ـ ثم.. كيف نبرأ من آثار ما جرى؟!

الاقتصاديون المتخصصون يتكلمون عن الاقتصاد: كأرقام.. ومعالجات.. ومعادلات.. وأنا أعتقد أن أى اقتصادى يفكر بهذه الطريقة (مهما كان علمه ومهما كان نبوغه) لابد أن يفشل لأن الاقتصاد ليس شيئا منفصلا عن حقائق الحياة اليومية التى أعيشها أنا، والتى تعيشها أنت، والتى يعيشها الناس من حولنا، لابد أن تسبق الاقتصاد نظرة فلسفية واجتماعية وإنسانية تحدد لهذا الاقتصاد هدفه، أو ماذا يريد فى مجتمعه؟

(هل يريد مزيداً من الأموال للأغنياء)؟ (هل يريد أن يقيم توازنا بين الطبقات التى تعيش فى المجتمع)؟ (هل يريد أن يحقق لونا من العدالة الاجتماعية، يرى أنه من الضرورى أن تتحقق كيما تتوازن حركة الناس ـ سعيا وراء الإنجاز مع أهداف يؤمنون بضرورتها)؟

لابد أن يكون للاقتصاد لون من ألوان الفكر أو الفلسفة، قبل أن يكون اقتصاداً متخصصاً، ولكن الشائع عندنا هو أن أصحاب السلطة الاقتصادية هم الأكاديميون المتخصصون، أما ذوو الفلسفة والفكر فغالباً ما يكونون منفيين

عن مواقع اتخاذ القرار وهذا ـ فى تقديرى ـ هو سبب الخلل فى التفكير الاقتصادى الشائع والذائع فى مصر والذى يعد المتهم الأول والرئيسى فى (لماذا جرى ما جرى؟) ثم إنه يعد المعوق الرئيسى لـ (كيف نبرأ من آثار ما جرى؟).

كلمة واحدة!.. كلمة واحدة هى التى تحكم حياتنا الاقتصادية فى الخمس عشرة سنة الأخيرة، وهى كلمة (الانفتاح).. وهى (كلمة.. مفتاح) لكل ما جرى.. الانفتاح معناه: أننا سوق مفتوح لكل السلع الواردة.. فنحن نرى فى السوق المصرية اليوم، كل ما كنا نـراه فى لبنان الستينيات، وكـل ما رأيناه فى الخليج أو أوروبا.

من حيث (العرض) كل شيء موجود تقريبا.

ومن حيث (الطلب) يمكن أن ينشأ الطلب على كل هذه السلع حيث ظهرت طبقة جديدة (محدودة وقادرة فى زمن الانفتاح) وهذه طبقة يمكن أن تستهلك كل هذه الكماليات، وكل هذا المطروح فى السوق من خلال قدرتها الاقتصادية الكبيرة.

فالانفتاح ـ إذن ـ أعطى فرصة لوجود كل السلع فى السوق ـ وحتى ـ ما يبدو أنه كمالى بالنسبة للأغلبية.

والانفتاح ـ أيضا ـ سمح بمهن كثيرة، يمكن ـ من خلالها ـ أن تحقق ثروات سريعة وضخمة، فنشأت طبقة غيرت شكل الحياة فى مصر، كما نلمس من عدد السيارات الفاخرة فى الشوارع، أو النشاطات التى تدور فى اللوكاندات الكبرى مثل الأفراح، أو عدد البنوك الكبيرة غير الحكومية، ومن ظواهرها ـ أخيراً ـ شركات تلقى الأموال التى انتشرت بعيداً عن رقابة الدولة، لفترة طويلة، حتى أوشكت الكارثة أن تقع حين نامت الدولة، وكان يجب أن نستمع إلى أجراس التحذير التى دقتها حالة مشابهة تماما، حدثت فى الكويت، وعرفت بأزمة (المناخ) وبالرغم من الدمار الاقتصادى الذى حدث

بسبب هذه الأزمة فى الكويت، فإن الأمر عندنا كان يمكن أن يكون أفدح لأن الكويت أغنى، وليس لديها هذه التعقيدات الموجودة عندنا سواء فى هياكل الاقتصاد، وتركيبه أو فى حركته وعلاقاته.

ولكن أخطر التغيرات التى حدثت هو ما حدث فى سلم القيم، وهذه القيم ليست ـ فى الواقع ـ مفاهيم مجردة أو أخلاقية يمكن أن يأخذ بها الناس ـ داخل أحد المجتمعات عندما يريدون ويرفضونها وقتما يرغبون.

القيم.. هى التى تحكم ـ فعلا ـ حركة المجتمع وتوجهه التوجيه الصحيح أو الخاطئ، وقد جاء الانفتاح ليغير قيما كثيرة وليحل قيما بديلة.. فماذا أحل؟

(قيمة الكسب المادى) أو (ظاهرة الكسب المادى) أصبحت أول الأولويات، أو أهم الأهداف بالنسبة للإنسان المصرى وخاصة الأجيال الجديدة، فالكسب المادى هو الأمان، وهو الذى يحقق (مشروع الحياة) أو مطالب الحياة الضرورية، التى كان يمكن تحقيقها فى الستينيات بمرتب الوظيفة الحكومية فقط، ودون حاجة لأن يكون المرء ثريا!

أما اليوم فإن أخطر ما حدث فى مصر، هو سقوط الوظيفة الحكومية، التى قد لا يجدها جزء غير هين من الشباب، أما الذين وجدوها فقد أدركوا أن مرتبها لا يؤدى إلى شىء ولا يصلح لشىء! إذن فقد أصبح الهدف المادى هو الهدف الأساسى لمجتمع اليوم، وأصبح الإنسان الطبيعى هو من ينجح فى امتلاك ثروة كبيرة كانت أو صغيرة!

أما الذى لا يملك ثروة غير قادر نهائيا ـ على الحياة، وهذا أمر لا شبيه له ـ فى تقديرى ـ فى أى مجتمع لديه حد أدنى من التحضر والحكمة وفهم الحياة.

المفروض أن تكون هناك (سكة) للإنسان العادى يستطيع المشى فيها وتحقيق الحد الأدنى من مطالب الحياة.

لقد غطى الهدف المادى على كل الأهداف الأخرى، التى يجب أن تكون موجودة فى المجتمع، أى مجتمع.

وهنا نسأل أنفسنا (هل كل المصريين.. الخمسين مليوناً.. قادرون على تحقيق هذا الهدف وهو أن نكون جميعا من الأثرياء؟)! بالطبع لا...! فالذى يحقق هدف (الثروة) هم أقلية، وإن كان حجمها يبدو لنا كبيراً فلو قلنا إن هذه الأقلية هى ١٠٪ من المجتمع، فمعنى هذا أنهم خمسة ملايين، وهذا الرقم فى مجال آخر يمكن أن يكون تعداداً لشعب بأسره، فهم ـ إذن ـ عدد كبير فى حد ذاته، ولكن يظل العدد الأكبر هو ٤٥ مليوناً، غير قادرين على تكوين هذه الثروة!

ثم نسأل سؤالاً آخر: (هل يستطيع المجتمع المصرى بإمكانياته أن يوفر هدف الثروة الأغلبية الشعب؟) بالطبع لا... أيضا!

فليست هناك موارد أو فرص عمل تحقق هذا الدخل الكبير لأغلبية الشعب، وبالتالى فإن هذا الهدف لا يتحقق إلا لأقلية لا يتجاوز حجمها فى أحسن الفروض نسبة ١٠٪ من التعداد!

(قيمة عدم الانتماء) أو (ظاهرة عدم الانتماء).

فتحقيق هدف المكسب المادى، أصبح مرتبطا بمجتمعات أخرى غير مصرية، فى أوروبا أو الخليج أو كندا.

وثلاثة أرباع شباب مصر يعيشون الآن فى أسر حلم كبير ملخصه هو:

(كيف أتخلص من ارتباطاتى فى هذا البلد... ثم كيف أجد سكة كيما أتحرر من وطنى؟ الذى هو ـ فى نظرى ـ مجموعة الظروف الصعبة المحيطة

بى)!! إذن فإن قيمة (عدم الانتماء) ترتبت - أيضا - على الوضع الاقتصادى - الاجتماعى - الانفتاحى.

وفكرة عدم الانتماء - جد - خطيرة، وأكبر مظهر لخطورتها أنها أصبحت متمكنة من الشباب وهو - فى الأصل - أكثر فئات أى شعب التصاقا بفكرة الانتماء.

مرحلة الشباب هى مرحلة الأحلام والنضارة والتمسك بالوطن والحماس له، وعندما كنا شبابا، نعيش فى قرية فى المنصورة، كان أى شىء يحرك حماسنا تجاه القضايا التى نحيا فى ظلها سواء فى المسألة الوطنية أو المسألة العربية أو المسألة الإسلامية.

فإذا حدثت مظاهرة أندونيسيا ضد الهولنديين تجدنا فوراً مشتعلين حماسا، نلقى الخطب، ونؤلف الأشعار، ونتظاهر تضامنا.

أما اليوم فإن هذا الوضع لم يعد موجوداً، فالشباب يفكر - منذ الدقيقة الأولى لتخرجه - كيف يحقق لنفسه كسبا عاليا؟ لا يمكن أن يحققه له وطنه، وهنا عليه أن يخرج، وأن يفكر - بشدة - فى وسائل تحقيق هذا الخروج، ونفض اليد من مشاكل الوطن المتعبة!

(قيمة ثقافة النوادى الليلية للقادرين) أو (ظاهرة ثقافة النوادى الليلية للقادرين).

فالذى حدث أن الطبقة القادرة الجديدة لم تحصل - فى معظمها - على المال بذكائها أو ثقافتها أو تعليمها الرفيع، وإنما حصلت عليه من السمسرة، ومن وكالتها للشركات الأجنبية، ومن مسائل أخرى أقل مشروعية.

ونتيجة هذا أن القدرة المالية أصبحت فى يد طبقة تلعب الثقافة فى حياتها دوراً محدوداً جداً أو ثانوياً، وانعكس هذا على الحياة بشكل كبير

بحيث أصبحت ألوان الفنون المقدمة تضع أمامها مخاطبة هذا العقل وهذا المستوى من التفكير.

ولكن: (هذا العقل ماذا يريد؟).

إنه يريد الترفيه والتسلية، والإثارة سواء عن طريق الجنس أو العنف، وهذا ما أوصلنا إلى ما يمكن تسميته (الأزمة الثقافية) بشكل عام، فالذين حصلوا على المال فى عصر الانفتاح ليسوا أصحاب الخبرة أو الكفاءة أو التعليم، وإنما حصلوا عليه بطرق أخرى، فأصبحوا بغير حاجة إلى الثقافة الرفيعة، وأصبح مطلبهم منحصراً فى الثقافة المسلية المثيرة التى تزيد حياتهم بهجة وتملأ سهراتهم التى يحبون إقامتها ويواظبون على إقامتها لأن نوعية كسبهم لا تحتاج إلى نظام أو دقة، أو حياة يستيقظ فيها الإنسان مبكراً، أو يعمل لثمان ساعات ولكن المسائل كلها تجىء لهم من صفقات مفاجئة، أو من تجارة المخدرات أو من تجارة العملة، أو من علاقة مع ثرى عربى، أو أشياء غريبة عجيبة من هذا النوع، ليس فيها جهد، وإنما فيها فهلوة أو شطارة، أو أحيانا سوء خلق، وأحيانا أخرى تحايل على القانون والنظام.

(قيمة تفكك الأسرة المصرية) أو (ظاهرة تفكك الأسرة المصرية).

فقد تفككت الأسرة المصرية بشكل لم يسبق له مثيل. وهذا ينعكس بوضوح فى الجرائم التى نسمع عنها، فلأول مرة فى مصر يحدث هذا. مصر المتآلفة.. المتحابة.. والتى لا تعرف العنف كتراث وطنى واضح وأصيل لأسباب منها الاستقرار الطويل على الأرض المصرية، ومنها الحضارة القديمة السابقة، ومنها أن النيل يربط بين الناس، ومنها أن الحكومة المركزية كانت باستمرار ـ قوية ـ وبالتالى كانت الأسرة أيضا كياناً متماسكاً بشكل عالٍ.. مصر ـ هذه ـ أصبحت تشهد العنف وتحسه وتخافه فى كل لحظة.

الأسرة المصرية تتعرض لغياب الأب سنوات طويلة أثناء رحلة الكسب فى الخليج أو أوروبا، بينما تتولى الأم تربية الأولاد بخبرة محدودة أو بعدم قدرة على الأمر كله، فضلا عن حالات كثيرة يغيب فيها كل من الأب والأم ويبقى الأطفال وحدهم هنا، وتبدأ الأمراض الاجتماعية فى الظهور وتفرز مشاكلها المصاحبة.

والكلام عن غياب الأب والأم يطرح بذاته قضية مهمة تجدر متابعة وهى عدد العاملين بالخارج، فنسبة عدد العاملين فى الخليج مخيفة. نسبة (العجز) الرسمية فى إحصاء هذا العدد مخجلة! النسبة أكبر مما يحصيه الرسميون ويعرفه الرسميون، فلم يعد اليوم فى مدينة القاهرة أسرة واحدة، ليس لديها فرد على الأقل بالخارج! ولم تعد ظاهرة الهجرة تقتصر على حى أو طبقة، ولكنها ظاهرة مكتسحة امتدت إلى الريف، خاصة بعد أن فتح العراق مجال الهجرة للفلاحين، وأصبح الفلاحون المصريون بالملايين فى العراق، وبالطبع نتج عن هذا تفكك فى الأسرة فظيع، وصراعات بين الأجيال ساحقة، وساد عداء بين الصغار والكبار، يأخذ شكلا مكشوفا فى جرائم قتل الأزواج أو ذبح الأبناء أو طعن الآباء أو يأخذ شكلا غير مكشوف ملخصه أن يرى الأبناء ماذا يريد الكبار، ويفعلوا عكسه.

ومجمل الموقف بعد هذه الظواهر الأربع التى ترتبت على عصر الانفتاح أن الشخصية المصرية لم يعد لديها مشروع محدد تريد أن تحققه.

فالمصرى بالأمس كان لديه مشروع تحرير البلاد من الإنجليز، ثم أصبح لديه مشروع تحقيق الاستقلال الاقتصادى بالأمس ثم أصبح لديه ـ مثلا ـ مشروع تحقيق الوحدة القومية.. إلخ.

أما الجيل الحالى فليس لديه هدف، وليس لديه مشروع!

ثلاث: خطوات!

*** تقول إن الشباب ليس لديه هدف أو مشروع أليس لديه نوع من استحضار المثل الأعلى الكلاسيكى على المستوى الفردى أو مستوى الدولة، ولو من مشروعات أجيال سابقة؟**

** هناك فقدان رؤية تامة! يمنع التواصل مع مشروعات أجيال سابقة فضلا عن العجز عن إقامة مشروع جديد، وبالنسبة للدولة فأنا أرى أن اتجاهها هو معالجة أى مشكلة معالجة مباشرة بحيث يمثل أداؤها باستمرار (رد الفعل).

فهى تعالج مشكلة الخبز يوما بيوم وكذا المواصلات.. أى تعالج المشاكل القائمة، الظاهرة والمؤقتة دون وضع فلسفة شاملة لعلاج الموقف ككل أو وضع مشروع متكامل يسعى لتحقيق هذا العلاج.

وحين تقول (الدولة) ولكى نكون منصفين فإن الدولة ليست هى رئيس الدولة أو رئيس الوزراء ففى النهاية مهما ارتفع المنصب فإنه سيظل تنفيذا لفكرة.

*** ومن أين تأتى الفكرة؟..**

** بالطبع من الجهاز الذى يرسم السياسة.

*** وما هو الجهاز الذى يرسم السياسة فى الدولة المصرية الآن؟**

** هو بالتأكيد: الحزب الوطنى!

وأنا ـ منذ عدة سنوات ـ أحاول أن أفهم ماذا يريد الحزب الوطنى فى أى موضوع ولم استطع!! كما أننى لم أستطع ـ إطلاقا ـ أن اربط بين شخصية الرئيس مبارك، وبين الحزب الوطنى فمبارك يمثل قيادة سياسية شديدة الحيوية سريعة الاستجابة لما يحدث فى مصر من مشاكل ولديه إصرار على المواجهة

الميدانية المستمرة لواقع المجتمع المصرى، ولا أجد شيئا من هذه الملامح فى الحزب الوطنى الذى يبدو لى وكأنه يعيش فى عصر آخر غير هذا العصر وتلك من أعجب المفارقات، قائد سياسى يعمل على أن يملأ الفراغ الموجود فى الشارع المصرى بقوة شخصيته بينما الحزب يعيش وراء أبواب مغلقة.

من أبسط الأمور إلى أعقدها سألت عدداً من الأصدقاء الذين يحتلون مراكز فى هذا الحزب، ولم أستطع أن أضع يدى على شىء محدد سألتهم: ألا يوجد نشرة عن سياستكم العربية، فيعاودون إجابتى: لا يوجد!! فأستمر فى التساؤل: ألا يوجد لديكم تقرير عن مؤتمر سنوى تعقدونه، فيستمرون فى الإجابة: لا يوجد!!

الكل يقولون: اقرأ خطب الرئيس، وهذا ـ فى تقديرى ـ ظلم بالغ للرئيس مبارك وتخلى عن المسئولية من جانب الحزب الوطنى.

حزب: يعنى أن يكون عنده فكر!

وهناك من يسخرون اليوم من ميثاق عبد الناصر، ولكن مهما قال الأعداء فى شأن هذا الميثاق فإنه كان ـ على الأقل ـ جسما نظريا واضح المعالم تستطيع أن تتفق معه كله أو ترفضه كله أو تتفق مع بعض بنوده وترفض بعض بنوده.

كان عندنا شىء يمكن أن تأخذ هوامش عليه، كما نستطيع أن نحاسب الدولة على أساسه، ولكن على ماذا نحاسب الحزب الوطنى الآن؟ وكيف نحاسب الحزب الوطنى؟

أنا ـ مثلا ـ أشتغل فى مجال الإعلام والثقافة.. ولم يحدث يوماً أن أتيحت لى فرصة مناقشة برنامج الحزب الوطنى فى الإعلام والثقافة، ولم نحضر جلسة بهذا المعنى، ولو كمراقبين أو كأصدقاء أو حتى كمختلفين!

إذن المشروع العام المشترك أصبح مفقوداً، وهو مفقود ليس بسبب القيادات

التنفيذية الكبيرة ولكن بسبب الضعف الفكرى فى الحزب الوطنى، الذى كان من المفترض أن يضع فلسفة الدولة التى يحكمها وهو ما أتمنى أن يحدث فهو أمر عاجل ومهم وأساسى، والحزب الوطنى مسئول، مسئول لأنه حزب أغلبية، أما بالنسبة للشعب كأفراد أو ككيان جمعى فهو ممزق تماما، وليس له هذا المشروع ولم يظهر حزب يستطيع قيادته إلى هذا المشروع.

*** (سؤال مباغت).. من الذى يضع هذا المشروع أو الفلسفة؟**

** لا أريد أن أذهب بعيدا إلى تجارب الدنيا الواسعة حولنا، ودعنا نفتش فى تاريخ مصر نفسها، فقد ظهر سعد زغلول باشا أول ما ظهر فى الثورة العرابية وسجن فترة وخرج ليتلاءم مع عصر الاحتلال بين ١٨٩٠ ـ ١٩١٩ (أى حوالى ٣٠ سنة) وأصبح رجلا معتدلا جداً وعين وزيرا فى عصر كرومر، وتزوج ابنة مصطفى فهمى وهو أحد الرموز الارستقراطية (وكان مصطفى فهمى هو أقرب رجل سياسة لكرومر ومكث حوالى عشرين سنة كرئيس للوزارة فى ظل الاحتلال الإنجليزى).

ثم قاد سعد زغلول ـ بتاريخه هذا ـ ثورة مصر الوطنية عام ١٩١٩.

ولكن هل انفجرت هذه الثورة الوطنية فجأة هل استيقظ الشعب المصرى فى مارس عام ١٩١٩ ليقرر أن يقوم بثورة، والإجابة ـ بالقطع ـ لا.. بدليل أن كل الشعب المصرى قام بالثورة، ولا يمكن إلا أن يكون هذا وليد اتفاق أو وحدة فى التفكير، ومن غير الممكن أن يكون هذا الاتفاق بلا مقدمات وأعتقد أن العملية كلها تتم وفقا لثلاث خطوات هى:

١ ـ تنشأ حركة فكرية يمثلها الكثير من المفكرين على مستويات مختلفة، ومن الممكن أن يكون هذا المفكر أديبا أو شاعرا أو صحفيا، ولكن مجمل هذه الحركة الفكرية التى تقوم بها الطليعة أو الصفوة أو المثقفون، هو التفتيش عن الأفكار والحلول اللازمة لمواجهة ظرف أزمة وطنية.

٢ ـ ويوم وراء يوم وجيل وراء جيل تتبلور هذه الأفكار فى شكل أهداف معينة تترسخ وتتكرس فى وجدان الشعب بشدة.

٣ ـ ثم يحدث الانفجار أو الحركة العامة بناء على ما تم تكوينه فى الذهن والوجدان العام طوال هذه الفترة.

وكما تنطبق هذه الخطوات على ثورة ١٩١٩.. فإنها تنطبق على ثورة يوليو أيضا.

فلا يمكن أن يتخيل إنسان حجم الجهد الذى قام به مفكرون مصريون (وصل بعضهم إلى حالة اليأس الكامل فى دعوته وأفكاره) وذلك فى الفترة ما بين ١٩١٩ ـ ١٩٥٢.

وقد طرح هؤلاء المفكرون كل ما قامت به ثورة يوليو وأهلكوه بحثا!

وقد أجريت دراسة على مجلة أحبها وهى (مجلة الرسالة) التى كان يصدرها أحمد حسن الزيات (١٩٣٣ ـ ١٩٥٣) فوجدت أنه ما من فكرة أنجزتها ثورة يوليو إلا وطرحت من قبل فى مجلة (الرسالة)، وبالطبع كانت هناك عشرات المجلات الأخرى ولكن فى هذه المجلة التى أصدرت ١٠٢٥ عددا يتجسد المعنى الذى أعنيه تماما فكرة (الإصلاح الزراعى) طرحت فيها و(مجانية التعليم) و(إصلاح الأزهر). وحتى (السد العالى) وجدت مقالا حوله كتبه أحد المهندسين المصريين فى الأربعينات، ولعلى أكتب يوما عن هذا المقال لأنه يصحح ما هو شائع من أن هذه الفكرة ابتكرها مهندس يونانى وقدمها لجمال عبد الناصر.

وهذا ـ طبعا ـ صحيح، ولكنه لم تكن من ابتكار هذا المهندس اليونانى بل هى فكرة مصرية قبل أن يظهر عبد الناصر على المسرح السياسى، ومعنى هذا أننا (لو أخذنا هذه المجلة كنموذج) سنجد أن الحركة الفكرية اجتهدت

وكافحت وصادمت، وعبرت عن مجموعة مطالب، ملأت بها المناخ والجو العام حتى أصبح معظمها واضحا فى ذهن الشعب المصرى ووجدانه.

وأنا أعتقد أن الكثير جدا من قادة ثورة ١٩٥٢ كانوا من قراء هذه المجلة أو غيرها بالطبع، فمن المؤكد أنهم كانوا يقرأون ويقرأون - بالذات - هذه الأشياء العامة لأن الذى يحاول التغيير لابد أن يكون عنده اهتمام عام.

وأجزم أن الضباط الأحرار فى ليلة ٢٣ يوليو كانوا يعرفون الكثير جدا من مطالب هذا الشعب وأحلامه، من خلال الاجتهادات الفكرية التى طرحت بواسطة الطليعة من قبل، بل كان برنامجهم مستمدا مما قيل قبل ثورتهم وكان الدور - بالنسبة لهم واضحا جدا، وخاصة فى القضايا الكبرى وهو دور التنفيذ لبرنامج اشترك فى إعداده عشرات من مفكرى مصر ما بين ١٩١٩ و١٩٥٢.

إذن الطريقة التى تجعل (المشروع القومى الاجتماعى يكتمل، هى حركة فكرية كاسحة، تكافح، وتناضل لمدة طويلة بحيث تبلور ما هو مطلوب ثم حركة سياسية ترتبط بامتلاك السلطة - طبعا - حتى تستطيع أن تنفذ هذه الأفكار وتحققها.

*** فلنضع بعض لخاف أو (شقفات) صغيرة لنكمل فسيفساء الصورة التى ترسمها.**

فمنذ هزيمة ١٩٦٧ غاب دور الطليعة الفكرى، وانقطع هذا الإسهام العقلى الذى يصنع ما كنت تتكلم عنه من فلسفات تعبر - بالضبط - عن نبض الشعب المصرى فى مرحلة ما من تاريخه.

إلى أى حد أدى غياب هذه الطليعة عن إبداع تلك الفلسفة إلى ما وصل إليه الوضع فى مصر سياسيا واقتصاديا واجتماعيا اليوم؟

** أعتقد أن هذه الطليعة لم تغب غيابا نهائيا فقد بلورت فكرة محددة

فى المجتمع وهى: (الديمقراطية)، فقبل ١٩٦٧ استطاعت الثورة أن تقنع الناس ـ ولو بالواقع ـ أنه يمكن الاستغناء عن الحرية السياسية فى سبيل تحقيق الحرية الاجتماعية، ولم يكن أى إنسان غير مقتنع بهذه الفكرة يستطيع معالجة قضية الديمقراطية السياسية فى مصر إلى أن جاءت ١٩٦٧، فوضع الكل أياديهم على هذا الجرح: (الديمقراطية السياسية)، وأظن أن الطليعة فى مصر بشتى اتجاهاتها ومدارسها الفكرية مقتنعة بهذه المسألة وتدعو إليها الآن، ومن حسن حظ هذا الجيل أن حسنى مبارك شديد الإيمان أيضا بهذه الفكرة وهى الديمقراطية، ثم نأتى إلى بعض هوامش حول هذه القضية وهى:

ـ أن الطليعة ـ بشكل عام ـ (وهى الصفوة أو النخبة أو المثقفون.. بكلمات تكاد تكون مترادفة) كانت مقهورة بشكل ما فى عهد عبد الناصر ومقهورة بشكل آخر فى عصر السادات.

ولكن فى عصر عبد الناصر كان يخفف عن الطليعة ما تلقاه من قهر أن عبد الناصر ـ كثيراً ـ ما يتوجه التوجه الصحيح من وجهة نظر هذه الطليعة، فكانت تشعر أنها تحقق أهدافها بطريقة أخرى، ولكنها لم تكن تشارك مشاركة فعالة وحتى إذا شاركت باحتلال بعض مواقع المسئولية المهمة فإنها تكون باستمرار ـ عرضة للعزل أو الطرد، أما فى عصر السادات فقد كانت هناك حرب صليبية ضد الفكر والثقافة ـ بصفة عامة ـ وحدثت أكبر هجرة ثقافية فى التاريخ من مصر.

فما من مثقف كان قد تكوّن أو فى طريقه إلى التكوين، وكان له وزن أو تأثير واستطاع أن يعيش فى هذا البلد مع المحافظة على استقلال فكره ورأيه فإما أن يوافق السادات على انفجاراته وآرائه المفاجئة واختياراته التى بلا مقدمات فى أشياء كثيرة، وإما أن يدخل السجن، وإما أن يترك البلد، فهذا الذى تسميه ـ أنت ـ بالطليعة وأسميه أنا ـ بالنخبة أو الصفوة أو المثقفين

أصبح شراذم جيش بعد أن ضرب وتفكك وأصبحت هذه الشراذم هى مجموعة من الأفراد تحاول أن تدافع عن نفسها وتحل مشاكلها الكثيرة جداً عن طريق الانطواء على النفس أو العمل فى الخارج أو أى طريق آخر.

وتولى اليمين القيادة الثقافية ولكن إذا نظرت إلى (يمين) السادات، وقارنته ـ مثلا ـ باليمين الذى كان موجوداً فى مرحلة ما بين ثورتى ١٩١٩ و١٩٥٢ ستجد بونا شاسعا وسترى اليمين القديم فيه لطفى السيد ومحمد حسين هيكل وطلعت حرب والشيخ محمد مصطفى المراغى.. أى عمالقة فكر من الدرجة الأولى، إن لم تتفق مع اتجاههم الفكرى لا تملك إلا أن تستفيد من عملهم وتحليلهم للأمور وجديتهم ووطنيتهم العالية جدا.. بعبارة أخرى كانوا يمثلون مدارس فكرية هائلة، أما اليمين فى عصر السادات فكانت عناصره مجهولة أو ظهرت على السطح ـ أصلا ـ لمجرد أنها تؤيده مثل محمد عثمان اسماعيل وأمثاله ممن يمثلون أعجب يمين عرفته فهو يمين عنيف قاس ولكنه بلا فكر ولا موقف معلوم.

لقد أصبحت مساهمة الصفوة أو النخبة معدومة ـ تقريبا ـ فى عصر السادات لا سلطان، ولا قدرة لهذه الصفوة على الوصول إلى الجماهير أو الوصول للسلطة، وخلا الميدان لتسطيح المجتمع وخلت الساحة للقرارات السياسية التى يأخذها الحاكم بلا مراجعة فكرية دقيقة وبلا خطة.. وبلا تأنٍّ، وأقول الحق وليصفنى من يشاء بما يشاء.

إن الأمر تغير تماما فى عهد حسنى مبارك فقد فتح الرجل أبواب الحرية فعاد الغائبون، وبدأ الكثيرون يخرجون من سلبيتهم ويمارسون دورهم فى التغيير، ولكن المشوار يحتاج إلى وقت.

أربعة أسباب:

*** لم تكن النخبة ضحية فى كل الأحوال.. فقد انكفأت عناصر هذه**

النخبة على معارك غريبة تعيد النظر- حتى - فى الفرضيات الأولى التى أقرها الفكر المصرى منذ زمن بعيد جدا، ولا أعتقد أن هناك فصيلا واحدا فى الحياة الفكرية المصرية نأى بنفسه عن هذه المعارك.

لماذا لم يحدث أى نوع من الوحدة بين الفصائل المختلفة للنخبة المصرية لمواجهة الوضع الطارئ الصعب، الذى تقول إنه حدث فى عصر السادات.

** هناك أربعة أسباب لهذا الوضع:

لا جدوى من المثقف أو فائدة، إذا كان مجرد فرد معلق في الهواء لابد أن يكون منتميا لشيء سواء لاتجاه أو لصحف أو المؤسسات أو الجماهير أو لتكوين ما (حزب - جمعية - نادى) ولكن عصر السادات حاصر الناس حتى أصبح كل إنسان مضطرا إلى أن يدافع عن نفسه كفرد، هات أية جماعة مرحة ومقبلة على الحياة وذهنها متفتح واحشرها فى موقف أزمة ستجد أن جوانب الأزمة تتفاقم وتحدث تغييرات فى هؤلاء الناس، وهى تغيرات سلبية بالدرجة الأولى، وسيغضب بعضهم غضبا غير محسوب، ويتصارع البعض صراعا لا آخر له وسيفضل الكل المصلحة الخاصة على المصلحة العامة.

وقد وضع السادات كل المثقفين الوطنيين المستقلين - بكافة اتجاهاتهم - فى هذا الموقف فأصبحت فرصهم فى الحياة الاقتصادية قليلة وفرص تعبيرهم عن أنفسهم معدومة.. بمعنى آخر أصبحوا فى أزمة كبيرة أثارت فيهم من العيوب والأخطاء ما أشرت - أنت - إليه.

ولو كان هناك مناخ حر وهواء طلق لتغير الأمر.

*** اسمح لى أن أقطع استرسالك فى أسبابك الأربعة لأقول إن ما ذكرته فى النقطة الأخيرة جائز على المستوى الفردى، أما على**

مستوى تيار فكرى فإن المسألة مختلفة.. ومازلت أتأمل بدهشة بعض المعارك الفكرية فى السبعينات والثمانينات التى ناقش أموراً كان المصريون قد حسموها منذ قرن على الأقل، وهذا أمر يقع فى خانة مسئولية اتجاهات فكرية بأكملها؟

** هذا هو السبب الثالث الذى كنت أنوى الكلام عنه، وهذا أيضا ـ ثمرة النظام فلم يبق ـ أصلا ـ فى عصر السادات أحد من أصحاب (الاتجاه)، فمعظم العقول الكبيرة والإعلام المهمين خرجوا من البلد، وضاعت القدرة على التراكم الفكرى بل إننى أرى أن هناك من كان يرتب للقضاء على هذا التراكم الفكرى باستمرار.

فواحد مثل د. فؤاد زكريا وهو مفكر أقرب إلى اليسار ـ حر مستنير مثقف.. قادر على التعبير عن نفسه كيف يؤثر مثل هذا الشخص فى مجتمعه ويحدث تراكما فكريا؟

بالطبع يؤثر إما عن طريق تلامذته فى الجامعة أو عن طريق كتاباته فى الصحف أو عن طريق كتبه فى الأسواق.

ولكنه حورب حربا شرسة فى الجامعة ووصمته جهات كثيرة بأنه (يسارى) ومخرب، فأصبحت حياته مستحيلة فى الجامعة، ومن هنا رحل إلى الكويت بينما تضاءلت المنابر المتاحة له فى مصر فهو يكتب للأهرام كل شهور وينشر له حديثا هنا وهناك كل دهور، وتطبع كتبه فى الخارج أو فى دور نشر مصرية ليست بالقوة المطلوبة وغير قادرة على توصيل أفكاره.

إذن فالحركة الفكرية والتراكم الفكرى المترتب على وجود مفكر مستنير مثله انعدم لأن المفكر المستنير لابد أن يكون له جمهوره من ناس يؤثر فيهم أو يتأثرون به، وكذلك واحد مثل أحمد بهاء الدين وهو من أكبر المفكرين والكتاب المؤثرين فى الرأى العام المصرى، وفى العالم العربى عزله السادات

تماما عن القارىء المصرى، وعن مشاكل مصر لمدة سبع سنوات حاسمة يتغير فيها المجتمع، ويتشكل بسرعة وهى أيضا سبع سنوات حاسمة فى عمره شخصيا.

وعندما يعزل السادات مفكراً مثل بهاء لهذه السنوات السبع فإنه يكون بكل تأكيد قد منع تراكما فكريا يمكن أن يحدث الاتجاه بأكمله فى مصر ثم لماذا عزله؟

لقد عزله لأنه كان يكتب فى السنوات الأولى للانفتاح مطالبا بترشيد ما يحدث.. (الانفتاح ليس سداح مداح) وغير ذلك، ثم تبين ـ فيما بعد أن هذا الكلام هو أساس الرغبة فى العزل، فلم يكن هذا الكلام مرغوبا ولا مطلوبا ولا مسموحا به، ثم هناك تضاعيف تسبب فيها هذا النفى منها أن الفكر المصرى المثقف والمستنير فى مجتمعات الخليج كان يواجه محنة أخرى تمنع التراكم الفكرى عند الاتجاهات التى يمثلها. ففى مجتمعات الخليج يجد المفكر نفسه أمام عدد من الناس قليل جدا وأمام مشاكل مختلفة عما يطرح فى بلاده ويجد نفسه فوق هذا. بإزاء مجتمع غير متجانس من العرب والهنود والايرانيين مما يصيب تفكيره ـ أصلا ـ بارتباك ناهيك عن التراكم.

٤ ـ أقرب وجود النزعة الفردية، ولكن من خلال مشروع عام، فهذه الظواهر السلبية كانت موجودة ـ أيضا ـ أيام عبد الناصر وكذلك كانت النزعات الفردية موجودة ولكن كان هناك ـ أيضا ـ مشروع عام الكل مضطر إلى أن يدخل ويساهم فيه ويسارع إلى تقديم أفضل ما لديه، أما إبان انفتاح السادات فقد حدث كل هذا التمزق والتشرذم والاحباط والتفكك فأصبح الموجود فقط هو أصوات فرديه، ولعلى لست بحاجة إلى تذكيرك بأنك عندما تضع نابليون فى جزيرة سانت هيلانة فإنه ينتهى فقيمة نابيلون هى أنه عبقرية حربية وسياسية، ولديه مادة يشكلها هى الجيش والشعب الفرنسى،

وهذه المادة بالنسبة له هى التى يأخذ بشأنه قرارات، ومن هنا كان تأثيره المدوى فى الدنيا طالما بقى فى هذا الموقع مع وجود هذه العناصر حوله، أما عندما أصبح فى سانت هيلانة فلم يحس به أحد أو يَخَفْ منه.

هذا بالضبط حال المثقف فى عصر السادات فلم يجد جمهورا يؤثر فيه أو منبرا يعبر منه أو مشروعا يدافع عنه.

*** أستاذ رجاء.. طوال حوارنا السابق كنت تثبت متغيرا - أراه - مهما فقد تذكرت ضغوط الدولة وعسفها على الطليعة أو النخبة أو الصفوة أو المثقفين.**

ولكنك.. فى الواقع - لم تتعرض بشكل كاف لدور هؤلاء المثقفين (سواء كان فرديا أو جماعيا) فى مواجهة هذا اللون من سلوك السلطة، خاصة أنه فيما قبل ١٩٥٢ كان المثقف المصرى (الذى تكلمت عن إسهاماته الفكرية فى تلك المرحلة) يعمل فى ظل ضوابط وكوابح من أنواع مختلفة لا تقل - أبدا - عما تعرض له المثقف المصرى فى السبعينات.

كما أن مقارنتك الخاصة بالزمن الناصرى تقتضى إيضاحا خاصة أن المثقفين (رغم انخراطهم فى المشروع العام) مارسوا معارضات بعضها منظم فى هذا الزمن؟

** سأقولها لك بإيجاز وصراحة: لم يحدث أن عانى المثقف المصرى ظروفا أسوأ مما عاناه فى السبعينات إلا فى مرحلة ما بعد هزيمة الثورة العرابية.

فأيام هزيمة الثورة العرابية كانت أول ضربة للاستعمار الإنجليزى تشتيت مجموعة المثقفين المتحلقين حول الثورة (النديم - محمود سامى البارودى - محمد عبده) وذلك إما بسجنهم أو نفيهم.

وقد ابتكر الاستعمار الإنجليزى عقوبة النفى الرهيبة فى مصر وفى غيرها من المستعمرات والتى كانت تختار أهدافها ـ غالبا ـ من المثقفين الوطنيين

وهذا ـ بالضبط ـ ما حدث فى السبعينات حين تم ضرب الحركة الثقافية الوطنية ونفى رموزها (بطريقة عصرية طبعا وهى الضغط فى الداخل للإجبار على الخروج إلى الخارج)!!

وأيضا أنت تحدثنى عن ضوابط وكوابح ما قبل الثورة، وأقول لك إن قدراً من الديمقراطية الليبرالية، كان موجوداً قبل الثورة وكان لهذه الديمقراطية مؤسساتها التى تحمى المثقفين وتمدهم بالعون وأضرب فى هذا مثلا بأن طه حسين كان فى حماية الأحرار الدستوريين فى بداية حياته (وكان القصر الملكى يسند هذا الحزب وقتها) حتى ١٩٣٣ ، وكان العميد يلقى مساندة كاملة من عبد الخالق ثروت وعدلى يكن ولطفى السيد وغيرهم من رموز مؤسسات اليمين المصرى، فهم الذين سفروه فى بعثة لأوروبا وهم الذين عينوه أستاذاً فى الجامعة وهم الذين حموه عندما ثارت الدنيا كلها ضده (بما فيها الرأى العام المصرى نفسه) عندما أصدر كتابه (فى الشعر الجاهلى) ١٩٢٦ واعتبر هذا الكتاب مضادا للإسلام وخرجت المظاهرات تهاجمه وصدرت تقريبا ـ عشرة كتب تهاجمه وتكفر كاتبه وقدم طه للمحاكمة، ومع ذلك وجد من يسنده ويعاونه وقتها وزيرا للمعارف (عبد الخالق ثروت) وهو الذى وقف معه بقوة وكذلك مدير الجامعة (لطفى السيد) فقد ساعداه كى يصمد ويستمر، وبعد ١٩٣٣ انضم طه حسين للوفد الذى كان يحميه أيضا ففى فترة انتمائه للوفد كان مرفوتا من الجامعة فعمد الوفد إلى إصدار صحف ومجلات ـ خصيصا ـ ليكتب فيها طه حسين براتب يفوق راتبه فى الجامعة وييسروا له حياته تماما بحيث لا يفقد قدرته أو اتزانه.

....

أما فى عقد السبعينات فكانت كل المؤسسات تحت سيطرة الدولة فإما توافق هذه الدولة فتسمح لك بالعمل، وإما تستبعدك وتحاربك، وبالتالى وجد كل المثقفين الوطنيين الذين لم يدخلوا «مزاج» السادات أو لم يقدروا على التفاهم معه أو الموافقة على ما يفعله وجد هؤلاء أنفسهم فى العراء تماما.. دون وجود أية مؤسسات تحميهم.

خمس جهات!

*** تقول إن تراكم الأفكار عند الطليعة المصرية بعد ٦٧ أدى إلى أن يضع الجميع أياديهم على بيت الداء وهو الديمقراطية، والآن وبعد انفراجة ديمقراطية كبيرة فى الثمانينات عاد العائدون من المنافى لا ليواجهوا سلطة تعمل على قمعهم أو كبحهم أو إبعادهم، ولكن ليواجهوا رفاقا قدامى ورفاقا جددا من نفس تياراتهم واتجاهاتهم يرغبون فى نفيهم من جديد ولو حتى داخل حدود الوطن.. لماذا؟**

** هذا صحيح، ولكنى لا أعفى السلطة من المسئولية لأن هناك خطراً آخر أكبر من الاضطهاد المباشر، وهو أن أحداً لا يستمع إلى كلماتك فدور الثقافة والفكر أصبحت لا تأثير لها حيث لا يناقشها أحد فيما نكتب أو نقول أو نصرخ!! وهذا يذكرنى بقصة أعرابى أغار عليه بعض اللصوص فأخذوا جماله وهربوا فجلس يشتمهم شتائم فظيعة جداً، وفى النهاية وصف حاله قائلا: أوسعتهم سباً وراحوا بالإبل.

أخطر ما أشعر به اليوم أن هناك جهات كثيرة تحاول أن تجعل الحرية التى يتميز بها عهد الرئيس مبارك (حرية مجمدة) بمعنى أن تقول ما تشاء وتكتب ما تشاء دون أن يستجيب لك أحد.

وأنا شخصيا لا أذكر ـ منذ عدت ـ أن أحداً قد شطب لى سطراً واحدا ولكننى لا أذكر ـ أيضا ـ أن أحداً ناقشنى فى رأى كتبته.

وسأضرب لك أمثلة بخمس جهات فى الدولة وتجربتى معها:

١ ـ كتبت عن دار الكتب وشرحت قصتها بالتفصيل فى مجلة قومية وليست معارضة وهى (المصور)، وقلت: إن القرار الثقافى الطائش الذى ضم دار الكتب إلى هيئة الكتاب (رغم أن الوظيفتين مختلفتان تماما) أدى إلى القضاء على دار الكتب.

ثلاث مقالات تفصيلية فى الموضوع تعرضت فيها لقضية ثقافية خطيرة ولكن منذ نشرها (منذ سنة) لم أتلق رداً شفوياً ولا مكتوبا، والوضع مازال قائما حتى الآن.

٢ ـ لم أدخل مقر المجلس الأعلى للصحافة ولا أعرف سوى زميلنا الأستاذ صبرى أبو المجد باعتباره سكرتير المجلس، ولكن هل قام هذا المجلس ـ يوما ـ وهو يملك الصحف القومية بدعوة الكتاب أو المثقفين ليناقشهم أو يعرف وجهات نظرهم؟

٣ ـ وزارة الإعلام لها علاقة وثيقة بالصحافة ومع ذلك لا علاقة على الإطلاق للكاتب أو المفكر بوزارة الإعلام فلم يدعنا أحد إلى هذه الوزارة لمناقشة أى موضوع من أى نوع.

وهذا يعكس انفصالا بين السلطة التنفيذية التى تتخذ القرار وبين صاحب القلم، فلو كتبنا ما وسعتنا الكتابة فلن يسأل أحد فينا، وهذا يجعل من ديمقراطيتنا ظاهرة تشبه «هايد بارك» وهى الحديقة المشهورة فى لندن التى يستطيع أى إنسان أن يقف فى ركنها ليصرخ بما يريد دون أن يستجيب له أحد وهذا النوع من الديمقراطية لا يناسبنا كمجتمع مأزوم فلابد أن تكون هناك وسيلة للحوار أو اللقاء بين صاحب الفكر وصاحب القرار لخلق الحيوية المطلوبة من الحركة الفكرية.

٤ ـ حتى جهات الأمن لم تهتم بأن تعرف رأينا فى ظاهرة مثل التطرف بما يشعرنى ـ أحيانا ـ بعدم جدوى الكتابة مع وجود رغبة ـ مخلصة ـ عند كل أصحاب الأقلام فى أن يساهموا فى مواجهة المشكلة.

٥ ـ وحتى حينما اكتب عن قضايا عدة مؤسسات مجتمعة مثل: (الثقافة ـ فى عهد مبارك)، لا أجد مؤسسة واحدة تستجيب ـ ولو بطريق الخطأ ـ من ضمن هذه المؤسسات لتناقشنى.

ثلاثة تيارات:

*** أستاذ رجاء: على الرغم من خطورة ما طرحته فإنك تكلمت فقط من زاوية (مسئولية السلطة الحاكمة)، وأرى أن ما آل إليه الأمر (على المستوى الاجتماعى أو الاقتصادى أو السياسى فى مصر قد قلل كثيراً من فرص هذه السلطة، أو من فرص هذه الدولة فى أن تكون كلمتها هى الأعلى أو الأوضح فى مجالات كثيرة، وبالتالى فإن الجهد المطلوب لمواجهة أية ظاهرة من الظواهر أو أية قضية من القضايا هو جهد من طرفين: السلطة الحاكمة، والجمهور أيا كانت التعبيرات السياسية والتنظيمية عنه، ولما كان التعدد الحزبى هو النظام الذى ساد فى مصر منذ منتصف السبعينات - تقريبا - فإننى اندهش كثيرا حينما لا أرى حزباً واحداً قادراً على أن يسهم فى قضية ما من هذه القضايا الثقافية والفكرية القومية التى تطرحها أى نوع من الإسهام، بل ولم أر مبادرة واحدة فى هذه المجالات، ولقد كلمتنى عن الحزب الوطنى وغياب قدرته على أن يفعل.. ويفعل.. ويفعل، فماذا عن الأحزاب الأخرى، وبالذات ماذا عن حزب التجمع الذى يقول الكثيرون: إنه يضم صفوة ثقافية وفكرية ممتازة أو هكذا كانت سمعته؟**

** أنا أرى أن ديمقراطيتنا الآن ناقصة لأن الأحزاب القائمة لا تمثل

كل الآراء أو القوى السياسية الحقيقية فى مصر، حزب التجمع يضم تيارات ثلاثة رئيسية، وهى الماركسيون والناصريون وبعض القوميين، وأية دراسة صادقة وأمينة لهذا الحزب تكشف أن هذه التيارات لم تمتزج بعضها مع بعض حتى الآن بالصورة المطلوبة، ومن دون الخوض فى تفاصيل تستطيع أن ترى أن الموجود فى حزب التجمع هو ثلاثة أحزاب وليس حزبا واحدا، وبين هذه الأحزاب صراع خفى، وصراع علنى، وأحيانا تحدث انفجارات داخل الحزب بسبب هذه الخلافات.

*** ما أطرحه - فى هذا السياق - هو أن يتوصل مفكرو التجمع وبعضهم من عيار ثقيل إلى شكل من برنامج (الحد الأقصى - الحد الأدنى) يمثل لونا من الوحدة بين التيارات الفكرية تجاه قضايا بعينها؟**

** لا يمكن أن يحدث هذا فالحزب ليس مجموعة أشياء، ولكنه مجموعة أفكار تظهر فى النهاية واضحة للناس بحيث يعرف الإنسان ما إذا كان يستطيع الانتماء إليه أم لا؟

وحزب مثل التجمع هو ـ كما قلت ـ مجموعة أحزاب، وأى إنسان يقترب منه سيشعر أن مجموعة هناك ومجموعة هناك بما يشتت جهده بصورة واضحه، وبالمناسبة فإن ما ينطبق على حزب التجمع ينطبق أيضا على حزب العمل وعلى حزب الوفد وكذلك على الحزب الوطنى، فلو نظرت لحزب العمل ـ على سبيل المثال ـ ستجده يتكون من مجموعتين هما (مجموعة مصر الفتاة القديمة) و(مجموعة الإخوان المسلمين) وأنا أعتقد أنه من المستحيل أن يوجد شيء يجمع هاتين المجموعتين، هذه محاولة لإيجاد كيان غير طبيعى، وإذا نظرت لحزب الوفد ستجد أن بعضاً من أعضائه موجودون فيه لأنهم لا يريدون أن ينضموا للتجمع أو العمل، وبالتالى فأنا أعتبر أن وجودهم فى الوفد هو وجود مؤقت، ثم لابد أن يتساءل المرء أمام

شكل حزب الوفد الحالى: ما هى العلاقة بين الوفد الجديد والوفد القديم؟ إن هذه العلاقة تخفت جداً وتضعف إلى حد بعيد، وإضافة إلى ذلك فإن أى مراقب لا يستطيع أن يعرف ما هى القضية الأساسية، أو المشروع الأساسى الذى يدافع عنه الوفد باستثناء موضوع الديمقراطية، وعندما نقارن بين حزب الوفد الجديد وحزب الوفد القديم سنجد فوارق كبيرة: الحزب القديم كان عنده قضايا أساسية وهى الجلاء و(العدالة الاجتماعية) ووحدة وادى النيل و«الديمقراطية السياسية» أما اليوم فأهداف الحزب غير واضحة إلا فى مجال الدعوة إلى الديمقراطية، إذن الأحزاب الموجودة ليست هى القوى السياسية الحقيقية، وأتمنى أن يتاح للقوى السياسية الحقيقية أن تعبر عن نفسها بوضوح وأن يسمح لها بذلك التعبير من اخوان مسلمين إلى شيوعيين إلى ناصريين إلى اتجاه وسيط واطاره هو الحزب الوطنى وحزب الوفد ـ كما يقول نجيب محفوظ كثيرا، وهو على صواب لأنهما حزبان متقاربان جدا، ولا معنى لوجودهما منفصلين، فالخلافات الموجودة هى خلافات فى الأشخاص وليست خلافات فى البرامج وأعتقد أنه يمكن أن يتكون منهما حزب أساسى كبير .

وهكذا فليس من الممكن أن نقيم ديمقراطية مثالية وحقيقية ومنتجة ومؤثرة فى البلد ونحن نتحرك وفقا لافتراضات نظرية، فنحن نفرض أن اليسار يذهب للتجمع ثم نفرض أن اليمين سيذهب للأحرار، هذه كلها افتراضات تذكرنى بقصيدة مسرحية لسميح القاسم اسمها (قراقاش) وهو شخصية غريبة تحكم بلدا ما ويأتى بشخص ـ أحيانا ـ ليقول له: «عيَّنَّاك وزيرا للحزن.. فاحزن باسم الشعب» فحتى الحزن أصبح له وزير، ولا يمكن لأحد أن يحزن إلا بأمر الوزير وتصبح المشاعر ـ أيضا ـ محكومة بافتراضات نظرية، وهذا وضع مستحيل، ومن هنا فإن الخطوة التى أتمناها ليست أن نقيم ديمقراطية على أساس فروض ورموز كالمعادلات الكيميائية، ولكنها إقامة ديمقراطية حقيقية

بحيث تتجمع كل القوى المتشابهة فى التنظيم السياسى الممثل لها حقا وصدقا وبحيث تتضح الصورة تماما.

أنا ـ مثلا ـ لا أنتمى لحزب فى مصر، ولا أستطيع أن انتمى لحزب من الأحزاب الموجودة، بل لعلى أتساءل: لماذا يبقى ٩٠٪ من المصريين غير منضمين لأحزاب؟

والإجابة هى: لأن هذه الصورة الحزبية القائمة غير طبيعية وغامضة!

*** أعود لفرضيتى التى بدأت بها السؤال السابق فأتساءل عن مقولتك التى ذكرت فيها أن السلطة التنفيذية الحاكمة ـ الآن ـ لا تخاطب كاتبا أو مثقفا أو تسأله عما يكتب أو تأخذ بما كتب، والواقع أننى ومن خلال حوارات مع الكثير من الرموز الثقافية والفكرية لحزب مثل التجمع وجدت أن لهم المشكلة نفسها مع حزبهم، فهذه القضية إذن لا تتعلق ببنيان أو أسلوب السلطة الحاكمة، ولكنها ـ فيما يبدو ـ تتعلق ببنيان وأسلوب كل الهياكل والتنظيمات والمؤسسات الحزبية الأخرى؟**

** مع احترامى الكامل للتجمع فهو ليس حزبا بالمعنى العلمى الدقيق هو فقط مجموعات من الناس موجودة داخل هذا الإطار السياسى القائم والممكن، ولكنهم يظلون فى النهاية مجموعات من الناس منغلقة على نفسها، فالماركسيون يتعاونون مع بعضهم فقط، والناصريون يتعاونون مع بعضهم فقط، والقوميون يتعاونون مع بعضهم فقط.

*** ألم يفلحوا عبر ١١ سنة مضت من عمر التجربة الحزبية فى أن يخلقوا ما أسميه (برنامج الحد الأقصى ـ الحد الأدنى) ؟**

** عندهم برنامج وبرنامج جيدا جداً، ولكن البرنامج لا يكفى لأن الحركة فى الحزب هى التى تحكم كل شىء، ومازلت أقول إن القائم من

أحزابنا لا يكفل شكلا للحركة تلتف حوله الجماهير، الموجود فقط هو رموز، والرموز لا تكفى، فالسياسة والديمقراطية والأحزاب لابد أن تكون حركة حية واضحة المعالم تجذب وتنفى، بمعنى تجميع الأشياء المتشابهة وتنافر الأشياء المختلفة، إذن فالحياة الحزبية عندنا ترمز إلى أشياء ليست موجودة فى الواقع بصورة دقيقة، وهى فرضيات نظرية لا تصمد أمام عناصر هذا الواقع.

*** هذه الافتراضات النظرية التى تقول: إن الأحزاب المصرية قامت على أساسها والتى على أساسها أيضا حدث وضع الانفضاض الجماهيرى عنها تجعلنا نشير إلى أن المساحات الخالية التى خلفها هذا الوضع جعلت ظاهرة التطرف تتقدم فيها بكل أشكالها السياسية والفكرية ومؤسساتها الاقتصادية ودور نشرها، وأيضا ارتباطاتها بالخارج سواء إقليمية أو دولية، هل تتصور أن هذه الظاهرة كانت وليدة تراكم فكرى من النوع الذى تحدثت عنه فى الحلقة الماضية؟**

** هذه الظاهرة بدأت بتعمد من الدولة فى عصر السادات، لأن السادات كانت لديه نظرية مؤداها تشجيع الجماعات الدينية لضرب اليسار والناصرية.

ولكنهم - كما نعلم - استقلوا بعد ذلك بل اغتالوا السادات نفسه، وبالطبع هناك قوى خارجية يهمها إدخال هذا النوع من التمزق الداخلى إلى مجتمعنا لإضعاف مصر، ولكن المسئولية الكبرى والخطيرة هى غياب المشروع الذى يمكن أن يجمع حوله غالبية الشعب أو القوى الفعالة فيه، والذى يمكن أن يرد على هؤلاء الناس، وأرى اليوم على الساحة أن أى متطرف من هؤلاء يستطيع إقناع المواطن العادى بما لا يقنعه به أى إنسان آخر.. لماذا؟ لأن عند هذا المتطرف ما يقوله له، بل وعنده حلول - ولو كانت مفتعلة - للأزمات الشخصية لمن يوجه حديثه إليهم، فيساعد بعضهم على أن يجدوا

عملا أو يقدم لهم معونات مالية.. إلخ، وفوق هذا فإن المتطرف يحقق لمحدثه انسجاما نفسيا وذهنيا داخليا بفكرة أن عزاءه سيكون فى الآخرة، وأن كل ما يقوم به المرء فى الدنيا هو كفاح ونضال من أجل قيمة عليا، وبالطبع فإن هذا منطق قوى جدا ومتماسك جدا، ويمكن أن يقنع، فما هو المنطق المقابل أو الفكر الذى يمكن أن يرد على هذا المنطق ويعطى نماذج عملية تثبت للناس أن هناك طريقا آخر يجمع بين الدين والدنيا ويحقق المعنى الكريم للإسلام الصحيح؟

هناك فراغ فكرى لا مفر أمامه من ظهور التطرف، وهذا الفراغ الفكرى الضخم الموجود فى مصر لم يعالج، ويبدو أن أحدا لا يريد أن يعالجه بالصورة الصحيحة ـ فى تقديرى ـ حتى الآن.

*** فى تصورك ما هى ملامح المشروع العام الذى يمكن أن تواجه به الطليعة المصرية ظاهرة التطرف؟**

** المشروع الذى يمكن للطليعة المصرية أن تواجه به التطرف هو الديمقراطية الحقيقية لأن هذه الديمقراطية ستخلق تفاعلات ومؤسسات للتيارات الفكرية المختلفة وتنمى الحركة الفكرية المتصلة لهذه الاتجاهات.

ففكرة مثل العدالة الاجتماعية المستمدة من الفكر الاشتراكى سيكون لها ـ حينئذ ـ تنظيم، وليكن تنظيما ناصريا، وهذا التنظيم سيحمى مفكريه، وينشط الحركة الفكرية، ويصدر كتبا ويتصل بالناس، ويقيم محاضرات وندوات ومؤتمرات جماهيرية وما إلى ذلك، يعنى سيخلق تيارا فى البلد كله يؤثر فى الجمهور ويواجه التيارات الأخرى المضادة التى سوف تستطيع أن تعبر عن نفسها أيضا، والمفكر هو شخص لديه استعداد وقدرات ينميها وتسانده فى هذا المؤسسات الحزبية أو غيرها حتى يصل إلى الجمهور، وهذا هو المطلوب الذى لم يتحقق بالصورة الكاملة حتى الآن، قبل الثورة كنا نجد مفكرا مثل

الدكتور محمد مندور لديه جريدة يومية كاملة يصدرها له حزب الوفد مثل (صوت الأمة) أو (الوفد المصرى) وكان يكتب فيها مقالا يوميا يعالج فيه كل المشاكل، وينتقد فيه كل الأوضاع، وبهذا وصل مندور إلى أعماق الشعب المصرى وأثر فيه.. لماذا؟

لأن هناك مؤسسة خلقت له منبرا وأعطت له المساحة التى يعبر عن نفسه فيها، وفوق هذا فقد كان مندور رجلا مستعدا لهذا الدور وله قدرات تؤهله لأدائه.

وفى عصر الثورة كان محمد حسنين هيكل مؤثرا جدا لكفاءاته وقدراته الهائلة واقتناعه الكامل بما كان يجرى أيام الثورة، ثم فوق هذا كان لديه منبر يصل إلى الناس ويؤثر فيهم، وكان مقال هيكل الأسبوعى (بصراحة) ينشر فى الأهرام، ثم يذاع فى الإذاعة حتى يسمعه من لم يقرأه ولو خارج البلاد.

أما اليوم فالمفكر يجلس فى بيته لا يعرف ماذا يفعل، ولا يجد مؤسسات تساعده وغير قادر على الانتماء للأحزاب القائمة لأنه غير مقتنع أن هذه الأحزاب ذات ملامح واضحة تطابق تفكيره أو حتى تشابهه. أعود فأجمل كلامى فى أننا إذا بحثنا عن دور المفكرين فينبغى أن نتكلم عن حركة، وإذا تكلمنا عن حركة فكرية فإن ذلك لا يتم - فى أفضل صورة - إلا فى ظل ديمقراطية كاملة بكل تبعاتها وكل مسئولياتها بحيث تكون هى أساس أى مشروع قومى يتبناه المصريون، وهذا ما اعتقد صادقا أن الرئيس مبارك يؤمن به ويعمل من أجله وأعتقد أنه لو كان لدينا تجربة ديمقراطية حقيقية فسوف تظهر عندنا حركة سياسية يقوم العمل فيها على ثلاثة محاور أساسية هى: (الحرية السياسية، والعدالة الاجتماعية، والفكر الوحدوى العربى) وسوف يكون هذا التيار قويا جدا ومؤثرا وقادرا على أن يخلق المشروع الذى نتكلم عنه.

مصر لا تصلح - إطلاقا - لفكرة الانفتاح الاستهلاكى الرأسمالى بصورتها القائمة الآن، فالانتفاح الرأسمالى لكى ينجح فى بلد ما لابد أن يكون لدى هذا البلد القدرة على خلق أسواق له ويكون لديه قدرة على أن يحصل على موارد للمواد الخام ولهذا ارتبطت الرأسمالية بالاستعمار دائما، إذن كيف سنطبق هذا فى مصر؟ ولذلك أنا أتصور أن الانفتاح الرأسمالى القائم الآن ليس أمامه فرصة لأن يقوم ويزدهر إلا كرأسمالية هزيلة تابعة غير منتجة وغير قائمة على الأسس الرأسمالية الصحيحة.

*** وهل يمكن أن يكون فى الفكر القومى الوحدوى مخرج للرأسمالية المصرية - إذا قدر لها أن تقوم - بحيث تجد من خلال علاقات قومية حقيقية مصادر للمواد الخام وأسواقا هائلة على أرض العالم العربى؟**

** الرأسمالية الوطنية المصرية وجدت لونا من الازدهار الحقيقى، وقد يبدو هذا غريبا، ولكنه صحيح أيام عبد الناصر، فسياسة عبد الناصر كانت تنظر للوطن العربى كوحدة، وكان لديها بعد افريقى وبعد إسلامى، وبالتالى فقد كانت هناك أسواق متعاطفة معنا فعلا، وقد زرت العراق - مثلا - عام ١٩٦٣ فوجدت السيارة الأولى هى (نصر) المصرية والأتوبيسات والثلاجات والغسالات والتليفزيونات والشيء نفسه كان فى افريقيا.

فالفكر الوحدوى ليس فكرا نظريا ورومانسيا، ولكنه فكر قائم على فهم عادل وسليم وواقعى للمصلحة، وهو الحل للمنطقة كلها إذا ما خلصت النوايا بحيث يتم توسيع نطاق السوق العربية، وينشأ كيان شبيه بالسوق الأوروبية المشتركة بحيث يستطيع من لديه مال أن يستثمره بما يعود عليه بأفضل النتائج، ويستطيع الذى لديه إنتاج أن يجد سوقا ليبيعه، ولكن للأسف فإن هذا كله مرهون بقدرة الرأسمالية المصرية وطبيعتها، والرأسمالية المصرية

اليوم هى رأسمالية خطف وصفقات سريعة ووكالات للشركات الكبرى، وهذا لا يصلح أساسا لفكرة وحدوية فى مجال الاقتصاد، أبدا لا يصلح!!

عشر نقاط:

*** ربما ستكون نهاية الحوار معك أيضا فى نقطة الأدب والثقافة، كيف أثر هذا المشهد الهائل والدائرة أحداثه على أرض الوطن منذ ١٥ عاما فيما أبدع المبدعون فى مصر؟**

** لسوء الحظ أن ما سمى بالانفتاح الاقتصادى ارتبط بانغلاق ثقافى: فالحركة الثقافية المصرية على قدر هائل من عدم الدراية بما يجرى فى ساحات الفكر والثقافة العالمية، والحركة الثقافية أو (الازدهار الثقافى) تقوم - أصلا - على تواصل مع الثقافات المتقدمة، وقد كانت النهضة الثقافية فى مصر - خصوصا وفى العالم العربى عموما - تعتمد على فترات ازدهار عظيمة للترجمة والمعرفة بما يجرى فى الخارج، ولكننا الآن فى أسوأ فترات المعرفة بما يجرى فى العالم.

الحركة الأدبية والثقافية بشكل عام مضطربة من عدة جوانب: فالعلاقة بين الأديب والجمهور متأثرة جدا بالواقع الاقتصادى حيث إن الإنسان المصرى عموما الآن يضع القراءة والثقافة فى الدرجة العاشرة من اهتماماته لأن اهتمامه الأصلى هو الجرى وراء الرزق ومعالجة مشكلته الاقتصادية المعقدة، وبالتالى فإن هناك حالة اضطراب شديدة عند المثقف أو الكاتب أو الأديب فى المجتمع ويمكن إجمال ملامح هذه الحالة فى عشر نقاط.

١ - أجهزة الثقافة والأجهزة الرسمية بشكل عام لا تعنى بالأدب ولا بالفن إلا فى الحد الأدنى، وكانت قصة حصول نجيب محفوظ على جائزة نوبل قد جعلتهم يشعرون فجأة أن الأديب هذا يمكن أن يكون رجلا مهما

وجيدا، ويمكن أن يفيد البلد ويرفع رأسها، وفيما خلا هذه القصة فإن أحدا من الكتاب ليس له أهمية أو قيمة لدى هذه الأجهزة!!

٢ ـ الأدب ليس مصدراً للرزق إطلاقا إلا فى حالة واحدة وهى أن يتم تقديم هذا الأدب فى السينما أو التليفزيون وليس كل الأدب صالحا لذلك.

٣ ـ حركة الترجمة المدروسة الجيدة غير موجودة بالمرة.

٤ ـ بالرغم من هذا فهناك مواهب ظهرت وحركة أدبية كبيرة فمهما كانت الأزمة لا نستطيع أن ننكر أننا شعب فيه مواهب كثيرة جداً والتعليم أيضا تزداد قاعدته، وبالتالى تتسع قاعدتى الإبداع والتلقى، ولكن هذا الأدب الجديد يسوده قدر كبير من التشاؤم والحزب والاكتئاب والإحساس الشديد بالغربة، وهو أدب يعانى ـ أيضاً ـ من الانقطاع بينة وبين الجمهور خصوصاً بعد أن فرضت الطبقة القادرة ثقافتها القائمة على التسلية والترفيه كما ذكرنا فى بداية الحوار.

٥ ـ اختفاء حركة نقد واعية خصوصا وأن مجال هذه الحركة الطبيعى هو الصحف، ولأن الفكر الصحفى السائد ـ فى معظمه ـ هو فكر الصحافة الخفيفة فقد أصبح النقد الأدبى فى قاع سلم الأولويات، وحينما تقدمت بمشروع لوزارة الثقافة لإصدار «جورنال الثقافة» فإن المشروع توقف فى الطريق بعقبات كثيرة جداً، وحتى إذا سمحت الصحافة الموجودة بتشغيل ناقد حقيقى فإنها تشغله مجانا أو تشغله بمنطق الهواية، وبالطبع فإن هذه الظواهر لها جذور فى أزمة المجتمع نفسه وأزمة الاقتصادى وأزمة الفكر الانفتاحى السائد.

٦ ـ وهناك مجلات ثقافية بالفعل، ولكنها مجلات ميتة لا يقرؤها أحد لأن الذين يملكون القدرة على صناعة المجلة الثقافية الشعبية غير مسموح لهم أن يعملوا داخل المؤسسات القائمة ولا خارجها.

فلو جئت اليوم وقلت أريد أن أصدر مجلة ثقافية لحسابي الخاص كما كان الزيات وأحمد أمين يفعلان قبل الثورة، فلابد أن أمر بإجراءات طويلة ومستحيلة تقضى على العمل قبل أن يظهر أو تقضى عليه بعد أن يظهر بقليل وتفقده الحرية وقوة الحركة.

وبالطبع فمثل هذه المشروعات تحتاج إلى قدرة من المساعدة ـ حتى بفرض الحصول على الرخصة ونجاح الإصدار ـ مثل أن تقوم الوزارات بإعطاء إعلانات، وبالطبع فى بلدنا لا أحد ينشر إعلانا فى مجلة ثقافية.

٧ ـ هناك مقولة تتردد فى أوساط الأدباء والمثقفين تقول إن الأساتذة الكبار يسدون الطريق فى وجه الأجيال الجديدة، وهذه الظاهرة ـ إن وجدت ـ تستطيع إرجاعها إلى سيادة فكرة المنافسة التدميرية، وليست المنافسة السليمة والشريفة، وهى ترجع لضيق المجال فإذا كان لدى أى كاتب صفحة يكتبها فى جريدة فكيف سيسمح لغيره أن يأخذ منه هذا المكان أو ينشر إنتاجه فيه؟ المكان أصبح ضيقا، والفرصة أصبحت نصف فرصة بل أقل بكثير، نحن شعب من ٥٠ مليونا، وكان لدينا أربع أو خمس جرائد يومية وعشرات المجلات الأسبوعية حين كان عددنا لا يتجاوز ١٨ مليونا، وقبل الثورة أيضا كانت نسبة الأمية ٩٠٪ أما اليوم فأصبحت ٥٠٪ بمعنى أن لدينا اليوم ٢٥ مليون إنسان قادر على القراءة، أى هناك اتساع لقاعدة القراء، ومع كل هذه العناصر قل عدد المطبوعات الصحفية اليومية والأسبوعية، ولم يعد المجال فسيحا لإصدار صحف ثقافية كما أن الصحف السياسية نفسها التى كانت تهتم بالمادة الثقافية فى الماضى غابت الآن عن الساحة، ولم تعد الصحف السياسية الموجودة ـ حتى ـ تقلد مثيلاتها القديمة.

جريدة (البلاغ) الوفدية فى الثلاثينات كانت تصدر مجلة ثقافية كاملة، وجريدة (السياسة) التى أصدرها الأحرار الدستوريون كانت تصدر (السياسة

الأسبوعية) وهى مجلة ثقافية هذا بالإضافة إلى المجلات الثقافية المستقلة مثل (الرسالة) و (الثقافة) وغيرها.

ومن هنا كانت كل موهبة جديدة تجد طريقها إلى الظهور واللمعان فى هذه الساحات، وكان كل عمل أدبى يظهر يكتب عنه بوضوح وحماس، فطه حسين ـ مثلا ـ كان له كتاب اسمه (حديث الأربعاء) يتكلم فيه عن الشعر العربى من العصر الجاهلى إلى العصور الحديثة، وقد نشرت كل موضوعات هذا الكتاب فى الصحف اليومية، فكان يكتب مثلا مقالا عن امرئ القيس ينشر فى صفحة كاملة من جريدة السياسة، تصوروا يكتب مقالا عن معلقة امرئ القيس على صفحة كاملة من جورنال يومى، وبالطريقة نفسها كان الجورنال يقدم كاتبا جديدا فى ذلك الوقت مثل توفيق الحكيم، ماذا سيكون الحال اليوم إذا كتب كاتب ـ كبر أو صغر ـ مقالا عن امرئ القيس وأراد أن ينشره فى جريدة؟ أنا أعتقد أن الجريدة لن تسمح له بدخول مبناها مرة أخرى، وسيصبح الرجل نكتة، وهذا فهم مغلوط وردىء لأن الناس كانت بالفعل تقرأ ما يكتب حتى عن المعلقات الجاهلية، ولم يكن هناك من يشيح بوجهه قائلا: هذا المقال ثقيل على الناس!

أجهزة الإعلام هى التى يجب أن تشكل رغبات الجمهور، ولو عودنا الجمهور على قراءة ما هو جدى وعميق فسيقبل الناس عليه كما كانوا يقبلون فى الماضى.

إذن فأزمة النقد أزمة المنافسة هى جزء من المجتمع الانفتاحى الذى يرى أن الثقافة هى ناد ليلى مسل ظريف أو كتاب مثير، وهذا لا يصنع أبدا حركة ثقافية.

٨ ـ المجلات الثقافية التى تصدرها وزارة الثقافة لا يقرؤها أحد، لأن الشروط الفنية غير متوافرة فيها، وقد يكون القائمون عليها من العناصر المحترمة

والمثقفة، ولكنهم دائما يقومون بعملهم فيها بجوار شغلهم الأساسى فى الجامعة أو غيرها من المؤسسات، وغياب التفرغ والمعايشة هو أمر لا يصلح فى خلق منابر الثقافة المؤثرة.

٩ ـ ما هى القوة المؤثرة الآن على الحركة الثقافية؟

ببساطة هى قوة دعاة الانفتاح، فمثلا قادة شركات توظيف الأموال كان لهم تأثير رهيب فى الصحافة، كما دخل بعضهم مجال النشر وأنشأوا دورا للنشر، وبعضهم أيضا يمول المسارح، هذا كله فى إطار عملية سحق لأى نتوء فكرى أو ثقافى يمكن أن يعارض أفكارهم ودورهم، إذن فهذه هى القوى المؤثرة، أما الباقى فعلى الهامش أو على الرصيف، ومن هذا الموقع لايمكن لإنسان أن يؤثر فى مجرى الحركة الثقافية الرئيسية مهما كانت قوته.

ويحضرنى فى هذا السياق حكمة لأحد المفكرين الغربيين يقول فيها: عندما نكون عشرة وفينا من يحمل مسدسا فإن حامل السلاح يصبح هو الأغلبية، ويصبح التسعة الآخرون هم الأقلية، وهذا الكلام تستطيع أن تقوله بلغة أخرى عن مجتمع يجعل الذين يملكون المال ـ على قلتهم ـ فى مواقف الأغلبية.

١٠ ـ ونتيجة لكل ما سبق فقد سادت مكارثية غريبة فى ساحات الفكر المصرى وأصبحت الطبقة الجديدة تصف أى تفكير جدى وعميق بأنه (شيوعى)، وقد سمعتها من أحد رجال المال حين كنت أتكلم عن د. زكى نجيب محمود وهو مفكر غربى الاتجاه بوضوح، وهو يعلن ذلك عن نفسه، ومع ذلك فقد قال رجل المال الذى كان بصدد إنشاء دار نشر إن زكى نجيب محمود شيوعى، فهدف الحرب التى تدور رحاها اليوم هو المفكر فى ذاته، فليس مطلوبا عند أباطرة الطبقة الثرية الجديدة أن يكون العقل المصرى أو العربى فى حالة مناقشة وحوار وسؤال واستفسار وتقليب للأمور على هذا

الوجه أو ذاك، وإنما أصبح المطلوب هو العقل الذى يتلقى ويستجيب ويطيع، فقوى المال التى دخلت حياتنا بطريقة نكتشف كل يوم أنها غير سليمة هى قوى عمياء، ولا تريد إلا الطاعة، ولا تؤدى بنا إطلاقا إلى أية حرية أو تقدم فكرى أو ثقافى.

إذن فالأزمة الثقافية الموجودة الآن ليست فى عدد الموهوبين ولا فى درجة ومستوى المواهب الموجودة، فهناك موهوبون كثيرون قادرون على الإبداع، ولكن الأرض الخصبة ما لم تزرعها وتعد زراعتها ثم تعد زراعتها فإنها لا تعطى، وهذه المواهب إذا اصطدمت بمشاكل اقتصادية ومشاكل نشر ومشاكل عزلة عن القراء فإنها تذبل وتموت وتنزوى ويجب أن نعرف أنه ليس كل المبدعين نجيب محفوظ.

فنجيب محفوظ شق طريقه فى الصخر وصبر واستمر ببطولة شديدة جدا، وأمضى سنوات عمره يعانى، ولم يكتب عنه أحد لمدة عشرين سنة وهو ينتج رواية بعد رواية، وهذه بطولة دون مراء، وياليت الموهوبين الموجودين الآن يشتغلون بهذا المنطق (النفس الطويل وعدم انتظار النتائج السريعة، بل وعدم انتظار النتائج إطلاقا).

وأنا أعتقد أن فيهم من سيفعل هذا، وهذا النوع هو الذى سيستمر ويعيش، أما ظروف الحركة الثقافية والمجتمع ككل فهى بالغة العسر والصعوبة والاستحالة.

مارس ١٩٨٩



على سالم

كوميديا السوق المصرية !

* أول المجرمين فى حق الدولة المصرية هو من ابتكر حكاية الأولوية لمن يدفع بالدولار لأنه بهذا يقول إن الأولوية فى هذا الوطن لمن يحمل علم وطن آخر!

* العملة الوطنية هى كبرياء الدولة، وقد تحول إلى ورق ملون وفضة وبرونز!

* المشكلة الاقتصادية فى مصر «أصلا» لغوية!

* الدولة لا يجب أن «تتمنى» ولكن «تأمر» ولديها القوة لتنفيذ أوامرها!

* يأخذون أموالنا ويدعمون بها صحف المعارضة لتشتمنا وتشتم تاريخنا!

* يجب أن يشعر أفراد المؤسسة الأمنية «ليس فقط باحترام» ولكن بالزهو أيضا لأنهم يحمون أمن الدولة وأمن الشعب وأمن الوطن!

* يجب أن يشعر أى مواطن أن الدولة بكل جيوشها على استعداد أن تقاتل دفاعا عن حقه إذا تعرض لظلم!

«برولوج»

** البرولوج : هو (مقدمة مسرحية تقدم قبل بداية العرض)

....

وقبل أن يدخل الكاتب المسرحى **على سالم** إلى ساحة هذا الحوار اختار «برولوج» من كلمات نابليون يجهز به الساحة لدخوله تجهيزا مناسبا، ويضفى إحساسا هو مزيج من الخطورة والغموض على كل شبر فى خشبة المسرح، ويستحضر الحاسة المسرحية عند القراء فضلا عن استحضاره الحاسة الجماهيرية فى نفسه!!

....

(البشر يعملون بدافعين هما: الرغبة.. أو ... الرهبة)

وخروجا على النص واتصالا به أضاف على سالم على كلمات نابليون.. (ضرورة احترام اللغة) و(ضرورة احترام الحياة) و(ضرورة احترام العقل).

وكانت ضرورات على سالم الثلاث هى الخيط الدرامى الذى يربط «فصول» هذا الحوار ويدور حولها وبسببها «الصراع» فى جنبات ساحة الاقتصاد.

....

وقبل أن يبدأ العرض نقر على سالم بسبابته على طرف فنجان القهوة ليحدث فى نفوسنا تأثيرا أشبه بطرقات المسرح التقليدية الثلاث قبل بداية أى عرض، وبدأ المؤلف المسرحى عرضه الذى ينتمى إلى «المونودراما» أو العرض الذى يؤديه ممثل وحيد، ولكنه مؤد نجح فى أن يملأ ساحة المسرح بالكلمة والفكر والحركة ربما أكثر من عشرين مؤديا.

....

الفصل الأول

(احترام اللغة) ! و(احترام العقل)

(خلفية المسرح وقد تناثرت عليها أوراق مالية ولوحات أشبه بالكروت التى يتداولها رجال الأعمال للتعارف، عليها كلمات : (رجل مال) و(رجل أعمال) و(رجل دولة) و(رجل اقتصاد). ثم نموذج ضخم لخطاب تعيين بالقوى العاملة.. وعلى يمين المسرح ويساره مجموعة من التماثيل لعامل وفلاح وفنان وقائد عسكرى.. ثم فى المنتصف قاعدة بلا تمثال مكتوب عليها «فى ذكرى بطل الاقتصاد القومى».. الإضاءة خافتة وموحية.. على سالم يتقدم من وسط صفوف الصالة مخاطبا الجمهور فى لهجة حماسية).

«فى علم الدراما هناك عنصر هام جدا، وهو عنصر (النبل) فى البطل الدرامى وهذا العنصر هو الذى يجعله عنيدا ومثابرا ومحبا لفكره، أو محبا للآخرين.

(مشيراً بيده إلى أعلى) وأضرب مثلا فى نبل البطل بأن «بروميثيوس» وجد أن الدنيا مظلمة، بينما الشمس مليئة بالنار المضيئة، وهنا قرر أن يقتطع جزءاً من هذه النيران ليضىء بها الأرض وقد هدده «زيوس» كبير الآلهة بأن لعنته ستحل عليه إذا تمادى فى تفكيره أو نقل هذا التفكير إلى حيز الفعل.

ولكن نبل «بروميثيوس» يدفعه إلى إضاءة الأرض مهما تعرض لغضب «زيوس».

وهذه بالضبط هى الرسالة الأسمى والطبيعية لكل العلوم بما فيها الاقتصاد..

(يتساءل بمرارة) ولكن هل يفهم اقتصاديونا هذا؟

(يمسك بيده طرف كارت.. رجل اقتصاد وتسلط عليه بقعة ضوء).

نحن نخلط دائما بين رجل الاقتصاد وموظف الحسابات.

ـ موظف الحسابات يجيد الطرح والضرب والقسمة والجمع وجداول اللوغاريتمات وحل المعادلات.

ـ رجل الاقتصاد هى صفة من صفات رجل الدولة.

(يمسك كروتا أخرى)

ثم إننا نخلط أيضا بين (رجل المال) و(رجل الأعمال).

ـ **رجال المال:** هم صنف من الناس يتمتعون بموهبة خاصة مثل الشعر أو الرسم، وهم يستطيعون الحصول على المال فى كل أنواع المناخات، وفى ظل كل أنواع القوانين.

ـ **ورجال الأعمال:** هم الذين يقومون «بعمل» حقيقى ومنتج.

لقد خلطنا بين جميع المسميات لدرجة أن الهزل بلغ بنا مبلغا هائلا حين تطلق جماعة من رجال المال على نفسها اسم (رجال الأعمال)، وهذا يقودنا بالضرورة إلى أن المشكلة الاقتصادية أصلا مشكلة لغوية، وهل قضية عدوان على اللغة وعدم احترام اللغة يعنى ـ بالضبط ـ عدم احترام الموارد.

حينما نحسب الاقتصاد بطريقة الاحصاءات والأرقام ونلعب بها كما نشاء فإن هذا لا يكون اقتصادا، لأن العنصر الدرامى الذى يعنى إضاءة الأرض لا يتوفر فيه.

لقد أقام البشر التماثيل لكل أنواع البشر والملائكة والشياطين والآلهة والفلاحين والعمال والجنود والشعراء ولكن لا أعتقد، أن هناك تمثالا مكتوبا

تحته «فلان رجل الاقتصاد الشهير» لأن رجل الاقتصاد الشهير هو رجل الدولة وقد تلقى علوما فى الحساب.. وهنا يكون التمثال لرجل الدولة وليس لرجل الاقتصاد.

الاقتصاديون في مصر تنطبق عليهم هذه الكلمة بمعناها العامى وليس بمعنى كونهم رجال دولة.

فنحن نقول عن ست البيت المدبرة أنها «مقتصدة» تستطيع تغطية نفسها واحتياجات بيتها.

(مشيراً للجمهور فى الصالة ومتحركا فى كل مكان)

وإلا فليفسر أحدكم لماذا يفشل من نسميهم برجال الاقتصاد فى رسم سياسات اقتصادية عظيمة للبلد، عندما يتولون مناصبا اقتصادية قيادية، بينما هم ينجحون جدا فى رعاية اقتصادهم الخاص أثناء مزاولتهم لعملهم؟!!

ومن الأفكار الشائعة ـ أيضا ـ نتيجة مشكلة اللغة.

إن الذى يستطيع الحصول على أموال كثيرة لنفسه أيضا أن يحصل عليها للدولة.

فيكتب بعض عباقرة الكتابة أن سامى على حسن يصلح كوزير للمالية.

(يصرخ) خطأ .. خطأ .. خطأ.

سامى على حسن هذا موهوب فى الحصول على المال، أى أنه مثل الصراف، وهو يستغل أمانته مع عملائه، ومثل هذه الشخصية من رجال المال يمكن أن تؤسس بنكا لو صادفت ظروف حرية اقتصادية وربما ساعتها ـ كان سامى سيوظف أمواله فى مشاريع وشركات مساهمة تخدم الاقتصاد الوطنى.. ربما .. ولكن حدوده تقف عند مربع (رجل المال).

أما حكاية وزير مالية ـ يا سادة ـ فهى تحتاج إلى (رجل دولة).

مشكلة (لغة) أخرى .. (يبعث بالأوراق المالية المختلفة فى خلفية المسرح)

أقول : ما هو البنكنوت؟!....

يقولون: الفلوس ـ الجنيهات ـ النقود.

ولكننى أقول إنكم جميعا تنسون أن العملة الوطنية هى كبرياء الدولة، وقد تحول إلى ورق ملون وفضة وبرونز ونحاس!

وأول المجرمين فى حق الدولة المصرية هو القائل : الأولوية لمن يدفع بالعملة الصعبة فى ثمن هذه السلعة أو تلك.

هو مجرم لأنه ـ بهذا ـ يقول : «إن الأولوية فى هذا الوطن لمن يحمل علم وطن آخر».

وهذه هى أول جرائم ما يسمى (بالكسل العقلى) لأننا بدلا من أن نبحث عن طرق مليئة بالكبرياء للحصول على العملة التى نريده انتزعنا علم الوطن من أيدى المواطن، وطلبنا منه أن يسير فى الشارع وهو يحمل علم دولة أخرى.

ولابد أن نتعلم جميعا أن العملة المصرية هى العلم المصرى!

....

وتعالوا نتأمل مشكلة أخرى من مشاكل اللغة.

لقد خلطنا بين (عقلية التجارة) و (عقلية القرصان)!

كمصريين يجب أن نعترف أنه ليس لدينا تراث تجارة قديم.

وحتى تجارة حتشبسوت مع بلاد بونت (الصومال) كانت قطاع عام.. قامت بها الدولة المصرية وليس الأفراد..

نحن بناؤن وفلاحون ومعلمون ولكن التجارة ليست من تراثنا.

وهنا حدث الخلط فى السنوات الأخيرة.

فقد أصبح معنى التجارة ـ عند البعض منا ـ هو المبالغ التى تستطيع الحصول عليها بأى شكل نتيجة تبادل السلع، وبحيث تصبح هذه المبالغ ملكا خالصا لك مهما كانت وسيلتك فى الحصول عليها.

ومؤكد أن هذا المفهوم العجيب ليس وليد تراث فى مزاولة التجارة بالمعنى الذى يعرفه العالم، ولكنه بقايا تراث (الحداقة المصرية) التى نشأت أصلا لتتحدى المستعمر.

ومرور ٣٠ سنة على خروج المستعمر ليست كافية لإشعار المصريين بأنه لا مستعمر هناك.

ساد معنى التجارة بمفهومه العجيب الحالى، لأننا مازلنا نشعر أننا ننقسم إلى قسمين:

- **شعب** : يمثلهم البسطاء العاديون.

- **مماليك** : يمثلهم طائفة من المؤمنين بالحظ، وبأن الله أعطاهم بغير حساب مع أن الذى أعطاهم قد يكون البنك، وقد تكون القرارات الاقتصادية الخاطئة.

وبعض الناس يتصور أن لديه فرصا للافلات من مربع (الشعب) والانضواء تحت مربع (المماليك) بخبطة تجارية تعتمد على تراث (الحداقة)، وعندما يصل هؤلاء إلى مربع المماليك يبدأون فى معاملة الشعب على أنهم مستعمرين جدد.

لأن ـ مرة أخرى ـ مرور ٣٠ سنة على زوال الحكم الأجنبى ليست كافية ليشعر الجميع أنهم مواطنون فى دولة هم شعبها وهم حاكموها.

لابد ـ إذن ـ أن يتسلل إلى قلب المواطن إحساس بأن الحكومة حكومته.. والأرض أرضه.. والفلوس فلوسه.. والحاضر حاضره .. والمستقبل مستقبله..

لابد أن يدرك الجميع أننا لم نعد دولة مستعمرة.. وأننا لم نعد دولة يسعى فيها أفراد من الشعب إلى الإفلات والصعود إلى طبقة المماليك الاقتصادية.

....

(يمسك قاموساً ضخماً بيده ويقلب صفحاته ثم يتوقف فجأة.. ويجلس على حافة خشبة المسرح موجها حديثه للجمهور) ...

هل تريدون المزيد من كوارث (اللغة) ..؟

نحن نقول (تحريك الأسعار) ولا نقول (رفع الأسعار).

إذا اتفق قاموس العالم على أن عملا ما يسمى «رفع» نسميه نحن «تحريكا» وقد نسميه «تحليشا» ذات يوم.

إذا لم نحترم اللغة ونستخدم الكلمات فيما اتفق عليه البشر فلا أمل.

بالطبع اللغة ليست لها قداسة إلهية، ولكن قداستها تأتى من (الاتفاق) كما العقود..

....

ثم انظروا إلى مشكلة (تعيين الخريجين).

فكروا فى لفظ (تعيين) وتأملوه..

التعيين يعنى (الجراية) فى الجيش..

إذن نحن ـ فى أعمق أعماقنا ـ نقصد (توزيع) التعيين على مجموعة من البشر، بينما ـ في ذات الوقت ـ تعينهم عن طريق مكتب اسمه (القوى العاملة)، ثم نشكو من أنهم لا يعملون!

كيف يقوم مكتب (القوى العاملة) بتعيين (قوى غير عاملة).

هذا تدهور فى اللغة .. وتدهور عقلى.

إذا قررنا الدفاع عن اللغة نكون فى حالة دفاع عن العقل.

وسألفت نظركم إلى قرار صحيح اتخذته مصر مؤخراً للدفاع عن اللغة فيما يتعلق (بسعر) الجنيه.

فقد أصبح سعر العملة فى البنك والشارع والكشك واحداً. وحينما نستخدم فى اللغة لفظ (سعر العملة) فنحن نقصد معنى واحداً.

هذا ليس تطبيقا لقاعدة اقتصادية ولكنه تطبيق لقاعدة من قواعد قانون العقل.

الالتزام الخلقى ليس قوياً داخل الإنسان لدرجة أن يفضل الذهاب للبنك على الكشك إن لم يكن فى ذلك مكسباً له.

فليست هناك قوة جبارة يمكنها ضبط هذه المسألة، وبفرض أن هناك قوة جبارة تملك هذا، فسوف تكلفك عملية إدارة هذه القوة أكثر مما سوف توفره من جراء عملها.

عندما قررنا قراراً يتفق مع قوانين العقل فوجئنا بأن لدينا أموالا كثيرة من السياحة مثلا...

(بحسرة) ولكن يبدو أن ذلك أغضب بعض الناس!!

(مخاطبا نفسه وهو يغلق القاموس)

العقل هو أن الشىء لا يمكن أن يكون، ولا يكون بنفس الكيفية وفى نفس الوقت.

....

عقلية القرصان ليست فقط عند هؤلاء الذين يمارسون التجارة بمفهومها العجيب فى مصر، ولكنها ـ أحيانا ـ تبدع بعض القوانين العجيبة.

حين تصدر قوانين خاصة بعودة المدرسين والموظفين فى الخارج، فننتظر حتى يقوموا بشحن سياراتهم وأمتعتهم، ثم نصدر القوانين والشحنة فى عرض البحر والبواخر تمخر بها عباب الماء، فإن هذه قوانين تفتقر إلى النبل وتطلع على مراكب الناس فى البحر أو تنتظرهم فى المطارات والطرق السريعة وتشهر فى وجوههم بنودها لتجردهم من كل ما يملكون.

الناس أصبحوا محشورين بين قرصنة بعض القوانين، وقرصنة بعض لصوص المال العام.

ولو أعملنا العقل واحترمنا اللغة لا يستطيع هؤلاء أو أولئك تهديدنا.

أنا من المؤمنين بأنه لا خوف على مصر فى المدى البعيد.

حتى النقود التى سرقها البعض وهربوا بها إلى الخارج سوف تنتقل إلى أجيال غير لصوص، فليس بالضرورة أن ينجب اللص لصوصا صغاراً إلى آخر أحفاده.

إنما هذه النقود اعتبرها مجمدة باسم مصر لحين إصدار قوانين تحترم اللغة وتحترم العقل فتعود حينئذ الأجيال النظيفة بثرواتها إلى مصر.

وليس معنى أن نصدر تصريحات بأن هناك (استقرارا) أن يكون هذا كافياً لظهور حالة الاستقرار، ولكن الأفعال هى التى تؤكد هذا، وتقنع الآخرين أن قوانين قرصنة مباغتة لن تخرج عليهم فجأة.

تصوروا أن هناك جهازا اسمه (الطمأنينة) يتم تركيبه فى البنوك والإدارات ومكاتب الوزراء.

هذا الجهاز يعنى ببساطة ـ عدالة الدولة، وعدالة الدولة لا تعنى أن تتسلح هذه الدولة بترسانة من القوانين، ولكنها تعنى أن تتسلح هذه الدولة بقواعد العقل.

لو أن هذا الجهاز موجود .. لماذا يضع المواطن المصرى أمواله فى بنوك كندا أو الكويت أو بهاما؟!!

(يمسك على سالم بجريدة يتصفحها ثم يشير إلى إعلان لشركة توظيف أموال ويصرخ).

وها هو المثال الأكبر على عدم احترام اللغة.

إن إطلاق الأوصاف الدينية على هذه الكيانات هو جريمة لغوية جديدة وكبرى.

تقولون ولكن الناس تضع أموالها فيه، وأقول نعم .. وسيضعون فيها أموالا أكثر طبقا لنظرية مصرية فحواها «احيينى اليوم وأمتنى غدا!!» وطبقا لعدم وجود بدائل.

فالمصرى بغريزته ـ يعلم أنهم مجموعة من لاعبى الثلاث ورقات، ولكنهم مدعوميون من قوى حقيقية سوف تضمن له ودائعه.

المصرى ليس عبيطا.

وبرغم حوادث النصب التى حدثت وبرغم الحالات التى تبحث عنها الشرطة أو القضاء فى إطار عمل هذه الشركات.

فسيظل المصرى يضع ودائعه فيها إلى أن يجد بديلا.

ثم إن هذه هى مساحة المغامرة عند المصرى.

يمكن أن تفلس هذه الشركات ويمكن أيضا ألا تفلس.

وعقلية (يمكن ويمكن) هى عقلية مغامرة.

وهذا أشبه بموقف فى تراث الكوميديا المصرية تمثله نكتة تقول إن اثنين من كبار القوم تاهوا فى الصحراء فأخذ أحدهم يخلع ملابسه حتى أصبح

كما ولدته أمه، فلما سأله الآخر، لما خلعت ملابسك؟ أجابه: لن يرانا أحد) فعاود سؤاله. ولماذا ترتدى طربوشك إذن؟ فأجابه من جديد: (ربما رآنا أحد) !!!

ثم لماذا نغضب من المواطن الذى ترك البنك وذهب إلى شركة توظيف الأموال، أليس هذا المواطن هو الذى خاطبناه من البداية قائلين: الأولوية فى شراء السلع هى للعملة الأجنبية، كأن هذا المواطن يشعر أن عملته الوطنية هى علم مصر الذى يمكن أن يحارب تحته، ويموت تحته، وفجأة قلنا له إن العلم ليس مهماً.

ومن ساعتها خلع المصرى من مؤسسات الدولة وبنوكها وتنظيماتها، ولم يعد يشعر بغربة أو غرابة أو خجل فى أن يذهب هو وأمواله إلى أى مكان أو أى إنسان !!

هذا عن مسئوليتنا فيما حدث، أما هذه الشركات فإن اقترانها بغطاء دينى هو أمر يعكس حالة من حالات التدهور العقلى، ولو كان ذلك قد حدث منذ ٢٠ سنة لضحك الناس عليهم.

هذا عدوان على الدين.

والله سوف يعاقب هؤلاء البشر بشكل مرعب لأنهم يستغلون الدين فى استغلال الآخرين.

فسروا لى .. لماذا لم نعد نقرأ فى الصحف الخبر الكلاسيكى الذى كنا نقرأه بين الفينة والأخرى فى الماضى عن القبض على دجال يدعى أنه يشفى الناس.

لم يعد هذا يحدث فى القرى، لأن الدجالين انتقلوا للمدن ومارسوا دجلهم فى إطار أعلى يبدو عملياً ويبدو علمياً.

يقولون ولكننا لا نظلم المودعين عندنا وإنما نعطيهم فائدة لا يستطيعون الحصول عليها من أى مكان آخر.

وأقول ولكنكم تظلمون غير المودعين أو الذين لا يملكون أموالا ليودعوها لأنكم تخربون اقتصاد بلدهم وبنوك بلدهم والمؤسسات المالية لبلدهم.

كل هذا ينال من هيبة الدولة.

ويقول رئيس الوزراء فى أحد تصريحاته: أتمنى أن يلتفت أصحاب هذه الشركات إلى المصلحة القومية الاقتصادية العليا.

الذى يتمنى هو على سالم حينما يجلس فى الكافتيريا ويتمنى أن تنجح له مسرحية أو تعطيه الثقافة الجماهيرية ما عليها من فلوس.

ولكن رئيس الوزراء لا يتمنى بل يأمر ولديه القوة لتنفيذ الأمر.

(يخاطب الجمهور بحماس)

الدولة لا تتمنى فهى أظهر حقائق التاريخ، وهى أعظم ما يصل إليه البشر.

فلا شيء يضمن الحرية أو العدل للبشر.. إلا الدولة.

ولا شيء يجعل الناس ينامون مطمئنين سوى الدولة.

ولأنها تستطيع ذلك كله فهى تحكم.

الدولة تأمر فتطاع ولذلك عندما تتعرض للخطر تستنفر ناسها للدفاع عنها فيطيعون الأمر.

وربما يعتقد البعض أنهم يحاربون دفاعا عن الأرض.

ولكنهم فى الحقيقة يدافعون عن بقائهم أحياء فى مكان يتسم بالعدل.

وبقوة الدولة يتحقق هذا العدل.

وبقوة الدولة تتحقق الحرية للجميع.

(ستار)

الفصل الثانى

احترام الحياة

(يضاء المسرح فتظهر فى جانبه الأيمن آلة طباعة ملطخة بالأصباغ تبرز منها صفحات جرائد لكل منها لون خاص.. أحمر.. أخضر.. اسود، وعلى يسار الخشبة تظهر بعض الموائد المتناثرة يجلس عليها بعض الأشخاص يبدو عليهم الثراء وهم يأكلون بنهم. بينما يظهر فى الخلفية ونش عملاق ترتكز عليه عدسة ضخمة من النوع الذى يستخدم فى التحقيقات .. يدخل على سالم ليقطع بعض الصفحات من آلة الطباعة ويبدأ فى تصفحها واحدة بعد الأخرى وتبدو عليه علامات الغضب الشديد).

ـ هناك ـ يا سادة ـ معزوفة ـ أساسية فى مصر الآن اسمها (تمجيد الآخرة) وكأن الحياة ليس لها وجود وكأن الأديان نزلت فقط من أجل الآخرة ـ وليس من أجل تماسك الحياة وجمالها وعدالتها.

وهذا يتفق ويتسق مع النفسية السادية والجاهلة.

(يبرز ورقة مما فى يده) اقرأوا تنبيه فهمى هويدى وهو يشير إلى أن هناك تسعة كتب طلعت علينا فجأة لتتكلم عن عذاب القبر، وترويع الناس من الآخرة.

اليوم أصبح عدم تمجيد الحياة سلوكاً دارجاً.

وأصبح قطاع عريض من الناس يفكر أنه لكى يصبح إنسانا طيبا فيجب أن ينسحب من الحياة.

لو أننى رجل اقتصاد أريد من الناس أن يعملوا فى المزرعة أو الصحراء فلابد قبل العمل أن أضعهم فى الحالة العقلية التى تجعلهم يعملون.

أما المناداة بتمجيد الآخرة فقط فذلك لا يؤدى إلى عمل، خاصة وأن المصريين نشأ عندهم بفعل هذا المناخ إحساس بألا ضرورة بهم لأن يعملوا خاصة وأنهم سيأكلون فى كل الحالات حتى لو اقترضوا فى نهاية العام من أمريكا أو ألمانيا أو أى مكان.

هى إذن قضية الحالة العقلية التى نضع فيها الناس، فلا أحد يمجد الحياة فلماذا يعملون؟!!

(يقلب فى الأوراق الملونة بيده)

نحن فى مرحلة غريبة تحولت فيها مهنة الكتابة إلى أن تشتم شيئا أو تشتم أحدا.

الزعماء والقادة العسكريين أصبحوا نهبا لاتهامات الصحف.. كلهم بلهاء وخونة.

وهذا كله نوع من أنواع التعاسة الشخصية الداخلية، الشديدة، وغياب العقل تؤدى فى النهاية لأن يكفر الناس بالديمقراطية.

الديمقراطية أكثر صرامة بكثير من الديكتاتورية.

فالفاشية مثلا هى أعظم فرص (الهزار) فى التاريخ الإنسانى، وتأملوا معى نموذج الدولة الأسطورة فى الرايخ الثالث أو الدولة الأسطورة فى إيران، أو بعض الأساطير فى المنطقة العربية.

سنجد أنه من الخطأ تماماً أن نعتمد على الأسطورة بشكل كامل، ومن الخطأ تماماً أن نتخلى عن الأسطورة بشكل كامل، ومن هنا جاءت الديمقراطية بصرامتها لتقيم هذا الميزان الدقيق.

الوطنية جزء من الأسطورة ولكنها عمليا ـ تؤدى لعظمة الدولة وعظمة الشعب، وتؤدى للكبرياء الوطنى النابع من الكبرياء الإنسانى.

وإثارة الإحساس الوطنى ليست مهمة رجل السياسة الذى قد يكذب وقد يخدع، ولكنها مهمة رجل الدولة الذى ليس من حقه هذه الأساليب.

ولكننا فجأة نحطم تاريخ كل رجال الدولة الذين علمونا الوطنية وخاضوا بنا معاركها فى مسيرة نبيلة وطويلة.

(يمزق الأوراق فى يده)

لا أعرف أى شيطان سول لصحف الأحزاب إلقاء الوحل على كل زعماء التاريخ المصرى؟

هذه مسألة مخيفة، ناشئة من تمجيد الآخرة والموت، فلا تنسوا أن (غريزة العدم) قوية فى الإنسان للغاية، ولا تنسوا أن الأصل فى الوجود هو العدم.

وإذا تحول الإنسان إلى طريق العدم، تنشط داخله غريزة قوية للغاية هى الإنسحاب من الحياة وتدمير الذات.

ومن الممكن أن توقظ هذه الغريزة فى شعب بأكمل بمثل هذه الممارسات، وقد حدث ذلك فى أوروبا حين أيقظ البعض غريزة تدمير الذات وتمجيد الموت فى هذه الشعوب.

والنتيجة الطبيعية هى انهيار الرغبة فى السعى أو العمل مادمنا سنموت، ومادام كل شيء سيتساوى بأى شيء!

....

(يتحرك إلى يسار المسرح حيث الأثرياء يأكلون بنفس النهم ولا يلتفتون إليه مطلقاً وأحدهم يصدر أصواتا نكرا من فرط اندماجه فى تناول الطعام

والآخر يحمل بيده قطعة كبيرة من اللحم ويضعها فى فم زميله).

وهؤلاء.. أقول عنهم.. ليس لدينا طبقة ثرية فى مصر، ولكن لدينا طبقة تملك أموالا فقط، وهى طبقة متوترة ومفزوعة ومفجوعة، وهذا يبدو جليا فى طريقتها فى الانفاق.

تماما كأى مجرم تتعرف عليه أجهزة الأمن ـ فقط ـ عندما شوهد وهو ينفق ببذخ فى شارع الهرم.

هذه طبقة لديها شعور حاد جداً بأن أحدا سيلقى القبض عليها فى لحظة.

وهو إحساس صادق لأنه نابع من الضمير الإنسانى الداخلى.

وقد يستطيع أبناء هذه الطبقة أن ينيموا ضميرهم الإنسانى، ولكنهم لا يستطيعون قتله، ولذا فهو يبرز داخلهم فى هذا الإحساس الطاغى بأن أحدا سيلقى القبض عليهم فجأة.

هذه الطبقة ليست ثرية.. هى تملك أموالا.. ولا تملك أن تظهرها. وهى لم تفعل شيئا فى تاريخ مصر، فلم تصنع فنا ولا سياسة ولا تاريخا.

كل تأثيرها انحصر فى إشعار الآخرين بالغبن والظلم.

الدولة مرة أخرى هى القادرة على التصدى لهؤلاء.

فالدولة لا يجب أن تنظر خلفها لترى ما إذا كان الشعب وراءها أو لا.. ولكن يجب أن تنظر أمامها.

وإذا سرق أحد هؤلاء مليون جنيه من الدولة وهرب فلتتصرف الدولة، وتأتى بهذا الذى هرب ولو كلفها الأمر أن تصرف مليونا ونصف على هذه العملية.

فالأمر هنا هو هيبة الدولة.

كوبلاند يقول إن المصرى لا يؤلمه الفساد المالى بقدر ما يؤلمه الفساد الأخلاقى.

يجب أن تقنع الدولة مواطنيها بأن الفساد المالى أفظع من الفساد الأخلاقى.

وهذا لا يكون بإنشاء محاكم جديدة للفساد المالى، ولكن بتخصيص دوائر خاصة وحاسمة وسريعة لجرائم المال ومن طريق العقاب الرادع يأتى الإحساس بأن الفساد المالى أفظع من الفساد الأخلاقى.

إذا لم يحدث هذا سيشعر الناس بعدم عدالة الدولة وبغياب هيبتها.

ويجب أن يشعر أى مواطن أن الدولة بكل جيوشها على استعداد أن تقاتل دفاعا عن حقه إذا تعرض لظلم.

(يتحرك إلى خلفية المسرح ويمسك بعدسة التحقيقات الضخمة، ويفحص بها الونش العملاق ثم يستكمل حديثه).

الحرب الكلاسيكية لم تعد موجودة والاستيلاء على المدن يتم الآن بشكل مختلف فيتم فى البداية الاستيلاء على رجال الاعلام، والتعليم والفن، ثم يبدأ بعد ذلك مسلسل ترويع الناس فى الشوارع.

حادث سرقة الونش العملاق هو حلقة من سلسلة تنتظم حوادث إرهاب عديدة.

فدائما يوجد عدو.

عدو طلع فى مخه بحكم هجير الصحراء أن يحكم مصر.

وعدو طلع فى مخه أن يصدر لنا نموذج دولته الدينى المتطرف.

وعدو طلع فى مخه أن السلام فرصته ليدمرنا من الداخل.

هذه الأنواع من (العدو) لا تقاتل جيشنا الآن.

ولكنها تحاول تصفية المؤسسة الأمنية بطرق غاية فى التركيب والحنكة.

وهذا ليس جديداً، فالدنيا تعرفه من أيام (يوليوس قيصر) فقد عمل أعداؤه على تهيئة العقول ضده بالسخرية.

هناك محاولة تصفية متعمدة للمؤسسة الأمنية المصرية تبدأ بالسخرية منها، وسرقة الونش العملاق عملية من عمليات العمل السرى والبصمة فيها واضحة جداً.

والذى سيسأل هل سرق الونش؟ ، أو كيف سرق الونش؟! لن يصل إلى شئ ولكن السؤال الهام هو لماذا سرق الونش؟!

هذه عملية تتسم بالاعلام الشديد، وتترتب عليها سخرية ونكات من كل لون.. وبعد الكاريكاتير والنكات يبدأ الفزع يعمل عمله.

وهذا الفزع لا أفصله عن بقية السيناريو.

فالفزع فى الشارع يترتب عليه أن تخرج النقود إلى الخارج، وأن يخاف الناس على نقودهم ويصفى البعض أعماله.

التوتر المصحوب بالفزع بالنسبة للإنسان يجعله أقرب إلى الانسحاب من العمل العام.

هم يريدون أن يشعر المواطن الذى سرقت حافظة نقوده بالخجل من أن يذهب ليبلغ رجال الأمن لأنه يعلم أنهم مشغولون بما هو أفدح.

وهم يريدون أن يشعر المواطن الذى يذهب للقسم ليبلغ عن سرقة حافظته أن الشرطة لن تعيدها إليه لأنها لم تفلح فى إعادة الونش.

هذا لون من ألوان العمل السرى هدفه ضرب الاقتصاد المصرى، فضرب

الاقتصاد يبدأ بأمرين لا ثالث لهما، أولهما هو ضرب المؤسسة الأمنية وثانيهما هو ضرب المؤسسة الإعلامية.

فإذا واصلنا الحديث عن المؤسسة الأمنية سأشير إلى أمر أثار أكبر مشاعر القلق عندى وهو خطاب لجنرال أمن مصرى كتب إلى أحد أبواب بريد القراء فى الصحافة يشكو من أنه عمل كمدير علاقات عامة فى أحد المؤسسات الاقتصادية الخاصة بعد خروجه على المعاش، ثم اكتشف أن صاحب الشركة عينه فقط لكى يسهل له بعض الأمور بحكم منصبه السابق.

كيف نسمح بأن تتعرض قياداتنا الأمنية لمثل هذه المواقف؟

يجب أن يشعر كل أفراد المؤسسة الأمنية، ليس فقط بالاحترام ـ ولكن بالزهو لأنهم يحمون أمن الدولة وأمن الشعب وأمن الوطن.

ولنقيم المزارع والمشروعات ولننشئ شركة كبرى اسمها (شرف البوليس) لتوظيف قياداتنا الأمنية بعد خروجها إلى المعاش إنما أن نتركهم ـ هكذا ـ فهذا أمر مرعب مرعب.

عندما نتكلم عن الكبرياء الذاتى.. هل يتصور أحد أن مصطفى كامل كقيادة سياسية قد قرر قبل أن يموت أن يترك السياسة ويعمل ـ مثلا مدير للعلاقات العامة بشركة الترام؟!!

هل يتصور أحد أن عرابى عاد من المنفى ليعمل فى بنك؟

هل يتصور أحد أن سعد زغلول قد قرر أن يحول بيت الأمة إلى شركة توظيف؟!

بالطبع لا يمكن تصور هذا.

إذن فكيف نتخيل وزراء وقادة (لأن الوزراء فى مصر قادة وليسوا مجرد

خبراء تكتيكيين كما فى أمريكا وأوروبا) يعملون كمديرى علاقات عامة وكمديرى بنوك.

وكمثل القيادة السياسية تكون القيادة الأمنية.. لا يمكن تحت أى بند أن نتصور تركها نهبا لمن يريدون استغلال مكانتها فى تسهيل أمورهم، وتسليك نشاطاتهم.

ثم نأتى للمؤسسة الإعلامية (وهى الهدف الثانى لمن يريد ضرب (الاقتصاد المصرى).

كيف يمكن أن تذهب فلوسى وفلوسكم فى شكل إعانة من الدولة لصحف المعارضة التى لا عمل لها سوى أن تشتمنا وتشتم تاريخنا.

هل هو لون جديد من الشتائم أن يشتمنا الآخرون «بفلوسنا» ؟!!

كل عجز عندهم عن الفعل يتحول إلى سادية ورغبة فى إقعادنا عن السعى.

ثم كيف تفسرون لى أن فى عشرات العشـرات مـن أفـلام السينما المصـرية لا يظهر بطل واحد نبيل؟!

إنها نفس العقدة التى تحاول ضرب الإحساس بالكبرياء الإنسانى الذى يدفع الناس للعمل.

يجب أن نقول جميعا لهؤلاء: «من لديه كلمة حلوة فليقولها.. أو (ينقطنا) بسكاته!!

- الذى يريد أن يعمل معنا لابد أن يتحلى بالكبرياء الدافع للعمل.. (أى الرغبة).

ـ والذى يريد أن يعيش معنا لابد أن يخضع لعقابنا الجماعى إذا لم يعمل (أى الرهبة).

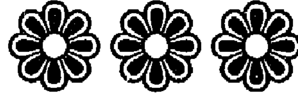
فهل فهمتهم لماذا بدأت بكلمات نابليون؟

هل فهمتم؟!

(صدى صوته يتردد فى جنبات المسرح بينما يخفت الضوء تدريجيا)

(ستار ختامى)

نوفمبر ١٩٨٧



أحمد عبد المعطي حجازي

(البحث عن البرجوازى النبيل) !

* الأغنياء المحدثون فى مصر.. لاهم بورجوازيون.. ولاهم نبلاء!!

* إذا كان لابد لأى حزب أو لحزب بالذات أن يكون على اتصال بالجماهير، فلابد أيضا أن يكون على اتصال بالتاريخ وبالثقافة العربية الإسلامية.

* لم يعد هناك فى العالم من يقبل إقامة دولة على أساس دينى إلا أمثال خومينى فى إيران والصهيونيين فى إسرائيل.

* تاريخنا هو تاريخ الانقطاعات، وكل قوة تلى الأخرى تدمر ماسبقها، وتنفرد بالمعنى الوحشى للانفراد!

* الليبرالية لاتزال نظاما قويا جداً وقادراً على التأثير الفاعل فى النظم الرجعية.. أو النظم الاشتراكية سواء بسواء!!

* ما يحدث - الآن - فى الاتحاد السوفيتى هو انتصار مؤكد لليبرالية ونظامها العالمى!

* من غير الجائز أن نربط ربطا ميكانيكيا كاملا بين فكرة الليبرالية الاقتصادية، وفكرة الليبرالية السياسية!

* ليس بالضرورة إذا أردنا اقتصاداً موجهاً أو مؤمماً أن يسود نظام الحزب الواحد أو لا توجد أحزاب!

* ينبغى أن نعترف أن كل ما حققناه فى القرنين الماضيين لم يكن ديمقراطيا لا فى السياسة ولا فى الثقافة!!

* نتمسك بثقافتنا الموروثة لأنها ركن ركين فى وجودنا القومى والإنسانى وبدونها سنذوب فى كتل أكبر أو نتوزع فى الداخل إلى كتل أصغر ونتشظى!!

* الانقسام بين الثقافة الموروثة والثقافة المتأثرة بأوروبا خلق من رواد الثقافة الحديثة نخبة مرتبطة أشد الارتباط بمؤسسات السلطة!

* ثورة يوليو وجمال عبد الناصر فتحا الطريق للثقافة العربية الإسلامية، وممثليها المختلفين بصرف النظر عن موقفهما من الفئات السياسية التى تتحدث باسم الإسلام!!

* الهدف الأسمى للاشتراكية هو تأميم النبل!!

* أصبحت الوحدة العربية - على يد البعض - هزرا ومزاحا!!

* الناصرية - ولا شك - هى حركة معظم الجماهير، ولكن الجماهير الآن هى صاحبة الحق الأول فى أن تتحدث عن الناصرية أو تتبناها!!

* الاقتصاد الآن فى أيدى فئة تفهمه على أنه المال فقط!!

* الدين لا يحبذ نظاما سياسيا أو اقتصاديا بالذات، ولكنه يحبذ النظام الذى تكون فيه فائدة أكبر لمجموعة المؤمنين!!

* فى ساحة الاقتصاد والسياسة، القائم الآن، هو فكرة البحث عن الراحة بدون عقد أو دستور أى العودة للمجتمع الأبوى.!!

* **القوى الرجعية عملت بدأب رهيب على ربط الإسلام بالرأسمالية!!**

* **من حق الناصريين المحترفين أن يطالبوا بتطبيق الناصرية وأن يقدموا خبرتهم وتجربتهم للجماهير، ولكن دون أن يظنوا أنهم المصدر الوحيد للتجربة!!**

* **الذين يصيحون باسم الدين لم يقدموا أية صيغة حقيقية للحل.. وكل همهم أن ينشئوا مجتمعا داخل المجتمع!!**

* **لا أرى أحزابا فى مصر!**

* **ينبغى التمييز بين حاجة مصر إلى يسار وبين اليسار المصرى!!**

* **الذين يتحدثون عن المدارس والمستشفيات التى ينشئها التيار الإسلامى يجب أن يتأملوا الحجم الهائل للمستشفيات والمدارس التى تنشئها الحكومة قبل كل هذا الضجيج!!**

* **الدولة تبيع كيلو اللحم بستة جنيهات ونصف، وأصحاب لافتات الدين يبيعونه بعشرين جنيها فأيهما أكثر إسلاما!!**

* * *

**** أحمد عبد المعطى حجازى...**

واحد من أخلص فرسان الكلمة يمتطى - اليوم - صهوة جوادها.. ويمضى باحثا عن الحقيقة بجسارة لا تداينها جسارة!

هو لا يحارب طواحين الهواء كدون كيشوت فى رائعة (سيرڤانتيس)! وهو لا يتصنع النبل كالبرجوازى النبيل فى رائعة (موليير)! وهو أيضا ـ لا يدعى البطولة كأبى زيد الهلالى فى رائعة الراوى المصرى منشد السيرة!

وهو ـ كذلك ـ عازف عن الدخول فى معارك الغمز واللمز وترقيص الحواجب المستعرة فى ساحات السياسة والحزب والصحافة بمصر!

....

فقط يبحث عن الحقيقة ممتشقا سيف الكلمة وممسكا بعناء جوادها.

فقط يطمح إلى مخاطبة أصدق فترات التاريخ المصرى وأكثرها استنارة ويحاول أن يحفر بينها قناة تؤكد أنها موصولة، وأن هذا التاريخ ليس سلسلة من الإحباطات فحسب بحيث تلعب أحيانا ـ فى سمائه الداكنة شهب المعرفة ثم تخبو وتغزو فى دياجير الظلام!

فقط يحلم بأن نعمل العقل وأن يكون كل منا بشيراً للنقد، ويسمع ويرى ويعى مستقبله وماضيه، تراثه وامتداده.

فقط يخاطب الجماهير ويناديها ويحدد من جديد معناها بعدما تاه هذا المعنى أو كاد تحت وطأة التشدق المبتذل باسمها والدفاع المستعار عن مصالحها!!

....

وفى ساحة هذا الحوار تتداح الكلمات على الصفحات تحمل رأى الشاعر ورؤيته وتفرش الطريق أمام ما يعتقد أنه الحقيقة.

تحدث أحمد عبد المعطى حجازى عن شركات تلقى الأموال والناصرية، وأزمة اليسار المصرى والنظام الحزبى الحالى، وطبيعة التحول الذى تشهده المجتمعات الاشتراكية، ومدى قدرة التيار القومى على تقديم إجابات عن الأسئلة المطروحة على الساحة ـ الوطنية ومسألة الثقافة الموروثة وقضية ديمقراطية الاقتصاد والثقافة والسياسة.

....

وفى كل ما قال لم يكن يحسب كثيرا وقع كلماته المنتظر على تيار بعينه أو شلة بذاتها، وإنما كان مصراً توخي الحقيقة التى تعنى - أول ما تعنى - النبل!!

كان يبحث عمن يحمل هم النبل.. كان - أيضا يبحث عمن يحمل هم الحقيقة.. فى زمان يندر فيه العثور على أحدهما!!

النموذج

النفط هو المثل الأعلى!

*** أتأمل كثيرا شرائح الرأسمالية المصرية الناشئة وأتساءل كثيرا عن حدود وعيها.. وطبيعة أهدافها.. وقابليتها للتطور.. هل تعتقد أن فى هذه الرأسمالية ما يمكن أن نسميه (البورجوازى النبيل) ؟؟**

** البورجوازى النبيل فى مسرحية (موليير) هو وريث للاستقراطية النبيلة، ونموذج هذه الارستقراطية هو النبالة المتوارثة أما بورجوازى الانفتاح فليس وراءه هذه النبالة الموروثة ونموذجه.. الذى يحاول أن يكون مثله أو يقلده الآن لا علاقة له بالنبل من قريب أو من بعيد وأظن أن «الرجل النفطى» هو نموذج البورجوازى المصرى ومثله الأعلى، هذا إذا أمكننا أن نسمى الأغنياء الموجودين فى مصر الآن بورجوازيين.

فلاهم بورجوازيون.. ولاهم نبلاء!!

من هو البورجوازى؟

البورجوازى هو ساكن المدينة التى دمرت النظام الإقطاعى القديم، وقلبت الأفكار المأخوذة عن اليونان والرومان أو الثقافات التى قامت فى الجامعات الاقطاعية - رأسا على عقب.. أو على الأقل وسعت الدائرة فاكتشفت الإنسانية بدلا من أن تكون الحقوق مقصورة على جماعة النبلاء (بالدم) -

كما يقال بالفرنسية ـ وهم أمراء الأسرة المالكة أو من يحيطون بهم من النبلاء الآخرين والفرسان، وجعلت هذه الحقوق مشاعا بين الناس وقامت بثورة عظيمة يحتفل العالم الآن بمرور قرنين عليها (الثورة الفرنسية) لكن هذا لم يكن كافيا، فبالنسبة للبورجوازية التى قامت فى أوروبا فقد كانت تريد ـ أيضا ـ أن ترث أو تكتسب أفضل ما عند هؤلاء النبلاء.

فالنبلاء لم يكونوا بلا فضائل، المجتمعات القديمة كانت ـ أيضا ـ عظيمة الفضائل وإن كانت هذه الفضائل محصورة فى أماكن محدودة كالقصور وساحات القتال والأديرة.. يعنى فضائل الغلبة والشجاعة والكرم وحب الثقافة وحب المجد، ولذلك فإن «موليير» وهو يكتشف شخصياته المسرحية فى القرن السابع عشر كان لابد أن يقع على شخصية البورجوازى النبيل الذى يريد أن يكتسب كل هذه الفضائل التى لدى الأمراء والنبلاء والفرسان ويقلدها ـ وطبعا ـ يضحكنا، ولكن ونحن الآن مازلنا نضحك من مسرح «موليير» فإننا نستطيع أن نفهم دوافع هذا البورجوازى النبيل ونقدرها!

أما عندنا.. (يتنهد)

فهذا كله غير موجود. كانت لدينا نبالة من نوع خاص، وقد ذهبت هذه النبالة وضاعت وأقصد بنبالتنا الخاصة تلك التى ورثناها من مجتمعاتنا القديمة هذه الفضائل التى كانت موجودة ـ مثلا ـ فى القاهرة إلى أواخر القرن الثامن عشر! فالنبالة تاريخ، يعنى تقاليد، لأن النبالة هى قيم تؤمن بها فئة أو طبقة أو مجتمع كامل، ولكن يؤمن بها كل فرد من أفراد هذه الفئة أو الطبقة أو المجتمع إيمانا شخصيا كأنها عقيدة خاصة، وبالتالى فإن النبالة تحتاج إلى تاريخ يؤصل هذا الايمان أى تراكم أو تقاليد، ومن المؤسف أن تاريخنا كان دائما تاريخ الانقطاعات، فكل قوة تلى قوة أخرى أو ترثها تدمر ما سبقها وتنفرد بكل شيء بالمعنى الوحشى للانفراد، وبالتالى فإن فكرة الطبقة

غير موجودة وكذلك فكرة الفئة وأيضا فكرة الحزب وحتى فكرة المجتمع، ومع هذا فالتقاليد الديمقراطية في مجتمعنا قطعا ورثها علماء المسلمين من الرعيل الأول من المسلمين والصحابة والتابعين والفقهاء الذين كانوا يجهرون بكلمة الحق، أما عندما أراد هؤلاء العلماء أن يتبعوا هذه التقاليد باعتبار أن العالم هو ضمير الأمة أو هو رجل الحل والعقد أو هو صوت المؤمنين.. فقد قمعت محاولتهم قمعا شديداً حتى من أصحاب السلطة ذوى الفكر المتقدم.

المأمون وأبوه الرشيد ـ مثلا ـ على قدر ما كانا متفتحين للأفكار الجديدة وكانا متحمسين لترجمة علوم الآخرين وفلسفاتهم بل أحيانا كانا يختاران من الأفكار ما هو أكثر عقلانية وما هو أكثر تقدما حتى من أفكار بعض العلماء والأئمة، ومع ذلك فموقفهم من العلماء والأئمة هو موقف السلطان القاسى العنيف الذى لا يتورع أن يعذب ابن حنبل ويسجنه ويطارد خصومه ـ حتى فى الفكر وليس ـ فقط ـ فى السياسة.

والعذاب الذى نزل بآل النبى ـ مثلا ـ من أولاد على بن أبى طالب على يد العباسيين أعمامهم أقسى بكثير من العذاب الذى نزل بهم من الأمويين، فعندما نقرأ ـ مثلا كيف كان العباسيون الأوائل يطاردون آخر أموى حتى يجتثوه ويستأصلوا شأفته، ويضمنوا أنه لن يكون هناك أموى واحد يطالب بالعودة إلى السلطة ـ بعد ذلك ـ أو بحقه فى هذه السلطة، حينما نتأمل كل هذا نستغرب من هذا النهم الحيوانى الفظيع على السلطة، وأيضا على قتل الخصوم والرغبة فى التخلص من أصحاب الأفكار المخالفة، وقد تكرر هذا ـ أيضا ـ فى الدول التالى، ولهذا كان الخوف فى هذه الدول أكبر بكثير من الأمان والخوف ليس خوفا على الرقبة فقط، ولكنه خوف على أبسط مطالب الحياة، خوف الإنسان على طعامه.على رزقه على أولاده على عرضه على شرفه.

ومع ذلك ـ فلاشك ـ أن الجانب البعيد عن السلطة (أى المجتمع) كانت

له فضائله، كانت هناك فضائل ـ لاشك ـ فى أوساط العلم والعلماء فرجال الأزهر ـ مثلا ـ حتى آخر القرن الثامن عشر كانوا فى طليعة المجاهدين من أجل حقوق الناس، ومجاهدين ضد أوائل المستعمرين وهم الذين قادوا ثورة المصريين ضد الفرنسيين، وكان لهم أيضا أو بعضهم على الأقل موقف فى ثورة عرابى وثورة ١٩١٩.

*** أما يوليو ١٩٥٢ فهى تلك التى جاءت لتعلن أن طبقة متوسطة، أو إذا لم ترغب فى استخدام هذا التعبير فلنقل فصيلا أو شريحة أو متوسطة جاء لتحل محل النظام الاقطاعى القديم، فهل استطاعت يوليو ـ بهذه العملية التاريخية ـ أن تفرز البورجوازى النبيل؟**

** لا.. لم تفرز هذا البورجوازى النبيل للأسف، لأنه ليس من حقنا أن نتوقف عند القرن ١٨ ونطالب بالنبالة ـ فقط للبورجوازى، فقد وصلنا للقرن العشرين وهنا يجب أن تترك النبالة مرحلة اقترانها بالبورجوازى إلى مرحلة أخرى تكون فيها نبالة الناس العاديين من الكادحين والفقراء والفلاحين والعمال.

فما هو الهدف الأسمى للاشتراكية؟

ليس فقط العدل ولكن تعميم النبل أو تأميم النبل، ولذلك فأنا ـ شخصيا ـ أتصور أن البورجوازى لا يمكن أن يكون نبيلا ـ أصلا ـ بالرغم من كل الانجازات العظيمة التى حققها فى أوروبا وفى العالم لايزال يحققها حتى الآن.. فالنبل الحقيقى هو نبل الناس العاديين.

البورجوازية طبقة لم تمت ـ أبدا ـ حتى الآن ولم تفقد حيويتها وقدرتها على التلاؤم وعلى حل مشاكلها الداخلية وعلى الحوار ـ حتى مع القوى الأخرى بما فى ذلك الحوار مع العمال والحوار مع الاشتراكية وأحيانا كثيرا تكسب جولات فى هذا الحوار.

البورجوازية مصطلح اجتماعى فإذا أنت حولته إلى المصطلح السياسى الذى هو نظام البورجوازية فإن النظام المطروح للبورجوازية هو الليبرالية.

الليبرالية لا تزال نظاما قوياً جداً قادراً ـ حتى على التأثير فى النظم الأخرى سواء كانت رجعية تمارس الحياة والحكم بأساليب العصور الوسطى أو كانت حتى نظما اشتراكية.

فما يحدث الآن فى الاتحاد السوفيتى هو انتصار لقيم الليبرالية، وليس فى الاتحاد السوفيتى ولكن ـ أيضا ـ فى بلادنا؟ فالعودة إلى نظام التعدد الحزبى فى مصر هو انتصار للحرية وكذلك العودة إلى الديمقراطية فى تونس، وأيضا هناك بلاد أصبح عندها دستور بينما لم تعرف الدستور من قبل، ولكن هل كل هذا مطبق تطبيقا صحيحا فى بلادنا؟

لا.. طبعا ولا تزال هناك مراحل كثيرة أمامنا، وأمام البلاد العربية للوصول إلى تطبيق صحيح لليبرالية.

*** فى أى أساس اقتصادى اجتماعى يمكن أن ينشأ تطبيق الليبرالية فى بلاد من نوعنا أو لها نفس مرحلة نمونا؟**

** أنا لا أظن أن من الجائز فكرة الربط الكامل الميكانيكى بين الليبرالية السياسية والليبرالية الاقتصادية!

كما أننى ضد الربط بين فكرة أننا إذا أردنا (توجيه) الاقتصاد أو تأميمه أو إنشاء قطاع عام فلابد أن يسود نظام الواحد أو لا تكون هناك أحزاب على الإطلاق، هذا كله غير صحيح، وبإمكاننا أن نحافظ على القطاع العام فى ظل التعدد الحزبى وأن نسير نحو الاشتراكية فى ظل التعدد الحزبى.

*** هل عندك مثل عملى تطبيقى على هذا الكلام؟**

** طبعا.. ففى ظنى أن فرنسا فيها اشتراكية رغم إقرارها لصيغة التعدد!

*** ولكن فى أية مرحلة نمو أصبح فى فرنسا اشتراكية وتعدد معا؟.. لا أظن أنه من الوارد إجراء مقارنة بيننا وبين دول تمر بمراحل نمو مختلفة عنا فى كل شىء.**

** مضبوط.. التاريخ يختلف، وبالتالى فإن المعطيات مختلفة، ولكن أنا الآن لا أتكلم عن (خطة) ولكننى أتكلم عن (قيمة)، ليست لدى خطة لوضع هذه المسائل موضع التطبيق ولكننى أتكلم عن قيمة، وأعتقد أن قيمة الحرية هى قيمة إنسانية لا علاقة لها بمرحلة اجتماعية معينة أو حكم معين أو حكم طبقة بالذات.

ففى كل الأحوال لابد أن تراعى هذه القيمة الإنسانية حيث لا وجود للإنسان من دون حرية، أيضا العدل قيمة إنسانية.. ولا وجود للإنسان من دون عدل وتاريخ الإنسان هو تاريخ النضال من أجل العدل والحرية، وعندما يأتى حزب أو شخص ليخير بين الحرية وبين العدل أقول له الحرية والعدل معا، غير صحيح أن الاشتراكية يمكن أن تكون مهددة بالحرية، ويستحيل أن تكون مهددة بالحرية ويستحيل أن تكون الحرية مهددة بالعدل.

*** فى بلد مثل فرنسا يمكن أن أفهم مثل هذا.. ويمكن أن أفهم وجود حزب مثل NOUVELLE ACTIONE ROYALISTE الذى يطالب بعودة الملكية، لكن هذا كله يحدث فى اطار نظام اقتصادى - اجتماعى تأسس وترسخ عبر قرون عديدة ويسمح للطبقة العاملة كما يسمح للطبقة المتوسطة بأن تدافع عن نفسها، أما عندنا فالموضوع - جد - مختلف فالمكتسبات السياسية والاجتماعية والاقتصادية للطبقات العاملة أو المتوسطة يمكن أن تسقط جميعا بضربة واحدة دون أن تواجه مقاومة تذكر من منظمات مدنية تحمى مصالح هذه الطبقات، وبحيث يكون سقوط هذه المكتسبات نتيجة مباشرة للحرية التى تتمتع بها الطبقات التى تمثل المجتمع القديم والتى تملك المال واستعادت - أيضا - النفوذ؟**

** ربما بعض الحوادث تؤكد كلامك، ولكن التاريخ يبقى معنا، أنت تتكلم ـ مثلا ـ عن الثلاثين أو الأربعين عاما الماضية.

صحيح أن هناك نظما انهارت بضربة واحدة ولكن انظر إلى التاريخ كيف يتقدم وإلى أى قيمة يتقدم، هل يتقدم إلى قيمة الحرية؟ أم يتقدم إلى قيمة العبودية؟

هل يتقدم نحو العدل؟ أم يتقدم نحو الظلم؟

أنا أتصور أن التاريخ يتقدم نحو العدل والحرية، وعلى هذا يصبح من واجبنا أن نتحدث عن المؤسسات التى تحمى هذا. فبدلا من أن نضع التاريخ يتقدم نحو العدل والحرية، وعلى هذا يصبح من واجبنا أن نتحدث عن المؤسسات التى تحمى هذا، فبدلا من أن نضع تاريخنا الخاص عقبة فى سبيل من نطمح إليه الآن علينا أن نقوى المؤسسات التى تجعل الحرية مناخا موجودا وله مؤسساته وقادرا على حماية نفسه.

الأعيان:

ديمقراطية السياسة

وديمقراطية الثقافة

*** ضمن هذه المؤسسات ولاشك المؤسسة الثقافية، ولكن هذه المؤسسة تعرضت عبر العقد الماضى إلى هجمة شرسة من تلك الشرائح والمجموعات التى افرزتها الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية الجديدة.**

ما هى تأثيرات هذه الهجمة الباقية التى يصعب ـ حتى الآن إزالتها؟

** ينبغى أن نعترف بأن كل ما حققناه خلال القرنين الماضيين عيبه الأساسى أنه لم يكن ديمقراطيا لا فى السياسة ولا فى الثقافة.

كانت عندنا ديمقراطية طبعا وكان عندنا دستور عظيم عام ١٨٨١ فرض على الخديو توفيق أن يملك ولا يحكم وفرض على الوزارة أن تكون مسئولة أمام البرلمان، وأن تكون متضامنة أمام البرلمان وأعطى البرلمان الحق فى أن يسحب ثقته من الحكومة، وأكد فكرة المواطنة على أساس اجتماعى لا على أساس فئوى أو طائفى أو سوى ذلك.

هذا كله كان قائما ولكنه دار فى إطار الأعيان وطبقته بالمعنى الاقتصادى وإلى حد قليل جدا بالمعنى الثقافى، وهذا أيضا ما حدث فى ثورة ١٩١٩ التى ربما اتسعت القاعدة فيها أكثر، ولكن ظلت لعبة القيادة دائرة فى إطار النادى الخاص الذى يتألف من طبقة ملاك الأرض وكبار موظفى الحكومة وأحفاد الأتراك وبعض الرأسماليين المصريين، وأصحاب البنوك وفئة قليلة جداً من المثقفين وهم المثقفون الذين انتقلوا إلى هذه الطبقة أو كانوا فيها.

لكن عامة الناس كانوا بعيدا عن هذا لذلك كان يمكن باستمرار الاطاحة بما تحقق لأن جماهير الفلاحين الذين كانوا يؤلفون، وما زالوا يؤلفون غالبية شعب مصر ويضاف إليهم بعد ذلك العمال الذين هم الآن طبقة ضخمة هؤلاء كانوا بعيدين عن هذا، ودعنا من التطبيقات التى أعطتهم الحق فى التمثيل بطريقة فوقية، فهذا لا يصلح، فمسألة تعيين عامل وتقول له أنت تمثل العمال، هذه ليست الديمقراطية، فالعمال هم الذين يعينون ممثلا بطريقتهم، وأيضا عبر تربية سياسية واجتماعية طويلة، ولهذه الأسباب فقد انهار هذا النظام الديمقراطى، وعندما تجد نظاما من هذا النوع لم يستطع أن يفى بأغراضه وبوعوده لا يكون الحل أن تقضى على الديمقراطية، وإنما يكون الحل أن توسع نطاق الديمقراطية.

وهناك سبب آخر أيضا فى تفسير ما وقع للثقافة وهو أن لدينا ثقافتين: الثقافة الموروثة والثقافة المتأثرة بأوروبا، الثقافة الموروثة نحن متمسكون بها جدا

لأنها ركن ني وجودنا القومى وبمعنى آخـــر فى وجودنا الإنسانى.. نحـن لا نستطيع أن نكون بدون هذا التراث لأننا عندئذ سنذوب إما فى كتل أكبر أو نتوزع فى الداخل إلى كتل أصغر ونتشظى.

إذن لابد لنا من محيط أوسع للوجود ولكنه قومى يعنى محيط أوسع من أفرادنا ومن طبقاتنا ويستطيع فى ذات الوقت أن يلملم هؤلاء الأفراد فى إطار واحد، وقد أثبت هذا التراث حيويته فى أداء هذه الوظيفة فى العصور الماضية، بل وأثبت هذه الحيوية أيضا فى فجر العصر الحديث، فكل ما نتحدث عنه ـ الآن من الدستور والديمقراطية والوطنية والقومية والشعب كان علماء الأزهر هم أول من تكلم عنه.

تكلم عنه رفاعة الطهطاوى وتكلم عنه حسن العطار وأبو الأستاذ وجمال الدين الأفغانى ومحمد عبده وطه حسين وعلى عبد الرزاق.

وحتى الآخرون الذين لم يدرسوا فى الأزهر، ولم تكن دراستهم أساسا فى علوم الدين مثل أحمد لطفى السيد فقد نشأوا فى قلب هذا التراث، وكل هذه الأسماء هى دليل ساطع على حيوية التراث العربى الإسلامى وقدرته على التفتح على القيم الإنسانية، وعلى حقوق الإنسان، وعلى أسس قيام المجتمعات الحديثة.

المشكلة بعد ذلك أن هذا التراث قد انسحب من ناحية أو تم كبحه من ناحية أخرى ـ بحيث لم يستطع أن يصل إلى غايته أو أهدافه.. فقد لعب الملك فؤاد على سبيل المثال ـ دوراً خطيراً جداً فى كبح هذا التراث عندما حاول أن يجعل من الأزهر قلعة له ولأحلامه السلطانية الاستبدادية، على الجانب الآخر فإن الثقافة الجديدة أو المثقفين الجدد الذين حصلوا على ثقافتهم من خلال الثقافة الأوروبية انضموا لسعد زغلول، وهكذا حدث الانقسام العنيف الذى أضعف الطرفين لأنه حول رواد الثقافة الحديثة إلى

نوع من النخبة المرتبطة أشد الارتباط بمؤسسات السلطة، وحول الثقافة التقليدية إما إلى الانتماء لبعض أطراف السلطة أو التراجع والانسحاب والاكتفاء بدورها كمجرد ثقافة شعبية (فلكلور) تعيش فى الريف، ولا تجد لها مكانا فى الحياة الحديثة، ولا تجد لها مكانا فى الجامعة، كما لا تجد لها مكانا في البرلمان أو الصحافة وهكذا انسحبت هذه الثقافة.

ثم ما الذى وقع بعد ذلك؟ قضت ثورة ٢٣ يوليو على النخبة العصرية وأفسحت الطريق وفتحت الأبواب للثقافة المضطهدة سواء الدينية أو الشعبية الفلكلورية، فأنا أيضا ـ لا أرى إلا أن ثورة ٢٣ يوليو يعنى جمال عبد الناصر هو الذى فتح الطريق للثقافة العربية الإسلامية وممثليها المختلفين بصرف النظر عن موقفه من الفئات السياسية التى تتحدث باسم الإسلام فهو الذى فتح الطريق لطبقة الفلاحين حتى تأتى لتغمر المدن الكبرى، وهذه الطبقة هى التى تتبنى الآن فكرة الإسلام السياسى وكذلك أبناؤها حتى الذين تخرجوا من الجامعة، المشكلة أن هذه الطبقات تنشر هذا الشعار الإسلامى السياسى ولكن بتوجيه خطير ـ الآن. هذا التوجيه يأتى من قوى سياسية وقوى اقتصادية، ولها مصلحة فى تحجيم مصر وفى ضرب قواها الأساسية وفى منعها من الحركة وفرض تخلفها أو تخلف هذه القوى الضاربة المحركة الموجهة على مصر وعلى المصريين وعلى الثقافة المصرية.

*** هذه النقلة العقلية والثقافية ماذا كان تأثيرها على حقائق الاقتصاد والسياسة فى مصر الآن؟**

المال

مسئولية الطبقة الغنية

** ليس عندى فى هذا السؤال أجوبة مستقلة، ولكن نحن نرى أن الاقتصاد الآن فى أيدى فئة تفهمه على أنه المال فقط، وفيما يأتى به المال

من ربح عن طريق تشغيل المال أو فائدة تأتى عن هذا التشغيل بصورة معينة، وهذه الصورة تتمثل قبل كل شيء فى الاستهلاك، فالمال الذى يشتغل ـ مثلا ـ فى تجارة اللحم أو فى إنشاء وبناء عمارات أو ڤيللات على البحر يجسد هذا المعنى، فيلات يجسد فكرة أن المال للاستهلاك ثم يظهر معنى خطير جديد وهو أن فكرة (المال للاستهلاك) هى أثر من آثار فهم خاص للتراث، فالمجتمعات القديمة لم تكن تفهم فكرة التراكم، ولم تكن تفهم فكرة الإنشاء أو التنمية عن طريق استخدام المال للتنمية، فكرة التنمية غير موجودة وكذلك فكرة مسئولية الطبقة الغنية عن إدارة المجتمع، هناك رعب من البنك ورعب من فكرة التنمية والإنشاء وبالطبع فإن المستفيدين الكبار من لعبة (المال للاستهلاك) يتصرفون دون رعب لأنهم يأخذون الأموال ويضعونها فى البنوك الأجنبية ويحصلون على أرباح إلى غير ذلك ولكن الرجل العادى مرعوب.

المدرس الذى يذهب إلى السعودية وادخر ثلاثين ألفا مثلا يضع هذه الأموال عند رجل على سبيل الأمانة، ويأخذ عليها أرباحا غير منتظمة وبالتالى فهى حلال، هذا أثر من آثار الربط بين الجانب الثقافى والجانب الاقتصادى وبالتالى ما هو ثقافى وما هو سياسى لأن هذا الوضع ـ بلا شك ـ له نتائج سياسية.

هذه النتائج السياسية تتمثل قبل كل شيء فى فكرة البحث عن الراحة بدون عقد يعنى بدون دستور، يعنى العودة إلى المجتمع الأبوى وهذا هو القائم الآن.

*** رغم اختلاف الأصول والغايات والطبيعة لماذا إذن تبدو منطقة الالتقاء ما بين الرأسماليات المصرية الناشئة عقب سياسة الباب المفتوح وما بين الرأسماليات الإسلامية منطقة قابلة ـ للاتساع ـ حتى ولو برغبة الاغنياء الجدد فى التمتع بدفء الغطاء السياسى للتيار الإسلامى.**

وأذكرك هنا بما كتبه الأستاذ محمد حسنين هيكل فى بداية الفصل الخامس من الجزء الثالث من كتابه «خريف الغضب» قائلا: لقد بدأ يتضح يوما بعد يوم أن هؤلاء الذين استفادوا من الأوضاع الجديدة فى مصر وجدوا ملائما لهم أن يغرقوا كل النقد الموجه إليهم فى موجة عاتية من التدين.

** هذا صحيح تماما بل وقمعت كثير من المحاولات الجادة والمخلصة التى بذلت لإظهار أن الدين لا يحبذ نظاما سياسيا بالذات.

الدين يحبذ النظام السياسى أو النظام الاقتصادى الذى تكون فيه فائدة أكبر لمجموع المؤمنين! ففى فترة من الفترات عندما يكون أمام الناس إلا العشب والماء والنار فيصبح الناس شركاء فى الثلاثة، وفى فترة أخرى عندما يكون أمام الناس المصنع والأرض والمدرسة والمستشفى والبرلمان فهم أيضا شركاء فى كل هذا، ولكن المؤسف أن القوى الرجعية عملت بدأب رهيب على ربط الإسلام بالرأسمالية.

*** ولماذا نجحت؟**

** لأن التاريخ هو تاريخ مجتمعات غير اشتراكية، كل التاريخ السابق يعطى حججا مضادة كثيرة، وكلما بحثت عن حجة فى التاريخ الماضى فبالتأكيد سوف تكون خاسراً، والمفروض أن تبحث عن الحجة فى مشاكل العصر، وأن تتحدث عن المشاكل القائمة الموجودة، وعن ضرورة وجود حل لها مستنداً فى هذا إلى أن الإسلام ـ قبل كل شىء ـ قد جاء لخير العباد ولتحقيق مصالح البشر ومساعدتهم على التقدم ومساعدتهم على الوصول إلى أهدافهم المشروعة فى الحرية والعدالة والكرامة والسيطرة على مقدراتهم على الطبيعة.

*** ربما لا أجد وسط القوى السياسية المصرية المختلفة ـ حزبية كانت أو غير حزبية ـ من يقدم إجابات واضحة فى هذا السياق سوى هذا التيار الإسلامى، هل هناك آخرون نجحوا فى أن يقدموا مثل الصيغة الناجحة (المشغل ـ المستوصف ـ المدرسة) ؟!**

** لا شك أن المشاغل والمستوصفات التى ينشئها أصحاب التيار الإسلامى لا تعد شيئا إلى جانب المستشفيات والمستوصفات والمدارس والجامعات التى أنشأتها وتنشئها الدولة!

ماذا قدم أصحاب التيار الإسلامى للأسرة الصغيرة، وما هى الحلول التى قدموها أو ما هو نوع المدارس التى أنشأوها، هى مدارس تؤكد فى نفوس الأطفال أنهم من صنف يختلف عن أصناف أخرى من المواطنين المصريين، مدارس تفرض على الفتاة الصغيرة فى سن خمس سنوات والتى تذهب إلى المدرسة لكى تلعب رياضة وتنمى روحها وجسدها وأخلاقها تفرض عليها الحجاب وتعلمها، وهى طفلة صغيرة فى هذا السن المبكر أن جسدها رجس وخطيئة. ثم ماذا قدم أصحاب التيار من إجابات على سؤال الأسعار؟

الدولة تبيع كيلو اللحم بستة جنيهات ونصف هؤلاء السادة يبيعون الكيلو بعشرين جنيها لم يقدموا أية صيغة حقيقية فى كل مجال، وكل همهم أن ينشئوا مجتمعا داخل المجتمع.

*** ربما لا يجب أن نجرى المقارنة بينهم ـ هنا ـ وبين الدولة، ولكن المقارنة يجب أن تكون بينهم وبين القوى الحزبية الأخرى؟**

** ولكن ما هى هذه القوى الحزبية؟ أين هى هذه القوية الحزبية؟ أنا لا أرى أية قوى حزبية أخرى.

*** وماذا عن هذه الأحزاب الستة التى ترتع يمينا ويسارا فى ساحة السياسة المصرية منذ ما يربو على ١٢ عاما؟**

** أنا لا أراها أحزابا!

*** ماذا ترى إذن؟**

** أرى أشكالا هلامية وبعض الاعلانات والملصقات واللافتات وبعض الصحف.

*** حتى فى هذا الإطار.. كان المفروض أن يقدموا إجابات على الأسئلة التى تكون الموقف السياسى والاقتصادى والاجتماعى فى مصر؟**

** لا أرى شيئا من هذا، وهذا ليس نقدا لهذه الأحزاب فقط ـ ولكنه نقد للجو العام الذى لا يسمح لهذه الأحزاب بممارسة دورها كاملا، لا أريد أن أدافع عن هذه الأحزاب بالذات، ولكن أدافع عن قوى أخرى متعددة خارج نطاق الأحزاب ينبغى أن يكون لها تمثيل وعليها أن تقدم إجاباتها على نفس أسئلة الموقف المصرى، إذن لابد أن نتوقع وجود أحزاب جديدة قوية وقادرة على الحركة، ولكن هذا غير موجود حتى الآن.

**** ولماذا لم تنجح التيارات والقوى التى تتكلم عنها فى أن تفرز تعبيرات سياسية عنها على شكل الحزب؟**

** لأنها مقموعة ولأن تجربتنا الحزبية لا تعود إلا لبضع سنوات فقط (١٢ سنة) وأيضا هذه التجربة الحزبية فى مصر تتم فى ظروف عامة غير مواتية فالناس الآن ـ قبل كل شىء ـ يبحثون عن الرزق ولقمة العيش.

*** لا أرى ما تراه فى أن التجربة الحزبية فى مصر عمرها ١٢ سنة فحسب، ولكننى أرى أن الاستثناء فى تاريخ مصر السياسى المعاصر هو أن تكون غير حزبية أو يسودها نظام الحزب الواحد وهو أمر فرضته مرحلة الشرعية الثورية بكل ملابساتها وتحدياتها التى واجهت السلطة الوطنية فى مصر وقتها؟**

** التجربة الحزبية ككل هى عمل اجتماعى وتراث وتقليد، وإذا انقطع هذا التقليد أصيبت الحياة الحزبية بالارتباك.

أصلا الأحزاب التى كانت قائمة قبل ٢٣ يوليو ليست كلها أحزابا، كانت تجمعات فليس هناك نظام ولا برامج محترمة للأحزاب ولا تنظيم ولا ثقافة حزبية، وأيضا ليس هناك فرز اجتماعى وثقافى، وطالما ليس هناك برنامج، وليس هناك فرز لأن الفرز يتم على هذا الأساس، فإن ظاهرة التنقلات المشهورة (قديما ـ وحديثا) من حزب إلى آخر هى ظاهرة شائعة ذائعة فى مصر، أنت تستطيع أن تكون الآن فى حزب الوفد ثم تنتقل إلى الدستوريين، وتستطيع أن تكون بالأمس شيوعيا معتقلا لمدة خمس سنوات وتصبح الآن ـ فى حزب يرفع شعارات الدين.

اليسار:

على رأسه ريشة!

*** ما دمت قد ذكرت الشيوعيين فدعنا نتكلم قليلا عن حزب اليسار فى مصر هذا الحزب يدعى - ضمن ما يدعى - أن له تنظيما.**

وهذا الحزب يدعى - ضمن ما يدعى - أن له برنامجا، وهذا الحزب يدعى - ضمن ما يدعى أن له ثقافة حزبية، وهذا الحزب يدعى - ضمن ما يدعى - أنه يقوم بعمليات فرز دائمة.

هل تعتقد فى هذا كله؟

** أنا لا أستطيع أن أتحدث بشىء من التفصيل والدقة والتقييم العادل عن حزب بالذات، أستطيع أن أتحدث عن المسألة بشكل عام، لا تنس أننى قد أمضيت حوالى ١٥ سنة خارج مصر ولذلك تنقصنى الكثير من المعلومات التى تسمح لى بالتدقيق والتفصيل، لهذا اكتفى ـ فقط ـ بالحديث عن الأفكار وعن التجربة ككل كما تبدو ولمن هو بعيد!

بالقطع نحن نحتاج إلى حزب لليسار فى مصر ككل حزب قوى فعال قادر على التأثير بصرف النظر عن مدى ما يحققه من نجاح عملى ولكنه ـ على الأقل قادر على طرح الأفكار والدخول فى حوار وتوضيح أهدافه، وتربية الجماهير تربية سياسية تستجيب للتطور المادى والعملى الذى يتم ويتحقق فى المجتمع، ولكن يبدو أن حزب اليسار فى مصر تواجهه عقبات من داخله ومن خارجه للوصول إلى هذه الصورة المرجوة لكن أيضا يجب ألا نقف عن هذا الحد فأمام التجربة مراحل طويلة قادمة تستطيع أن تصحح فيها نفسها وتستطيع أن تستفيد من اخطائها ومن تجربتها.

*** دعنا نتوقف قليلا عند هذه النقطة فأنا مازلت غير مكتف بهذه الاجابة، وعندما تقول لى إنك كنت خمسة عشر عاما خارج الوطن أقول إن من هاجر يبقى قلبه وعقله وعينه على كل ما يدور فى وطنه من أحداث ثم ثانيا انت لم تعد بالأمس فقط، ولكنك عدت منذ فترة تعتبر معقولة، وثالثا فإن الالتقاء برموز التيارات السياسية المصرية المختلفة كان واردا فى باريس وهى عاصمة عالمية وليست بقعة معزولة فى سيبيريا، ثم رابعا التقاؤك برموز هذه التيارات عبر صفحات الصحف والمجلات والكتب كان واردا وبشدة أيا كان مكان هجرتك، فى زيمبابوى أو فى ستوكهولم؟**

** أنت تريد ـ باختصار ـ أن تتهمنى بالتهرب من الاجابة اعتبر أن هذا صحيح، أنا أحب أن أتهرب من الاجابة عن بعض الأسئلة لأننى أخاف أن أمارس ظلما، ولا تنس أن النقد عندما يوجه إلى طرف بالذات يكون مستحبا فإذا وجه لطرف آخر لا يقابل بترحيب.

*** عبر كل فصول هذا الحوار وجهنا نقدا لكل فصيل سياسى على**

الساحة المصرية، ومن منطلق قومى ممتاز، فلماذا نحجب النقد عن تيار اليسار.. أعلى رأسه ريشة؟

** أنا أقول إن التجربة ـ بشكل عام هى تجربة ناقصة ومرتبكة، ويرجى لها ـ باستمرار ـ أن تتجاوز أخطاءها، ولذلك أخشى من أن يكون النقد أو المآخذ التى تلقى هنا وهناك معطلة أو تفهم على غير ما نقصد.

لأنه فى كل هذا ينبغى أن تعرف ـ وأظنك غنى عن التنبيه ـ أننى انظر إلى ما سبق من زاوية كونى مثقفا لا علاقة له بحزب من الأحزاب ولا علاقة لى ـ حتى ـ بفكرة إيديولوجية محددة.

بوصلتى التى تهدينى للتفكير هى المستقبل وواجب المثقف والتزاماته الاجتماعية وتضامنه مع بلاده ومع كل من فيها، ومع كل القوى والأحزاب والأفكار المختلفة أن يقدم رأيا هنا ويناقش فكرة هناك مهتديا بفكرة المستقبل.

*** ما زلت غير مكتف بالإجابة، وحينما تقول لى إنك تهرب من الإجابة أقول إن المسألة ليست بهذه البساطة فالإجابة ليست مسألة اختيارية طالما انك قبلت ـ بداية ـ بفكرة الحوار المفتوح.. والحوار هو عقد بين طرفين: (محاور ومتحاور) ولا يجوز إلغاؤه من طرف واحد والامتناع فى حد ذاته موقف، إذا كنت تظن أنك به قد ابتعدت عن مؤاخذة كل الأطراف.**

وعليه سأعاود طرح السؤال بصيغة أخرى تخلصك من الحرج وتخلصنى من تهربك.

....

*** هل هناك خلل فى العقل اليسارى المصرى أدى إلى شكل الأداء الذى نشهده اليوم من تنظيمات هذا الاتجاه؟**

** ينبغى التمييز بين (حاجة مصر إلى يسار) وبين (اليسار المصرى)، أما الحاجة إلى يسار فهى ثابتة مؤكدة لأن مصر محتاجة إلى التقدم.

ما هو اليسار؟ اليسار هو الذى يطالب بالتغيير، واليمين هو الذى يطالب بالاستمرار والمحافظة على الموجود.

طيب! المجتمع المصرى الآن لابد أنه محتاج للتغيير، لأنه ينوء بمشاكل كثيرة وضخمة وفادحة ومترابطة بحيث يستدعى كل هذا فتح آفاق للمستقبل، والمفروض أن اليسار هو الذى يقوم بهذا كله، المشكلة فى اليسار المصرى تكمن فى نشأته فكما قلنا الثقافة الجديدة - بشكل عام - جاءت عن طريق الاتصال بالأوروبيين وبالغرب وهذا يتبدى أكثر ما يتبدى عند اليساريين، فاليساريون المصريون نقلوا عن الأوروبيين وأهملوا كثيرا جدا الحركة بين الجماهير.

وأنا لا أقصد - فقط - الحركة بالمعنى العملى والاتصال الجسدى ولكننى أقصد بالحركة المعنى الفكرى والثقافى وفهم التاريخ المصرى وفهم حركة الشعب المصرى وحركة الجماهير المصرية وبالتحديد هذه المرحلة الحديثة من محمد على إلى الآن.

....

وفوق ذلك فهم دور التراث العربى الإسلامى القديم فى تشكيل وجدان المصريين بعامة وبالتحديد الجماهير الكادحة، والمفترض أن تكون هى جماهير اليسار، بمعنى آخر أنه كان لابد لأى حزب أو لحزب بالذات أن يكون على اتصال بهذه الجماهير، وبالتالى على اتصال بثقافتها، فينبغى أن يكون على اتصال بالثقافة العربية الإسلامية، وبالتاريخ العربى الإسلامى، وبالتالى يستطيع أن يستنبط فلسفته وبرامج عمله وطريقته للحوار وطريقته للحركة وطريقته للفعل والتغيير.

وهذا كله لم يحدث.. أو لم يحدث كما ينبغى، وبالإضافة إلى هذا كان هناك الاضطهاد مارسته الحكومات المتوالية على الجماعات اليسارية المختلفة، وقد أدى بهذه الجماعات إلى العزلة الشديدة والانغلاق على نفسها.. يعنى زاد انغلاقها على نفسها، فهى منغلقة أصلا بسبب أصول ثقافتها الأوروبية، وبالإضافة إلى هذا كان الاضطهاد والقمع الذى ووجهت بـه، وبـرغم كل ما ذكرت فإن هذا لم يمنع من ظهور ضمير اشتراكى فى مصر عند فئات واسعة وحتى خارج نطاق الأحزاب الشيوعية، هذا الضمير هو الذى عبرت عنه الجماهير فى التفافها حول فكرة تحديد الملكية وهو مشروع تبناه أحد أعضاء مجلس الشيوخ عام ١٩٤٦ وهو شيخ (أى واحد من الأعيان)!

أيضا ظهر هذا الضمير الاشتراكى فى التفاف الجماهير حول فكرة تأميم قناة السويس كما ظهر فى التفاف الجماهير حول قانون الإصلاح الزراعى فى آخر عام ١٩٥٢.

إذن كان الضمير الاشتراكى يتكون ويتشكل من تيارات مختلفة تتآلف وتلتف حول شعارات اشتراكية من هذا النوع الذى ذكرناه غير مرتبطة بفلسفة اشتراكية أو إلى اشتراكية حزبية خاصة بالتحديد، ولكن كان هناك احتياج لتغيير النظام الاقتصادى والاجتماعى والسياسى ليصبح أكثر عدالة، وقد أدى هذا إلى ظهور الحركة الناصرية.. تلك الحركة التى فرضت على الشيوعيين ـ أيضا ـ أن يندمجوا فيها بالإضافة إلى ما ورثه الناصريون من أجنحة مختلفة تنتمى إلى أحزاب قديمة مثل (الطليعة الوفدية) و (فكرة الاشتراكية الغامضة عند أحمد حسين) (فكرة الاشتراكية الغامضة ـ حتى ـ عند الاخوان المسلمين).. فحتى الاخوان اضطروا فى الأربعينيات إلى أن يتحدثوا عن الاشتراكية، ومعنى هذا أنه كانت هناك فئات متعددة من الشعب المصرى ـ خارج إطار الشيوعية ـ تتحدث عن العدل الاجتماعى وعن توزيع الثروة الوطنية لأنها كانت موزعة توزيعا ظالما.

ومن هنا وصلنا إلى أوائل الستينات وإذا بمصر كلها اشتراكية، وبالطبع أنت تعلم ما حدث بعد ذلك حين وصلنا إلى أواخر السبعينات، وإذا بكل هذا أو كثير منه يتراجع وينشأ حزب التجمع مؤلفا ـ حسب تسميته ـ من أطراف متعددة، هذه الأطراف المتعددة ينقصها الانسجام الفكرى والتنظيمى بالإضافة إلى هذا أن الناس الذين يوجه لهم هذا الحزب رسالته أصبحوا منشغلين بهمومهم الخاصة وتطحنهم مشاكل الحياة اليومية.

بشكل عام المناخ يبدو غير ملائم للعمل الحزبى بدليل ما تعرض له فى سبتمبر ١٩٨١ من تعطيل الصحف ومطاردة المشتغلين بالعمل السياسى، هذا كله أدى في النهاية إلى هذا الضعف فى حزب اليسار.

الدائرة:

التيار القومى!

*** أهم جوانب الضعف التى ذكرتها (من وجهة نظرى) هى عدم قدرة هؤلاء على مواءمة وتكييف أفكارهم مع ما هو ثقافة عربية وإسلامية، وربما نجد داخل (دائرة الطباشير المصرية) مجموعة قوى حزبية تعانى حالة استقطاب شديدة ما بين الحدود القصوى للمواقف والانتماءات، وربما لم يكن يستطيع تحقيق المعادلة وتشكيل عنصر عازل الاحتكاك سوى التيار القوى.**

لماذا كان صوت هذا التيار خافتا فى كثير من الأحيان؟

** لا أتصور أن التيار القومى العربى كان خافت الصوت، المشكلة أن هذا التيار مر بعدة مراحل، التيار القومى ـ أصلا ـ تيار جديد، ليس فى مصر فقط ولكن فى مختلف البلاد العربية الأخرى.

فينبغى أن نعلم أن معظم بلاد المشرق العربى كانت ولايات عثمانية حتى

عام ١٩١٨، وكانت هناك عواطف عثمانية فى كل البلاد الأخرى التى اقتطعت من الامبراطورية العثمانية سواء فى القرن ١٩ أو القرن ٢٠ واقصد بهذه البلاد الجزائر وتونس وليبيا.

معنى هذا أن الفكرة الوطنية أو الفكرة القومية كانت خافتة جدا إلى أواخر القرن الماضى فى كل هذه البلاد، والجماعة الدينية هى المسيطرة على الناس من بداية العصور الإسلامية، وهم يجتمعون فى إطار الدولة الدينية أو فى إطار الرابطة الدينية، ومن أواسط القرن الماضى ظهرت الفكرة القومية، وقد كان لدى الفكرة القومية مشكلة قريبة جداً من مشكلة الفكرة الاشتراكية، هى: أنه إذا كانت الأفكار الاشتراكية قد جاءت عن طريق الأجانب إلى مصر وأيضا كان الأجانب هم أول أو من تبناها فى مصر بالإضافة إلى أبناء الطبقات الغنية الذين كانوا يتعلمون فى المدارس الأجنبية، فقد حدث شيء قريب من هذه الفكرة القومية العربية.

فقد ظهرت فكرة القومية العربية فى بلاد الشام نتيجة للصراعات الدموية العنيفة التى دارت بين المسيحيين والأتراك فى بلاد الشام.

ويدخل فى هذا تفاصيل كثيرة منها نتائج سياسة ابراهيم باشا فى الشام لأنه اعتمد فكرة المساواة بين الطوائف المختلفة، وأعطى المسيحيين فى الشام حقوقا لم يكن الأتراك يعطونها لهم من قبل، ثم بعد ذلك ما حدث من نتائج وجود الإرساليات التبشيرية والمدارس المختلفة مثل المدرسة الأميركية التى أصبحت الجامعة الأميركية فى بيروت وهكذا.

....

فكرة القومية العربية أو الوحدة العربية نشأت رداً على الأتراك من الحساب. فبداية كان الرد العكسى للفكرة العثمانية هو انفصال المسيحيين نهائيا

ومطالبتهم بدولة مسيحية، وهذا هو ما تحقق فى لبنان، فقد رفض المسيحيون اللبنانيون ـ وبالذات الموارنة ـ فكرة القومية، ولكن هم بانفسهم فى القرن ١٩ رفعوا شعار القومية العربية باعتبار أن هذا شعار جامع، يحقق للعرب استقلالهم الذاتى على الأقل، وهو ما سمى باللامركزية أيامها، ويسمح للعرب باستعادة السعى من أجل إنشاء ثقافتهم القومية الخاصة واستعادة مجدهم القديم.

....

وأيضا نقلت الفكرة القومية دعما فكريا من أوروبا، فالقرن ١٩ ـ أيضا ـ كان قرن الوحدات الأوروبية العظيمة (الوحدة الايطالية) و (الوحدة الألمانية).. هذا بالإضافة إلى فكرة الدولة القومية، وفكرة الدولة القومية ظهرت نتيجة لثورة ١٧٨٩ فى فرنسا.

وقد كانت التأثيرات الأوروبية واضحة فى الفكرة القومية العربية فى عنصر العودة إلى ما قبل الإسلام، أو فى استقاء العروبة مما قبل الإسلام، باعتبار أن ما قبل الإسلام مشترك، أما الثقافة العربية الإسلامية فهى خاصة بالمسلمين.

لذلك كان هناك تركيز وتأكيد على الشعر الجاهلى ـ مثلا ـ وعلى الفضائل العربية البدوية قبل الإسلام، أى قبل إنشاء الدولة وقبل إنشاء الأمصار، وهذا يتفق مع الأفكار القومية الألمانية، فالألمان ـ مثلا عادوا إلى ما قبل المسيحية، وحركة الوحدة الألمانية، كانت مرتبطة أشد الارتباط بحركة جمع التراث الألمانى الشفاهى الفلكلورى.

ومن هنا ظلت فكرة القومية العربية محدودة، حتى أتيح لها أن ترتبط بالحركة الوطنية.

الحركة الوطنية ـ بالتحديد ـ ضد المستعمرين الأوروبيين الذين لم يستطع

الأتراك أن يتصدوا لهم. ولكن فكرة الثورة على الأتراك أنفسهم أخذت تلقى صدى واسعا عند العرب المسلمين.

ثم انضم الهاشميون إلى الوهابيين وحذوا حذوهم فى الثورة على الأتراك، بالإضافة إلى اليمنيين الذين كانوا ـ دائما ـ فى حرب وصراع مع الأتراك.

وهذه القوى ـ لاشك ـ استطاعت أن تمهد للثورة العربية الكبرى التى قادها الشريف حسين أو ـ بالأحرى ـ ابنه الأمير فيصل الذى أصبح فيما بعد ملكا على الدولة العربية فى سوريا ثم فى العراق.

لكن الهاشميين أرادوا أن ينفصلوا عن الأتراك بمعنى أن ينشئوا قومية عربية إسلامية، وطبعاً هذه المحاولة لم تنجح، حيث من المعروف أن الوعود التى قدمها الانجليز للهاشميين لم يفوا بها، واقتطعوا فلسطين وأعطوها للصهيونيين، وكانوا قد اتفقوا مع الفرنسيين على إعطائهم لبنان وسوريا ـ كما هو معروف ـ فى سايكس بيكو.

وهنا اكتفى الهاشميون بالعراق وشرق الأردن والتاريخ معروف فى هذه المسألة.. ولكن من المهم الإشارة إلى هذه البيانات.

فبعد انهيار الأتراك فى الحرب الأولى، ثم بعد ذلك القضاء على الخلافة نفسها عام ١٩٢٤ على يد أتاتورك، انقسمت الولايات العربية القديمة إلى قسمين:

قسم يتحدث عن الوطنية والمطالبة بالاستقلال عن الأجانب ويضم دول المشرق (السوريون والمصريون والسودانيون والعراقيون والفلسطينيون).

وقسم آخر فى المغرب العربى، وكان أفراده يتحدثون عن الإسلام، لأن القوميات والوطنيات المحلية فى المغرب والجزائر لم تكن موجودة كما كانت فكرة الرابطة الإسلامية موجودة.

وهذا هو الطور الثانى الذى مرت به الفكرة القومية.

الفكرة القومية ـ إذن ـ أصبحت متضمنة فى فكرة الرابطة الإسلامية. يعنى الاخوان المسلمين ـ مثلا ـ يتكلمون عن الرابطة العربية فى إطار إسلامى، ولكن حزب الوفد يتكلم عن الوطنية المصرية!

والجزائريون ـ مثلا ـ يتكلمون عن الجزائر الإسلامية التى يمكن أنها ولو فى إطار اصلاحى، تعطى الجزائريين نوعا من الاستقلال الذاتى فى إطار فرنسا، أو أنها تفصلهم نهائيا، وتحقق استقلالهم عن فرنسا، ولكن ـ أيضا ـ على أساس إسلامى.

لكن الصراع مع الاستعمار استطاع أن يفرز أسبابا ومعطيات تجعل فكرة الرابطة القومية ملحة للغاية وخاصة أن هذا كله نشأ نتيجة استعمار الصهيونيين لفلسطين بالإضافة إلى أن الوطنيات المحلية ـ أيضا ـ كانت قد مهدت الطريق لفكرة رابطة تجمع بين العرب بصرف النظر عن انتماءاتهم الدينية المختلفة.

وفى الحقيقة يبدو أن فكرة العودة إلى دولة دينية شبيهة بما كان موجودا فى زمن العثمانيين أصبحت مسألة بعيدة لا ينظر إليها بجد.

وقد حلت الرابطة القومية، محل الرابطة الإسلامية، لأن الرابطة القومية تقوم على أساس اجتماعى وليس على أساس دينى. ولم يعد هناك ـ الآن ـ فى العالم كله من يقبل فكرة إقامة دولة على أساس دينى إلا أمثال خومينى فى إيران والصهيونيين فى إسرائيل.

إذن الرابطة القومية العربية ـ فى الحقيقة ـ على عكس ما يشيع بعض الرجعيين ليست ضد الرابطة الإسلامية، بالعكس هى تضمنها، لأنه ـ بالطبع ـ معظم العرب فى الحقيقة مسلمون، بل نحن نعرف بعض الأقطـــار العربية لا يوجد فيها مسيحى واحد مثل ليبيا والمغرب العربى.

فعندما تتحدث عن رابطة عربية أو وحدة عربية فأنت فى الواقع تتحدث عن وحدة بين المسلمين العرب، بالإضافة ـ طبعا ـ إلى المسيحيين العرب الذين لهم ذات الحقوق وعليهم ذات الواجبات.

اختلطت ـ إذن ـ فى هذه المرحلة فى النصف الأول من القرن العشرين مسائل كثيرة.

كان هناك من يطالبون بوحدة إسلامية مثل الاخوان المسلمين، وكان هناك من يتحدثون عن وطنيات ضيقة جداً تستمد وجودها من التواريخ القديمة، كالذين كانوا يتحدثون عن الفرعونية فى مصر، والفينيقية فى لبنان والاشورية فى العراق والبربرية فى بلاد المغرب. وكان هناك من يتحدثون عن القومية العربية ـ لكن ـ أيضا ـ بتصورات متعددة، فقد نشأ البعثيون فى أوائل الأربعينات ثم أعقبهم القوميون العرب إلى غير ذلك.

إذن الفكرة القومية ـ كذلك ـ كانت مختلطة، وكان لها طابع رومانطيقى ناشئ، أولا من فكرة العودة إلى الماضى القديم، واستعادة المجد العربى، بالإضافة ـ أيضا ـ إلى ارتباط الفكر القومى العربى بالمفكرين القوميين الأوروبيين الذين هم بالطبع رومانطيقيون، لأن الفكرة القومية التى نشأت فى القرن ١٨ لابد أن تكون متأثرة جدا بالفكرة الرومانطيقية التى سادت ـ أيضا ـ فى الأدب بذات القرن.

وهذا كله لم يكن يصلح لمصر، المصريون لا يتحدثون، ولا يستجيبون لأفكار من هذا النوع.

المصريون ـ أولا ـ مجتمع راسخ وقديم ومكتف بنفسه، وصحيح أن مصر ـ أيضا ـ لهذه الأسباب نفسها، كانت مرتبطة أشد الارتباط بما حولها، لأنها مجتمع راسخ وقديم، ولها دولة قديمة بل امبراطورية قديمة، وكانت هى

محط الثقافات الأخرى من ناحية، ومصدراً لها من ناحية أخرى وعلاقتها بما حولها علاقة وثيقة طيلة الفترة الماضية وفى معظم الأحوال قوية.

فى زمن الامبراطورية القديمة التى استمرت من خروج الهكسوس من مصر فى حوالى القرن ١٥ ق. م.. إلى حوالى القرن السادس قبل الميلاد، كانت امبراطورية تضم النوبة وسوريا ولبنان وفلسطين.

ثم ـ بعد ذلك ـ بداية من ابن طولون إلى نهاية العصر المملوكى كانت مصر دائما هى العاصمة لدولة عربية إسلامية واسعة تضم مصر والسودان والحجاز واليمن أحيانا، وبلاد الشام، بالإضافة إلى صقلية وتونس أيام الفاطميين.

وحتى عندما كانت مصر ولاية مستعمرة فقد كانت مرتبطة بهذه البلاد، وكانت هناك امبراطورية واحدة تحكم الجميع أيام الاسكندر، وأيام الرومان وأيام البيزنطيين، وعندما دخل العرب وأيام العثمانيين، تاريخ المنطقة كله تاريخ واحد سواء مصر غالبة أو مغلوبة.

إذن فكرة الرابطة القومية التى تجمع بين المصريين وغيرهم من الشعوب العربية، هى فكرة صحيحة مائة فى المائة، سوى أن المصريين عندما يتمنون شعارا سياسيا فلابد أن هذا الشعار يمس حياتهم، فعندما تتحدث عن وحدة عربية لتحقيق المجد، فإن المصريين لا يأخذون المسألة باعتبار كبير!

ولكن عندما تتحدث عن وحدة عربية لتحقيق العدل والحرية وطرد الاستعمار تجدهم يتفقون فى هذا تماما.. وهذا ما تحقق فى زمن عبد الناصر.

ردى على سؤالك.. هو رد طويل اعترف بهذا.

ولكن أهمية الموضوع تدفع آلية، ففى الفترة السابقة على نظام عبد الناصر كانت فكرة القومية العربية فكرة خافتة فى مصر لأنها كانت متضمنة

من ناحية فى فكرة الرابطة الإسلامية، ومن ناحية أخرى لأن مصر فى ذلك الوقت كانت فى طور بناء دولتها المستقلة، وطرد الانجليز مما استغرقتها تماما.

وفى فترة عبد الناصر أصبحت القومية شعاراً رسميا فى الدولة، ولا شك أن جماهير المصريين عامة كجماهير العرب، كانوا ينتمون إلى هذه الفكرة، ولكن ينبغى أن نعترف كذلك أن هذا الانتماء كان له طابع سلبى، لأن الدولة لم تمكن جماهير الشعب من المشاركة سواء فى رفع هذا الشعار أو غيره من الشعارات لأنه لم تكن هناك أشكال كافية للعمل الجماهيرى.

*** كل سؤالى ينصب - مرة أخرى - بعد هذه الإجابة الهائلة، على حقيقة لماذا لا يبدو لهذا التيار القومى دور الآن؟**

** وصلنا إلى ١٩٦٧، وطبعا من الواضح أن ٦٧ كانت تاريخا فاصلا فى هذه المسألة، لأن التيار القومى العربى لم يتراجع فى مصر ـ فقط ـ بعد ١٩٦٧ ولكنه تراجع فى البلاد العربية.

فلاشك أن التيار القومى العربى ـ الآن ـ فى حالة انحسار، لا أحد يتحدث عن الوحدة العربية ليس ـ فقط ـ فى مصر، ولكن فى أى بلد عربى... غير كلام خفيف ولطيف نسمعه بين الحين والآخر ـ عن وحدة بين هذا البلد أو ذاك عن طريق اجتماع رؤساء يعلنون بعده إعلانا، وفى الصباح التالى يفكون هذا الاعلان! أصبحت الوحدة العربية هزاراً ومزاحاً.

وقد كان هذا الهزار مضحكا وظريفا فى البداية، ولكنه ـ الآن ـ أصبح مزاحا ثقيلا لأنه يعبث بأقداس الشعارات العربية.

الوحدة العربية موضوع مصيرى بالنسبة للعرب، حيث لا يمكن مواجهة العصر الحديث، عن عصر التكتلات الكبرى والتقدم الهائل، والوصول إلى القمر وغزو الفضاء بكيانات الفقر ومشكلة التنمية بدون عمل ضخم، ولا

يمكن التصدى لمشكلة الذوبان فى الثقافات الكبرى إلا ـ أيضا ـ عن طريق وحدة جامعة تقوى من شأن الثقافة العربية وتجعلها قادرة على مواجهة سياسة (الأمركة) و (التأمرك) السائدة فى العالم كله.

أطفالنا تتشكل عقولهم وفقا لما يرونه فى المسلسلات الأمريكية. ونحن لا نستطيع أن نتصدى لهذا كله بمفردنا، ولكن لابد من قيام كيان عربى متضامن وقادر على تنسيق نشاطه وعلمه ومواجهة المستقبل ووضع الخطط لذلك.

*** أنت تطرح المسألة وكأن ظهور التيار القومى ـ من البداية ـ على الساحة العربية، هو ظهور موسمى يرتبط بظواهر معينة تساعده، وأنا أفهم أن التيارات الفكرية والسياسية يجب أن تطمح لأن تقود الظروف، وليس أن تستسلم لأن تنقاد لها؟**

** أى تيار سياسى هو ـ من ناحية نتيجة لظروف ـ ومن ناحية أخرى هو موجه ومغير للظروف. وهناك مراحل صحة ومراحل مرض فى التيارات السياسية، مثل البشر الأفراد بالضبط.

فلا يتألق فكر التيار السياسى ولا يكون قادراً على العمل وهو مريض.

ونحن الآن نمر بمرحلة غير صحية، ليس فى مصر ـ فحسب ـ ولكن فى كل البلاد العربية الأخرى، لأنه ينبغى أن نعترف ـ كذلك ـ بشىء مهم وهو أنه منذ بدأنا هذا العصر الحديث من محمد على، وحتى الآن لم نستطع أن نسير فى طريق إلى نهايته، فدائما نقف، أو نتراجع بعض الشىء، ولذلك أصبحت حياتنا، يوم لك، ويوم عليك.

وعندما تنظر فى تاريخ أى بلد تجد أنه قطع مرحلة معينة وانتهى منها، وبدأ مرحلة جديدة، أما نحن فلا، بعد تراجع المشروع القومى العربى بقيادة عبد

الناصر، حدثت ظاهرة جديدة وهى المال والنفط، وقد كانت هذه القوة فى صراع مع المشروع القومى العربى وبعد ٦٧ اعتبرت أن هزيمة عبد الناصر ومشروعه القومى هو انتصار لها، ولتيارها الذى ساعدته الظروف أيضا أن يحتل المكان الأول فى توجيه الحياة العربية، فى المرحلة التى انقضت منا أوائل السبعينات حتى الآن، ولا شك أن هذا العامل أساسى فى عملية تراجع التيار القومى.

وهذا ليس مسألة موسمية، ولكن هناك صراعا ضخما وأطراف قوى متعددة هذا يتقدم، وذاك يتراجع، ولا يمكن لأى من الطرفين أن يحسم المعركة على كامل الرقعة العربية.

وبالتالى فقد ظلت هناك دائما جيوب ضد التيار القومى العربى، ولكن هذه الجيوب لم تعد مجرد جيوب معزولة كما كانت فى الخمسينات أو أواخر القرن الماضى، ولم تظل فى موقف الدفاع ولكنها تحولت للهجوم تساندها قوى كبرى وتساندها إمكاناتها أيضا!!

*** إذن التيار القومى العربى فى تراجع، ولكن مجموعات الناصريين المصريين مازالت تتبنى الفكرة وتحمل لواء الدعوة وتطرح هذا الفكر القومى العربى، وكأنه بديل لكل ما هو سائد فى الساحة.. وهذا واحد من العوامل الإيجابية.. ولكن لا بأس من التساؤل حول مدى استطاعة هذه الجماعات الناصرية بقدراتها الحركية والتنظيمية أن تحمل عبء مثل هذه الدعوة؟**

** أيضا فى هذا الأمر لابد أن نميز بين حاجة مصر إلى الناصرية وبين الناصريين أنفسهم: كما ميزنا بين حاجة مصر إلى يسار وبين يساريين انفسهم!

وأنا أقصد بالناصرية المشروع القومى العربى ولا أقصد الناصرية كما

طبقت لأننى لا أعتقد أن الناصرية كما طبقت هى صالحة مرة أخرى للتطبيق.

الناصرية قدمت تراثا ينبغى الاستفادة منه ولكن أيضا، يجب أخذ العبرة من أخطائه وسلبياته وعدم العودة إليها، فمن يتحدث الآن عن الناصرية بمعنى العودة إلى فكرة الحزب الواحد، واستبعاد الجماهير وتهميشها والتغير من فوق فإن ذلك كله لم يعد جائزا.

الناصرية ـ أيضا ـ بمعنى الدخول فى التجربة والخطأ بدون فكر هو أمر لم يعد جائزا. أصبح عندنا تجربة نستطيع أن نستخرج منها فكرا.. كما أن الناصرية عن طريق الانقلابات العسكرية لم تعد جائزة.. جوهر الناصرية فى نظرى هو التوجه الشعبى وهو الوحدة العربية، وهو ضرب الاستعمار نهائيا وبناء القوة المستقلة، وهو العمل الدولى على أساس هذا المفهوم القديم والعظيم «الحياد» الإيجابى بمعنى عمل دولى فعال، ولكن دون انتماء لأحد الكتلتين.

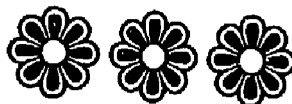
هذا هو جوهر الناصرية وعلى هذا الأساس ينبغى أن تعود الناصرية إلى الجماهير نفسها.

أما الناصريون المحترفون فمن حقهم دائما أن يطالبوا بتطبيق الناصرية، وأن يقدموا برامجهم وتجربتهم للجماهير، ولكن دون أن يظنوا أنهم المصدر الوحيد للتجربة.

ثم إننى أظن أن هؤلاء الناصريين ليسوا فريقا واحداً لأن الناصرية كانت حركة شعبية كاملة تجمع اليمين واليسار والشرق والغرب.. يعنى كانت شيئا شبيها بحزب المؤتمر الهندى أو حزب الوفد المصرى. شىء يجمع كل شىء.. أو حركة لكل الشعب، وهذا أيضا لم يعد جائزاً، ولكن لابد من لون من الفرز.

هى - ولا شك فى نظرى حركة معظم الجماهير، ولكن الجماهير هى التى لها الحق الأول الآن فى أن تتحدث عن الناصرية أو تتبناها.

سبتمبر ١٩٨٨



أحمد عباس صالح

حفل أغنيات حزينة تحت رعاية التاريخ المصرى!

* رأس المال شجع الاتجاهات الدينية والسلفية لأنها منحته غطاء بريئا وطهورا!!
* الطبقة صاحبة المصلحة فى الانفتاح كانت موجودة فى فترة حكم عبد الناصر!
* أهم ظواهر التركيبة السكنية أو الاجتماعية فى مصر الآن هى الصراع الدائر بين جهاز الدولة والطبقة الجديدة.
* الوجود المكثف للطبقة الجديدة ينحصر فى حزب العمل بصورته المعدلة!
* نسى الجميع فكرة العدل الاجتماعى فى الإسلام، واختزلوا دوره فى منح الشرعية لقوى الاستثمار والمال!
* انفجار سياسة أمريكا فى الوجود بكل ركن من أركان الكون!
* أعلى درجات سلم التثقيف فى التنظيمات الدينية تفرض مبدأ الطاعة، مما يجعل من الصعب أن يدرك الشباب المؤامرة المرتبة ضده والتى تستخدمه فى تحقيق نظام اجتماعى أشد قسوة وظلما مما يعيشه من أوضاع.

* الاتحاد السوفيتى لديه عجز يقدر بـ ١٦٠ ملياراً نتيجة تفوقع موسكو ونشرها الأشواك دفاعا عن الاشتراكية، وحركات التحرر!

* لغة اليوم هى أن المصالح تفرض الحلول، وليس الإيديولوجى، بل والمصالح هى التى تغير الإيديولوجى!

* حان الوقت للاعتراف بأن النظرية الماركسية لم تستوعب فى مصر بشكل جيد يسمح لمفسريها أن يفسروا الأشياء تفسيراً صحيحاً!

* التيار الاشتراكى الماركسى لم يستطع أن يكون تيارا شعبيا بالمعنى الحقيقى فى أى وقت من أوقات وجوده فى مصر!

* من البداية - وحتى الآن - تسود الفهلوة المصرية والرطانة سلوك الشيوعيين المصريين.

* دخول العناصر اليهودية فى نشأة الحركات اليسارية فى مصر كان أمرا غير مضبوط من الناحية الأخلاقية، ومن الناحية الفكرية.

* الاستسلاب هو السبب المباشر وراء التطرف!

* هناك إحياء ثقافى تقوم به وزارة الثقافة يجعلنى متفائلا.

* * *

** أحمد عباس صالح...

نعم.. هو واحد من الجيل الذى نقدر تماما أسباب حزنه، ناقد ثقافى واجتماعى عتيد غير قادر على ممارسة دوره المفترض أو المرتجى لفترة طويلة.

ووجد نفسه - كما وجد آخرون أنفسهم - جزءا من رحلة التيه الكبرى فى ربوع «الوطن الأكبر» ثم فى أوروبا!!

مجموعة فى جيل لم تتح له الظروف أن تقوم بمراجعات نقدية واجبة

لمعظم الخطوات التى بدأتها منذ رحلة التيه، فقد أصبحوا كراكبى الدراجات لا يستطيع أحدهم أن يتوقف عن التبديل، وإلا سقطت دراجته.

ومجموعة فى جيل لم تتح لها الظروف فرصة العودة الصحيحة للوطن لزمن طويل، كان الضغط فيه، وكان الرفض فيه، وكان العداء الصليبى غير مفهوم فيه ثلاثة عناصر تفرض الاستمرار فى رحلة التيه.

إلى أن بدأت مرحلة مصر الثمانينات لتفصح عن وجه أكثر إشراقا للوطن، وتطرح أولويات أكثر نبلا للعمل الوطنى، وتستشرف مع أبنائها ـ كل أبنائها ـ معالم طريق الخلاص الوطنى، وآفاق زاهية للمستقبل.

فكان على الجميع أن يعودوا، وكان على الوطن أن يضمد جراح أبنائه، وكان على أبنائه أن يضمدوا جراحه، كان يجب أن تعمل قوانين «التوازن الحيوى الطبيعى» فى الساحة السياسية، وأن تكون صورة مصر هى «صورة كل مصر» لا فضل لفصيل فيها على الآخر إلا بالانتماء والإخلاص وبذل العرق والدم من أجل «مصر» هذا «البلد» هذا «الشعب»!!

وفى ساحة هذا الحوار عاد أحمد عباس صالح يمارس وظيفته كناقد اجتماعى وثقافى عتيد، ولكنه لم يتخل بعد عن حزنه، فقد عاد ليجد أوضاعا رهيبة قد ترتبت، وقوى هائلة قد صاغت دورها فى حماية هذه الأوضاع، أشياء ضاعت وأشياء ظهرت، ومجتمع من أعلى السلم الاجتماعى فيه إلى أدناه يعيش حالة عجيبة ما بين رغبته الأكيدة فى التطهر السياسى والاقتصادى، وما بين رغبة فى القوى فى إغراقه فى مستنقع الحلول الفرديه وأفكار الخلاص الشخصى.

وهذه ـ بالطبع ـ ليست أفكارا لنا مع أو ضد الاقتصاد الحر فمن السخف فى عالم اليوم التحدث عن أفكار جديدة بهذا الشكل، ولكن أفكارنا هى عن

الشرف والإيثار والتضامن الاجتماعى أيا كان الطريق الذى يختاره الوطن نفسه.

بدأ أحمد عباس صالح كمنشد قديم يغنى أغنيات حزانى عن الطبقة الجديدة، وإدراكنا لما يحدث فى عالم اليوم وأزمة اليسار المصرى وغول التطرف الرهيب.

نعم كان حفل أغنيات حزينة ـ وليأذن قراؤنا ـ لم يكن تحت رعايتهم أو رعايتنا، ولكنه كان تحت رعاية التاريخ المصرى».

أغنية الطبقة الجديدة:

«التكنوقراط والبيروقراط

رباط العمر يجمعنا»!

*** أستاذ أحمد عباس صالح، نفس نقطة بدايتنا المزمنة سنبدأ بها معك، فهل تعتقد أن التعبيرات السياسية التى ظهرت لتمثل ذلك التغير الذى حدث فى التركيب الاقتصادى - الاجتماعى فى مصر من أواسط السبعينات، كانت تمثل - بالفعل شرائح هذا التركيب وطبقاته؟**

** سياسة الانفتاح الاقتصادى كانت بداية لتغيير شامل فى التركيبة الطبقية للمجتمع المصرى، ومن المؤكد أن هناك طبقة كانت وراء الانفتاح بل وبخاصة استمرار حكمه يعنى أن هناك شريحة اجتماعية كبيرة ومؤثرة موافقة على السياسة الاقتصادية الجديدة، وإلا لم تكن هذه السياسة لتنجح.

واعتقد أن هذه الطبقة صاحبة المصلحة فى سياسة الانفتاح كانت موجودة حتى فى فترة جمال عبد الناصر، والانقلاب الذى قامت به كان «مبيتا» من فترة طويلة، فكما تعلم هناك شرائح من البيروقراط والتكنوقراط فى جهاز الدولة، تراكم لديهم ـ لسبب أو لآخر ـ كم كبير من المدخرات،

وبالتالى كانوا أصحاب مصلحة فى تغيير النظام وإنشاء سياسة اقتصادية جديدة، تساعد على تنمية هذه المدخرات وتبيح أو تفتح الطريق أمام مزيد من المدخرات الأخرى، وبهذه الطريقة قوبل الانفتاح بموافقة من هذه الشريحة المؤثرة فى المجتمع المصرى، إلى جانب الطبقات الأخرى ـ بالطبع ـ التى كنا نسميها عناصر الثورة المضادة فى هذا الوقت من الملاك السابقين، ومن الطبقة الوسطى المصرية التى تعمل فى مجال القطاع الخاص، بل والكثير من المثقفين الذين كانوا يعبرون عن مصالح هذه الطبقة منذ فترة عبد الناصر، فالتغيير فى الواقع حدث نتيجة جذور قديمة وفى قلب جهاز الدولة نفسه، وقد أسمى بعض الناس هذه الطبقة «طفيلية»، إلا أنها فى النهاية كونت تراكما ماديا معتبرا، ثم بدأت التحرك لتقنين مصالحها فى النظام الداخلى المصرى، واعتقد أن هذه الطبقة هى التى شكلت حزب مصر، ثم شكلت بعد ذلك الحزب الوطنى، وستلاحظ باستمرار أن هذه الطبقة تتشكل من تحت عباءة الجهاز البيروقراطى.

وببركة حكومية سواء للقرابة، أو لأن أشخاصا ينتمون لهذا الجهاز الحكومى مارسوا ألوانا من الأنشطة الاقتصادية، فالسلطة الحكومية هى القادرة على منح التصريحات والتوكيلات للأنشطة غير الانتاجية التى تقوم على الاستيراد فى بلد أصبحت لديه مشاكل كبيرة حتى بالنسبة للغذاء.

وبالرغم من وجود ارتباط بين هذه الطبقة والجهاز الحكومى سواء كان بيروقراطيا أو تكنوقراطيا. إلا أن نمو الطبقة الجديدة واستقلالها أصبح يشكل عبئا على مجموعة البيروقراط والتكنوقراط.

والآن أرى أن أهم ظاهرة موجودة فى التركيبة السكانية أو التركيبة الاجتماعية فى مصر هى الصراع الدائر بين جهاز الدولة والطبقة الجديدة، فالطبقة الجديدة تريد حريات واسعة تتناسب مع أى تحرك ليبرالى فى تاريخ

الحركات الليبرالية فى العالم، والحكومة ممثلة فى أجهزتها البيروقراطية، تعتبر أنها صاحبة الوصاية على النظم الاقتصادية وعلى النشاط الاجتماعى والاقتصادى فى البلد، وهذا واضح فى قوانين الاستثمار المختلفة التى صدرت بخمسين شكلا، والتى أعتقد أنها مازالت تتطلب تغييراً جذرياً.

*** على هذا النحو الذى تطرح تكون الساحة المرشحة للتضاغط بين الطرفين «الطبقة الجديدة - والحكومة بأجهزتها البيروقراطية» هى الحزب الوطنى فقط؟**

** لا أستطيع أن أقول إن كل الطبقة الجديدة موجودة فى الحزب الوطنى، لكننى أقول إن غالبية هذه الشريحة طلعت من تحت عباءة الدولة.

ولكن أرجو ألا تنسى أن شرائح كبيرة من هؤلاء الذين خرجوا من تحت العباءة، كانوا من الذين هاجروا فى وقت مبكر نتيجة القوانين الاشتراكية مثل طبقة الملاك الإقطاعيين السابقين الذين استطاعوا أن يتعايشوا فى الخارج ويخرجوا معهم بعض أموالهم. ومعهم الطبقات الرأسمالية القديمة، وأضف إلى هؤلاء شريحة لها تأثير كبير من الناحية الفكرية وهى طبقة المدرسين والعاملين المصريين بالخارج، الذين استطاعوا أن يكونوا مدخرات كبيرة ذات وزن، فحتى الموظف الصغير الذى استطاع أن يدخر فى الخارج مبلغا مثل ٥٠ ألف دولار، أصبحت تحكمه تصورات معينة حتى لو كان مبلغه تافها، فهو يعتقد أن القوانين لابد وأن تسمح له باستثمار هذه الخمسين ألف دولار وحمايتها، وهذه الشريحة اتسعت جدا فأصبحت قاعدة عريضة للطبقة التى أسميناها فى هذا الوقت ـ بالجديدة، وقد انتشرت هذه الطبقة فى الحزب الوطنى وبعضها اتجه للوفد وبعضها اتجه للتجمع، لكن وجودها الأكثر كثافة كان فى حزب العمل.

*** لعل وجودها فى العمل يتسق جداً مع تلك الوثيقة الثابتة التى**

رفعتها الطبقة الجديدة، عندما كانت تمارس نشاطها الاقتصادى دائما متدثرة بغطاء وثير من الدين ؟

** التيار الدينى لاقى نجاحا، وأيضا اهتماما حتى فى الشريحة الموجودة فى الحزب الوطنى وحتى من العناصر المنفذة فى جهاز الدولة، فعندما حدث الانفتاح لم يستطع أن يظهر رأس المال، فرأس المال كان سيء السمعة، نتيجة ٢٠ عاما من الهجوم عليه، باعتباره ظاهرة استغلالية، وأيضا انتشار الفساد بشكل واسع بسببه بما يوجب تطهير صورة رأس المال سوى الدين، فالدين هو الذى يستطيع أن يعطى الشرعية لرأسمال، بحيث تنتفى الحاجة إلى الاستقصاء حول مصدر المال نفسه، هؤلاء يريدون رأس المال أن يصبح مصدر المال نفسه، أن يصبح محترما ولكن بسلطة الهيئة، واعتقد أن هذا هو السبب فى قيام رأس المال بتشجيع الحركات الدينية وتمويلها.

*** ولكن فلتسمح، فكما يكون الدين وسيلة لتطهير رأس المال، فمن الممكن أيضا أن يكون غطاء لتجمعات معاكسة، خاصة وأنت صاحب التعبير الشهير عن «اليمين واليسار فى الإسلام»، وبالعربى لم نجد وسط كل ما يحدث قوة إسلامية تتبنى المفاهيم الاجتماعية التى أدرك وأفهم أنها لب الدين نفسه ؟**

** هذه هى المشكلة، فشباب الجماعات الدينية ليس لديهم تصور طبقى واضح، ويجيء هذا الوضع من عملية تضليل شديدة، فأنت لا تستطيع أن تقول بوجود برنامج سياسى واضح لهذه الجماعات فقط كانت كل مهمتها هى أن تعطى الشرعية لرأس المال وفقا للميراث الإسلامى المعروف والموجود فى الدين نفسه.

الدين الإسلامى دين سوى، وله جانبه الاجتماعى، ومع ذلك فإن القوى الاقتصادية المصرية الكبرى تستفيد فقط من التيارات الدينية لإعطاء الشرعية

لرأس المال، وأنا أعتقد أنها تقوم بترويض الحركات الدينية، لأن الحركات الدينية - كما ذكرت - تشتمل على قوة يسار أو قوة معارضة، تبحث عن العدالة الاجتماعية، وإعادة بناء المجتمع على أسس سليمة ورفض الفساد، إلا أن القوى الكبرى تريد أن تحدد مفهومها الخاص للحركة الدينية، وهو مفهوم يتفق مع تأكيد شرعية الملكية الخاصة، وتأكيد الحفاظ على الحقوق التى تم الاستيلاء عليها، ثم ربط فكرة العدل الاجتماعى بالشيوعية أو الاشتراكية، واستخدام الدين لوصم الاشتراكية بأنها كفر وإلحاد، بحيث يصبح كل ما يتصل بالعدل الاجتماعى فى نظر أصحاب المصالح كفراً وإلحاداً ومرفوضاً.

وكما تعلمون فإن القاعدة الأساسية للجماعات والحركات الدينية هى الشباب المتعلم والعمال وهما فئتان مطحونتان، تعتقدان أن الدين فيه العدالة والمساواة وتطهير المجتمع.

*** أليس هذا مشهداً مثيراً، حين يسير هؤلاء الشباب والعمال وراء جماعات كل مهمتها - كما قلت حضرتك - هى إسباغ الشرعية والطهارة على رأس المال، بينما مصالح هؤلاء الشباب والعمال تتضاد وتتناقض بالضرورة مع مصالح وأهداف رأس المال هذا؟**

** المشكل يبدأ من أن هؤلاء الشباب ينضوون فى العمل السياسى بصيغة فاشستية وفوقية، تفرض أول ما تفرض فكرة الطاعة، وهذا موروث عن الاخوان المسلمين، ثم إن هذه الطاعة تستتبع اعتقاد العضو بأن رئيسه «سوبر» ومؤكد أنه يعلم، خاصة وأن لدينا وهما بأن الدين هو مجموعة من العلوم المستعصية تتفقه فيها القلة، ومن الأفضل أن يتبع المرء إماما ملما بهذه الأشياء، وبالتالى تنشأ الهيمنة على أفراد الجماعة، وهى هيمنة فوقية، وعلى هذا فمن الصعب أن يدرك الشباب المؤامرة المرتبة ضده، والتى تستخدمه فى تحقيق نظام اجتماعى أشد قسوة وأشد ظلما من الأوضاع الحالية الموجودة،

ولهذا فأنا غير متفائل بالنسبة لتيقظ الشباب أو من القيادة العليا، ولنأخذ مثلا المرشد «وأنا أقصد أى مرشد وليس بالضرورة مرشد الاخوان» أو فلنسمه الشخصية الكبرى التى يمكن أن يقال عنها الإمام أو الزعيم، يتصورون أنها الأكثر إلماما بالدين من أى شخص آخر، وبالتالى تتفرع عمليات الطاعة من هذه السلطة أو هذه الرئاسة، على الدرجات الأدنى حتى تصل للقاعدة الأولى.

والقاعدة العامة ـ كما ترون ـ تظل تتلقى التعليمات، وفهم الإسلام من هؤلاء القادة، وهؤلاء القادة من «فوق» إلى «تحت» فى صالح القاعدة الاستغلالية وليس العدل الإجتماعى.

أغنية الإصلاح

«التنظيم والهيمنة يمنعان الإصلاح»

*** فى هذه الحالة ربما قبل أن نناقش قضية التنظيم، يجب أن نناقش قضية الفكر، فلماذا لا نرى فى تيار فكرى كالتيار الإسلامى رموزاً إصلاحية، مثلما كنا نرى رموزاً إصلاحية إسلامية فيما مضى؟**

** لأن هذا التيار تقوده عملية منظمة، وقيادة عليا موجهة لا تهتم أبداً بهذه الميول الإصلاحية.

*** ولا استثناء واحدا؟**

** لم نرا!

*** أليست هذه ظاهرة تدعو للعجب؟**

** أبداً، فالتنظيم محكم، والظاهرة تدعو لأن نكتشف مدى إحكام هذا التنظيم، واشتماله ليس ـ فقط ـ على القواعد التنظيمية، ولكن حتى على أجهزة الاتصال الجماهيرى من مجلات وكتب، وهذه أمور شديدة الانضباط، بحيث لا يحدث ـ كما قلت فى ملاحظتك الذكية جدا ـ أن يظهر داخل

التيار الدينى جناح لليسار يتبنى مفهوم العدل الاجتماعى، وبحيث يصبح كل هذا التيار «يمين».

* **هذا السلوك هو نتيجة تنظيم من الداخل أو هيمنة من الخارج؟**

** اعتقد أن هناك هيمنة من الخارج لأنظمة لها تفسيراتها الخاصة بالإسلام وتعمل على إشاعتها كنوع من الحماية لها كنظم داخل بلادها، ومن ناحية أخرى فإن عصر تأثيرها الخطير على الأنظمة حولها، بما يجعل مصر هدفا رئيسياً للمحافظة على المصالح بالمنطقة، وليست إيران فقط على سبيل المثال هى التى تفعل هذا، ولكن التيار الدينى مستخدم أيضا ـ كما نعلم ـ فى أجهزة المخابرات الغربية من وقت مبكر، لأنه كان أسلوبا من أساليب المقاومة ضد الاشتراكية سواء التى كانت مطبقة فى فترة عبد الناصر، أو المحتمل تطبيقها بشكل أو بآخر، كتعبئة الناس أو تكوين أحلاف وفقا للاستراتيجية التى كانت قائمة وقتها وهى حصار الاتحاد السوفيتى وتصفيته وطبعا سوف تتغير هذه المسائل.

* **على أى نحو ستتغير؟**

** من المؤكد أن العالم يتغير بشكل كيفى الآن ليس نتيجة الفهم والتثقيف، وإنما نتيجة ظروف موضوعية تماما ومتصلة بالمصالح المباشرة للوطن.

استراتيجية الولايات المتحدة تغيرت تماما فى الأربعة عقود الماضية، بعدما انهكت أمريكا نفسها فى سياسة الأمن القومى التى دفعتها إلى مد ذراعها فى كل ركن من أركان الكون، مما أنهكها اقتصاديا لأنها وجهت النشاط الانتاجى كله إلى سباق التسلح.

وأضعف الاهتمام بالأبحاث فى تكنولوجيا السلع المدنية، ووضع عبئاً كبيراً جداً على الدولة فظهر العجز الكبير الذى ظل يتنامى فى ميزانية الدولة،

وكما تعلم فقد بدأ انفجار أزمة البورصة يوم الاثنين الأسود المشهور وساعتها تبين كل الناس أن هذه السياسة غير قادرة على الاستمرار ولابد من إيقافها فوراً وبناء على ذلك تولدت أو ظهرت الاستراتيجية المقابلة وهي:

١ ـ إن حصار الاتحاد السوفيتي تمهيداً لضربه هو الذى اقتضى كل هذه الأصابع الضخمة والأذرع الممتدة، والنفقات الباهظة فلابد ـ إذن ـ من تغيير هذه الاستراتيجية إلى استراتيجية تعايش.

٢ ـ إن الولايات المتحدة كانت تصرف على أمن أوروبا الحليفة أكثر مما تصرف أوروبا نفسها، وقد نتج عن هذا فوائض فى الاقتصاد الأوروبى ونمو ضخم جدا خصوصا فى اليابان وفرنسا، وحتى فى إيطاليا بينما ظهر العجز فى الميزان التجارى الأمريكى، فبدأت تتخلى عن الدفاع عن أوروبا وتبدأ التفكير بأن تتحمل أوروبا مصاريفها.

وفى المقابل، كان الوضع بالنسبة للاتحاد السوفيتى مماثلا وربما بدرجة أكبر، فروسيا دولة عظمى ومع ذلك فإن مستوى المعيشة فيها أقل من أقل الدول الأوروبية والسلع المتداولة أسوأ منها فى أية دولة أوروبية، وأيضا الضغط على الحريات الفردية فى المجتمع الاشتراكى شديد جدا بحجة المحافظة على الاشتراكية من المؤامرات المدبرة ضدها وأهم من كل هذا كانت حالة الجمود الاقتصادى وهى نتيجة أن الاقتصاد الروسى ظل مسخرا طوال الأربعة عقود للميزانية ـ أساساً ـ إلى مسألة التسليح، بما رفع الدين فى ميزانية الدولة إلى ما يزيد عن حجم دين الولايات المتحدة، المدنية بـ ١٥٠ مليار، أما الاتحاد السوفيتى فمدين بـ ١٦٠ مليارا، مع مراعاة أن دخل الولايات المتحدة الأمريكية أكبر من دخل الاتحاد السوفيتى.

كل هذا نتيجة تفكير الروس أن يتقوقعوا وينشرون أشواكهم فى كل مكان مثل القنفد دفاعا عن الاشتراكية، وبالتالى يمدون يد المساندة لحركات التحرير

العالمية الجديدة لأقوى تيار داخل الاتحاد السوفيتى. إذن هذه التحولات حتمية، وليس لها علاقة بالمعتقدات ولا بالايديولوجيات، ولكن سياساتها تفرضها الظروف الموضوعية ولهذا فلا رجعة فيها، وعلى العكس ستستمر، فقد كنا نتوقع أن تخفض الولايات المتحدة نسبة تسليحها خارج امريكا بنسبة ١٠٪ فإذا بها تعرض ٢٠٪ والآن نقرأ فى الصحف أن بعض مصانع السلاح أغلقت أبوابها، وستتسع هذه العملية بحيث يعود الاقتصاد إلى حدود الطاقة الموجودة فى الولايات المتحدة أو حدود الطاقة الموجودة فى الاتحاد السوفيتى، وحركات الثورات الاجتماعية ويساعدونها، وكل هذا انهك الاقتصاد السوفيتى إنهاكا خطيراً جداً، ومن هنا فلابد للطرفين أن يكتشفا طريقا لإنهاء هذا الوضع، فعلا أنهى، وعلى يد أقوى ممثلى النظام العالمى، ريجان فى أقصى اليمين ممثلا للولايات المتحدة وجورباتشوف التصعيد.

*** قبلها أسألك ،كيف نهندس هذا الطرح الممتاز على وضع التيارات السياسية المختلفة فى العالم الثالث أو فى بلد مثل مصر، دعنى أسألك أولا عن مدى إدراك هذه التيارات لهذا الذى يحدث؟**

** الإدراك فى مثل مجتمعاتنا يجيء متأخراً، فهذا الكلام الذى نتحدثه الآن متداول منذ سنة بشكل تفصيلى ودقيق فى الدراسات والكتب والمجلات الموجودة فى الولايات المتحدة، والموجودة بالاتحاد السوفيتى وأوروبا، والعالم مشغول بهذه القضية باعتبارها القضية الرئيسية.

الأربعة قرون الماضية، هى مرحلة، والمستقبل القادم هو مرحلة أخرى، ولكن للمرة الأولى يحدث وعى بقضية كونية مثل هذه فى العالم الثالث مبكراً، فقد لاحظت فى الصحف المصرية بالذات أن بعض الأقلام مدركة تماما للموضوع، ولكن الغالبية العظمى غير متبينة.

السياسيون مدركون للتغييرات ومتفهمون لما يحدث فى الخارج، وهم على

اتصال بمصادر المعرفة، ولكننى لا أستطيع أن أقول إن التغييرات الدولية مفهومة على نطاق شعبى أو حتى على نطاق المثقفين، ولذلك فإن الكتابة عن هذه التغيرات وتوضيحها هى مسألة ضرورية، المصالح هى التى تفرض الحلول فى عالم اليوم وليس الايديولوجية، بل إن المصالح تغير فى الايديولوجية، وهذا شئ طبيعى، فعلى سبيل الفرض ترى المجموعات الاشتراكية مفهوما معينا فى مصر للملكية الخاصة، لكن المصالح الجديدة من شأنها أن تغير هذه المفاهيم التقليدية فى الاتحاد السوفيتى، فما بالك بدولة من حجمنا، وما حدث فى مؤتمر القمة العربى الأخير هو اختفاء صراعات الايديولوجية، والتقاء المصالح المختلفة. منطقة الشرق الأوسط لم تكن يوما جزءاً من المنظومة الأمريكية، فطبيعة هذه المنطقة ومكانها ودورها يجعلها أقرب إلى فكرة الحياد الإيجابى، وتجد فيها الحركات الشعبية قوية وتاريخية بحيث تؤثر على أية سلطة حاكمة وتمنعها أن تكون جزءاً من منظومة سياسية بشكل واضح.

من الممكن أن تكون المنطقة ميالة إلى الولايات المتحدة نظاما أو ميالة إلى الاتحاد السوفيتى ولكنها ليست جزءا من هذه المنظومة أو تلك، ولهذا السبب أقول لك إن مؤتمر القمة العربى كان تعبيرا عن اختفاء استراتيجية الاستقطاب الدولية، ولهذا تساءلوا كيف أن الخلاف أو الصراع بين مصر وليبيا يتبخر فى خمس دقائق، وعندما نبحث فى الساعة لا نجد إلا الخلاف بين سوريا والعراق. أما الخلاف بين العراق وليبيا فقد تبخر فى ثوان بعد أن بدأ حادا، ويبقى الخلاف بين سوريا والعراق وهما بطبيعتهما حزب واحد وبينهما عداوة طويلة، وبطبيعة الحال يستغرق حلها وقتا، وليس لهذا الوضع علاقة بالاستقطاب الايديولوجى، أو حتى الاستقطاب السياسى.

وهكذا نرى كيف أن التغيير الرئيسى الذى يحدث فى المجتمع الدولى يفرض نفسه ـ الآن علينا سواء أدركناه أو لم ندركه... فهمناه أو لم نفهمه.

أغنية اليسار:

الخطأ وتبرير الخطأ

وتنظير الخطأ!

*** الأستاذ أحمد عباس صالح حينما كنا نتكلم عن فهم وإدراك التيارات السياسية والفكرية المختلفة فى مصر لهذا التغيير الذى يحدث فى العالم كنت أقصد على وجه التحديد مجموعة اليسار المصرى. فمجموعة اليسار - فى قطاع كبير منها - تقف عند مفاهيم الاشتراكية كما عرفها أهل القرن ١٩ كما تنظر باسترابة شديدة لما يحدث فى موسكو الآن، وينعكس هذا فى سلسلة من المناظرات والمناقشات العجيبة التى شهدت ساحة هذا الحوار بعضا منها والتى تفيد أن جزءاً كبيراً من مجموعة اليسار المصرى لا يريد أن يعترف بأمور أصبحت تنتمى إلى الأمر الواقع، أو حتى يدير صراعه معها على هذا الأساس؟**

** اليسار المصرى فى أزمة كبيرة منذ نشأ، وهذا الأمر لابد من الاعتراف به كما لابد من الإدراك أنك عندما تستقدم ثقافة أو نظرية جديدة فى العالم الخارجى فلابد أن يكون عندك القدرة على استيعابها استيعابا حقيقيا، وأنا أدعى أن النظرية الماركسية لم تستوعب بشكل جيد على الأقل، أو بشكل يسمح لمفسريها بأن يفسروا الأشياء تفسيراً صحيحاً.

ثم على الرغم من أن النظرية الماركسية هى نظرية واقعية أى تعتمد على دراسة وتحليل الواقع فإن اليسار المصرى لم يستطع أن يتوجه إلى الواقع إلا فى إطار المصطلحات المقترضة من أنظمة أخرى كما ظهر تناقض بين الماركسية، وبين الواقع الاجتماعى المصرى وسلسلة من الخطأ وتبرير الخطأ وتنظير الخطأ، وأشياء كلها فى الذهن، وليس لها وجود واقعى فى الساحة السياسية، وانتهى هذا إلى أن التيار الماركسى الاشتراكى لم يستطع أن يكون تياراً شعبياً بالمعنى

الحقيقى على الرغم من أن عناصره كانت من أفضل العناصر من الناحية الثقافية.

فحينما تدرس التيار الاشتراكى ستجد كتابا ومفكرين أساتذة ممتازين فى معلوماتهم، ولكن لم يكن له دور مباشر فى التغييرات التى حدثت فى مصر وربما كان أحد الأسباب الرئيسية لعدم شعبية التيار الماركسى عن الطبقات الاجتماعية القوية والمؤثرة والقادرة على التغيير لم تكن لتوافق على الفكر الاشتراكى.

ثم إن الماركسيين المصريين لم يدركوا ـ أيضا ـ أن قوة الطبقة ليست بعددها، إنما بأشياء كثيرة جداً وإن كلمة الطبقة العاملة فى مجتمع إقطاعى زراعى متخلف فى العالم الثالث، هى كلمة كبيرة وغير مناسبة للحجم الحقيقى الواقعى، وبالتالى فقد تعامل الماركسيون مع أضعف الطبقات الاجتماعية وأقلها قوة ولكنهم لم يكونوا بالكفاءة المناسبة ـ حتى ـ لينظموا مصالح الناس المنتمين لهذه الطبقة.

وفوق هذا فإن تلقينا للثقافة الماركسية كان تلقيا متعجلا، وكان فيه شىء من الفهلوة المصرية والرطانة، حتى سادت أخطاء كثيرة ناتجة من عدم الاستيعاب الصحيح، وعدم محاسبة الذات بشكل متواضع.

وكل هذه أسباب أثمرت الفشل الذى فشلته الحركة الماركسية فى مصر علاوة على عوامل أخرى يجب أن تضاف مثل تدخل الأجانب فى البدايات أولى للتنظيمات الاشتراكية «ليس فى العشرينات، ولكن فى الأربعينات» وهذه نقطة خلافية فهناك البعض يرون أن هذا شىء طبيعى، وآخرون يرون أن هذا أمر غير طبيعى، وبالطبع لا أريد التطرق إلى فكرة دخول العناصر اليهودية فى التنظيمات اليسارية لليهودية فى التنظيمات اليسارية فى بداياتها، فهذا أمر غير مضبوط من الناحية الأخلاقية، ومن الناحية الفكرية، فهو لا يتوافق تماما مع

استعداد الشعب المصرى، وربما يكون هؤلاء اليهود أدباء ولعبوا أدوارا عظيمة، ولكن كون هذا الاسهام فى التنظيمات الاشتراكية يتزامن مع نشوء الدولة الاسرائيلية، التى كان من قضاياها الرئيسية أو المحورية أو لعلها الأكثر محورية قضية تثقيف الناس بأن قيام اسرائيل شرعى أو ينبغى أن يكون قياما شرعيا. وهذا إذن عنصر إضافى من عناصر عزلة التيار الاشتراكى.

*** اعتقد أنه من الممكن أن نضيف لهذه المجموعات من العناصر عنصراً آخر، يتمثل فى أن اليسار المصرى ابتكر لنفسه صيغة فى الظهور السياسى فيما بعد إباحة تعدد الأحزاب فى ١١ نوفمبر ١٩٧٦، وهى صيغة التجمع، وطرح ـ ضمن ما طرح ـ أنه تشكيل ديمقراطى، وأن هذا التشكيل الديمقراطى يفترض توافقا فى أطروحة ما بين وجهات النظر المختلفة للتيارات العضوية فيه، سواء كانت قومية أو ناصرية أو ماركسية، وبالتالى أدى هذا الوضع إلى أن معظم ما يطرحه الحزب أصبحت باهتة، فحينما نقول إنه التيار الوحيد الذى كان مرشحا للتصدى للتشكيلات المتطرفة والسفلية نفاجأ بأنه يختزل مواجهته الفكرية إلى موقفين بالتحديد هما: أنه قال «لا» للإرهاب فيما بعد حادث الاغتيال السياسى فى المنصة. ثم إنه قال «لا» لشركات توظيف الأموال.**

ولا يحدثنا أحد عندئذ عن سعى جريدة التجمع «الأهالى» وقيادتها النشيطة إلى نشر فتاوى عبود الزمر فى شئون الطروح السياسية والحركية لبعض الفصائل على الساحة المصرية، وكأن التجمع وجريدته يسعيان إلى صك بركة يبرر اختيارا سياسيا يساريا وممن؟ من تنظيم الجهاد!!!) . ثم حينما كنا نتصور مواجهة فكرية مستديمة ومزمنة يمكن أن تقوم بين التجمع، وبين الوفد حول ثورة ٢٣ يوليو التى لا يفتأ التجمعيون سحب غطائها السياسى فوق رؤوسهم، لا نجد أى أثر لهذه المواجهة، ونجد «الأهالى» النشيطة فى عهودها المختلفة، تتكلم عن الالتقاء مع الوفد فى

قضية الحريات العامة، إذن فهذه السلسلة من المواءمات أدت إلى أن يكون فكر هذا الحزب الممثل لتيار اليسار فكراً باهتاً، وحينما نقول هذا «يزعل» علينا الرفاق قائلين أنتم تطعنوننا فى أعز ما نملك وهو «الديمقراطية» !!

** أنت شخصت الحالة بدقة ولا تحتاج إجابة؟!

* **ولكننى أريد إجابة؟**

** ينبغى أن نعترف أن التجمع قام بالاتفاق مع السلطة، وفى حدود ما تريده السلطة، وبالطبع فإن هذا غير مفروض «واقعيا» ولكنه كان المتاح، وأى مشتغل بالسياسة يعمل فى حدود الممكن، ولكن كما ذكرت فإنه طرح فكرة التجمع، التى فرضت عليه ألا يكون واضحا فى برنامجه السياسى من حيث تحديده لمن يخاطبهم!

مشكلة المثقفين أو غالبية المثقفين أن حلولهم للمشاكل تكون حلولا ذهنية، وهى حلول فى العقل، وليست حلولا ميدانية مبنية على دراسة واقعية، فنحن الآن نسمع المثقفين يتناقشون «هل يكون حل الأزمة الاقتصادية بفك القطاع العام أو بمزيد من التأميمات أو بالسيطرة على الأسعار؟» والقضية فى الواقع ليست كذلك، ولكن القضية هى كيف تتم العملية الانتاجية، وما هى القوى الاجتماعية القادرة على تنمية وتوسيع هذه العملية، ثم أنا ـ كيسارى ـ ارتبط بهذه القوى أم لا، وهل هناك قوة بديلة؟ وهل عندنا مشروع مختلف عما هو موجود، كل هذا غير حادث ولكن الحادث هو الحلول فى الذهن وليس فى الواقع، لهذا حينما تقرأ برنامج التجمع ستجده منطقيا فى أشياء كثيرة، ولكنك تجد شعورك تجاهه باهتها، وهذا ناتج من أن العملية السياسية نفسها لها جذور.

فالمجتمع المصرى منذ ٢٠٠ سنة «أى منذ قيام الثورة العرابية» يعيش مشهدا غريبا حين تريد الطبقة المستنيرة فيه الوصول إلى السلطة، وقد تم

ضربها فى ١٨٨١ ـ ١٨٨٢ وتجريدها من السلاح، وظلت مجموعة منها تنافق السلطة الانجليزية الحاكمة، أو تجرى لنيل رضاء القصر، ولكن القوى الاجتماعية أو الأجزاء السياسية داخل الطبقة كانت عنيدة، وأرادت أن تقوم بدور مستقل ونجحت وهى التى قامت بثورة ١٩١٩.

الطبقة المستنيرة هى الطبقة الوسطى، وهى تتشكل بأقنعة مختلفة، ففى الثورة العرابية، كان واضحا أنهم أصحاب المصالح من الضباط فى الجيش، أو المهندسين أو القضاة بالإضافة للذين استطاعوا تملك بعض الأراضى الزراعية، ويريدون المشاركة فى السلطة، ولذلك سعوا إلى الانتشار فى مراكز السلطة المختلفة من أيام الثورة العرابية وحتى ثورة ١٩١٩ التى أقرت مطلبهم فيما عرف بالكرسى ذى الثلاث أرجل «الانجليز ـ السراى ـ الطبقة الوسطى».

ثم ظهرت شريحة جديدة من الطبقة الوسطى تتمثل في المتعلمين الذين تخرجهم الجامعة التى أنشئت من ١٩٢٦، والمدارس العليا القديمة، وأولاد الملاك الصغار، وكل هؤلاء كانوا يخرجون، ويبحثون عن وظيفة فيجدون الخواجات قد احتلوها «حيث كان ٨٠٪ من الاقتصاد المصرى غير الزراعى فى يد الأجانب» ولذلك كنت أقول عن ثورة ٢٣ يوليو إنها ثورة الموظفين المصريين الذين يريدون احتلال وظائفهم فى البلد ويريدون إدارة اقتصادها، ولذلك فإن أول وأهم إجراءات الثورة هو التمصير، الذى كان يستهدف ملء الوظائف وعندما امتلأت الوظائف وبدأ أفراد هذه الطبقة يكسبون ويزاحمون رؤوس المال، صاح منهم صائح كفانا اشتراكية نريد أن نستثمر أموالنا فكان الانفتاح.

تاريخ مصر الحقيقى هو تاريخ الطبقة الوسطى المستنيرة، التى تريد أن تدير البلد لمصلحتها طبعا، وعندها نوع من الالتزام نحو باقى الطبقات وهى لم تتسلم السلطة كاملة إلى الآن، فقد تسلمت السلطة فى ثورة ٢٣ يوليو وبدأت

تدخل في حروب، وفي اعتبارها وفي ذهنها ما حدث للطبقات الأم الأولى سواء الموجودة في أيام عرابي أو الموجودة أيام ثورة ١٩١٩، ومازالت القضية كما هي حتى الآن: طبقة تقاتل بكل قواها من أجل الانفراد بالسلطة في يدها وإدارة البلد وفقا لمصالحها المباشرة، وهذه قضية مطروحة لابد أن يناقشها الفكر اليساري الاشتراكي بشكل جيد.

وأعتقد أن الخطوة القادمة في المجتمع المصري أن تدرك هذه الطبقة أن التيار المتطرف يمكن أن يدمرهم، ويقيم نظاما ديكتاتوريا وبوليسيا صعباً جداً.

ولكي تكون الطبقة الوسطى على قدر المواجهة، لابد أن يفهم أفرادها أو يتعلموا «حتى من خلال استثماراتهم في الخارج» أن رأس المال في الخارج ليس مطلق الحرية، ولكن تستقطع منه ضرائب، وتفرض عليه التزامات معينة، وهناك قوانين تحكم قاعدة التنافس فيه، وهناك التزامات نحو الخدمات الاجتماعية والعدالة الاجتماعية للطبقات الأخرى.

وفي اعتقادي أن هذه هي الصيغة التي ينبغي البحث عنها، وأنا لا أريد أن أقول إن كل الأحزاب لابد أن تفعل هذا، ولكني أقول إن هذا هو المحور والأحزاب تتكون معه أو ضده أو تأخذ هامشيا عليه، ولكنني - حتى الآن - أشعر أن هذا غير مفهوم أو غير واضح.

فأنا أحيانا أسأل نفسي، ماذا يفعل حزب الوفد؟ وما هو الفارق بين حزب الوفد وبين الحزب الوطني، وما هو الفرق بين حزب الأحرار والحزب الوطني. ربما كان الأكثر وضوحا هو صيغة حزب العمل الذين يريدون تمثيل التيار اليميني المتطرف، الذي يمكن أن يؤدي إلى حكم بوليسي شمولي في عصر تنتهي فيه الشمولية، مستخدمين السخط الاقتصادي، ومستخدمين ظروف التآمر المختلفة. والمتأمل لهذا الاتجاه لابد أن يتساءل ما الذي ساعد على استشراء التفكير الديني في مصر؟ وأرى أن السبب هو أن المجتمع المصري

وشبابه ـ بصفة خاصة ـ يشعر أنه مهزوم من كل الحقوق بل ومهان، وبعض الشباب الذى أراه لا يشعر بحريته أو بكيانه أو بحقوقه، وهو يعيش بشكل هامشي، ويعاقب لاتفه الأسباب، أو يتم تجاهله بحيث لا يكون له أى دور، «الاناليش» بكل ظواهره كمرض اجتماعى ينعكس تماما على الناس.

وحال الاستلاب هى الظرف الحقيقى الذى يعيشونه، وأحد الأسباب المعروفة ـ علميا ـ فى تجاوز الاستلاب هو الاتجاه إلى الدين، فهناك وسائل عديدة لتجاوز الاستلاب، منها أن يكون الشخص فردياً جداً، ومتمرداً يرتشى ويسرق ويزدرى، حين يطرده المجتمع، ويشعر بأنه ليس له قيمة، وأنه محتقر، وبالتالى فمن باب أولى أن يرد على المجتمع ويعتبره عدواً وتظهر كراهيته فى شكل الرشوة أو السرقة، وهذا شكل من أشكال الهروب، فالفساد السائد هو شكل من أشكال الهروب وتعويض الاستلاب، وهناك طريقة أخرى لمواجهة الاستلاب هو المخدرات، فحيث إن المجتمع يرفضنى، فلابد أن أغيب نفسى عنه بالمخدرات أو الخمر أو القمار.

ولكن أسهل عناصر مواجهة الاستلاب وأقلها مهاترة هى الاتجاه للدين. فالشخص الذى يريد أن يعالج إحساسه بالرؤية، وإحساسه باحتقار المجتمع له يسعى إلى الاتصال بالقوى الأعظم فى السماء، فوق كل هؤلاء الذين استلبوه، وهى أعظم بما لا يقاس، فإذا هو ارتبط بها وتعالى على الذين تجاهلوه وأصبح أقوى منهم لأنه مرتبط بالله نفسه سبحانه وتعالى، وبالتالى كلما أوغل فى التدين والتقرب إلى الله، أوغل فى الارتقاء والابتعاد عن هؤلاء الذين يتجاهلونه، وأهانوه وأذلوه، بالتالى فإن اللجوء إلى الله جاء لجوءاً طبيعياً.

ثم إن الدين الإسلامى له ميزات هامة فى هذا الاطار، فالطقوس فيه كثيرة، وعلى سبيل المثال الصلاة الجماعية وهى مناسبة تتكرر يوميا خمس مرات، بحيث يدخل الإنسان ليصلى وسط ٥٠٠ شخص وأحيانا ألف أو

ألفين، وهنا وحدتك أو فرديتك أمام الإذلال الذى يمارسه جهاز الإدارة تذوب وسط الناس، وتجعلك تشعر بقوة إضافية، ولذلك يلجأ الناس إلى المساجد، بدافع الترابط والانضمام إلى جماعة كبيرة يواجه الفرد بها الإحساس العقلى - حتى - بالإحباط، الناتج من الاستلاب الذى كنا نتكلم عنه. هذه الأسباب موجودة فى المجتمع، ولم يحاول أحد أن يزيلها، وعلاجها الوحيد هو الديمقراطية، والاعتراف بأن السيد الأعلى فى المجتمع المصرى هو الشعب، وأن كل ما يوجد فى القطر المصرى هو لخدمة هذا السيد، واحترامه وتقديسه والركوع عند أقدامه. المفروض أن تنتهى ظاهرة التدين المرضى، فهناك فارق بين التدين المرضى والتدين الحقيقى.

لابد أن ينتهى الهروب الفاسد فى شكل الرشوة والسرقة والعداوة الدفينة من أفراد المجتمع، ولابد أن تنتهى الانحرافات والمخدرات.

أغنية الثقافة:

محاطون بالأشواك..

ومحاطون بالأسلاك!

*** أستاذ أحمد.. لمست فيما لمست فكرة التثقيف للمجتمع، كيف عكست كل هذه التغييرات التى تكلمت عنها بإستفاضة نفسها فى ساحة الثقافة المصرية؟**

** الحديث عن الثقافة المصرية هو مشكلة، فقد ظل التيار الغالب فى الثقافة المصرية حتى وفاة جمال عبد الناصر هو الثقافة المهتمة بالمصالح الجماعية، ففى الأدب مثلا كانت الواقعية للاشتراكية كانت سائدة ومؤثرة وكذلك فى الفنون التشكيلية، إضافة إلى حركة جادة فى الموسيقى والمسرح وبرغم ذلك لم تأخذ الثقافة التى يمكن أن نسميها - مجازاً - بالتقدمية مجالها، ولم تعبر تعبيراً - مطلقا - لدرجة أن كثيراً من المسرحيات التى ظهرت

كانت مسرحيات رمزية تتعامل مع الواقع بالرمز، ولذلك سمى الدكتور لويس عوض هذا الاتجاه بالواقعية الرمزية، وبالطبع فإن هذه هى تسمية غريبة.

فالثقافة المصرية الناتجة من ثورة ٢٣ يوليو وإلى اليوم كانت ـ دائماً ـ محاطة بالأشواك أو بالأسلاك، ولم يتم فيها التعبير بشكل واضح ومباشر، ولذلك انتهت الحركة سريعا حتى إن الفترة الذهبية فى تاريخ المسرح المصرى امتدت لعشر سنوات فقط، وأجهضت كل الحركات الثقافية والفنية وتمت مقاومتها ليس فقط بوساطة الرقابة، ولكن ـ أيضا ـ بوساطة المصالح الأخرى التى كانت مسيطرة على الأجهزة.

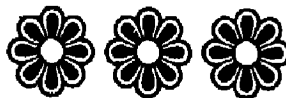
ففى مقابل المسرح الجاد مثلا ظهرت مسارح أخرى تقوم على الكم وليس الكيف، يعنى ترويجا لثقافة يمينية تحت شعارات مختلفة فى مواجهة الثقافة اليسارية أو الثقافة الديمقراطية التى كانت موجودة فى هذا الوقت، وقد بدأ هذا الارتباك يتحول إلى فوضى حقيقية فى الفترة ما بعد وفاة عبد الناصر، ففى هذه الفترة أغلقت كل المنابر التقدمية كمجلة الطليعة، ومجلة الكاتب ومجلة الفكر المعاصر، وهذا فقط عنوان أو إشارة لما حدث لسائر الأنشطة، انتهى مسرح الدولة (من القومى إلى الطليعة)، وحل محله المسرح الذى كانت نواته قد بدأت فى الظهور من خلال مسرح التليفزيون الذى ان قد ظهر كشكل من أشكال الصراع ضد التيارات الديمقراطية التى كانت موجودة فى المسرح، وامتدت هذه الأساليب إلى سائر الأنشطة الأخرى بما فيها الكتب، وذلك بعد سياسة الانفتاح الجديدة، ولذلك أقول إن المصالح ضيقة الأفق التى تأتى لتسلم سلطة تتسلم هذه السلطة بشكل إيديولوجى متعصب وفظيع، وهذا ضار بالمجتمع ككل، ويشمل كل أسلوب كل الاتجاهات، حيث لا أقصر جديتى على الاتجاهات اليمينية، فمن الممكن أن تأتى اتجاهات يسارية بضيق الأفق نفسه وتمارس إغلاق المنابر الثقافية والفنية، وهذه صفة تنتشر ـ للأسف ـ فى المجتمعات المتخلفة، ففى المجتمعات

المتحضرة توجد الصراعات والأفكار المختلفة، والصراع الاجتماعى، ولكن ليس لاجتثاث الجذور، أو العدوان على الثقافة بشكل عام، أما عندنا فيحدث عدوان على الثقافة، فبعد أن كان عندنا نهضة فى الباليه، ونهضة فى الفنون الشعبية، ونهضة فى الموسيقى ونهضة فى الأدب توقف كل هذا وحل محله الترهل والتفسخ الموجود، وفيما يبدو أن المجتمعات حينما تواجه هزيمة تلجأ لمعاقبة نفسها، وقد تعاقب نفسها بهذا اللون من الأغانى والموسيقى والانحلال، وحينما تنفك الروابط التى تربط المجتمع بقيم معينة إيجابية تنفك القيم، والفن هو قيم وتعامل مع القيم، وهذا ما حدث.

وليس معنى هذا أن التدهور شامل بدليل ظهور بقع ضوء يمثلها إنتاج جيد جداً، فمن الأشياء المثيرة للدهشة ظهور كتاب الدكتور شكرى عياد عن تنظيم للأدب، وهو كتاب عظيم ما كان يمكن أن يصدر من ٢٠ سنة لأنه يحتاج لنضوج فكرى واجتماعى معين، ومن هنا فأنا لست من أنصار الذين يقولون إن المجتمع تدهور بدليل ظهور هذه الإسهامات المتألقة، ولكننى من أنصار القول بأن التعبير عن المجتمع هو الذى تدهور بدليل اقتصار هذه الإسهامات على حالات محدودة.

والإنصاف يقتضى إن أقول أن هناك تحسنا، وإن الصراعات الإيديولوجية والحمق الإيديولوجى بدآ يخسران وأرصد الآن صعودا لحركة الثقافة المصرية، وهناك نزعة جيدة فى وزارة الثقافة بالنسبة لحركة الفنون التشكيلية والمسرح، وهناك إحياء ثقافى جاد بالفعل، وهذا يعطينا إحساسا بأن الاتجاهات الثقافية الجادة فى مصر لم تنته، ولكنها منعت أو تم تحجيمها، وبمجرد رفع الحدود عنها ستتغير، وأنا متفائل.. متفائل على الرغم من كل هذه الأغنيات الحزينة.

يوليو ١٩٨٩



مجلس أمناء مركز ابن خلدون

ابن خلدون : سمي المركز على اسم المفكر العربي الكبير عبد الرحمن ابن خلدون ، ولد في أول رمضان سنة ٧٢٢ هجرية الموافق ٢٣ مايو ١٣٣٢ ميلادية ، وهو المؤسس الحقيقي للعلوم الاجتماعية العربية ، فقد خدم في عدد من البلدان العربية (تونس والمغرب والأندلس ومصر والحجاز والشام) مما أتاح لهذا المفكر النابغة أن يجمع بين النظرية والتطبيق على نحو خلاق غير مسبوق ، وتجلى ذلك في كتابه الشهير « المقدمة » الذي يعتبر أهم مؤلف اجتماعي عن المجتمع والدولة في العصور الوسطى الإسلامية .


مطابع
ت : ٩٣٢٧٠٦

اليمين واليسار (الجزء الثانى)



هذا الكتاب يحتوي بين دفتيه جزءًا أساسيًا من مشروع الحوار الكبير الذي بدأه د. عمرو عبد السميع منذ ست سنوات ، والذي نشرته مجموعة من الصحف والمجلات المصرية والعربية مع عدد من المفكرين والسياسيين والأدباء والصحفيين .

أهمية وسيط الحوار في هذا الكتاب أنه يرسم صورة دقيقة لتضاريس وتخوم العقل المصري ، باتجاهاته الفكرية المختلفة ، وانتماءاته السياسية المتنوعة ، في مرحلة من أكبر مراحل التحول المحلي، والإقليمي، والدولي وأكثرها درامية .

وأهمية وسيط الحوار في هذا الكتاب أنه يتيح فرصة نادرة لاكتشاف جوانب اللقاء والالتقاء القومي العام ، وسط مناخ اعتاد فيه الجميع ممارسة نفي الآخر ، ورفض التعرف على الأبجديات الفكرية والسياسية لكل طرف ، إستسهالاً لوضع المخاصمة والصراع ، وإحجامًا عن السير في الدروب الصعبة للحوار بما تتطلبه من صبر وبما تستلزمه من معرفة .

وأهمية وسيط الحوار في هذا الكتاب - أخيرًا - أنه يطرح نفسه ليس بوصفه الوسيط الأمثل وإنما بوصفه الوسيط الباقي في ساحات الإحتراب الفكري والسياسي المصرية ، كما يطرح نفسه بوصفه الوسيلة الإنسانية العبقرية لخلق الصلة ، وتوليد الأفكار والبحث عن الحقيقة ، وتبادل الخبرات ، ونشر الثقافة - وقبل هذا كله - الحفاظ على حيوية العقل فرديًا كان أو جماعيًا .

والكتاب - في هذا الإطار - محاولة هامة .

ومشروع د . عمرو عبد السميع للحوار - في هذا السياق - محاولة دءوب .

محاولة تسعى لبلوغ غاياتها .. ولو على آخر دقيقة .. ولو على آخر نفس !

